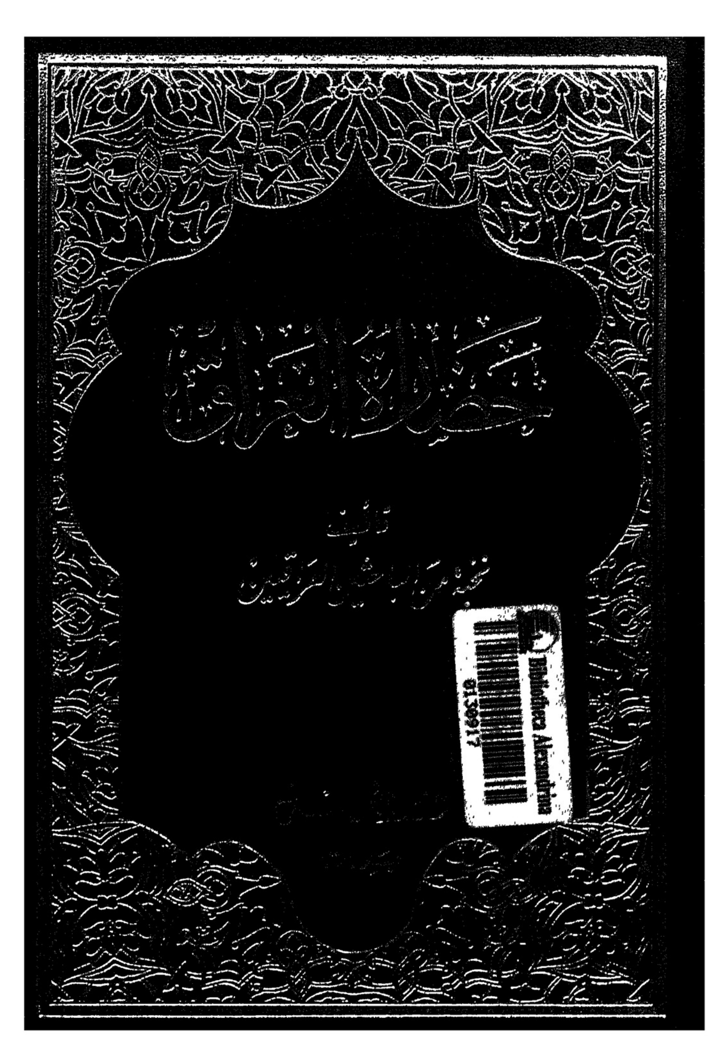


تأليف


حضارة العراق



تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الخامس

بغداد ١٩٨٥

العصور العربية الإسلامية

(١)

التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية

الفصل الأول

العراق عند مجئ الاسلام

د. نزار الحديثي

عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

الاحتلال الفارسي للعراق

نجح الفرس الاخمينيون في احتلال العراق لاول مرة سنة ٥٣٩ ق • م وكان واضحا انهم دخلوه جيشا محتلا ونجحوا في احتوائه عسكريا غير انهم لم ينجحوا في احتوائه حضاريا فقد بقي العراق اقليما متميزا ضمن الامبراطورية الفارسية ولم ينسحب عليه نظام الادارة الذي تعارف عليه الفرس (نظام البيوتات السبع) وبقيت المدن الكبيرة في العراق تشكل مراكز ادارية لوحدات ادارية كبيرة ، كما ان نظامه الاجتماعي (اقتصاديا بشكل خاص) بقي قائما على الاسس التي ورثها الفرس عن الدولة البابلية وبأستثناء تغييرات طفيفة في الشكل الخارجي للتنظيمات (اسماء المدن) واعطاء دور لليهود فالنظام بقي محافظا على جوهره ، ولم يتغير الوضع عندما نقل الفرثيون مقر الحكم الى المدائن • ولاعتبارات تتعلق بأستمرار الاحتلال فقدلجأ الفرس

الى الحد من استمرار الهجرة العربية الى العراق وفي هذا المجال تشير الروايات التاريخية الى سلسلة من المسالح اقيمت على تخوم العراق مع الجزيرة العربية من هيت الى البصرة مثل سفوان والخريبة والعذيب وعين التمر وقديس ، وحتى هذا الاجراء يعبر عن جهود ليس بمقدورنا تقدير مدى نجاحها في هذا الجانب غير أن هدفها هو قطع تواصل العرب في العراق والجزيرة العربية الذي يبدو انه شكل تهديدا مباشرا للسيطرة الفارسية في العراق وانه لابد ان يكون اجراء لاحقا لحالة تدفق شهده العراق، والراجح ان حملة سابور ذي الاكتاف نفسه على القبائل العربية كانت تهدف الى تشتيتها ومنعها من الاستقرار وامتلاك عوامل القوة ومن ثم اعادة توزيعها لابقاء مواقعها تحت سيطرة الفرس .

لوتصفحنا تاريخ العراق تحت الاحتلال الفارسي نجد انه لايخلو من دور عربي فبين سقوط الامبراطورية الاخمينية وقيام الدولة الفرثية استطاع عرب العراق ان يقيموا دولة كرخ ميسان التي استمرت من (٢٢٥ ق . م الى ٢٢٠ م) تقريبا وشملت جنوب العراق من الكوت حتى الخليج الى نهر دجيل (الكارون) وفي زمن مقارب نشأت مدينة الحضر في شمال العراق التي ازدهرت في منتصف القرن الاول ق . م واستمرت حتى سقوطها على يد الملك الفارسي سابور الاول ٢٣١م . وشهد القرن الثالث الميلادي نشوء امارة عربية جديدة في الحيرة استمرت حتى مقتل النعمان بن المنذر ومجيء الاسلام في القرن السابع الميلادي .

لم يكن ظهور هذه الدول محض صدفة انما هو نوع من نشوء مستوطنات واسعة ارتكزت اساسا على انتشار بشري واسع اعطى مرونة كافية لتأسيس هذه الدول ولابد انه توافق مع القلق والاضطراب الذي اتسمت به المنطقة بحكم الصراع اليوناني ـ

الاخميني اولا ثم الروماني ـ الساساني ثانيا . والواقع ان تاريخ المنطقة يكشف عن اندفاع قوي لقبائل عربية متعددة من جزيرة العرب باتجاه بلاد الشام والعراق خاصة اعالي دجلة والفرات عقب سقوط الدولة الاشورية حتى ان المنطقة عرفت ببلاد (عربايا) . وتشير الروايات التاريخية الى صراع السلطة الاحتلالية الدائم في العراق مع القبائل العربية وتكشف عن سياسة فارسية كانت تهدف الى اعادة توزيع العرب في العراق وتحديد انتشارهم الجغرافي بشكل لايهدد السيطرة الفارسية ، واحدث الروايات عن هذه السياسة تتحدث عن الجهود التي بذلها الفرس لاخراج قبيلة أياد من تكريت واقصاء آل المنذر من الحيرة ودفع بني شيبان عن السواد .

انتشار العرب في العراق قبيل الاسلام

ومع ذلك فالروايات التاريخية تشير الى انتشار واسع للقبائل العربية في العراق ، واشهر هذه القبائل :

١ ـ قضاعة ، نزلوا الحيرة يقودهم مالك بن نصر بن زهير وهم الذين حاربوا سابور الاول في العراق فلما غلبهم رحلوا عن الحيرة وسكنوا الحضر . وبقي قسم منهم في بادية السماوة ومنهم بنو تزيد بن حلوان بن عمران بن الحاف نزلوا ارض الجزيرة وحاربوا الاعاجم وكانت الغلبة لهم فاستقروا بها وكانت لهم حروب مع سابور ذي الاكتاف .

٢ ـ قنص بن معد ، اتجهوا الى سواد العراق وسكنوا الانبار والحيرة حتى مجيء الاسلام .

٣ ـ اياد ، نزلت في سواد الحيرة في سنداد وكان لهم فيها بيت يعرف بذي الكعبات وكانت لها حروب مع الفرس وانتصرت عليهم في معارك عديدة خاصة معركة دير الجماجم وقد استمر الصراع بينها وبين الفرس وانتقل

قسم منها الى الفرات وخالطوا ارض الجزيرة فنزل بعضهم في تكريت والموصل فانتشروا فيها وفي زمن انوشروان وقعت بينهم وبينه حروب فأخرجهم من تكريت فانتشروا في الجزيرة،وقد بقي قسم منهم فيالحيرة حتى مجيء الاسلام .

٤ ــ عبد القيس ، نزل منهم بنوشن بن اقصى اسفل العراق .

٥ ــ بكر بن وائل ، انتشرت ومعها عنزة وضبيعة فيما بين الابلة (البصرة) وهيت وانحاز بنو النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات ولما جاء الاسلام كانت بكر تنتشر حول البصرة منهم بنو سدوس وفي السماوة عجل ، وفيما بين السماوة والمذار والحيرة كانت شيبان وبنو حنظلة من بكر بن وائل في الاهوار وكانت لبكر حروب مع الفرس ابرزها ذي قار حيث اتصل قتالهم للفرس الى مجيء الاسلام .

٦ ــ ويشار الى انتشار قبيلة ربيعة في المنطقة الواقعة غرب دجلة من الموصل الى نصيبين والخابور قبل الاسلام .

٧ ــ وامتد انتشار بكر بن وائل الى منابع دجلة شمالا وحتى تل فافان حيث ينحدر دجلة جنوبا .

٨ ــ وانتشرت مضر في الاراضي الواقعة بمحاذاة الفرات من سميساط الى عانة حول الفرات ورافده (بليخ) .

والاراضي الاخيرة التي انتشرت فيها ربيعة وبكر ومضر قبل الاسلام اصبحت تعرف في الاسلام بالجزيرة نتيجة للاعتبارات الادارية التي املاها وضع الدولة الاسلامية .

٩ ــ يشار الى انتشار بعض الازد في الاحواز وسكنت معها ايضا بطون من كلب وحنظلة وتميم عرفوا ببني العم واستمروا فيها حتى مجيء الاسلام وكانت لهم حروب مع الفرس آخرها التقى مع جهود المسلمين عندما تقدموا لتحرير الاحواز .

موقف عرب العراق من الاحتلال الفارسي

لم يكن العراق تحت الاحتلال الفارسي يعيش وضعا مستكينا كما قد تتصور ، على العكس فمنذ الايام الاولى للاحتلال عبر العراقيون عن رفضهم له عندما ثارت مدينة بابل مؤكدة فشل رهان كورش على احتوائها ، ومنذ ذلك الوقت كانت الثورات المستمرة سمة اساسية طوال العهد الاخميني ، وتحت الاحتلال الفرثي ايضا ، ولعل نجاح العرب في تأسيس امارة كرخ ميسان تعبير عن تلك الحالة ومما عزز هذه الحالة استمرار تدفق عرب شبه الجزيرة نحو العراق ، خاصة الانتشار الواسع للازد • وبالرغم من ان تحديدا دقيقا لم يتوفر لحد الان الا انه من الواضح قد تم في بداية عصر الدولة الساسانية وان نتائجه التي ظهرت ايام سابور ذي الاكتاف في القرن الرابع الميلادي في شكل تهديد للسيطرة الفارسية دفعته الى القيام بحملة لابادة العرب وتشتيتهم في العراق فاشتبك مع اياد وبكر وقضاعة ، ولم يكتف بذلك انما هاجم شرق الجزيرة العربية عندما اكتشف انه مصدر الحراك البشري الذي يغذي العراق • واستمر الصراع بين العرب والفرس واذا كانت امارة الحيرة تمثل شكلا من أشكال الصراع السياسي فان ذلك لم يمنع تطور جوهر الصراع الى نوع من التحسس القومي في ايام النعمان بن المنذر وعندما اكتشف الفرس ان النعمان ذهب بعيدا في تحسسه القومي الى الحد الذي بدأ يجمع العرب ويوعيهم ويسوق عوامل التقائهم ضد السيطرة الفارسية قاموا بقتل النعمان غير ان مقتله فتح سجل الكفاح فوقعت معركة ذي قار في زمن معاصر لظهور دعوة الرسول (ص) في مكة وكان انتصار العرب في ذي قار بداية لنشاط بؤر ثورية عديدة فاستمرت شيبان بقيادة المثنى بن حارثة تقاتل الفرس في منطقة الحيرة الى السماوة الى المذار وكسكر وظهر قطبة بن قتادة السدوسي في الابلة (البصرة)

ومذعور العجلي في بادية السماوة وبنو العم في الاحواز ومع اننا لا نملك معلومات كثيرة عن هذه الاحداث غير ان استمرارها الى الاسلام والتقاء جهودها مع جهود المسلمين تعني انها ترتكز الى موقف ارادي هيأ لها فرص الامـداد والحركة من الناحية العسكرية فجيش المثنى بلغ اربعة الاف مقاتل وهو رقم ضخم ليس من السهل تصور الكيفية التي كان يحصل بها على امداداته دون وجود قاعدة بشرية واقتصادية تعيش حالة ارادية ، وتمده باحتياجاته .

ولم يكن الصراع عسكريا حسب وفي تقديرنا ان الجانب العسكري ارتكز على موقف فكري أدى الى حالة وعي قومي ثم عبر عن نفسه بالقتال . والاشارات التي تتحدث عن عهد النعمان وتحسس العرب للعنصرية الفارسية وتشكيل موقف ثقافي عربي ضدها تعطي انطباعا عن هذا الوعي يضاف الى ذلك تحسس الكنيسة النسطورية ايضا حتى ان يشوعياب الجاثليق كان يراسل الرسول (ص) ويرسل له هدايا ويكتب الى كنائس نسطورية في فارس يشرح لها الفرق بين الاسلام الذي جاء به العرب وبين الفرس الثنويين أي انه مارس التحريض ، ولذلك جاء موقف النصارى العرب في العراق متوافقا مع النهوض العربي فشاركوا في الحروب مـع العرب المسلمين وهم نصارى (حميـة لقومهم) وقدموا لهم تسهيلات ليس من السهل تقدير قيمتها .

تحرير العراق

عندما كان المسلمون يحفرون الخندق للدفاع عن المدينة ضد هجوم قريش والقبائل المتحالفة معها سنة ٥هـ/٦٢٦م، بشرهم الرسول (ص) بأنهم سوف يقتحمون القصر الابيض بالمدائن ، وبقتل كسرى بعده .

ومنذ ذلك الوقت اصبح واضحا ان الجهاد الذي يخوضه المسلمون يهدف لتحقيق شعار الرسول (ص) : (قولوا لااله الاالله تفلحو وتملكـوا بها العرب وتذل لكم العجم) . غير انه لم يكن واضحا بعد كيف سيتم

التعامل مع هذا الهدف فحتى ذلك الوقت لم تكن المسألة مطروحة كاحدى الاولويات الملحة ، ولكن بعد تحرير مكة قام الرسول (ص) بارسال الرسل الى ملوك العالم خاصة الفرس والروم ممن يمارسون احتلال الوطن العربي ويقودون دولا تتناقض مع المبادىء الانسانية الاساسية التي نشرها الاسلام، وكان موقف الملك الفارسي يعبر عن عنجهية عنصرية ، تـرى العالم وكأنه يصنع لها او من قبلها ، فكان تمزيقه كتاب الرسول (ص) اضافة الى مدلولاته اللاحضارية واللااخلاقية يعني ان الفرس اتخذوا موقف المجابهة مع الاسلام، ويعني ايضا ان الصورة التي سوف يتم التعامل معها مـع العراق اصبحت واضحة وانها اضافة الى كل هذا تمتلك تراكما في العواطف القومية والتاريخية بدءا من معركة ذي قار التي قال عنها الرسول (ص) عندما ماسمع بنبأ انتصار العرب على الفرس : (هذا اول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا) . وقد كانت أنباء هذه العواطف والتطورات قد وصلت الـى العراق ودفعت القادة العراقيين الذين اخذوا يناجزون الفرس الى التوجه الى جزيرة العرب لمعرفة مايحدث فيها عن قرب وتبادل الرأي والمشورة .

ومع ان هذه الانتصارات جاءت متأخرة فلم يلتق اولئك القادة بالرسول (ص) الا انهم قابلوا خلفاءه من بعده فقد قصد المثنى بـن حارثة الشيباني المدينة في زمن ابي بكر وراسل قطبة بن قتادة السدوسي ابا بكر ، وارسـل يشوعياب الجاثليق النسـطوري هدايا الى الرسـول (ص) مع اسـقف ميسان .

ساهمت هذه الاحداث مجتمعة في توجه العرب المسلمين لتحرير العراق. فما ان اكمل الخليفة ابو بكر تثبيت السلطة السياسية بالقضاء على المرتدين في جزيرة العرب حتى وجه الجهد العسكري نحو العراق فوجه جرير بن عبد الله البجلي ثم وجه بعد ذلك خالد بن الوليد وهكذا التقت جهود عرب العراق وعرب الجزيرة لتحرير العراق ولـم يتحدد دور العراقيين بقوات قطبة او

المثنى انما كانوا عيون الجيش العربي وكانوا يسهلون له التجارة والتزود بالمؤن . وفي معركة البويب قاتل انس بن هـلال النمري في اناس مـن نصارى نمر مع المثنى وقدم ابن مردى الفهري التغلبي في نصارى تغلب وقالوا (نقاتل مع قومنا).

مر الجهد العسكري العربي لتحرير العراق بالمراحل التالية :

اولا ـ مرحلة الجهـود المحلية وهي المرحلة التي بـدأت بمعركة ذي قار واستمرت حتى مجيء الجيش العربي الاسلامي سنة ١٣هـ/٦٣٤م وشهدت جهودا عسكرية لعرب العراق غطت معظم جهاته ففي المنطقة بين الحيرة والمذار (قرب الكوت) كان المثنى بن حارثة الشيباني يمارس عملياته العسكرية وكان مذعور العجلي في بادية السـماوة وقطبة بن قتادة السدوسي في الابلة (البصرة) وغالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي من بني العم في الاحواز ، ومع ان هذه الجهود كانت محدودة الاثر الا ان استمرارها لحين تقدم خالد وجرير كان ايجابيا فقد شكلت قوات فعلية او قوات استطلاع ، وقدرت الروايات التاريخية حجم القوة العراقية بحدود اربعة الاف مقاتل ممن كانوا مـع المثنى وألفين مـن طـي وقضاعة .

ثانيا ـ مرحلة الجهود العربية الاسلامية وهي المرحلة التي بدأت بدخول جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن الوليد وعتبة بن غزوان الى العراق والتقائهم مع القادة العراقيين وبدء التنسيق للجهد العسكري غربي الفرات والذي بموجبه اصبحت البصرة والسماوة والحـيرة والانبار مناطق محـررة .

ثالثا ـ مرحلة التحرر الشامل وهي المرحلة التي بدأت بتوجيه سعد بـن ابي وقاص سنة ١٤هـ/٦٣٥م الى العراق على رأس جيش من الجزيرة مهمته

حسم الموقف على جبهة العراق • وقد اختار القائد سعد استدراج الفرس الى حافة البادية حيث دارت معركة القادسية على مدى اربعة ايام بدءاً من يوم الاثنين ٦ محرم ولغاية الخميس ٩ محرم سنة ١٥ هـ المصادف (١٩ ــ ٢٢ شباط ٦٣٦م) • واحرز فيها العرب انتصارا خالدا على الفرس ادى الى استئصال قوتهم العسكرية فانسحبوا من العراق ودخل المسلمون المدائن •

انسحب الفرس الى جلولاء واتخذ الجهد العسكري العربي في هذه المرحلة ثلاثة اتجاهات ، الاول كان شبه مستقل يدور حول منطقة البصرة والاحواز بقيادة ابي موسى الاشعري ، والثاني اتخذ خط التتبع للفرس بقيادة هاشم بن عتبة في اثني عشر الف مقاتل هزم الفرس في جلولاء وفرض عليهم الانسحاب ثم هزمهم في حلوان وفرض عليهم الانسحاب الى نهاوند • والثالث بقيادة عبد الله بن المعتم في أربعة الاف مقاتل الى تكريت والموصل ، وقد تفرع عن هذا الاتجاه اتجاه رابع من الموصل بقيادة عتبة بن فرقد السلمي نحو شهرزور والجبال ، وقد انجزت هذه الجهود مهماتها في الزمن الواقع بين سنة ١٥هـ / ٦٣٦ وسنة ٢١هـ / ٦٤١م وأدت الى تحرير العراق وتنظيم استقرار العرب فيه فانشئت معسكرات البصرة والكوفة غير ان هذا لم يحسم نهائيا امر الفرس الذين واصلو الحشد في منطقة نهاوند وفي سنة عشرين هجرية /٦٤٠م كانت توجيهات الخليفة لقواده توحي بأن المعركة الحاسمة قريبة وفي مقدمة هذه التوجيهات :

اولا ــ توجيه قادة حرب الاحواز وقواد حرب فارس ممن ينشطون بين فارس والاحواز لتركيز عملياتهم العسكرية على تخوم فارس ومشاغلة الفرس وتشتيت جهودهم وقطع اتصالهم بمنطقة نهاوند •

ثانيا ــ نقل بعض قادة الاحواز الى تخوم اصفهان لقطع امداد اهل فارس والالتحاق بالنعمان بن مقرن وتعزيز قوته •

ثالثا ـ نقل بعض قادة الاحواز الى تخوم اصفهان لقطع امداد اهل فارس عـن نهاونـد •

رابعا ـ تهيئة قوة عسكرية من اهل المدينة والحاقها بجيش النعمان بن مقـرن •

خامسا ـ توجيه قوة امداد من الكوفة الى نهاوند •

سادسا ـ توجيه قوة امداد من البصرة الى نهاوند•

سابعا ـ توجيه عتبة بن فرقد للسيطرة على ما حول شهرزور •

وفي يومي الاربعاء والخميس دارت معركة حامية هزم فيها الفرس في ساحة المعركة فتحصنوا في القلعة وفي يوم الجمعة دخل المسلمون القلعة وانتهت معركة نهاوند بانتصـار العرب انتصارا ساحقا اسقط الى الابـد اسطورة الدولة الفارسية المحتلة •

استقرار العَرب فى العراق

في سنة ١٤هـ / ٦٣٥م و ١٦هـ / ٦٣٧م أقام العرب المسلمون في العراق معسكرين لهما في البصرة والكوفة خاصة بعد حسم المعركة مع الفرس فاستقر الجنـد وعوائلهم فيهما وكانت الصورة الاولى للاستقرار في المعسكرين هي استخدام الخيم وبيوت السعف والقصب وبقيت كذلك فترة طويلة غير أن اكمال تحرير العراق في معركة نهاوند سنة ٢١هـ /٦٤١م وتنظيم الديـوان وادارة المعسكرين وانتقال الجهد العسكري الى شرق جبال زاجروس حولت الاستقرار في المعسكرين الى صيغة اكثر ثباتا وكان طبيعيا ان تظهر البيوت الثابتة بدلا من البيوت المؤقتة ، فأبتنوا اولا باللبن في عهد المغيرة بن شـعبة فلما تولى زياد ابن ابيه ولاية الكوفة بنى الناس بالآجر ، وكان ذلك بدايـة ظهور الطابع العمراني وتحول المعسكرين الى مدينتين •

وهكذا لم تمنع الاعتبارات العسكرية في نشـــأة المدينتين تطورهما عمرانيا حتى مع استمرار الوظيفة العسكرية ، واصبحت المدينتان مصرين ومركزين اداريين تقاسما النفوذ الاداري والعسكري فيالعراق والمشرق وفي ٦٤هـ/٦٨٣م تم جمع العراق والمشرق للحجاج بن يوسف الثقفي فبادر الى بناء مدينة واسط وهكذا قادت الاعتبارات الادارية الجديدة الى ظهور مدينة ثالثة وافي سنة ١٣١ هـ/٧٤٨ م قادت الاعتبارات السياسية الجديدة (انتقال الخلافة الى العراق) الى بناء مدينة بغــداد .

لقد لعبت هذه المدن وحسب ظهورها دورا حضاريا واجتماعيا اضافة لكل وظائفها الاخرى بعد تجاوز صيغة التنظيم على اساس القبيلة بالتنظيم على أساس الكفاءة البشرية واعتبارات الامن ونستطيع استكشاف هذا الدور في حالتي الكوفة والبصرة ومن هذه المدن بدأ اختلاط العرب المحررين بالعرب المحررين ومع اننا لا نملك وضوحا لهذه الصيغة كما في حالة الفسطاط مثلا الا اننا نمتلك بعض الروايات في هذا المجال ، والواقع ان حالة الاستقبال القومي الذي اظهره عرب العراق للعرب المحررين شكلت البداية الايجابيــة السليمة للاختلاط فقد كانعرب العراق يقومون بتسهيل اتجار المسلمين وتهيئة السلع وتنشيط التبادل . غير اننا نجد في نص يورده ياقــوت صورة بـــدء امتزاج العربالمحررين بسكان العراق شبيهة بما تمفي الفسطاط.يذكر ياقوت صحاري الكوفة (صحراء بني اسد، وصحراء بني عامر وصحراء بني يشكر ، وصحراء الاهالة ، وصحراء عكل ، وصحراء ام سلمة) ثم يقول:(وبالكوفةعدة مواضع تعرف بالصحراء كما ان في البصرة عدة مواضع تعرف بالجفر والمعنى واحد) وفي نصوص اخرى يذكر ياقوت ان هذه الصحاري كانت مواضع ماء وزرع عملت في الاسلام هذا يعني ان عرب الكوفة والبصرة بدأوا يمدون الرقعة التي يتحرك فيها نشاطهم الاجتماعي وكان لابد ان يترتب على هــذا الاتساع اختلاط وانتشار مهد لاحقا لظهور القرى في البداية على دائرة حول

الكوفة بدأت تتسع باتساع دور اهل الكوفة في الزراعة ، وفي البصرة كان شق الترع والانهار التي توصل المياه الى الاراضي تعبيرا عن انتشار اهل البصرة جغرافيا . وعندما نشأت واسط فيما بعد اتصلت القرى التي شكلت صورة جغرافية لانتشار العرب حول الكوفة بالقرى التي شكلت صورة انتشار اهل البصرة وكان هناك استقرار وانتشار جغرافي حول المدائن وتكريت والموصل وحلوان .

عزز هذا الانتشار القاعدة الاجتماعية الجديدة في العراق وبحكم علاقات المصاهرة والاشكال الاجتماعية للاختلاط عززت القاعدة البشرية وهيئت ارضية النشاط الحضاري .

الاسلام المتغير الحضاري في القرن الاول الهجري

لم يكن مجيء الاسلام حدثا تقليديا في عصره لسببين اساسيين هما طبيعة الاسلام نفسه ، دينا ذا نظرة ثورية شاملة للحياة ، حضاريا واجتماعيا، وطبيعة العصر حيث وصل التدني في العلاقات الانسانية حدا اصبح لاينفع معه الا التغيير الجذري واعادة بناء علاقات انسانية على اسس جديدة . لذلك لم يكن الاسلام دينا للوعظ والارشاد انما كان دينا تحويليا ، والزمن الذي استغرقه الرسول القائد (ص) في مكة في التبشير لم يكن الا لضرورة بناء نموذج الانسان الجديد الذي ينسجم مع الحياة الجديدة كما يراها الاسلام ، وبمجرد ان اصبح هذا النموذج كاملا انتقل الرسول (ص) الى بناء الجماعة المؤمنة .

غير ان الاسلام لم يطرح نفسه منقطعا عما حوله او ما سبقه وانما على العكس نلاحظ القرآن الكريم أشر مستويين من العلاقة مع الزمن ، مرحلة الخلق (آدم) ومرحلة العقيدة النضالية (ابراهيم الخليل) فهو اذن ابن

تسلسل في الزمن التأريخي وابن التطور في التمدن الاجتماعي في احد ابرز مكونات (الدين) ولكنه قبل ذلك ابن العصر ، والبعد المعاصر في الاسلام يعبر عنه القرآن الكريم في الحوار الشامل والواسع التفاصيل مع الحياة العربية قبل الاسلام ، وهذا المستوى من الشمولية يرتبط بشمولية هـي شكل النظرة الى الكون ودور الرصد والحوار العقلي في توسيع مدارك الناس واثراء الخبرة البشرية ، وهي نظرة صحيح ان لها بعدها التأريخي في الماضي غير انها تواكب التقدم فهي الى امام تنتهي بالحياة الاخرى . لذلك لم يكن الاسلام مجرد دين انما حقبة حضارية جديدة تأتي وفق نمط ارسي تاريخيا يحمل معه نظرته الى الاشياء وفلسفته في الابداع ، بـدأت بايقاظ الانسان عن طريق تثوير وعيه ، وتنمية ذوقه وبناء اخلاقه وتكوين حسـه المرهـف ثم اعادت تركيب وتنظيم الظروف الموضوعية المحيطة بالانسان . وفي سبيل تحقيق ذلك هيأ الاسلام عوامل عدة لعبت دورها متغيرات حضارية في صنع الحضارة الجديدة ، ابرزها في سياق بحثنا :

١ ـ الموقف الفكري الجديـد .

٢ ـ التمدن الاجتماعـي .

٣ ـ المبادىء المركزية للعبادة .

٤ ـ مؤسسة الدولـة .

الموقف الفكري الجديد

وضع الاسلام الانسان العربي امام موقف فكري جديد تجاوز بـه التفاصيل الصغيرة والجزئية التي كانت تشغل الانسان وهي تفاصيل مستمدة من طبيعة الحياة التي كان الانسان العربي يعيشها ، (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفـع

الناس وماانزل الله من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) وبقي الخطاب القرآني يؤكد هذا الموقف وفي سياق ذلك نجد العديد من الآيات التي تتعلق بمفردات تدعو الى العلم والتعليم والعقل والفكر بلغت (٨٠٣) آيات ، وابرز مايميز هذه الآيات ان الدعوة الى العلم والتعلم والتفكير وكيفية استخدام العقل اقترنت بسمة حركية من خلال اقتران هذه التوجيهات بالعمل ، وعدم الاتكال على الصدفة في تأمين الحياة اليومية وما يترتب على ذلك من تطوير البيئة الاجتماعية وتطوير وسائل المعاش من اجل خلق حياة افضل . وتأتي هذه الدعوة ضمن مناخ عام هو الايمان بالله الواحد فهو الثابت المطلق في الكون وعنده تبدأ وتنتهي كل الاشياء ، فالدعوة الى التعلم اذن لم تكن دعوة مجردة انما تفرضها مقتضيات الايمان بالتوحيد وبالمستوى الجديد الذي يمثله الاسلام في مسير التوحيد وضرورة بناء الانسان الجديد . كل هذه الضرورات تأتي وفق منهج جديد في الفكر والتفكير والعمل والسلوك اذ ان هذه الدعوة تؤشر مرحلة حضارية جديدة بدل حضارة قائمة .

التمدن الاجتماعي

فرض الرسول (ص) على كل مسلم في أي مكان كان وضمن اية ظروف ان يلتحق به في المدينة . فالمجتمع الذي يناضل لبنائه ليس خاصا بالمدينة . انه المجتمع العربي عندما تتحقق الوحدة العربية ، لذلك فأنه يريد للعرب من مختلف مناطق وطنهم انْ يعيشوا التجربة الجديدة وان يتحمل كل منهم دوره في البناء الجديد وان يعيشوا المعاناة الجديدة .

انه اشترط على من يسلم الهجرة الى المدينة لان الهجرة اصبحت شرطا اساسيا للايمان (ان الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في

سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) . فكـان (ص) اذا امر اميرا على جيش او سرية اوصاه (اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث خصال ، فايتهن اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهـم ، ادعهم الى الاسلام فأن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واخبرهم انهم ان فعلو فان لهم ماللمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان أبوا أن يتحولوا فاخبرهم انهم يكونون كاعراب المسلمين) . كانت دوافع الرسول (ص) في الالحاح على هجرة من يسلـم متعددة غير ان اهمها يتعلق برغبتـه في ان يعيش المسلم في مجتمـع المدينة ويتطبع به ، فهو مجتمع الامة الذي يناضل من اجله ، والاجدر ان يعيشه من الان ، فالمسلم عندما يهاجر تنقطع صلته بعشيرته انقطاعا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا وقانونيا واقتصاديا ، ومثل هذا الانفصال الظرفي ضروري للانفصال السلوكي بل انه هو الذي يتيح للمسلم ان يكون مؤمنا في جوهره وسلوكه العام ، أي يصبح عضوا في المجتمع الجديد كذلك تعني ان المسلم لم ينفصل عن دين الجاهلية فقط انما عن الحياة الدنيا بكل مساوئها (المهاجر من امتي من هجر السوء) وانه مستعد لان يضحي ليس فقط بعلاقـته باهلـه وبعشيرته انما مستعد ان يضحي ايضا برغباته الخاصة وبما في الحياة الدنيا من زخرف ومظاهر مغرية ويرضى بعيشة النضال والكفاف والاستعداد للموت « يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفـر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون ، قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » ، وقـد

استحق المهاجرون رضا الله ورسوله (ص) . (الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون) .

ان التركيز على الهجرة اتاح للمؤمنين التمدن والاستقرار في ظل عقيدة جديدة فهو ليس عملية توطن تقليدية انما توطن على اسس حضارية جديدة تتشكل في ظل توجيهات مركزية لذلك اقترنت الدعوة الى التمدن بالهجوم على الاعرابية (التبدى) (الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدرالا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم) .

(قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) . لذلك التزم المسلمون بالتمدن والاستقرار في المدينة واعتبروه مرادفا للايمان بينما تساوى في نظرهم الكفر والبداوة فحذروا من التبدى . وكانوا يحرصون على العودة الى المدينة اذا اضطروا للتواجد في البادية مخافة الاعرابية .

اقترنت الدعوة الى التمدن بالجهاد فاصبح هناك نوعان من التلازم بين الهدف الديني والتربوى للجهاد وبين تعميم ظاهرة التمدن الجديد ، اى رفد الحقبة الحضارية الجديدة بمادة بشرية مستمرة تضمن الحفاظ على حركية التمدن واحتواء الناس في عملية تهذيب اجتماعي ذوقي وثقافي وسلوكي ونرى قيمة هذا التلازم في طبيعة الامصار العربية الاولى (البصرة ، الكوفة ، الفسطاط) التي رغم الضرورات العسكرية لانشائها كمعسكرات فانها سرعان ما اصبحت مراكز تمدن اجتماعي وحركة فكرية ونشاط حضارى ارتكزت عليها حقبة كاملة رغم ان هذه الامصار تخلت عن دورها في زمن لاحق لمراكز جديدة (بغداد) .

المبادىء المركزية للعبادة

شكلت المبادىء المركزية للعبادة (الصلاة والحج) بشكل خاص جزء من المتغير الحضارى الذي مثله الاسلام ليس فقط فيما تفرضه من تنظيم للوقت وسيطرة على النفس وقدرة على التحمل انما ايضا من حيث ضرورة العمران فالصلاة اوجدت المسجد وهو ظاهرة عمرانية حضارية بحكم دوره الاجتماعي تمحورت حولها الحياة الجديدة فأصبح مركزا للحياة الاجتماعية والفكرية وعامل وحدة ومدرسة ثورية يتلقى فيها الناس التربية الجديدة وتمحورت حوله المدينة فكان هدا حافزا لاعادة تخطيط المدينة بشكل ينسجم مع دور المسجد في الحياة اليومية والعامة .

ويمكننا تتبع التغيير الذي ادخلته العبادة الجديدة من تحوير للبيت ووظيفته الاجتماعية بشكل ينسجم مع العقيدة الجديدة فالفرق كبير بين ديانة لاطقوس فيها يعيش فيها الانسان مع ربه في دار واحدة لايمتد اثر الرب بعيدا داخل الدار او خارجه ولا يشغل الا حيزا جغرافيا ضيقا محدودا بحدود (الصنم) ، وبين ديانة لها طقوسها الشخصية والعامة يتوقع فيها الانسان وجود الله في كل جوانب البيت ففرض عليه ذلك نظاما في الطهارة وتكييف استخدامات الدار لتنسجم مع هذا المبدأ وفرض الحج اعادة النظر بتخطيط الطرق بحيث تتجه جميعا الى مكة حيث الكعبة وما يستلزم ذلك من محطات استراحة ونوم ومراكز امنية ومراكز خدمات وماتتج عن ذلك من اعمار للبيئة اوسع عما كان سابقا ، عدا عن اثره في تعزيز مبدأ الوحدة بشكل عام .

مؤسسة الدولة

ان ابرز المتغيرات الحضارية بحكم دوره في تنظيم وقيادة الجهد الابداعي واقرار التخطيط الاجتماعي، هو مؤسسة الدولة، ففضلاعن الطابع الحضاري في تشكيلها (السلطة ومؤسساتها) فالدولة تعنى الفرصة الاكفأ في ادارة تنظيم

المجتمع وتطوير صيغ التخصص الاجتماعي وترتيب اولويات المرحلة وتنظيم الجهد المبذول لتنفيذها • وهي في صيغتها النهائية التعبير عن الحركة المادية للامة وهي ايضا صورة قدرتها على التنظيم والتشريع واعطاء المبادىء صورة واقعية وبناء المؤسسات التي تتكفل بتنفيذ المبادى • ولو تتبعنا تأريخ الدولة لامكننا ملاحظة الكيفية التي تم بواسطتها تأسيس الدولة، والفلسفة التي اطرت تعاملها مع الظروف ومع المهام المناطة بها ومع التجمعات السكانية العربيـة التي احتوتها والفلسفة التي تعاملت بها مع السكان وبالتالي صورة تحديـد دور العرب العالمي •

لقد ترافقت اتجاهات التمدن والتحرر والوحدة مع اتجاهات نمو العقيدة الجديدة التي تؤطرها ومع توجهات بناء دولة العقيدة وجاء هذا متوافقا في الزمن والحركة مع الدور العالمي للمجتمع الجديد • ومثل هذا الاداء المتوازن هو الذي جعل المجتمع المحارب الذي اسسه الرسول (ص) واكمله صحابته لاينسى كونـه مجتمعا مجاهدا ويدرك بسرعـة ان تحرير المجتمع الانساني يستلزم تقديم الصورة المادية الجديدة لهذا المجتمع فينتقل بسرعة من الطبيعة القتالية الى الاستقرار وممارسة التجديد والابداع ، وهو ما ظهـر اولا في الكوفة والبصرة والفسطاط والشام والقيروان ، وبلغ اعلى أشكاله في بغداد فيما بعد التي اصبحت قاعدة لدور حضاري عالمي انساني •

ولاشك ان هذا الابداع ارتكز على عوامل في المجتمع مثلما ارتكز الى عوامل العقيدة وفي العوامل الاجتماعية يأتي استقرار السكان في الامصار عاملا اساسيا اتاح ظهور ممارسات التمدن الاجتماعي (العمران ، تقسيم العمل ، التعليم) • وقد نشأ عن الاستقرار امتزاج سكان الامصار بسكان الارض المحررة خاصة من العرب ، وقد امتلك هذا الامتزاج مقوماته في الدور الذي لعبه عـرب العراق لصالح حركة التحرير التي قادها العرب المسـلمون القادمون من المدينة فصلات الكفاح المشترك والعون المـادى والعسكرى

والنشاط التجارى لصالح الامصار الجديدة شكل بداية تمازج اجتماعي في القرى الزراعية بالمصاهرات الواسعة وقد تعزز هذا الامتزاج بسياسة التعريب التي اتاحت فرصا اكفأ للتفاهم ونشوء العواطف وامتلاك اسس واحدة للوعي، والراجح ان دور الكوفة في حركة التمازج كان اكفأ بحكم طبيعة موقعها والاراضي الواسعة التي تحيط بها على عكس البصرة التي شكلت مياه الاهوار عامل تحديد لفرص الانتشار الجغرافي على اساس زراعي يتيح نشوء مزيد من القرى غير انها عوضته بنشاطها التجاري وعندما نشأت واسط لعبت هذا الدور نيابة عن البصرة وهكذا شكل تطور حزام القرى حول الامصار وامتداداته المتاحة صيغة من صيغ توسع مجتمعات الامصار بامتزاجها مع السكان المحليين .

المصادر والمراجع

ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير . ليدن ١٣٢٢هـ
ابن هشـــام : السيرة
ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني . دار الكتب
السهيلي : الروض الانف
الطبري : التاريخ . تحقيق ابو الفضل
البكري: : معجم ماإستعجم . عالم الكتب بيروت
ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال
المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهـــر ، دار الاندلس بيروت ١٩٦٦ ،
ابن عبد ربه : العقد الفريد . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٢ .
فؤاد سفر : الحضر . منشورات وزارة الثقافة والاعلام . المؤسسة العامة للاثار
د . نزار الحديثي واخرون . الحدود الشرقية للوطن العربي . جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق ١٩٨١ .
الواقدي : مغازي الرسول . عالم الكتب ، بيروت
سهيل قاشا : لمحات من تأريخ نصارى العراق . مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٨٢
ياقوت : معجم البلدان .
ابن سلام : الاموال
مسلـم : صحيح مسلم

الفصل الثاني

المجتمع العراقي

المبحث الأول

المجتمع العراقي في صدر الاسلام

د . محمد حسين الزبيدي
المؤسسة العامة للآثار والتراث ـ بغداد

بداية التجمع المدني

لاحظنا سابقا كيف كان وضع القبائل العربية في العراق في ظل الاحتلال الساساني ، وصورة انتشارهم الجغرافي فيه او الدور البطولي في مقاومة وجوده وسياساته كما لاحظنا صورة الالتقاء التأريخي بين عرب العراق والعرب المحررين في صدر الاسلام وما ترتب على تحرير العراق من نشأة الامصار الاولى (الكوفة والبصرة) وواسط وبغداد فيما بعد وكيفية امتزاج عرب العراق بالعرب المحررين اجتماعيا وفي المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية . لقد استقرت هذه الصورة في الامتزاج بحكم ثوابتها الاساسية (صلات الوطن والانتماء الى امة واحدة وتاريخ واحد) وترسخت واتسع نطاقها عمقا وشمولا بحكم رسالة الامة العربية كما حددها الاسلام مما

استوجب استمرار تحرك العرب نحو المشرق لاكمال رسالتهم الانسانية وبالتالي استمرار عملية الحراك الاجتماعي للامة العربية وتمازج اجيالها .

سكنت القبائل العربية التي قدمت الى العراق في امصار اختطت لاعتبارات عسكرية وفي مدن فرضت الحاجة الى استقرارها فيها كالمدائن والحيرة وتكريت والموصل وغيرها . ولما تم النصر الحاسم للمسلمين ودانت بلاد العراق باسرها شعروا بحاجتهم الى السكنى ، وبذلك بدأت مرحلة الاستقرار في حياة العرب وتمثلت هذه المرحلة في بناء المدن في العراق حينما وافق الخليفة عمر بن الخطاب على بناء مدينة برية وبحرية لايفصلها عن العاصمة الاسلامية (المدينة المنورة) نهر او بر . فمصروا مدينتي البصرة والكوفة . ويقول البلاذري في ذلك : لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب الى الخليفة عمر يعلمه نزوله اياها وانه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا اشتوا ويكنسون فيه اذا انصرفوا من غزوهم فكتب اليه (اجمع اصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والمرعى واكتب الي بصفته) وبعد ان اختار عتبة المكان المناسب كتب اليه (اني وجدت ارضا كثيرة القصب في اطراف البر الى الريف ودونها مناقع ماء فيها قصب) فلما قرأ الكتاب قال (هذه ارض نضرة قريبة من المشارف والمرعى والمحتطب) وكتب اليه ان انزلها الناس فانزلهم اياها فبنوا مساكن بالقصب وبنى عتبة مسجدا من القصب سنة ١٤هـ / ٦٣٥م وكان ذلك نواة مدينة البصرة .

اما مدينة الكوفة فقد طلب سعد بن ابي وقاص موافقة الخليفة عمر على بنائها فكتب اليه الخليفة عمر ان يتخذ للمسلمين (دار هجرة وقيروانا وان لايجعل بينه وبينهم بحرا وان يكون الجوفيها مناسبا للعرب وابلها) لان وخومة جو المدائن وانتشار الغبار فيها ادى الى ضعف صحتهم . وكان

الخليفة عمر قد لاحظ ذلك على صحة جنده وكان سعد قد اتى الانبار قبل مجيئه الى الكوفه واراد أن يتخذها منزلا فكثر على الناس الذباب فتحول الى الكوفة فاختطها واقطع الناس المنازل وانزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها سنة ١٧هـ / ٦٣٨م •

وبنوا منازلهم فيها من القصب ايضا • ولكن سرعان ما اتت النيران على هذه البيوتات فاستأذن العرب في البناء باللبن فوافق الخليفة عمر ولكن بشرط فقال (افعلوا ولا يزيدن احدكم على ثلاث ابيات ولاتطاولوا في البنيان) وكان البناء هو الخطوةالاولى نحو الاستقرار وتحويل مدينتي البصرة والكوفة من معسكرين الى مدينتين • وتتابعت مظاهر الاختلاط بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطا واضحا كان اعمق مدى وابعد اثراً لاشتراكها في حياة مدنية جديدة • ان بناء الكوفة والبصرة كان ايذانا بانتقال العرب من حياة القبيلة الى حياة المدينة وكان اول ماعملت بعد ان قضت على الفروق المكانية بين القبائل ، انها حاولت ان تمحو الفروق الاخرى او تخفف من حدتها وغلوائها فربطت الناس بعضهم ببعض بعلاقة ما ، كعلاقة الجوار والمسجد والعطاء وغيرها من الروابط والصلات التي لم تدع القبيلة ان تعيش لوحدها • فكون كل ذلك كتلا جديدة اطلق عليها الارباع والاسباع والاخماس ، وكانت اخماس البصرة خليطا من قبائل الشمال والجنوب • وكان معظم من نزل البصرة من انصار المدينة وعرب الشمال ، وكانت ابرز القبائل مضر وربيعة والازد • وكانت قبيلة الازد اخر من نزل البصرة حين تم تمصيرها • وكانت مضر تفوق ربيعة عددا فبعث الخليفة عمر ابن الخطاب الى البصرة جماعة من تنوخ ليحفظ التوازن بينهما مما ادى الى غضب بني‌تميم وهم اشهر بطون ربيعة •

اما الكوفة فكان معظم سكانها من قبائل اليمن القحطانية الجنوبية والتي تبلغ حوالي اثنى عشر الف شخص وهي :

قضاعة ، وغسان ، وبجيلة ، وخثعم ، وكندة وحضرموت ، والازد ، ومذحج وحمير ، وهمدان والنخع.وكان اليمنيون قد اعدتهم بلادهم للمدنية والحضارة وقد سبقوا غيرهم من العرب في التحضير والعمـران وانشـاء الـدول .

اما القبائل العدنانية الشمالية التي سكنت الكوفة فكان عددها ثمانية الاف شخص وهي : تميم ، الرباب وبنو العصر (وهي مضر) اما بنو بكـر فهم بنو اسد وغطفان ومحارب وغيرها .

وهناك مجموعة اخرى مثل : كنانة ، وجديلة وضبيعة وعبد القيس وطيء وثقيف وعامر ومزينة .

كذلك نزل الكوفة اشراف العرب من الصحابة الاولين ووجـوه الناس الذين كانت لهم السابقة في الاسلام . قال ابن سعد (نزل الكوفة سـبعون رجلا من الصحابة (وقيل ثمانون) ممن شهدوا بدرا وثلاثمائة من اصـحاب الشجرة فكانوا خلاصة المهاجرين والانصار الذين لهم السبق في الاسلام . وفي مقدمة من نزلها من الصحابة عبدالله بن مسعود وعمار بـن ياسر وقـد ارسلهما عمر بن الخطاب ليكون عمار اميرا وعبداللـه بن مسـعود وزيرا ومـؤذنا) .

وكان عمر بن الخطاب يقول لاهل الكوفة في تعريفه بهما (هما مـن النجباء من اهل بدر فخذوا عنهما واقتدوا بهما وقـد آثرتكم بعبدالله بـن مسعود على نفسي) . وكانت الكوفة اول مدينة ظهر فيها ما اسماه المؤرخون « بيوتات العرب » .

لقد قسمت مدينة البصرة الى خمسة اقسام سمي كل قسم منها خمسـا وقسمت الكوفة الى سبعة اقسام سمي كل قسم منها سبعا وقد جمعت القبائـل المتقاربة في النسب في البصرة واتخذت لها خططا متقاربة على النحو التالي :

١ ـ اهل العالية : ويضم هذا الخمس عددا من القبائل التي تبلغ عشرين قبيلة من اشهرها : سليم ، سهم ، مزينة ، ناجية ، ضبة ، ثقيف ، خزاعة قريش ، نمير ، هذيل ، عقيل ، ونهد ، وسامة ، وبنانة ، وباهلة ، وبنو كعب وليث وتيم بن مرة ، وغني ، وزهرة ، وحريش •

٢ ـ بنو تميم : ويضم هذا الخمس عدة قبائل منها : سعد ، صريم ، مريع ، جشم ، مالك ، دارم ، مجاشع ، نهشل ، هلال ، رياح ، بنو العم ، ويربوع • وقد تميزت هذه القبيلة بعددها الكبير الذي مكنها من ان تؤدي دورا كبيرا في حياة البصرة السياسية والاجتماعية والادارية•

٣ ـ بكر : ويضم هذا الخمس عددا من القبائل اهمها : شيبان ، عجل ، رقاش ، سدوس ، جحدر ، حنيفة ، ضبيعة ، يشكر ، عنزة ، تيم اللات بن ثعلبة ، تيم بن شيبان ، وذهل بن شيبان •

٤ ـ الازد : وهي من القبائل القحطانية اليمانية الاصل وهي اكبر القبائل العربية الخمس التي استوطنت البصرة ، ومن اكبر فروع قبيلة كهلان وقد سكن البصرة فريق من الازد في اول العهد واستوطن فريق آخر في عهد زياد بن ابيه ، ومجيؤهم المتأخر هذا ادى الى استيطانهم في الاطراف بعيدا عن المسجد الجامع ، ومن اشهر قبائلها التي سكنت البصرة هي : العتيك ، الحرقة ، شريك ، الحدان ، زهران ، طاحية ، جهضم ، العوقة ، الشقرة وغيرها •

٥ ـ عبد القيس : وتعتبر هذه القبيلة من القبائل الكبيرة التي لعبت دوراً هاما في التاريخ العربي والاسلامي عامة • وقد نزحت هذه القبيلة من تهامة الى البحرين ثم هاجرت من البحرين الى البصرة • ويضم هذا الخمس قبيلة محارب ، ظفر ، عوف ، صباح ، لقرة ، شن •

لقد كانت اوضاع البصرة واحوالها في اوائل عهدها اقل توفيقا من

الكوفة في جذب المهاجرين العرب لان فتوحاتهم كانت بطيئة ودخلها قليلا لذلك قرر الخليفة عمر بن الخطاب ان يخصص للبصريين دخل بعض المقاطعات التي فتحها اهل الكوفة الامر الذي شجع العرب المقيمين في اطراف البصرة على الهجرة اليها ، وظلت هجرة القبائل العربية تتسع حتى بلغ عدد سكانها على عهد الامام علي بن ابي طالب ستين الفا من الرجال المحاربين المسجلين في ديوان العطاء ، وهذا العدد لايشمل النساء والاطفال ، ولكن هذا العدد كان يزيد وينقص حسب حاجة الدولة الى المقاتلة ونقلها من مكان الى آخر فقد نقل زياد بن ابيه اربعين الفا من مقاتلة البصرة مع عيالاتهم واسكنهم خراسان كما نقل عددا من الازد واسكنهم مصر ، وعلى الرغم من ذلك فان عدد سكان البصرة كان في ازدياد مستمر فقد وصلت الزيادة الى تسعين الفا وبلغت عيالاتهم مائة واربعين الفا .

وهكذا صارت الحياة في البصرة اذ ذاك حياة جديدة تلاقت فيها الافكار وتفاعلت فيها الحضارات ولم يمض قرن من الزمان على تمصيرها حتى كانت اكبر الامصار واحفلها بالقصاد واغناها بالوافدين .

اما مدينة الكوفة فبينما قسمت القبائل فيها الى سبعة اقسام لم يعتمد سعد في تقسيمه على نظام النسب او القربى في اول امره فكان يدخل في بعض القبائل عشائر عربية لاتمت الى القبيلة بصلة النسب . فنرى مثلا انه ادخل مع كنانة قبيلة جديلة كما ادخل بني اسد وغطفان ومحارب ونمير وهم من بكر مع تغلب وضبيعة وهم من ربيعة ، ويبدو ان سعدا لجأ الى هذا العمل ليجعل اعداد القبائل في كل سبع متساويا .

ولكن سعد بن ابي وقاص ادرك ان نظام الاسباع يكون اكثر صلاحا اذا جمع بين القبائل المشتركة في النسب او المرتبطة بروابط القربى فارسل الى قوم من نسابة العرب وذوي رأيهم وعقلائهم فعدلوهم على الاسباع . وذكر

الطبري ان نظام الاسباع في الكوفة في عهد سعد بن ابي وقاص كان على النحو التالي :

١ ـ كنانة :وحلفاؤهم (الاحابيش) وغيرهم من جديلة ، وهم بنو عمرو ـ قيس عيلان وكان هؤلاء اعوانا طبيعيين للولاة القريشيين منذ امارة سعد حتى زوال الحكم الاموي ، وكان عددهم قليلا بالنسبة لغيرهم وكانوا يسمون بـ (أهل العالية) .

٢ ـ قضاعة وغسان وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والازد وهم من اليمانيين .

٣ ـ مذحج ، حمير ، همدان وحلفاؤهم وهم ايضا من العناصر اليمانية .

٤ ـ تميم والرباب وهوازن وبنو العصر (وهم من العناصر المضرية) .

٥ ـ بنو اسد وغطفان ومحارب ونمير وضبيعة وتغلب .

٦ ـ اياد وعك وعبد القيس (اهل الهجر) والحمراء (حمراء ديلم) .

٧ ـ طي .

بقيت الكوفة على هذا التقسيم حتى جاء الخليفة علي بن ابي طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م فغير نظام قبائل الاسباع هذه وادمج بعض القبائل التي كانت منفصلة فيما بينها وظلت الكوفة على هذا النظام حوالي اربعة عشر عاما حتى ولاية زياد بن ابيه سنة (٥٠هـ /٦٧٠م) فغير هذا النظام وجعله على غرار ما كان عليه في البصرة حيث اصبحت هذه الاسباع اربعة اقسام تسمى الارباع ولم يعتمد زياد في عمله هذا على النسب او الحلف بين القبائل في كل ربع . وكان عدد جند الكوفة يومها ستين الفا وعدد عيالاتهم ثمانين الفا . ولكن في اواخر عهد زياد تناقص عدد سكان الكوفة والبصرة حيث سير زياد اعدادا من سكان الكوفة والبصرة بعيالاتهم الى خراسان .

ان الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها في الكوفة والبصرة بعيدة عن النسب او الحلف كانت لها اعظم الأثر في نفوس القبائل العربية حيث اخذت تهيؤها نفسيا لتدرك ان حياة المدينة شيء آخر غير حياة البادية التي تعود عليها العرب في حياتهم الاولى في الجزيرة العربية فكانت بلا شك بداية موفقة جديدة اللون جديدة في الحياة المدنية تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضرية الجديدة .

اما الموصل ففي سنة ١٧ هـ ـ ٦٣٨ م عين الخليفة عمر بن الخطاب عتبة ابن فرقد السلمي واليا عليها فاختط المسجد الجامع ودار الأمارة الى جانبه واختط فيها منازل العرب المحررين على غرار ماخططت به البصرة والكوفة وقد اتخذها عمر احد الاجناد الستة التي جندها وقد جعلها في نفس الوقت مركزا للتحرير ومنها خرجت الجيوش العربية الاسلامية وفتحت بلاد ارمينيا واذربيجان .

ومنها ارسلت الامدادات ايام الخليفة عثمان بن عفان سنة ٢٤ هـ/٦٤٤ م الى الاناضول لمساعدة الجيوش العربية الاسلامية في استكمال فتح بلاد الروم .

وبعد ان توقفت حركات الفتح هاجر اليها كثير من القبائل العربية التي كانت تقطن بلاد الجزيرة (الارض الواقعة بين نهري دجلة والفرات) ثم ان الخليفة عثمان بن عفان امر عليها عرفجة بن هرثمة البارقي فقدم اليها ومعه اربعة الاف من الازد وطي وكندة وعبد قيس ، فاختط منازل العرب فيها ووسع الجامع على غرار خطط الكوفة والبصرة . وفي العهد الاموي هاجر اليها كثير من القبائل العربية كازد وشيبان وسلول والخزرج وغيرهم .

اما مدينة تكريت ففي سنة ٢٠هـ ـ ٦٤٠م عين مسعود بن حريث بن الابجر عاملا عليها . وقد بنى فيها المسجد الجامع وخطط المدينة على غرار خطط الكوفة والبصرة . واسكن القبائل العربية ضمن هذه الخطط .

وبنى الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط سنة ٨٢هـ/٧٠١م لاسكان جنوده الشاميين في العراق ، وقد سار الحجاج على نهج من سبقه من الولاة حينما انشأوا مدينتي الكوفة والبصرة . فقد قسمها الى اقسام عدة وجعل لكل قبيلة مكانا خاصا بها فاختطت كل قبيلة منازلها في المكان المخصص لها.

ونقل الحجاج الى مدينة واسط عددا من وجوه اهل الكوفة ومن وجوه اهل البصرة ومن قبائل بكر وتميم وقيس والازد واسكنها هناك.وامر باخراج كل نبطي من مدينة واسط وقال (لايدخلون مدينتي فانهم مفسدة) ... فلما مـات الحجاج دخلوهـا ورجعوا اليها وكان الحجاج يدقق في اختيار سكان مدينة واسط فلم يكن يدخلها احد الا بأذنه .

ان حياة العرب الاجتماعية هذه لم تبق على ما كانت عليه في دمج القبائل وانما اخذت تتحول تدريجيا الى شكل جديد اخر بحكم الحياة المستقرة لأن سكنى القبائل العربية جنبا الى جنب جعلهم يشعرون انهـم ابناء مدينـة واحدة تفرض عليهم نوعا من العلاقات الاجتماعية وبانهم وحدة متجانسـة متشـابهة الملامـح والسـمات ، فبـدأ يتسـرب الى نفوسـهم احساس بالمدينة او المواطنة ولكن هذا الاحساس لم يقض على الاحساس المتأصـل كليا وانما ظل على شكل رواسب لا شعورية في اعماق تفكيرهم ، ويعني هذا تحول العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنوها . ومن هنا بـدأت تظهر ظاهرة جديدة تحولت بموجبها القبلية الى حياة تؤمن بالمدينة نستطيع ان نسميها (الاقليمية) أو التأقلم وذلك ان تسمى القبيلة باسم المدينة مثل تميم الكوفة وتميم البصرة وازد الكوفة وازد البصرة وليس ادل على ذلك من قول المبرد : (لقد حدثت فتنة في البصرة بين الازد وربيعة بعد وفاة يزيـد وكادت ان تنشب الحرب فيما بينهم وقد استطاع الاحنف بن قيس ان يهدىء هذه الفتنة فقال « يامعشر الازد وربيعة انتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في

الصهر واشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو ، والله لازد البصرة احب الينا من تميم الكوفة وازد الكوفه احب الينا من تميم الشام » .

لم يقف تطور العرب عند حد الشعور بالمدينة وانما تعداها الى ابعد من ذلك حيث قطع العرب خطوات كبيرة نحو التجمع في الكوفة والبصرة بعد ان ذابت الفروق المكانية بين القبائل فصار الشعور بالمدينة وحدها فوق كل اعتبار آخر فصاروا يقولون : سار أهل الكوفة ، وجاء اهل البصرة ، وقاتل اهل الكوفة اهل البصرة . وكانوا يقولون انا معشر اهل البصرة . ان اخواننا اهل الكوفة دون ذكر اسم القبيلة او العشيرة التي تسكن هذا المصر او ذاك .

ان انشاء المدن في الحقيقة كان تجربة جديدة رائدة في حياة العرب الاجتماعية وكانت هذه التجربة بالرغم من كل شيء موفقة في مقاصدها ناجحة في اهدافها ومراميها على الرغم من انها تعرضت كما تعرض غيرها من التجارب الى النكوص على عقبيها في بعض الاحيان لسوء السياسة التي اتبعها بعض الولاة .

ونتيجة لسكنى العرب في مدينتي الكوفة والبصرة ظهرت تنظيمات اجتماعية جديدة فرضتها طبيعة الحياة الجديدة حياة المدن والامصار التي خلقتها الظروف العسكرية والاقتصادية والاجتماعية واهم هذه التنظيمات هي :

١ ـ الامارة : ويحتل الامير مكانة خاصة باعتباره ممثلا للخليفه ويعمل باسمه وبذلك يكون اعلى سلطة في الامارة ، يشرف بنفسه على شؤون الادارة فيها . ويتمتع بشبه استقلال ذاتي . الا انه مسؤول تجاه الخليفة مباشرة . والشكاوى الموجهة ضد الامير ترفع الى الخليفة مباشرة وكان يصغى اليها باهتمام وعناية ويرسل محققين او يستدعي الامير اليه ليحقق معه في الاتهامات الموجهة ضده وتكون سلطات الخليفة في ذلك مطلقة ونافذة . ومن واجبات

الامير الاساسية هي حفظ النظام وتطبيق القوانين ومراعاه المصالح العامـــة للمجتمع بعيدا عن التعصب القبلي الذي يحفظ فيه التوازن بين القبائـــل ، وكذلك يعين الحقوق والواجبات بين القبائل والاشخاص • وكانت تتبع الامير في المصر عدة دوائر تساعده في الادارة وتنفيذ القوانين وتطبيق النظام •

٢ ــ رؤوســاء الاسباع او الارباع : وهم رؤساء الاقسام التــي قسمت بموجبها القبائل العربية عند تخطيط المــدن • وكان هؤلاء الرؤساء يختارون ممن لهم نفوذ شخصي كبير ومنزلة محترمة في قبائلهم ، وممن لهــم المكانة العالية بين القبائل الاخرى • وكان لهؤلاء الرؤساء سلطة يتمتعون بها وهي مستمدة من مراكزهم الاجتماعية وصفاتهم الشخصية،وكان يشترط فيهم ان يعرفوا بالبأس والنجدة والتجربة في الحرب وان يكونوا فيها فرسان الناس ووجوههم واولى الفضـــل منهم •

وقد زود هؤلاء بسلطة عسكرية وادارية وماليــة فكانــوا في اوقــات السلم يصرفون شؤون القبيلة ويحكمون في الخلافات والخصومات التــي تحدث بين افراد قبائلهم كما انهم يوزعون العطاء عليهم بعــد اخذه من الدولة ويكونون مسؤولين عن تصرفات قبائلهم مسؤولية فعلية ومباشرة تجاه الوالــي والامير ، وهم الرادعــون لفتنتها واعمالها المعادية للدولة كما انهم الواســطة بين القبيلة وبين الامير في نقل اوامره اليهم •

اما في اوقات الازمات السياسية او الحرب فانهم يقودون اســباعهم او ارباعــم كان هؤلاء الرؤساء خاضعين لسلطة الوالي او الامير الذي يحكــم المصر حيث نجد ولاة يتصلون بجمهرة الناس عن طريقهم •

٣ ــ العرفــاء : قسمت الاسباع او الارباع في كل مصر الى وحدات اجتماعية صغيرة جديدة اصغر من الربع او السبع ، لا علاقــة لها بالنسب او القربى ، يكون عنها مسؤولا شخص يسمى (العريف) وهو من اهم الموظفين

يعتمد عليه الامير في تثبيت سلطانه ويساعـــده على ضـــبط العطـاء وتوزيعه على القبائل الكثيرة التي يكون عدد افرادها كبيرا جدا . وقـــد يخصص لكل عرافة مبلغ من المال يوزع علـــى افرادهـا توزيعا عادلا يعينه الامير او القائد وقد يختلف عدد كل عرافة من معركة الى اخـرى او مـن وقت لآخر والحقيقة ان نظام العرفاء هذا لم يكن جديدا بل كان موجودا منذ العصر الجاهلي وفي زمـن الرسـول (ص) .

وقد عرف سعد بن ابي وقاص قبيل معركة القادسـيـة (قـدر الناس وعباهم بشراف وامر امراء الاجناد وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات في ازمـان النبي (ص) وكذلك كان الى ان فرض العطاء).

وكان لكل عريف واجبات خاصة يقوم بها تجاه عرافتـه يتعرف احوالها ويوزع العطاء عليهم وقد يزيد في العطاء او ينقصه وينظم السجلات باسـماء المقاتلة من افراد عرافته والنساء والاطفال ومقـدار عطائهم . وكان العريف يسجل اسم من يموت ومولد من يولد ويحذف عطاءه او يضيف ، وبالاضافة الى ذلك فان العرفاء كانوا مسؤولين مسؤولية كاملة عن الامـن والنظام في عرافاتهـم يراقبون مسببي الاضطرابات والفتن والمشاغبين .

اما في اوقات الحرب فكان العرفاء يندبون الناس للقتال ويحثونهم عليه ويضربـون عليهم النفير ويخبرون الامير عن الاشخاص الذين يتقاعسـون او يتخلفون عن القتال او الذين يتمردون عليه . كما انهم يساعدون الامـير في السيطرة على الجيش وتعبئته وتوجيهه الجهة المطلوبة وايصال اوامر الامير وتعليماتـه الـى المقاتلين بسرعة كبيرة .

وكان العرفاء يقودون عرافاتهم ضمن الاسباع او الارباع ويكونون عادة واسطة بين رؤساء الاسباع والارباع وعرافاتهم في ايصال الاوامر الصادرة عنهـم .

لقد كان تعيين العرفاء من حق الامير وحده ولا حاجة الى اخذ موافقة العشيرة في ذلك ، وعلى هذا فكان يختار العرفاء من بـين ذوي النفوذ ممن يتصفون بالشجاعة والدهاء والحلم ويكونون ذوي شخصية قويـة حتـى يستطيعوا القيام بواجباتهم نجاه الحكومة وتجاه العرافات ، ويبقى هـؤلاء العرفاء في مناصبهم مادام الامير راضياً عنهم واذا نقاعس هؤلاء في واجباتهم فان الحكومة تنزل بهم عقوبات صارمة وتعزلهم عن مناصبهم •

وقد جاء في رسالة ارسلها عمر بن عبدالعزيز الى عدي بن ارطاة امـير البصرة « ان العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجنـد فمن رضيت امانته لنا ولقومه فاثبته ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه وابلغ في الامانـة والورع » •

٤ ـ المنكب : وقد اختلفت الاخبار في امر هذه الوظيفة فمنهم مـن يقول ان المنكب رئيس العرفاء • وجاء في لسان العرب : (ان المنكب هـو العريف) اما ابن الاثير فيقول : « ان المنكب افل من العريف وتابـع له ، وقيـل المنكب معاونـه » •

٥ ـ النقيب : وهي من الوظائف الاخـرى المهمة • يقول الطبري ان هذه الوظيفة فوق العريف بينما جاء في لسان العـرب ان (النقيب) عريف القوم وهو شاهد القوم وضمينهم • ثم قال وفي حديث عبادة بـن الصامت : وكان من النقباء وهو كالعريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف اخبارهم وينقب عن احوالهم (اي يفتش) • وكان النبي (ص) قد جعـل ليلة العقبة كل واحد من الجماعة الذيـن بايعوه بها نقيبا على قومه وجماعته ليأخـذوا عليهم الاسلام ويعرفوهم شرائطه وكانوا اثني عشـر نقيبا كلهم من الانصـار وكان عبادة بـن الصامت منهـم •

بينما يروي الجاحظ بيتا لجبهاء الاشجعي يستدل منه على ان النقيب اقل من العريف حيث يقول :

رعاع عاونت بكرا عليها   كما جعل العريف حتى المصب

وفي الحقيقه ان معلوماتنا عن وظيفة (المنكب والنقيب) قليله جدا ومتناقضة في نفس الوقت بحيث لانستطيع ان نعطي صورة واضحه وكامله عنهما • بالاضافة الى ان هذه النسبيات لم تكن على وتيره واحدة بل كثيرا ما كانت تتغير تبعاً للمهام المترتبه عموما •

فقد ذكر المسعودي فقال : لما اقام اهل بغداد جندا من انفسهم للدفاع عن الخليفه الامين جعلوا على كل عشره عريفا وعلى كل عشرة عرفاء نقيبا وعلى كل عشرة نقباء قائدا وعلى كل عشره قواد اميرا •

وقد عاش الى جانب العرب في امصارهم الجديدة عناصر وطوائف اخرى نتيجة للتسامح الديني الذي اتصف به الاسلام والمسلمون ، منها اهل الذمة وهم :

النصارى : وقد كان هؤلاء في العراق قبيل الفتح وكان معظم اهل الحيرة من العرب الذين يدينون بالنصرانيه وكانوا من قبائل بني سليم وتميم وطي وغيرهم •

وكان الفرس يسيؤن معاملة هذه الطائفة ويضطهدونها ولما حرر المسلمون العراق رحب اهل الذمة بهم املا في الخلاص من ظلم حكامهم الفرس والاعفاء من الخدمة العسكرية والتمتع بالحريه الدينية التي يسمح بها الاسلام مقابل دفع الجزية •

وعندما بنيت الكوفة هاجر اليها عدد كبير من مدينة الحيرة والقرى المجاورة المحيطة بها ولا سيما بعد زوال مجد الحيرة وعزها وقد حفظ

لهم الاسلام اموالهم وحرياتهم ودماءهم وشعائرهم وذلك بموجب العهد الذي كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لاهل الحيرة عند الفتح الذي اعطوا فيه حريات واسعة ، وفي ظل هذا التسامح الديني تولى النصارى الوظائف الكثيرة في الدولة العربية الاسلامية ولاسيما كتابة الدواوين .

لقد عاش العرب في العراق حياة اجتماعية خاصة لم تختلف كثيراً عن لون حياتهم في شبه الجزيرة العربية قبل قدومهم الى العراق ولم ينفرد عرب العراق بلون مختلف في الحياة الاجتماعية الا في العصر العباسي ، وعلى اي حال نستطيع ان نعطي صورة عن المجتمع العربي الاول العراقي في نواحي : الملابس والطعام والدور والقصور والحمامات وحلبات الخيل والاعياد الدينية .

اولا ــ الملابس

لبس العرب الملابس الكثيرة المتنوعة لاختلاف اذواقهم ومستوياتهم المعيشية وقد تميزت حياتهم الاولى بالتواضع في الملبس وكانت ملابسهم هذه في اول امرها بسيطة وخشنة . واختلفت هذه الملابس عند اهل الريف واهل المدن واهل البادية وكانت لها مصادر معينة منها : التجارة ، حيث كانت تستورد من اليمن ، وكذلك كانت الدولة منذ عهد الرسول (ص) تجبي بعض الضرائب على شكل البسة ففي المعاهدة التي عقدها الرسول (ص) مع اهل نجران فرض عليهم (الفي حلة من حلل الاواقي في كل رجب الف حلة وفي كل صفر الف حلة) وقد استمر الخلفاء من بعده يجبون من النجرانيين الضريبة ملابس حتى القرن الثالث الهجري وقد فرض خالد بن الوليد على اهل الانبار ان يقدموا الف عباءة قطوانية ، وكانت هذه الملابس المجباة توزع على المسلمين مع العطاء ومن اهم الانواع التي لبسها العرب والمسلمون :

١ ــ العمامة : وهي من الالبسة المحترمة عند المسلمين وهي خاصة بالرجال

ولها اهمية كبيرة وقد وصفها الرسول (ص) بقولـــه (العمائم تيجان العرب) وجاء في الحديث الشريف ايضا (فرق ما بيننا وبين المشــركين العمائم على القلانس) . وقد اختلف في لبس العمامة وشــكلها ولونها فكانت للخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة وللاعراب عمة وللنصارى عمة وهكذا ومنها ايضا السوداء والبيضاء والحمراء والصفراء .

٢ ـ القلنســوة : وهي من لباس الرأس ايضا وهي مستديرة ومبطنة مــن الداخــل وتصنع من القماش او الجلد ، وقــد عرف العــرب هــذا النوع من اللباس في صدر الاسلام وكانوا يجعلونها فوق العمامـــة او بدونها ، وكان الرسول (ص) يلبس قلنســوة بيضاء مضربــة وفي الحرب قلنسوة لها اذنان . وتختلف الوانها فمنها الخضراء والبيضـــاء الموشاة وكان للقراء قلانس خاصة تتميز عن قلانســـ التجار الســوداء الطويلة كما كان للفقهاء قلانس خاصة يتميزون بهـــا .

٣ ـ الخمـــار : وهو لباس الرأس عند النساء وتغطى بــه المــرأة رأســها ويلف حول عنقهــــــا .

٤ ـ الكوفية : وقد لبسها سكان العراق علــى رؤوســـــهم .

٥ ـ الرداء : وهو يلبس مع الازار ويلبس مع البسة اخرى وقد تردد ذكره في احاديث عن الرسول : (وهو متزر بأزار ورداء وعليه رداء وازار) .

٦ ـ الازار : وهو ما يلتحف به ويستتر به البدن من اسفله ، وكان لباســا ذا اهمية في عصر الرسول . قد جاء في الحديث (من لم يجــــد ازارا فليلبس سراويل) وكان للنبي ازار من نســيج عمان طوله اربــع اذرع وشبر في ذراعــين وشبر .

٧ ـ القميص : لقد لبس العرب القميص بكثرة ومما يؤكد ذلك ان الرسول ترك بعد وفاته (ثوبي حبرة وازارا عمانيا وثوبين صحاريين وقميصــا

صحاريا واخر سحوليا) وقد تميزت هذه القمصان من حيث طولها ببلوغها منتصف الساقين وطول اكمامها التي لاتظهر من الكف الا اطراف الاصابع وقد تصنع القمصان من الكتان او قد تصنع من الكرابيس ويلبس القميص مع الرداء او مع الجبة .

٨ ـ الثياب : وتطلق احيانا على الملبوسات عامة فقد جاء في حديث نبوي (.. فان كان الثوب قميصا فليتزر به) وجاء في حديث نبوي آخر (لايشتمل احدكم في الصلاة اشتمال اليهود ليتوشح من كان له ثوبان فليأتزر وليرتد ومن لم يكن له ثوبان فليأتزر ثم يصلي) .

٩ ـ المرط : وهو كساء من الصوف او الخز ويؤتزر به وقيل كساء من خز او كتان والجمع (مروط) .

١٠ـ السحولي : وهو ثوب مصنوع من قطن ابيض .

١١ـ الردف : وهو مصنوع من الخز الغليظ .

١٢ـ الريطة : وهو ثوب رقيق يشبه المحفة وقيل هي الملاءة اذا كانت قطعة واحدة .

١٣ـ الكرباس : قميص ابيض غليظ الصنع .

١٤ـ الفوط : وهي اقمشة مخططة يلبسها الحمالون ويأتزر بها اهل الكوفة .

١٥ـ الاتحمي : برود يمانية فيها خطوط حمراء او صفراء .

١٦ـ القسية : وهي ثياب مضلعة فيها حرير امثال الاترج ويقول ابن منظور هي ثياب مضلعة مخططة على شكل الضلع .

١٧ـ المسهم : وهي البرود المخططة وفي حديث جابر ان النبي (ص) كان يصلي في برد مسهم (اي مخطط) فيه وشي كالسهم .

١٨ــ السجلاط : وهي ثياب كتان موشية كأن وشيه الخاتم .

١٩ــ المستقة : وهو فرو طويلة الكم ، وذكر ان النبي كان يلبس البرانس والمساتق ويصلي فيها . وقد شاع استعمال هذا اللباس في العراق .

٢٠ــ البردة : وهو كساء يلتحف به وقد لبسها الرسول وقد ذكر ابن الاثير ان الرسول خلعها على الشاعر كعب بن زهير حينما قدم اليه تائبا وأنشد قصيدته اللامية المشهورة باسم البردة التي يمدح الرسول بها ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يغد مكبول

٢١ــ الجبة : وعرفت في صدر الاسلام وكان للرسول (جبة) مكفوفة الجيب والكمين والفرجين بالديباج .

٢٢ــ الخميصة : وهي كساء اسود او ملاءة معلمة من خز او صوف يؤتزر بها فان لم تكن معلمة فليس بخميصة وقد ترك الرسول فيما ترك عند وفاته خميصة .

٢٣ــ الحبرة : وهي برود يمانية تنسج من كتان او قطن وسميت (حبرة) أي مزينة وفي وصف الحبرة قيل ثوب حبر اي ثوب موشى وهو من التحبير وهو التزيين وكانت الحبرة من احب الثياب الى الرسول (ص) كما ذكر البخاري .

٢٤ــ المطرف : وهو ثوب مربع من خزله اعلام ويصفه الثعالبي بانه كساء في طرفيه علمان .

٢٥ــ الحلة : جمعها حلل وتتكون من رداء وقميص وجاء في الاحاديث النبوية ذكر الحلل من الاستبرق والسندس والحبرة وحلل يمانية وحلل نجرانية وصالح النبي اهل نجران على الفي حلة .

٢٦ــ العباءة : وتلبس عادة فوق جميع الالبسة الاخرى وكان الرسول (ص) يلبس العباءة كما كان الخلفاء يلبسونها ايضا .

٢٧ـ الملحفة : وتلبس فوق سائر اللباس والملحفة عند العرب الملاءة السمط فاذا بطنت ببطانة او حشيت فهي عند العوام ملحفة .

٢٨ـ الملاءة : وهي من ألبسة الرجال في الحجاز والكوفة والشام .

٢٩ـ الدراعة : وهي من اهم ثياب النساء زمن الرسول (ص) حيث كانت بسيطة وقليلة وقد تكون الدراعة صفراء او موردة او مصبوغة بالزعفران ويقول ابن سيدة (بانها جبة مشقوقة المقدم) .

٣٠ـ الغلالة : تلبس تحت الثوب .

٣١ـ القباء : ويلبس في العراق والحجاز ويصنع من الديباج او الخز او الكتان وقد يكون مبطنا بالحرير وقد يلبس مع المطرف .

٣٢ـ الخمار : وهو لباس للنساء تغطي به المرأة رأسها وكان ينتج في العراق .

٣٣ـ الشملة : وينسج هذا من الوبر يلبسه البدو وكان شائع الاستعمال في صدر الاسلام ويقال : هي البردة المخططة .

وتتيجة لاتساع الفتوحات الاسلامية واتصال العرب بالشعوب الاخرى واتساع ثرواتهم وتطور الحياة لبس اهل العراق الملابس الغالية الفاخرة وتفننوا بصناعة انواع ممتازة من المنسوجات كالملح والعتابية والسقلاطون . كما لبس عرب العراق السدوس والساج والطيلسان وقد احب امراء الكوفة والبصرة الوشي الكوفي فقلدهم الناس في ذلك فتاعت المنسوجات الموشاة في ايامهم وقد اشار المسعودي الى انتشار صناعة الوشي في الكوفة في عهد سليمان ابن عبدالملك فقال (ولبس الناس جميعاً الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لايدخل عليه من اهل بيته الا في الوشي وكذلك عماله واصحابه وفي داره وكان لباسه في ركوبه ما كان موشى وكان لا يسمح لاحد في الدخول عليه حتى خدمه الا في الوشي) . لذلك اختلفت ملابس اهل العراق اختلافا كبيرا كل حسب درجته الاجتماعية ومهنته ومركزه السياسي حتى صار لكل

فئة من فئات المجتمع زي خاص بها يميزهـا عن غيرهـا ، كما اصبح لكـل مناسـبة مـن المناسـبات زي معـين .

وكذلك اختلفت الملابس حسب مواسم السنة وفصولها قال الجاحظ (وقد لبس الناس الخفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء اذا دخلوا على الخلفاء وعلى الامراء وعلى السادة والعظماء لان ذلك أشبه بالاحتفال والتعظيم والاجلال وابعد عن التبذل والاسترسال) .

وكان اصحاب السلطان يلبسون المبطنة والدراعة كما لبس زهاد الكوفة والبصرة الملابس الصوفيـة الرخيصـة .

ثانيا ـ الطعـام

كان طعام العرب اول أمره بسيطا جدا يقتصر على الالبان ومايستخرج منها كالسمن والزبد والجبن وعلى التمر والحبوب واللحوم وخبز الشعير ياكلونها على ابسط ما يكون من احوالها .

فلما حرروا العراق وفتحوا فارس وتعرفوا على الوان جديدة من الاطعمة لم يكونوا يعرفونها من قبل صاروا يأكلونها وقد ذكر الجاحظ هذه الاطعمة وهي الدرمك والفالوذق والحسيس وقد قسمت وجبات الطعام طبقا للمستوى الاجتماعي والاقتصادي فكان يروي عن القاضي شريح انه قال : ان اوسط الطعام الخبز والزيت والخل وهو طعام الطبقة الفقيرة والمتوسطة ، اما الطبقة الغنية فكان طعامها الارز والبيض بالسمن المسلى بالسكر والصبرزد ، اما اهل الكوفة فيرون ان اللحم ارفع انواع الطعام اما الخبز والزيت والسمن والخل فهـو اوسـط الطعـام .

وكان من عادة اهل الكوفة والبصرة ولاسيما الولاة منهم اطعام عامـة الناس حيث اقاموا لهم المآدب الخاصة التي حفلت بالوان الطعام فكان زياد بن

ابيه يطعم السابلة والفقراء وذوي الحاجات فكان يغدي ويعشي العامة كل يوم عدا الجمعة فكان يعشي ولا يغدي وكان لا يرد عن طعامه احدا وكان يطعم في كل يوم على مائدته الفا وقد سار بعض اغنياء الكوفة والبصرة على نهج ولاتهم في اطعام الناس فظهرت جماعة يتبارون في عمل الولائم فكان منهم من ارسل الجفان ملأى بالطعام الى احياء القبائل وعلى افواه السكك والدروب لاطعام الناس . وكانت هذه الولائم تكثر في شهر رمضان .

ونتيجة لاهتمام العرب بالطعام والوانه وضعوا اسما لطعام كل مناسبة من المناسبات الاجتماعية فكانوا يطلقون على طعام العرس (الوليمة) وعلى طعام الختان (الاعذار) وعلى طعام الولادة (الخرس) وعلى طعام القادم (النقيعة) وعلى طعام الاحتفاء ببناء الدور (الوكيرة) وعلى طعام الضيوف (المأدبة) .

ثالثا ــ الدور والقصور

بعد ان تم تخطيط الكوفة والبصرة وواسط على النحو الذي رأيناه حيث خصص مكان لبناء الدور وفق تخطيط مدروس بعد ان عينوا فيه الطرق والمناهج وعينوا مواقع القبائل العربية اليمانية والحجازية بنت الناس بيوتهم اول الامر من الخيام وبيوت الشعر والقصب حتى اذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها واذا عادوا بنوها من جديد وظلت بيوتهم على هذه الحالة حتى شب حريق فيها واحرقت كلها فاستأذن اهل الكوفة والبصرة الخليفة عمر بن الخطاب في بناء بيوتهم من الطين فأذن لهم وكانت بيوت الطين هذه ساذجة البناء والتنظيم اول الامر تحتوي على غرفة او غرفتين او ثلاث كما امرهم الخليفة عمر بن الخطاب . وقد امتازت بيوت البصرة بانها واسعة الصحن عريضة الحيطان عظيمة الابواب ، كما امرهم الخليفة عمر بذلك فقال : عرضوا الحيطان ، واطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب ، وقد تطور هذا البناء بمرور

الزمن فقد بنت القبائل بيوتها من اللبن في غير ارتفاع فبنى ابو موسى الاشعري المسجد ودار الامارة بلبن وطين وسقفها بالعشب وكذلك فعل سـعد ابن ابـي وقاص (امير الكوفة) . وظلت الدور كذلك في الكوفة حتى بنى سـعد دارا في العقيق من الصخر وبنى طلحة بن عبدالله دارا له بالكوفة بالآجر والجص والسـاج .

وفي عهد ولاية زيـاد بن ابيه البصرة من قبل معاوية بن ابي سـفيان اعاد بناء الجامع بالآجر وزاد في سعته كما بنى دار الامارة بالآجر ايضـا ، اما في الكوفة فلم تبن منازل بالآجر حتى تولى زياد أمر الكوفة فأمرهم ببناء منازلهم بالآجر بدلا من اللبن .

ولما تقدم العرب في الحضارة ومضى على تأسيس الكوفة والبصرة سنوات طويلة تطور فن البناء بحيث صار الشكل يلائم حياة العصـر فبنى الامـراء والاغنياء بيوتهم من الطابوق والجص والساج واتسعت الكوفة والبصرة حتى اصبحتا مـن اعظم مراكز الاسـلام ازدحامـا بالسـكان .

رابعا ـ الحمامات

بنى العرب في مدن الكوفة والبصرة وواسط الحمامات وقد كانت في بداية الحكم الاموي محدودة العدد لان بناءها لم يكن سهلا ولا ميسورا لان الدولة كانت لاتسمح لاحد ببنائها الا بعد الحصول على اجازة من قبلها وكان الولاة لايسمحون ببنائها داخل المدن لانها تضر بالصحة وان سـمحوا ببنائها خارج المدن وفي اماكن خصصت لها ، وكان زياد بن ابيه يمنع بناءها الا في المواضع التـي لا تضـر باحـد .

وقد بنيت هذه الحمامات بشكل يضمن للمستحم الانتقال التدريجي من الجو البارد الى الجو الحار وبالعكس حيث كان في كل حمام ثلاثـة اقسام كل منها اسخن من الذي يسبقه وكانت تسخن القاعات بواسطة ايقاد النار تحت

ارضها ومن اشهر حمامات الكوفة هو حمام (اعين) وحمام عمر بن سعد • اما حمامات البصرة فكان اشهرها حمام عبدالله بن عثمان بن ابي العاص •

خامسا ـ حلبات الخيل

كان سباق الخيل عند العرب تسلية شعبية لكافة طبقات المجتمع فكانت هذه اللعبة تحظى بحب واعتزاز كبيرين بين الناس وكانت الصحراء مدرسة طبيعية لتعليم فنون الفروسية وسباق الخيل وكان العرب ينقلون هذه اللعبة معهم حيثما يحلون وكانت تجري هذه السباقات بصورة عامة في الاعياد والمناسبات العامة في ارض فسيحة وقد اقيمت فيها الحلبات الواسعة •

وقد نال سباق الخيل اهتماما كبيرا عند خلفاء بني امية فكان هشام أبن عبدالملك اول من اقام حلبات الخيل كما اهتم بتحسين نسل هذه الخيول ، وكذلك الوليد الثاني كان محبا للخيل فجمع منها عددا كبيرا واقام حلبة للخيل كان يشهد السباقات فيها مع عدد من الامراء وكبار رجال الدولة وكانت (رصافة الوليد) مسرحا لتلك السباقات وقد انتقلت الحلبات هذه الى بقية الامصار الاسلامية ولاسيما الكوفة والبصرة وواسط وقد ذكر المسعودي ان ابن هبيرة امير الكوفة اقام حلبة للسباق فيها •

سادسا ـ الاعياد الدينية

احتفل المسلمون في العراق بعيدي الاضحي والفطر وكان من رسومه ان يخرج الامير لاداء صلاة العيد صباحا في المسجد الجامع مع اعوانه في موكب رسمي مهيب تحيطه الحاشية وعليهم الملابس المزركشة وخلفه وامامه الجند يحملون الاعلام والسيوف وتنحر الذبائح في عيد الاضحى وتوزع على الفقراء الهدايا والصدقات ويتزاور الناس فيما بينهم ويهنىء كل واحد منهم الاخر بالسلامة والصحة والدعاء له بزيارة مكة وقبر الرسول (ص) •

المصادر والمراجع

١ ـ الاصفهاني : ابو الفرج ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦ م)
الاغاني ٢١ جزء ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م .

٢ ـ البخاري : محمد بن ابي الحسن بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ ـ ٨٦٩ م)
صحيح البخاري ـ القاهرة .

٣ ـ البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ ـ ١٠٤٨ م)
فتوح البلدان ، ط اولى ، ١٩٣٢
انساب الاشراف ، مخطوط

٤ ـ الثعالبي : ابو منصور عبدالملك (ت ٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م)
فقه اللغة ، مصر ١٣١٨ م

٥ ـ الجاحظ : عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ ـ ٨٦٩ م)
البيان والتبيين ، القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م .

٦ ـ ابن حنبل : احمد بن محمد (ت ٢٤١ هـ ـ ٨٥٥ م)
المسند ، القاهرة ١٣١٣ هـ ـ ١٨٩٥ م

٧ ـ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٧ اجزاء ، ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م

٨ ـ ابو داود : سليمان بن الاشعث بن اسحق الازدي (ت ٢٧٥ هـ ـ ٨٨٨ م)
السنن ، جزءان ، ط اولى ، (١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م)

٩ ـ ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن
الاشتقاق (تحقيق عبدالسلام هارون) مصر ١٩٥٨ م .

١٠ـ دوزي
المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب (ترجمة) الدكتور اكرم فاضل .

١١ـ زكي حسن
فنون الاسلام ، طبعة مصر ١٩٤٨ م

١٢ـ ابن سـعد : محمد (ت ٢٣٠ هـ ـ ٨٤٤ م)
الطبقات الكبير : ٨ اجزاء ط ليدن ، ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م

١٣ـ السمعاني : عبدالكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ)
الانســاب ، ليـدن ١٩١٢ م

١٤ـ ابن سيدة : علي ابن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ)
المخصص ١٨ جزء القاهرة ١٣١٦ هـ

١٥ـ الشوكاني : محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥ هـ ـ ١٨٣٩ م)
نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ، ٨ اجزاء ، مصر ١٣٤٧

١٦ـ الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ـ ٩٣٢ م)
تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٣٩ م

١٧ـ ابن عبدالبر القرطبي : (٤٩٣ هـ ـ ١٠٧٠ م)
الاستيعاب في معرفة الاصحاب ط (حيدر اباد ، ١٣١٩ م)

١٨ـ عمـر كحالـة
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ط دمشق ١٩٤٩ م

١٩ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م)
المعارف ، القاهرة ١٩٣٤ م
عيون الاخبار ٤ اجزاء ط دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٠ .

٢٠ـ ابن الكلبي : هشام بن محمد (ت القرن الثالث)
الانســـاب

٢١ـ المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ ـ ٨٩٨ م)
الكامل في الادب ، القاهرة ١٩٣٦ م .

٢٢ـ المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م)
مـروج الذهـب

٢٣ـ المقدسي : شمس الدين ابو عبدالله محمد (ت ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٨٧٧ م

٢٤ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١ هـ)
لســان العرب طبعة بولاق

٢٥ـ الميداني : ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)
مجموعة أمثال العرب ، مصر ، ١٣٥٢ هـ

٢٦ــ وكيع : محمد بن خلف بن حيان (اوائل القرن الرابع الهجري)
اخبار القضاة ، ط مصر ، ١٩٥٠ م .

٢٧ــ ابن هشام : محمد بن عبدالملك (ت ٢٨٦ هـ ــ ٨٣٣ م)
السيرة النبوية ٤ اجزاء ، القاهرة ١٩٣٧ م .

٢٨ــ اليعقوبي : احمد ابن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٢ هـ)
التاريخ : ثلاثة اجزاء : ط النجف ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م

٢٩ــ ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم (ت ١٩٢ هـ ــ ٨٠٨ م)
الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٧ م .

٣٠ــ يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري .
ط القاهرة : ١٩٦٨ .

٣١ــ مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ، بغداد ، ١٩٥٥ .

٣٢ــ صالح احمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، بغداد : ١٩٥٣

٣٣ــ احمد امين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣٤ــ ماسنيون : خطط الكوفة

٣٥ــ شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري ١٩٥٢ .

٣٦ــ الخوارزمي : ابو عبدالله : مفاتيح العلوم ، القاهرة ، ١٩٣٠

٣٧ــ آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .

البحث الثاني

المجتمع العراقي في العصر العباسي

د. بدري محمد فهد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

فئات المجتمع

تتجلى هذه الفئات وفق الاعتبارات الآتية :

أ ـ السكنية

سكن العرب بعد تحرير العراق في المدن الجديدة التي بنوها كالبصرة والكوفة وواسط وفي المدن القائمة آنذاك كالموصل ، وبقية المدن والقرى الصغيرة المنتشرة في ارجائه . حتى اذا قام الحكم العباسي اتخذت بغداد بعد بنائها عام ١٤٥هـ في وسط العراق عاصمة للعباسيين . وسكنها خلفاؤهم طوال قرون حتى سقطت بأيدي التتار عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م لهذا اصبحت بغداد من المدن الكبيرة التي اخذت بالاتساع على جانبي نهر دجلة بعد بنائها بوقت قصير . فرحل اليها الناس من رعية الدولة العباسية ، من اطرافها البعيدة ومن جزيرة العرب فتعددت اجناس ساكنيها ، واديانهم ، ومهنهم .

كما ان مدن العراق الاخرى لم تكن خاملـــة في هذا العهد بل زادت اتســاعا وكثر ساكنوها ، ودب فيها النشاط من كل نوع ســواء كان دينيا او فكريا او اقتصاديا لان موقع العراق من وسـط دولـة بني العباس المترامية الاطراف وفيه عاصمة الخلافـة الاسـلامية ، ومطمح انظار المسلمين من طلاب العلم والحجاج والتجار ، وأصحاب المهن ، والعســاكر المرتزقة في مشرق بـلاد المسـلمين ومغربهم ، فكان سـكان العراق خلال حكـم بني العباس يتكونون وفق معيار السـكنى مـــن :

١ ـ ســكان البوادي :

وهؤلاء كانوا على اطرافه الغربية يمارسون الرعي والتنقل خلف الكلأ ويلجون المدن ليعرضوا بضاعتهم مما تنتجه ابلهم او ايديهم من صـناعات ويشترون ما يحتاجون اليه او أن يقوموا بدور الوسـيط في نقل التجارة خلال الصـحراء من والى العـراق او اقطار الخليج العربي ، وكان ولاؤهم متأرجحا بين الطاعة والعصيان حسب قوة الحكومة المركزية وضعفها وحسب ظروفهم المعاشية كحدوث الجفاف والمحل الذي يؤدي بهم الى مزاحمة غيرهم على الماء والعشب او الهجوم على اطراف العراق لنهب المحاصيل والمواشي ، او فرض الاتاوات كما كانت تفعـل قبـائل شـيبان وبني تغلب (ومنهم الحمدانيون) وبني عقيل ، وبني خفاجة وعبادة وبني مزيد . وقد استطاعت بعض هذه القبائل تكوين امارات مستقلة فعليا وخاضعة اسميا لدولة الخلافة بعد ان وجدت ضعف الحكومة المركزية الذي وصل الى حد ادى الى تكالب الاعاجم عليها . والمعلومات عن تلك القبائل قبل الامارة قليلة بشكل عام لا تعدو ان تكون اشارات في كتب الرحلة او الجغرافية أو بعض الاخبار المتفرقة في كتب التاريخ ، أما بعد الامارة كحال بني حمدان في امارة الموصل وبني عقيل بعدهم ، أو بني مزيد في الحلة فانهم اصبحوا موضع عناية المؤرخين

والادباء فحفلت اخبارهم وأخبار اماراتهم وحروبهم في كتب التاريخ والادب •

٢ ـ سكان الارياف :

وهم كاسلافهم من حيث قلة عناية المؤرخين بهم وان اهم ما ورد عنهم كان في كتب الجغرافية والرحلة ومرد ذلك الى رتابة حياتهم • وكانوا يسمون بالسوادية او الاكرة وكانوا من الانباط الذين كانت لغتهم الارامية ومن العرب الذين كانوا قبل التحرير في اطراف العراق الغربية ثم سكنوا في مناطقه المختلفة من الشمال الى الجنوب ومارسوا الزراعة ، وقد اصبحت للقرى رؤساء من القبائل التي سكنتها مما جعل الحكومة تعهد اليهم بمهام ادارة القرى والنظر في شؤون سكانها ، وبعد استقرار الحياة العباسية اصبحت القرى وحدات اجتماعية وادارية واقتصادية تخضع للاشراف الحكومي باشكاله المختلفة من قبل الولاة والمفتشين الماليين ووكلاء رجال الدولة ان كانت القرى في اراضي تعود ملكيتها لهؤلاء • كما ان الصلة الدينية كانت موجودة بين مركز الخلافة والقرى حيث كانت الحكومة ترتب ائمة المساجد وخطباءها او مشايخ الصوفية في الربط الكائنة فيها فقد بنى الخليفة الناصر لدين الله رباطا للشيخ السهروردي في قرية المرزبانية على نهر عيسى والى جانبه دار وحمام وبستان ليسكن فيه كما ان سكان المدن كانوا يقصدون بعض الربط في القرى للتبرك باصحابها مثل قرية الزاوية بكورة الخالص حيث عاش محمد بن سكران ودفن ، وقرية ام عبيد كذلك من قرى واسط حيث الشيخ الرفاعي فضلا عن قرى اخرى مثل اوانا ، والعلث التي وجدت بها الربط وقد امتهن سكان بعض القرى الصناعة فضلا عن الزراعة فقد ورد عن بعض القرى مثل باقدارى القريبة من بغداد انه كان يصنع فيها نوع من الثياب القطن ، واشتهرت حربي كذلك بصناعة الثياب القطنية ، واشتهرت قرية سبن بصناعة الثياب الكتانية ، وقرية

الحظيرة بصناعة الثياب الكرباس ، وهي ثياب من القطن الابيض تحمل الى خارج العراق .

وهناك صناعات عراقية وجدت منذ عهود سابقة للحكم العباسي مثل صناعة الحصر من سعف النخل ، وصناعة البواري من القصب ، وصناعة الفخار باشكاله المختلفة كالخوابي والصحون والحباب من الطين . كما ان بعض القرى التي يسكنها اهل الذمة كانت تقوم بصناعة الخمور اضافه الى الاديرة الموجودة في المناطق الريفية المحاطة بالبساتين ومزارع الكروم .

أما الحاصلات التي كان سكان القرى يأتون بها الى المدن فكانت كل ما يستهلكه سكان المدن والبوادي كالحبوب والبقول (الخضروات) والفاكهة فضلا عن الحيوانات كالمواشي والطيور (الدجاج ، البط ، الدراج ، .. الخ) والجاموس ، والعلف كالتبن والبرسيم ، والحطب .

٣ ـ سكان المدن :

كان العرب يسكنون بعض المدن الواقعة على الفرات قبل التحرير ولما بنيت مدن جديدة بعد التحرير سكنوها مثل البصرة والكوفة وواسط وبغداد . كما انهم سكنوا المدن القديمة مثل الموصل وغيرها كما اسلفنا القول وتوسعوا بعد ذلك بالسكن في الارياف في المراحل التالية للتحرير ، وقد حافظوا على تنظيماتهم القبلية عند سكناهم المدن في اول الامر الا أن الروح القبلية خفت مع الايام لعدة اسباب منها عدم اعتماد الحكم العباسي على القبيلة عند قيامه ولمجيء اعداد كبيرة من الاعاجم للسكنى في المدن العراقية ولانتقال بعض السكان العراقيين من الانباط والاكراد اليها . واخيرا فان القبائل فقدت مركزها كقوات محاربة لاسيما بعد ان اسقطها الخليفة المعتصم من ديوان العطاء . هذه العوامل مجتمعة ادت بالقبائل العربية الى الامتزاج بسكان المدن المختلفة ومزاولة مختلف المهن فاصبح هناك

عامة تمارس الصنائع وأختلفت مستوياتهم المعاشية كما سيأتي بيانه في هدا المبحث .

ب ـ الدينية

كان المجتمع العباسي يضم المسلمين واهل الذمة من اليهود والنصارى والصابئة وكانوا منتشرين في جميع انحاء العراق باستثناء الصابئة الذين كانوا يسكنون جنوب العراق ثم نبغ منهم جماعة في بغداد وعرفوا كمترجمين واطباء وكتاب .

أما اليهود فكانوا يمارسون التجارة والصيرفة والصياغة وقد برز من النصارى بعض الكتاب والاطباء والمترجمين وقد عنيت بهم الدولة العباسية وجعلت ديوان الجوالي مختصا بأمرهم . وقد عاش اهل الذمة حريتهم كاملة يمارسون طقوسهم الدينية واعيادهم التي اصبحت معروفة لدى المسلمين ايضا كما كانت لهم مزاراتهم واديرتهم ومعابدهم المنتشرة في مدن العراق ، وفي الارياف . وهذا يعكس روح التسامح عند المسلمين في كل بلادهم . ولا يفوتنا ان نذكر طائفة دينية عاشت وما تزال قرب الموصل وهي الطائفة العدوية (او اليزيدية) وقد اخذت اسمها من عدى بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحكم الاموي .

ج ـ المالية

اننا يجب ان نقر باديء ذي بدء بانه لا توجد حدود تفصل فئات المجتمع بعضها عن بعض او تحول دون انتقال الفرد الطموح من موقعه الواطيء الى موقع سام فكان المال ظاهريا يجعل المجتمع بشكل عام ينقسم الى ثلاثة اقسام ، أصحاب الثراء الذين يتربعون في القمة وهم الخليفة وكبار رجال الدولة والتجار وأصحاب الاراضي ،ومتوسطو الحال وهم دون الاثرياء وفوق الفقراء.

وأن الامر المؤكد كما تظهره كتب التأريخ والادب بشكلها الواسع ، سعة الهوة بين الفئتين المعدمة الفقيرة والثانية الغنية المترفة، فالفئة الغنية وعلى رأسها الخلفاء والامراء والسلاطين كانت تملك الضياع والبساتين في مناطق مختلفة من العراق وكان لهم وكلاء يديرون شؤونها . لذلك كان الخلفاء والامراء يهبون منها للشعراء وللمقربين اليهم ، ويبالغون في العطايا والهدايا كحال المهدي والرشيد والمتوكل والمقتدر وغيرهم . وكان هذا دأبهم طوال حكمهم .

وقد كانت للخلفاء وابنائهم وزوجاتهم القصور التي بنيت في الجانب الغربي اولا ثم في الجانب الشرقي فكان للمأمون قصر وللمعتصم ولوزرائهم كالحسن بن سهل وبعض الهاشميين ولما كانت قصور الخلفاء متقاربة احيطت بسور خاص اطلق عليها اسم حريم دار الخلافة . اصبحت مقر الخلفاء طوال عمر الدولة العباسية باستثناء الفترة الممتدة ما بين ٢٢١ - ٢٧٩هـ / ٨٣٥ = ٨٩٢م التي اتخذت فيها سامراء عاصمة وعاش فيها الخلفاء (المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد) . وبنوا فيها القصور وشاركهم في البناء اتباعهم ونساؤهم وامهاتهم ولقد كان المتوكل من بين هؤلاء الخلفاء اكثرهم ولوعا بالبناء لذلك بنى في سامراء جملة قصور ، ووسع ما ورثه منها عن اسلافه وكانت تلك القصور مزدانة بنقوشها وهيئتها الفنية وما يحيط بها من بساتين تتخللها احواض المياه وهي : البركة والوحيد والبهو والقلائد والقصر والجوسق والتل والغريب والمليح واللؤلؤة والشاه والعروس والبديع والشبداز والمختار والبرج والغرد وكورا والحير والصبيح وقصر الايتاخية (في المحمدية) والجعفري ، والجعفري المحدث ومدينة المتوكلية ، وقد صرف على بناء قصوره الجديدة او التي قام بتوسيعها وتزيينها اموالا خيالية .

وقد اختار المتوكل لسكناه قصر الهاروني من بين قصور المعتصم وفضله

عليها جميعا ، واسكن ابنه المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني وابنه ابراهيم المؤيد في المطيرة ، وابنه المعتز في بلكوارا • وقد انتقلت هذه القصـور من خليفـة الى خليفـة بالوراثـة مع الحكـم •

كما بنى الخليفة المعتز قصر الكامل ، والساج ، وبنى الخليفـة المعتمد قصر المشوق ، والاحمدي والمعشـوق •

وقد اطنب الشعراء امثال ابن المعتز والبحتري في وصف تلك القصور وابانت اشعارهم في وصفها علو جدرانها التي ترى من بعيد وتهدي السارى في الليلـة الظلماء وانها ذات رياض وجداول • وقد طليت سقوف بعضـها بالذهب وبلطت ارضـها بالرخام وازدانت جدرانها بالزجاج وزينت بركهـا بالتماثيل والصور •

فمما قاله البحتري في قصري المليح والصبيح عند مدحه للمتوكل •

واستتم الصـبيح في خير وقت　　فهـو مغنـى انس ودار مقـام
ناظر وجهـه المليح فلو يسـ　　طيـع حياه معلنا بالسـلام
البسـا بهجـة وقـابل ذا ذاك　　فمـن ضـاحك ومن بسـام
كـالمحبـين لـو اطاقـا التقـاء　　افـرطـا في العنـاق والالتـزام

وقال ايضا يصـف قصر الجعـفري :

اصـبحت بهجـة النعيم وامسـت　　بين قصر الصـبيح والجعـفري
في البنـاء العجيـب والمنـزل الا　　نس والمنظـر الجميـل البهـي
ورياض تصـبو النفـوس اليهـا　　وتحيـا بنورهـن الجنـي
دار ملـك مختـارة لامـام　　احـرزت كفـه تـراث النبي

ومما قاله ابن المعتز في وصف قصر ابيه الكامل :

والكامـل الفرد لا انيس بـه　　بعـد ملـوك جحاجـح نجـب

يضـحك نقش الرخـام فيه الى سـقف بنار الا بريـز ملتهـب
عهدي بـه وهو آهـل بهـج غـد بفجـع الايام والنـوب
تخطر فيـه اسـود مملكـة حـول امام بالتاج معتصـب
ثم طغت اسـده فقد مسـخت يوما ينادين فيـه بالحـرب

وبعد عودة الخلفاء الى بغداد اهتموا بقصور دار الخلافة التي كانت لهم ولاولادهم وجواريهم وحرسهم فضلا عن حديقة الحيوان وكان يعمل في تلك القصور عدد كبير من الطباخين والخدم وبعض اصحاب الصنايع والوكلاء الذين يقومون بالاعمال نيابة عن الخلفاء او زوجاتهم وابنائهـم •

وقد عاش الخلفاء ومن حوتهم قصور الخلفاء عيشـة ناعمـة مترفـة واطلقت على مجموع قصورهم في الجانب الشرقي اسم حريم دار الخلافـة والاصل فيه القصر الحسيني على دجلة في الجانب الشرقي منها ، وكان هذا القصر لوزير المأمون الحسن بن سهل ثم ورثته بوران (خديجـة) ابنتـه ثم اصبح للمعتضد بالله الذي بادر باضافة ما جاوره اليه وبذلك وسـعـه وكبره وعمل عليه سـورا حصنه به ، ثم لما قام المكتفي بالله بعده بنى قصر التاج على دجلة ايضا ، وعمل وراءه قبابا ومجالس وتناهى في توسـعتـه وتعليته ، ثم تولى المقتدر بالله الخلافة فزاد في ذلك مما انشأه واستحدثـه فاصبحت القصور متجاورة متصلة مثل قصر الثريا ، والميدان ، وحير الوحش (حديقـة الحيوان) •

وقد أعجب بقصر الثريا الشاعر ابن المعتز فوصفه بشعره مصورا جماله وما كان يشتمل عليه من جدران ساطعة وسقوف لامعة وجنان وارفة ورياض غناء وميدان واسـع :

مـا للثريـا شـبيـه فيمـا بنـى قط بانـي
حيطانـه مـن نـور والسـقف مـن نيـران

واغصـــــن مـــا ئســـــان | للعـــــين بـــين جنـــــان
والمـــــاء يغـــدو عليهـــــا | في جـــدول ريـــــــان

وله فيه ايضـــــا :

جنان وأشـجار تلاقت غصـونها | فأورقن بالاثمار والورق الخضر
ترى الطير في اغصـــانهن هواتفا | تنقـل مـن وكر لهـن الى وكـر

ومنهـــــا :

وبنيان قصر قد علت شرفاتـــه | كصف نســاء قد ترجعن في الازر
وانهار مــاء كالسلاســل فجرت | لترضـــع اولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه | فيؤخذ منها مـا يشـاء على قدر
اذا مـارأت مـاء التريا ونبتـــه | نسين وثوب الكلب فيهن والظفر

وكانت دار الخلافة بمرافقها المختلفة على عهد الخليفة المقتدر تسـع الاف الجند والخـدم مقسـمين الى فرق ولـكل فرفـة او طائفة واجبـات محددة • لهذا عدت دار الخلافـــة بقصـورها ومرافقها مسـاوية لمدينـــة شيراز وذلك في اوائل القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) • أما على عهد الرحالة الاندلسي ابن جبير فكانت حوالي ربع بغداد مساحة وكانت لدار الخلافة رسوم متبعة لمن يروم دخولها من الزوار او أصحاب الحاجات كأن يلبس لباسا خاصا وان يسلك سلوكا معينا، ويمر بالحجاب والموظفين والحرس وهذا ما دعا المؤرخ الصابي لتأليف كتابه (رسوم دار الخلافة) موضحا مايجري فيها من امور يومية وذاكرا ما كانت تحويه من خدم وحرس وغير ذلك •

ان الصورة الحية الزاهية لدار الخلافة عاصمة الخلافة الاسلامية ومركز الحكم فيها تتجلى بالخبر المستفيض عن زيارة رسول ملك الروم لبغداد في عهد المقتدر بالله عام ٣٠٥هـ / ٩١٧م مصاحبا من قبل والي الثغور التامية

عدي بن احمد الطرسوسي ، ومترجم ينقل اليه كلام الخليفة ، وعنه الى الخليفة او رجال الدولة .

وقد فرشت الدار بالفرش الجميلة وزينت بآلات وأثاث ، ورتب الحجاب والفراشون على طبقاتهم ورتبهم في ابوابها ودهاليزها وممراتها وصحونها ومجالسها واوقف الجند وكان عددهم ١٦٠ الف بين فارس وراجل صفين بالثياب العسكرية الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبايديهم الاسلحة المختلفة ورتبوا من اعلى بغداد عند الشماسية حيث كان قد انزل في دار هناك تسمى دار صاعد الى قريب من دار الخلافة وبعدهم وضع الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية ، والبرانية وكان الخدم سبعة الاف خادم ، منهم اربعة الاف ابيض وثلاثة الاف اسود رتبوا الى دار الخلافة قرب مكان الخليفة وهم يرتدون البزة الرائعة والسيوف والمناطق المحلاة .

كما عبئت سفن دار الخلافة امامها في دجلة وزينت كترتيب الجند فكانت الشذاءات والطيارات والزبازب ، والزلالات . ولما وصل الرسول الى دار الخلافة مر بـه على دار الحاجب ورأى الحجاب وكان عددهم ٧٠٠ حاجب فظن أنه مكان الخليفة ثم أخذ الى دار الوزير فراى ابهة اكثر مما رآه للحاجب فلم يشك انه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير ثم أدخل الى دار الخيل التي تكثر فيها الاروقة ذات الاساطين الرخام وقد رتبت فيها الخيل فكان في الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهب وفضة وفي الجانب الايسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة . ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بـ (حير الوحش) حديقة الحيوان فكان فيها من اصناف الحيوان الفيلة ، والاسود ثم اخرجوا الى الجوسق المحدث وهي دار بين البساتين في وسطها بركة رصاص (احسن من الفضة المجلوة) يتصل بهذه البركة نهر من الرصاص ايضا وكانت البركة ٣٠ ذراعا في ٢٠

ذراعا وفيها سفن صـغيرة فيما يبدو للزينة من نوع الطيارات ، لها مجالس مذهبة وقد زينت بالدبيقي المطرز ، وعلقت فيها ستور دبيقية مذهبة وكان حول هذه البركة بستان بميادين فيه نخل يصل عدده الى ٢٠٠ نخلة طول كل واحدة خمســة اذرع وقد غلفت جميع النخل بخشب الساج المنقوش مـن أسفلها الى أعلاها ، وزينت جذوعها ايضا بحلق من شبه مذهبة . وكان النخل حاملا غرائب التمر ، وكان في البستان من أشجار الفواكه الغريبة النادرة عدد كبير ثم اخرجوا الى دار الشجرة ، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صـاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة و مفضضة ، واكثر الاغصـــان من الفضـة ، وبعضـها من ذهب وهي تتمايل في اوقات ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر وكانت هذه الطيور والعصافير تصفر وتهدر .

وفي جانب البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسـا البسوا الديباج وغيره ، وفي ايديهم الاسلحة يدورون على نسق واحد خببا وتقريبا فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد . وفي الجانب الايسر مثل ذلك ثم ادخلوا الى القصر المعروف بالفردوس ويبدو انه مخزن للسلاح أذ كان فيه اضافة الى الفرش ما لا يحصى من الآلات والجواشن وهي الدروع وكانت مذهبة ومعلقة وقد بلغت عشرة الاف درع ، والدرق (جمع درقة) والخـوذ ، والبيض (جمع بيضـــة) ، والدروع ، والزرديات ، والجعب المحلاة والقسي . وكان في ممرات هذه الدار حوالي الفين من الخدم البيض والسود واقفين على جانبي الدار . ثم بعد ان طيف بالوفد ثلاثـة وعشرين قصرا أدخلوا الى الصحن التسعيني وقد رتب فيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبزة الحسنة ، والهيئة العامـــة .

ودخلوا بعد ذلك دار السلام ومنه الى التاج حيث الخليفة . ونظرا لطول

مدة تجوال الوفد اجلسوا سبع مرات للاستراحة . وكان الفراشون يقدمون لهم الماء المبرد بالثلج وانواعا من الاشربـــــة .

ولما مثل الوفد بين يدي الخليفة وجدوه لابسا الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب وهو جالس على سرير من ابنوس قد فرش بالدبيقي المطرز بالذهب ، وقد زينت القاعة بانواع العقود حيث كان عن يمين السرير تسعة عقود مثل الســبح معلقــة وعن يسرتــه تســعــة اخرى من افخر الجواهر واعظمها قيمـــــة .

ويبدو أنها قناديل للاضاءات لان الخطيب البغدادي ذكر في جملــة ما اورده أن هذه العقود كانت « غالبة الضوء على ضوء النهـــار » .

وكان الى جانب الخليفة خمسة من الاولاد ، ثلاثة وقفوا يمنة واثنان يسرة . والى جانبـــه مترجمان عــن الخليفـــة هما مؤنس الخادم ، ونصر القشـــــوري .

وبعــد ان ادى الوفــد الرســالــة ، وتلقى جوابها مــن الخليفــة الى الامبراطور، اخرج الوفد من باب الخاصة الى دجلة حيث نقلتهم الشذوات (جمع شذى) الى دار صاعد في الشماسية وحملت اليها الهدايا فكانت خمســين بدرة ورقا في كل بدرة خمسة الاف درهـــــم .

وقد استمرت دار الخلافة على سعتها في عهودها الاخيرة . اذ اصبح فيها مكان (دار الوزارة) ، و (دار القضاة) ، وقد لمعت فيها شــخصية استاذ الدار في عهد الدولــة العباسية الاخير فلم يعد مجرد مشرف على امور دار الخلافــة بل اصــبحت له مكانـــه وســـلطة تعدت ســلطة الوزير احيانــــا .

اما السلاطين البويهيون والسلاجقة فقد كانوا ينزلون عند مجيئهم الى بغداد في (دار المملكة) الواقعة الى الشمال من بغداد وكانت تقع على دجلة .

وقد بنيت لتسع وزراء وكتاب وجند هؤلاء السلاطين فضلا عن بستانها المحيط بهـــــا .

وكانت في الاصــل دارا لحاجب معز الدولة (ســبكتكين) ثم اخذها معز الدولة وأمر بهدم جانب من الدار لتوسيع بستانها ثم أمر بازالة الطين من ارضها ووضع محله الرمل واراد نقل الماء من دجلة الى البستان بالدواليب فوجد ان ذلك يكلف كثيرا فعمل بنصـيحـة المهندســين على جلب الماء من اقرب نهـــر مــن الجانب الشرقي مـن بغـــداد ليســيح الماء لسقي البســتان ، ومـن أجل أن يصـل الماء الى البســتان كـان عليه ان يدفن ارضا واسعة تصل البستان بنهر الخالص كي يرفع مستواها . ثم شق في هذه الارض نهرا بعد ان دك ارضــه دكا ، وعندما قارب الدور المشــيدة هناك بنى له سورا بالآجر والكلس والنورة ، حتى وصل الماء الى البستان وقد كانت كلفة البناء حوالي خمسة ملايين درهم . وأما النفقة على الدار نفســها فهو مبلغ لا يقل عن مبلغ اجراء النهـــــر .

وقد اصبحت هذه الدار مقرا لسلاطين السلاجقـة ينزلون بها كلما جاءوا الى بغداد . واســتمر الخلفاء كما اسـلفنا في اول الكلام عن ثرائهم يمتلكون الاراضي والثروات فمما ورد عــن خلفائهم المتأخرين ان الناصر لدين‌الله جمع من النقود مقدارا كبيرا حيث بنى له بركة وكان يأمل ان يملأها في حياته فمات دون تحقيق هذه الامنية وورثها المستنصر وكان امله ان يعيش كي يصرفها وكذلك فعـــــل .

وفضلا عن الخلفاء والامراء فقد كان كبار الموظفين كالوزراء وقادة الجيش وغيرهم يعدون من اصحاب الثراء وممن كانت قصورهم حافلة عامره بالخدم مليئة بالاثاث الفاخرة ، وممن كانت لهم الضـياع والبســاتين التي تدر عليهم المال الوفير فضلا عن الرواتب المقررة شهريا من الدولـة .

وقد اجرى للوزير في اوائل القرن الرابع الهجري (العاشرالميلادي) رزق مقداره خمسة الاف دينار ثم صارت سبعة الاف في كل شهر . ونظرا لمكانه الوزير في الدولة خصص لكل ولد من اولاده خمسمائة دينار في كل شهر .

وكان الوزير علي بن الفرات من الوزراء الاثرياء ، وكانت له هبات لحوالي خمسة الاف انسان ما بين مائة دينار الى خمسة دراهم اذ كان يعطي للشعراء ، ولمن يلم به وكانت مائدته تضم الوان الطعام يوضع ويرفع على المائدة اكثر من ساعتين وكان له في داره مطبخان ، مطبخ العامة الذي يختص بتقديم الطعام للحجاب المقيمين بالدار ، والبوابين ، والكتاب وغلمان اصحاب الدواوين ومطبخ الخاصة الذي يقدم الطعام له ولعائلته .

وكان يدخله من الحيوان من غنم ودجاج مالا يحصى كما كان في داره خبازون يخبزون ليلا ونهارا ، واخرون يعملون الحلوى ، ودار كبيرة للشراب يسقى فيه جميع من يدير الشرب وكان فيها الماء المبرد . وكان في الدار ادراج كثيرة لاصحاب الحوائج والمتظلمين فيها الورق والاقلام لمن يريد ان يكتب شيئا ليقدمه الى الوزير وكان الوزير حامد بن العباس (وزر عام ٣٠٦هـ/٩١٨م) ذا سعة ايضا وكانت داره حافلة بخدمها وروادها وكان لا يسمح لاحد بالخروج من داره مهما كانت منزلته اذا حضرت المائدة . وقد بلغ عدد الموائد في بعض الايام اربعين مائدة . وقد اهدى للخليفة المقتدر بستانا انفق عليه ١٠٠٫٠٠٠ دينار .

ومن الوزراء ذوي الثراء ايضا المهلبي . وقد استمر الوزراء يعدون من بين اصحاب الثراء طوال العصر العباسي فضلا عن الولاة وبقية الموظفين الكبار . اما الفئة المتوسطة فكانت تضم التجار الصغار ، وملاك الاراضي الصغار (التناء) والباعة واصحاب الحوانيت ، وصغار الموظفين ، وبعض الادباء والعلماء .

علما ان الكثير منهم عاش فقيرا معانيا مـن شـظف العيش مثل باقي الفقراء . والمهم القول انه لم يكن هناك حد قانوني يحدد فئات المجتمع الثلاث من حيث مستوياتهم المعاشية وكان الفقراء وذوو الدخول الواطئة كالصناع واهل الحرف والفلاحين ممن لا تكفيهم مدخولاتهم والذين سـنتناولهم في (الاعتبارات المهنيـة) .

د ـ المهنيـة

كان المجتمع العراقي وفق معيار المهنة ينقسـم الى ثلاث طوائف هي الخاصة ، العلماء والمثقفون ، والعامـة .

الخاصـة :

وهم الخليفة والامراء وحاشية الخليفة وذوو قرباه ورجالات الدولة البارزون كالوزراء والقادة والاشراف والقضاة والشهود علاوة على بعض اهل الفن الموهوبين المقربين من الخلفاء والامراء والسلاطين وبعض اهل الادب والعلم الذين عاشوا في اكناف الخلفاء ، كمؤدبي اولاد الخلفاء او من يتحفون الخلفاء والامراء بمروياتهم واحاديثهم او من ينشدون الاشعار في كل مناسبـة .

وممن كان يعيش عيشة مترفةمن اهل الفن الكبار ؛ ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق فقد كان لابراهيم بيت كبير ، وفيه سرداب يجري فيه الماء آتيا من بستان مجاور ، فاذا اراد الشرب في ايام الصيف نزل اليه وبات فيه وكان عيشه مرفها لما يحصل عليه من هبات الخلفاء وعطاياهم .

أما طعام ابراهيم فكان معدا في كل وقت . اذ كانت تهيأ لـه يوميا ثلاث شياه ، واحدة مقطعة في القدور واخرى مسلوقة ومعلقة ، ثالثة حية فاذا اتاه قوم طعموا ما في القدور ، فاذا فرغت قطعت الشاة المعلقة ووضعت في القدور ، وذبحت الحية فعلقت ، واتي باخرى حية في المطبـخ .

فكانت المبالغ المقدرة لطعامه وما يتخذه من كل شهر ٣٠٫٠٠٠ درهم سوى ما كان يجري من صلات ، وسوى كسوته ، أما امواله التي جمعها خلال حياته مضافا اليها غلات مزارعه وثمن ما باعه من جواريه فكان ٢٤ مليون درهم ، سوى ارزاقه الجارية (رواتبه) وهي ١٠٫٠٠٠ درهم في كل شهر وسوى غلات ضياعه ، وسوى الصلات النزرة التي لم يحفظها • فقد حصل من الرشيد في احدى المرات ١٠٠٫٠٠٠ درهم وفي مناسبة اخرى ١٠٠٫٠٠٠ درهم ايضا وفي ثالثة ٥٠٫٠٠٠ درهم وفي مناسبة رابعة ١٠٠٠ دينار •

وأما ابنه اسحاق فقد شب في قصور الخلافة وفي رعاية والده الفنان في عصر ازدهار العلم والادب لذا أصبح فقيها عالما شاعرا مجيدا واديبا طربا وجليسا حلو المعاشرة وعاش مترفا في حياته مقربا من الخلفاء •

أما جوائزه والهدايا التي حصل عليها من رجال الدولة فهي على الترتيب من الخليفة المأمون مرتين في كل شهر ١٠٠٫٠٠٠ درهم ومن المعتصم ٢٠٠٠ درهم وفي مناسبة اخرى ٣٠٫٠٠٠ درهم ومن الواثق ٣٠٫٠٠٠ درهم وخلعه من ثيابه •

يضاف الى اهل الفن الاطباء الذين خدموا الخلفاء والامراء والذين جمعوا ثروات طائلة امثال اسحاق بن حنين بن اسحاق (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) وثابت بن قرة الصابي المنجم والرياضي والفيلسوف(ت٢٨٨هـ / ٩٠٠م)والطبيب ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي (ت٣٦٥هـ/٩٧٥م) وثابت بن ابراهيم ابن زهرون الحراني (٣٦٩ هـ/٩٧٩ م) وكان مبلغ ثراء الطبيب جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد وحواشيه وافراد عائلته كثيرا لذلك وضع القفطي في اثناء ترجمته العنوان التالي (ثبت ما كان لجبرائيل من الرزق والرسوم والصلات) ورد فيها ان رزقه كان في كل شهر ١٠٫٠٠٠ درهم ، وان له في

المحرم من كل سنة ٥٠٠،٠٠٠ درهم وثياب بقيمة ١٠،٠٠٠ درهم وكان يفصد الرشيد مرتين في السنة فيعطيه عن كل مرة ١٠،٠٠٠ درهم وكان يسقي الرشيد دواء مرتين في السنة وله عنها ١٠،٠٠٠ درهم وكان يأخذ من اصحاب الخليفة كل سنة ٤٠٠،٠٠٠ درهم فضلا عن الكسوة والطيب ، يضاف الى ما تقدم غلة ضياعه في منطقة جند يسابور .

عاش هؤلاء الخاصة ضمن اصحاب الثراء نتيجة لارتفاع مستواهم المعاشي وكانوا يملكون الثقافة والمعرفة ، كما كان بعضهم من اهل الاختصاص في علم من العلوم .

العلماء والمثقفون :

وهم فئة متوسطة بين العامة وبين الخاصة وهم الذين يملكون العلم والادب بفروعهما المختلفة ، يبعدهم عن الخاصة كونهم ممن لا يمارس السلطان ولا يحضر مجالس الخلفاء ، وممن عانى شظف العيش . ويبعدهم عن العامة جهل هذه الفئة وبعدها عن المعرفة أما اعدادهم فقد ملأت بطون الكتب خلال العصر العباسي ما بين كاتب وشاعر ومؤرخ وفقيه ، ومتكلم ، ومحدث ، وطبيب وقد جمع الدلجي اخبار بعضهم ممن عرف بالفقر وعدم محالفة الحظ له بالتوفيق بكتاب عنوانه (الفلاكة والمفلوكون) فكان منهم : من اللغويين والنحويين الخليل بن أحمد الفراهيدي الازدي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م) وكان اماما في علم النحو ، وهو الذي استنبط العروض وعنه اخذ سيبويه وغيره . كان متقللا من الدنيا صبورا على العيش الخشن الضيق ولما كان والي فارس والاهواز أزديا وهو (سليمان بن حبيب بن المهلب بن ابي صفرة الازدي) لذا كان يرسل اليه مساعدات مادية . ولكن هذه المساعدات لم تنتشله من خصه الذي عاش فيه بالبصرة في وقت كان تلاميذه يكتسبون بعلمه الاموال . وتلميذه سيبويه الذي لا يقل شهرة عن استاذه عاش فقيرا

فيما يبدو حيث ورد في سيرته انه قدم بغداد فاكتشف انه لا يستطيع مزاحمة اللغويين والنحاة الموجودين فيها فسأل عمن يرغب من الحكام في النحو كي يعرض عليه بضاعته الا أن الوفاة ختمت حياته قبل لقاء واحـد منهم عـام ١٨٠هـ • والمازني بكر بن محمد ابو عثمان وكان احد الائمة في النحو ، من اهل البصرة عاش فقيرا ذا فاقة وتوفي بالبصرة عام ٢٤٩ هـ /٨٦٣ م ونحوى اخر عاش الفقر وشكى زمانه وهو ابو العباس احمد بن الحسين النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز المتوفي عام ٣٣٠هـ / ٩٤١م والسيرافي ابو سعيد الحسن بن عبدالله المرزبان النحوي الذي صنف المؤلفات وكان لا يأكل الا من كسب يده في نسخ الكتب توفي عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م •

ومن الادباء المؤرخين ابن الانباري عبدالرحمن بن محمد الذي بلغت تآليفه ما يزيد على مائة مؤلف ، كان ممن اكتفى من عيشه بالخشن مع التقلل توفى عام ٥٧٧ هـ•ومن الفقهاء احمد بن محمد الأبيوردي المتوفى عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٢ م ورغم أنه تولى القضاء لفتـرة ، والافتاء في جامع المنصـور ودرس الحديث ، وقال الشعر الا انه كان صبورا على الفقر كاتما له • ومن الجغرافيين الادباء المؤرخين ياقوت الحموي البغدادي صاحب كتاب (معجم البلدان) و (معجم الادباء) وغيرهما من المؤلفات عاش في اخريات ايامه فقيرا بالموصل توفي عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م •

العامـــة :

وهم الفئة الواسعة من المجتمع، وتقابل لفظة الرعية المحكومة من قبل ذوي السلطان • ولقد اطلقت عليهم تسميات كثيرة للتدليل على كثرتهم فقيل غمار الناس وخمار الناس • كما اطلقت عليهم تسـميات اخرى لتجعلهم رعيـة محكومين لا حاكمين فقيل الغوغاء ، والجماهير الدهماء ، والسواد الاعظم ، كما اطلقت عليهم تسميات تظهر قلة ثقافتهم او شيوع الجهل فيهم مثل الاغتام

اي الذين لا يستطيعون الافصاح وقيل عنهم لضآلة شأنهم بأنهم حثو الناس أي صغارهم وخمان الناس ، وخشارتهم اي سفلتهم والهباء من الناس اي الذين يشبهون الذر الذي يظهر في ضوء الشمس •

واطلقت عليهم اخيرا صفات الفقر مثل الغرثى من الناس اي الجياع • هذه صفات العامة كما يراها العلماء والادباء واصحاب السلطان وهم متدرجون في مستوياتهم المعاشية ما بين المعدمين المتسولين واهل اليسار • ولكن ابرز صفنين لازمتا العامة طوال العصر العباسي الفقر والجهل •

وكانت هذه الفئة من المجتمع تضم الفلاحين والجند ، وصغار التجار والباعة وأصحاب الصنائع كالحدادين والنجارين والخياطين والبنائين والنساخين والمطاربين والصباغين والجزارين وسائسي الخيل ، والاسكافيين ، والحاكة والرفائين ، والمطرزين ، والحصريين والنحاسين ، والطحانين •

وهكذا وجدنا المجتمع العراقي متداخل الصلات والروابط فلم يكن هناك معيار معين يقسم الناس بموجبه لا المال وحده ، ولا النسب وحده ، ولا الثقافة وحدها ، بل كانت جميع الاعتبارات السكنية والدينية والمالية والمهنية تعمل على اقامة الصلة بين ابنائه ، ولا تحول دون انتقال الفرد من موقعه الى موقع اهم ، او مركز اعلى •

الاحوال المعاشية

الطعــــام

تطور المجتمع العباسي خلال الحقب المتوالية فشاع البذخ والتأنق في الطعام والميل الى العيش المرفه • وقد تظافرت جهود مجموعات من الناس للوصول الى هذا المستوى كالتجار الذين يجلبون بعض اصناف الطعام أو مطيباته من بلاد أخرى والطباخين والشرائبيين (صانعو الشرائب) والاطباء ، والادباء • فضلا عن رغبات اهل اليسار • فكان لجهود جميع هؤلاء شيوع

انواع كثيرة من الاطعمة التي اخترعوها او طوروها . لذلك الفن كتب كثيرة في الطبيخ نتيجة لهذا الاعتناء بالطعام ، وبغية اثارة خيال المرفين ودفع بلذ شهوتهم الى الطعام فضلا عن شيوع العرف الذي كان سائدا آنذاك عند الندماء وارباب المجالس وهو وجوب معرفة الوان من الطبيخ ومعرفة كيفية صنعها وما يضاف اليها من الوان المشهيات حسب الظروف والمناسبات وفي هذا يقول كشاجم (ت ٣٦٠هـ) : رأيت الملاح من اهل هذه الطبقة (أي الندماء) يقولون ان من لم يشد عشرة اصوات ويحكم من عمل الطبيخ عشرة الوان لم يكن عندهم ظريفا كاملا ولا نديما جامعا .

وقد اورد لنا ابن النديم اسماء بعض من الف في الطبيخ وهم محمد بن الحارث بن بسخنر ، وابراهيم بن المهدي (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) ويوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٧م) ، وابراهيم بن العباس الصولي (ت ٢٤٣هـ ٨٥٧م) وعلي بن يحيى المنجم (حوالي ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) ومخبرة واحمد بن الطيب وكان معاصرا للمعتضد (٢٧٩هـ / ٢٨٩هـ) (٨٩٢ - ٩٠١م) واحمد بن موسى البرمكي المشهور بجحظة (ت ٣٣٤هـ / ٩٣٥م) وابو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت حوالي ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) فضلا عما ذكره ابن النديم فقد جاء ذكر آخرين ممن الف في الطبيخ كحنين بن اسحاق (ت ٢٦٠هـ ٨٧٣م) الطبيب النصراني الذي الف كتاب (الاغذية) و (الات الغداء) وابن مندويه الاصفهاني (ت ٣٧٢هـ / ٩٨٢م) وكان احد اطباء البيمارستان العضدي واسم كتابه (الطبيخ) والمؤرخ المسعودي (ت ٣٤٦هـ ٩٥٧م) ممن الف في هذا الموضوع أيضا ، وقال بانه «كتب عن الطعام ،ووصف اداب الطبيخ ، مما يحتاج التابع الى معرفته والاديب الى فهمه .. » وكذلك ذكر للمؤرخ مسكويه (ت ٤٢٠هـ / ١٠٣٩م) كتاب في الاطعمة . وصفه القفطي بانه « قد احكمه واتى فيه من اصول علم الطبيخ وفروعه بكل غريب حسن » . وهذه العبارة الاخيرة التي قالها القفطي ناقدا كتاب مسكويه

نعكس مرة اخرى مدى اهتمام العراقيين بتجويد طعامهم • ومن الكتب التي وصلت الينا عن الطبيخ كتابان أحدهما مخطوط والاخر مطبوع • أما المخطوط فهو لابي محمد المظفر بن نصر بن سيار الوراق واسمه (كتاب الطبيخ واصلاح الاغذية المأكولات) وهو كتاب يركز كثيرا على الناحية الطبية في الطعام لذلك اهتم بذكر خواص الاغذية ومنافعها ومضارها للناس حسب امزجتهم وحالاتهم الصحية وأما الكتاب المطبوع فهو كتاب (الطبيخ) لمحمد بن الكريم الكاتب البغدادي (الفه سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) •

اضافة الى الكتب المذكورة فان كتب الحسبة قد أمدتنا بمعلومات قيمة عن الطعام في المجتمع العباسي ولا سيما الذي يباع في الاسواق • والطعام في المجتمع العباسي على ثلاثة انواع نوع يمكن تسميته بانه طعام رخيص بسيط وهو طعام الفقراء والمعدمين ، واخر معقد التركيب يكلف غاليا لما يحتاج اليه من الات ومطيبات وجهد وهو طعام الاغنياء وكبار موظفي الدولة • وطعام ثالث يمكن وصفه بانه طعام شعبي شائع بين الناس جميعا رغم اختلاف مستوياتهم الاقتصادية •

ا ــ الاكلات البسيطة الرخيصة :

ضرب الزهاد والصوفية ارقاما قياسية في صبرهم عن الطعام او اكتفائهم بالقليل النزر منه ، وكان من رأيهم ان الانسان اذا اكل الخبز من حلاله وصبر على الاذى وترك الشهوات فقد اخذ بأصل الزهد ، واعتقد بعض الصوفية بانهم يجب الا ينتبهوا الى الرزق وذلك ان الله يبعث لهم رزقهم من دون ان يسعوا اليه •

هذا ما يسمونه بالتوكل فلو قال رجل للصوفية محتجا على اعتقادهم في التوكل من اين اطعم عيالي ؟ لقالوا قد اشركت ، واصبح الجوع صفة لازمة لهم ، وأعتبروه ركنا من أركان المجاهدة • لذلك دأبوا على المران

عليـه ووجدوا ينابيع الحكمـة في الجوع • وخير مثال على هؤلاء الزهاد المتصوفة بشر الحافي (ت ٢٢٧هـ / ٨٤١م) الذي كان يأبى أن يأخذ طعاما من احد خوفا من أن يكون ثمنه قد حصل عليه بطرق غير شرعيـــة •

لذلك قال ذات يوم « اني لأشتهي شواء منذ اربعين ســنة ما صفا لي درهمه» ولم تكن حال بعض الفقهاء باحسن من حال الصوفية فهذا احمد بن محمد الفقيه الابيوردي (ت ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م) احد فقهاء الشافعية والذي ولي القضاء ببغداد فضلا عن تدريسه في قطيعة الربيع (وعنده حلقة للفتوى بجامع المنصور) جاء عنه أنه كان يصوم الدهر ، وأن غالب أفكاره كان على الخبز والملح من شدة فقـــــره •

وكان طعام الفقراء يتكون من اللحم ، والخبز ، والدبس ، والزعفران ، والخل ولكن أذا خدم احدهم في دور الخلافة او دور الوزراء أو أصحاب الشأن فان طعامه ســـيكون مما يأكل هؤلاء وهو بذلك احسن من زملائه واقرانـــــه •

وكان الناس يتعاونون فيما بينهم وخاصة الجيران فاذا طبخ أحدهم غرف لجيرانه حتى وأن كان ما يطبخه مرقا أو يكون أطعام الجار من قبيل المجاملة • ولم يكن الفرد يحافظ على نفس الطعام أذا تحسنت حالته الاقتصادية بل يعمد الى تحسينه ، فهذا أبن القزويني الزاهد كان طعامه في بيته يتكون من باذنجان ، وخل وباقلاء ودبس فضـــلا عن الخبز ، فلما أعطاه الخليفـة القادر بالله سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م مائتي دينار اسرع الى تغيير طعامه فبدأ يأكل الفراريج ، والخبز السميذ (المنقى من النخالـة) والدجاج المشوي • أمـا المساكين وأبناء الســبيل الذين اتخذوا المســاجد والربط والخرائب بيوتا يأوون اليها فقد كانوا يأكلون مما يتصدق به الحكام عليهم وارباب الدولة والناس سواء في المناسبات الدينية او في غيرها كالصدقات التي يقدمها الناس بعد الشفاء من مرض او بعد عودة مسافر او غائب من قبيل الشكر لله •

فمن امثلة صدقات رجال الحكم في العهد العباسي في المناسبات الدينية او غيرها ما جاء عن الخليفة القادر بالله (٣٨١هـ - ٤٢٢هـ / ٩٩١ - ١٠٣٠م) أنه كان يقسم الطعام الذي يقدم لافطاره الى ثلاثة اقسام ، قسم يتركه بين يديه وقسم يحمل الى جامع الرصافة وقسم الى جامع المنصور (جامع المدينة) فيفرق على المجاورين فيه . وقد توزع الملابس الى جانب الطعام كما حصل في عيد سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م من قبل الوزير فخر الملك (ت ٤٠٧هـ / ١٠١٦م) وعندما مرض الوزير نظام الملك سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م عالج نفسه بالصدقات، كما يعتقد ، لهذا كان يجتمع في مدرسته النظامية عدد كبير من الفقراء والمساكين وفي هذه المناسبة كان رجال الدولة يجاملون الوزير فيتصدقون عنه ايضا . عرف عن هذا الوزير كثرة صدقاته على الفقراء من غير مناسبة ايضا فكان يأمر بتوزيع الحنطة ببغداد أضافة الى مبلغ ١٨٫٠٠٠ دينار سنويا .

وكان بعض الوزراء تدفعه اريحيته دون أن تكون هناك مناسبة للتصدق على الفقراء والمعوزين كما حدث لوزير المقتدي ابي شجاع الروذراوري في سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م عندما طلب من حاجبه أن يعمل له قطائف (نوع من الحلوى) فلما جاء بها اليه واكل بعضها تذكر أن هناك نفوساً تشتهي القطائف ولا تقدر على شرائها لذلك امتنع عن مواصلة الاكل وامر الحاجب أن يوزع تلك القطائف على الفقراء وجاء عن الوزير ابن هبيرة (٤٩٩ - ٥٦٠هـ / ١١٠٥ - ١١٦٤م) انه كان يقيم الولائم للفقراء ويصنع فيها انواعا من الطعام وكان فيمن يحضرها العميان .

أما اهل الكدية والمتسولون فقد كانوا يستجدون من الناس ويأخذون طعامهم عن طريق الطواف على الدور وقد استعملوا طرقا مختلفة لاستدرار عطف الناس عليهم أو للاحتيال احيانا ولهذا اصبحت لهم أسماء مختلفة باختلاف اساليبهم في الكدية او الاحتيال وقيلت فيهم الاشعار التي تصف

طرقهم وتذكر اصنافهم كما انهم اصبحوا موضوعا شيقا لاهل الادب الذين الفوا عنهم الكتب ولا سيما كتب المقامـــات .

ب ـ الاكلات المترفـــة :

وهي الاطعمة المعقدة التي تحتاج الى ادوات كثيرة والات مختلفة آي المواد التي تسمى (الابازير) التي تطيب الطعام وتزيده نكهة . ومن البديهي أن تكون مثل هذه الاكلات غالية الثمن لا يقدر عليها الفقراء ومن امثلـــة هذه الاكلات : الدجاج والمضيرة والسكباج والاسفيدباج والديكبراكة ، والحصرمية ، والكشكية ، والرمانية ، والعدسية ، والمهلبية .

ج ـ الاكلات الشعبية الشائعة :

وهذه الاكلات كثيرة ومتنوعـة وهي كما قلنا في مسـتهل كلامنا عن الطعام بانها تؤكل من قبل الناس على اختلاف مستوياتهم المالية وتشـمل : السمك بانواعه ، الباقلاء ، والهريسة ، والعصيدة ، والثريد ، والارز مع اللبن ، أو الارز مـع السـكر ، أو مـع السـمن ، والكباب ، والرؤوس والاكارع .

د ـ المشهيات والتوابع :

وهي ما سبق الطعام او تخلله او وضع بعده والتي تندرج تحت العناوين الاتيـــة :

١ ـ المشـــهيات :

وهي مـا يدخل في تركيب الطعام فيزيده نكهة ويجود في طعمـه أو لا يدخل في تركيبه وانما يؤكل مع الطعام فيزيد في شهية الاكل .

فمن الاطايب :

المسك والعنبر ، والعود ، والزعفران ، والقرنفل ، والكبابة .

ومن الثمار اليابسة :

اللوز ، والجوز ، والفستق ، والبندق ، والصنوبر والزيت ، والتمر ، والجوز هند ، والعناب .

ومن الفواكه الرطبة :

الرمان الحلـو ، والرمـان الحامض ، والتفاح ، والتفاح الحامض ، والريباس ، والحصرم ، والاجـاص الاسـود ، والموز ، والتفاح الشـــامي والبطيخ ، والمشمش .

ومن الحلوى :

وهي نوع من المخللات تشمل كامخ اللبن ، وكامخ الثوم ، واللبن المرى (الما كامخ) .

ومن الحبوب :

كالحمص والباقلى ، والارز ، والعدس ، واللوبياء ، والماش .

ومن البقول :

كالبصل والثوم والكرفس ، والكراث ، والنعناع ، والسلق ، والسذاب والكسفرة ، والشبت ، والصعتر ، والفجـل .

ومن الابازير :

كالفلفل ، والكسفرة اليابسة على ان تكون خضراء اللون والكمون ، والكراويا ، والزنجبيل ، والدار صيني والمصطكي ، والملح .

ومن المخللات :

وهي انواع كثيرة تستعمل مع الاطعمة ولم يكن عملها مقصورا على زيادة الاكل بل لكي تقل دهاتتـه في الفم وتساعد على هضمـه في المعدة ، كالنعنع المخلل ، والباذنجان المخلل ، واللفت المخلل ، والباذنجان المحشي ، وكذلك الخيار ، والقثاء ، والبصل المنقوع في الخل .

٢ ـ الخبز :

وكان المادة (ولا يزال) التي تدخل في كل وجبة وهو الذي لا يمكن لاحد الاستغناء عنه سواء كان فقيرا او غنيا ولكن الخبز لم يكن يصنع بشكل واحد ، بل باشكال مختلفة ومن مواد مختلفة فهو من حيث الصنع البيتي ، واخر سوقي اي يصنع ويباع في السوق في دكاكين خاصة ، وكان الناس يفضلون البيتي لجودته .

وأما انواع الخبز من حيث المادة المصنوعة منه فاول هذه الانواع واجودها خبز الحنطة ، وهو على أشكال أيضا فمنه الذي ينقى طحينه من النخالة فهو خبز الحواري او السميذ ، وأما أذا لم ينق من النخالة فهو الخشكار .ويأتي بمرتبة ثانية من حيث طراوته ونقاوته ، ولكنه من حيث فوائده الصحية يأتي بالمرتبة الاولى لانه (يوافق كل الامزجة) وأما الانواع الاخرى فهي خبز الدخن وخبز الذرة ، وخبز الارز ، وخبز الشعير .

وفضلا عما تقدم فان الاغنياء قد تفننوا بصنع انواع اخرى من الخبز كان يصنع على هيئة القناني ، أو اقراص أو يحشى باللبن ، والعسل ، والسكر واللوز ويطيب بالمستكي ، وهذه الانواع من الخبز كانت تسمى باسم مخترعها او المعمولة له . وقد عرفوا صنع الكعك ولا سيما في بغداد .

٣ ـ الفواكه :

وتقدم قبل الطعام مثل الاعناب بانواعها المختلفة (كالسرناي والخمرى، والملاحي ، والرازقي) والتمور بانواعها (كالازاذ ، والفراشة ، والخستوى والبرني ، والعلك اللزج ، والمصنع الابراهيمي ، والبسر المطبوخ) .

٤ ـ الحلوى :

وكانت تقدم عند الانتهاء من الطعام ، وهي أنواع مختلفة في الوانها

وتركيبها ، ولا يمكن ضبطها بصفة ولا عيار ، ومشتقاتها لا تقل عن انواعها الاصلية كثرة فهي من حيث التركيب نوعان بسيط ومعقد •

أما الحلوى البسيطة التركيب والرخيصة فهي التمر الذي اعتبر فاكهة كما اعتبر حلوى ، والعسل والدبس والقند وهو عسل قصب السكر • أما الحلوى المعقدة مثل خبيص السكر وخبيص القرع ، وخبيص الجزر ، وخبائص اخرى ، والخشكنانج ، والارنين ، والناطف ، وكعب الغزال ، والصابونية والزلابية ، والسبنوسج والقطائف ، والنظائر ، اللوزينج ، والفالوذج •

٥ ـ الاشربة :

وكانت كثيرة الانواع ، وقد قدرها ابن الاخوة بما يزيد على سبعين نوعا وان لكل نوع اسما خاصا به •

وأول هذه الاشربة هو الماء الذي اعتنوا بتبريده صيفا سواء كان ذلك عن طريق تعريضه للهواء او عن طريق الثلج ثم الالبان سواء كانت من الابل او البقر او الاغنام • وكذلك عصير الفواكه المستخرجة من الجزر ، والتفاح والتمر هندي ، والاجاص والسفرجل ، وعصير السكنجبيل البزوري والسكنجبيل الساذج وعرق السوس •

ومن الاشربة ما كان يشرب بعد الطعام ، وذلك لينعش شاربه ويشعره بالراحة كالنبيذ الذي عرف من انواعه النبيذ العنبي ، والزبيبي ، والعسلي ، والتمرى الدوشابي ، والفقاع نوع اخر من الشراب يشعر شاربه بالانتعاش وبنوع من الارتياح أذا اخذه بعد الطعام •

آداب المائدة :

أن اول الرسوم المتبعة في اداب المائدة هي : وضع الطعام على سفرة او خوان • وكانت السفرة تصنع من الخوص (من سعف النخل) او النسيج

أو من النحاس ، ثم غلب استعمالها من الاديم لسهولة ازالة الوضر عنه • أما الخوان فهو المائدة وتصنع من الخشب او الرخام كما ان الخلفاء اتخذوها مزينة بالذهب والفضة • وقبل البدء بالطعام يبادر الآكلون الى غسل ايديهم في طست معد لذلك ثم بعد الغسل يتحلق الآكلون حول السفرة او الخوان ويبدأون الاكـــــل •

وكانت هناك طريقتان في تقديم الطعام احداهما ان يعرض الطعام مرة واحدة فيأكل كل انسان ما يشتهي والطريقة الثانية ان يقدم حسب اصنافه على فترات • وكان من القواعد المرعية ان يعجل باحضار الطعام لا سيما اذا كان هناك ضيف مدعو وان يقدم الطعام على الترتيب ، الفاكهة اولا ـ ان وجدت ـ ثم تقديم اللحم ، او الطف الالوان ثم الثريد بعده • فان جمع اليه الحلوى ، فقد جمعت الطيبات وحصل الاكرام وان لا ترفع الالوان الا بعد ان يستوفي الضيوف منه ، وان يقدم من الطعام قدر الكفاية اذ التقليل عن الكفاية نقص في المروءة •

أما عند الشروع بالاكل فعلى الآكلين ان يقرأوا البسملة وان يراعوا ما يلي :ـ

١ ـ ان لا يبتدىء الاكل بالطعام ومعه من يستحق التقديم لكبر سن او زيادة فضل • الا أذا كان هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ عليه ان لا يطول عليهم الانتظار أذا اجتمعوا للاكل •

٢ ـ أن لا يسكتوا على الطعام ، ولكن عليهم ان يتكلموا بالمعروف •

٣ ـ ان يرفق الآكل برفيقه ان كان في وليمة فلا يعمد الى الزيادة في الاكل على ما يأكله رفيقه ، بل ينبغي عليه ان يؤثر رفيقه فينشطه ويرغبه في الاكل ان هو قلل ذلـــــك •

٤ ـ ان لا يحرج رفيقه الى تفقده في الاكل وان يقـول له كل بل عليه ان

يأكل مما يشتهي حسب حاجته دون تصنع ان تصنع ان كان مع جماعة وان يعود نفسه ذلك ان كان يأكل بمفرده . أما أذا عمد الى تقليل اكلـه ايثارا لاخوانـه او كثر في الاكل تشـجيعا وتنشـيطا لهم فان ذلك مستجـــب .

٥ ـ ان لا يراقب اكل اصحابه او ينظر اليهم فيستحون بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه وعليه الا يكف من الاكل بسرعة قبل اخوانـه أذا كانوا لا يزالـون يأكلون بخجل بل عليـه أن يأكل ببطء الى ان يستوفـــــوا .

٦ ـ ان لا يفعل ما يستقذره غيره ، فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدم اليها رأسه عند وضع اللقمة في فمه . وأذا اخرج شيئا من فمه فعليه ان يدير وجهه عن الطعام ولا يغمس اللقمـة الدسـمة في الخل ، ولا الخل في الدسم واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة ، والخل ، ثم لا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

٧ ـ ان يغسل يده عند انتهاء الاكل ، وعليه ان يراعي اثناء الغسل جملة أمور هي : أن لا يبصق في الطست ان كان مع جماعة أما أذا كان وحده فلا بأس ان يبصق أو يتنخم وأن يقدم الطست للمتبوع او لاكبرهم ســنا . وعلى المقدم لــه ان يقبل اخذ الطســت ويعتبـره اكرامـــا لـــــه .

ولابأس ان يجتمع عدة أفراد على غسل أيديهم سوية وعلى كل منهم أن لا يمج الماء من فمه في الطست حتى لا يرش الماء على اصـحابه ، وعلى صاحب المنزل ان يصب الماء على ايدي ضيوفه . ومن آداب المائدة ايضا ان يأكل الفرد باليد اليمنى وأن يصغر اللقمة في فمه ، وأن يأكل مما يليه الا الفاكهة فان له ان يجيل يده فيها لانها اكثر من نوع واحد . وان لا يسرع في الاكل

وأن لا يبلع اللقمة دون ان يمضغها جيدا . وان يأكل من دورة القصعة لا من وسطها وكذلك أن يأكل من أستدارة الرغيف الا أذا قل الخبز فعند ذلك يستطيع ان يكسر اين شـــــاء .

وفي الوقت الذي نرى فيه الزهاد يفضلون نهش اللحم بـــدل قطعــه بالسكين ولعق اليد قبل مسحها بمنديل الوضر وذلك لانه لا يدري في أي طعامه البركة.فأن الظرفاء المتأنقين في طعامهم يغايرون هؤلاء الزهاد فلا يأكلون العصبة ولاالعضلة ولاالعرق ولاالكلوة ، ولاالكرش ، ولاالطحال ولاالرئة ،ولا يأكلون القديد ، ولا ما في القدور من المرق وفوق كل ذلك لا يحتســـون المرق ، ولا يتبعون مواضع الدسم ، وكان ذلك بدافع ثرائهم الذي يجعلهم يتأنقون في مأكلهم حتى لا يخرجوا الاصوات وهم ينهشــون العضــلة او يمضغون العصبة او يحتســون المرق ومن الاداب المرعية ايضا ان لا ينفخ الآكل الطعام الحار ، بل كان المستحسن تركه حتى يبرد .

وأذا اكل احدهم تمرا فعليه أن لا يجمع بين التمر والنوى في صــحن واحد ولا يجمع بينهما في كفه ايضا بل يضع النواة من فمه على ظهر كفـــه ثم يلقيها وكذلك كل ما له نوى .

وعلى الآكل ان لا يقوم عن المائدة قبل أن ترفع فاذا حضر الابريق والطست كان ذلك ايذانا بانتهاء الطعام بواسطة الاشنان الطبيعي كما هو الحال بالنسبة للفقراء ، والاشنان المطيب بانواع الطيب او بالصابون بالنسبة للاغنياء وبعد الغسل يعمد الاكلون الى التخلل بالســواك وكان العامــة لا يتحرجون من التخلل في الطرقات او الاسواق بينما كان المتأنقون يأنفون من ذلك . وأذا كان الطعام في وليمة عمد صاحب الوليمة الى تبخير المدعوين وقبل مغادرة الدار يقدم المدعوون شكرهم لصاحبها وينصرفون .

اللبـــاس

اختلف اللباس باختلاف الجنس (الذكر والانثى) وباختلاف المركز الاجتماعي ، والمهنة ، والمناسبة ، فكان لموظفي الدولة وعلى رأسهم الخليفة كقاضي القضاة وأصحاب القضاة والشرطة ، والجند ، والكتاب ، والمؤذنون ، وخطباء المساجد ، زي رسمي في اثناء أداء أعمالهم • أما في المواكب او حضور مجالس الخلفاء فكان اللباس المفضل هو السواد • ولهذه الفئة من المجتمع ان تلبس ما تشاء في المجالس الخاصة وقت الراحـــــة •

ومن جهة أخرى فان ملابس الناس لم تكن موحدة بل كانت مختلفة باختلاف المستوى المعاشي للافراد فكان للزهاد والفقراء لباس ، ولمتوسطي الحال لباس ، وللاغنياء لباس وتختلف أيضا باختلاف مواسم السنـة حرا وبـردا • وكانت للملابس من حيث الغاية ثلاثـة انواع ، فبعضـها للرأس وبعضها للبدن ، والبعض الاخر للارجل يضاف الى ذلك ما كان يلبسه الناس من الحلي للزينـــــة •

أما لباس الرأس فكان العمامة ، والقلنسوة • وقد اختلفتا شـــكلا وقماشا حسـب مهنـة الانســان المرتدي لها وكانتا من ملابس العرب منذ الجاهلية • وأصبح لبسها سنة نبوية • ثم أصبح لبسها من العرف الاجتماعي ، ولم يكن خلعها ممكنا للانسان البالغ السوى الا في حالات خاصة كما هو الحال عند الاحرام بمكة او عند عقوبة انسان معين ، أو وفاة الخلفاء اظهارا للحزن • فشكلها يختلف باختلاف لابسها فهناك عمائم الخلفاء ، والفقهاء ، والبقالين ، والجند (الغزاة) والاعراب ، وتختلف باختلاف القماش فهناك الذين يلبسون الخرق ، وعمائم الفوط الملونـة الغليظة أو المصنوعـة من الصـوف كعمائم الفلاحين والزهاد والصـوفية كما أن هناك الخلفاء وكبار رجال الدولة والموسرين الذين لبسوها من فاخر القماش كعمائم الوشي أي

المطرزة بالذهب وعمائم الخز ، وعمائم الشرب وهي من الكتـان الرقيق ، والديبقية ، وعمائم القصب ، والعمائم الرومي .

واتخذ الاهتمام بالعمائم مظهرا آخر في العصور المتأخرة وهو تعظيم كورة العمامة وتطويل عذبتها ، واعتبروا ذلك اكثر هيبة ووقارا لذا لبست عمائم طولها سبعة اذرع ، وثلاثون ذراعا واحيانا مائة ذراع . وقد اطلقت على العمائم في أواخر العصر العباسي لاسيما الكبار منها اسم البقيار وجمعها بقايير . وقد اقر الفقهاء لبس العمائم باحجام مختلفة حسب زمان ومكانة لابسها وعادة اهل البلدة أذ المكروه لبس الشهرة وهو ما خالف اهل البلد . أما القلانس فقد اختلف لبسها ايضا حسب المهنة والمكانة الاجتماعية كما أنها لبست أحيانا وحدها او تحت العمامة . واختلفت مادة صنعها فبعضها من القماش او الجلد كما أن نوع القماش اختلف باختلاف مستوى لابسها المعاشـــي .

فهناك القلانس الحرير ، أو المنقوشة . وقد لبسها الخلفاء تحت العمائم وآهتموا بها حتى كان خلفاء العصر العباسي الاول يأمرون باطالتها او تقصيرها كل حسب مزاجه فيتبعه الناس كما فعل ابو جعفر المنصـور ، والرشـيد ، والمستعين وكانت في الغالب من ملابس الجند والامراء العســكر ، لهذا لم يكن يلبسـها الفقهاء ، والقضـاة ، والكتاب ، وقد اختلفت شـكلا فهناك القلنسوة الطاقية، والدورقية والدنية وظهرت لها أسماء جـديدة في اخـر العصر العباسي مثل السربوش والكلوتة . وأما غطاء الرأس بالنسبة للمرأة فكان العصابة التي تعصب بها رأسها والمقنعة التي تغطي بها المرأة رأسـها والنقاب الذي يضعنه على وجوههن وله الوان مختلفة ، كما أنه اختلف سمكا ورقة فقد يكون مخرما احيانا يرى الوجه خلالـــه .

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف فئات الناس فالزهاد والفقراء

لبسوا الملابس الخشنة ذات الاشكال البسيطة وكذلك الرثة الممزقة ، أو انهم أتخذوها من القماش الرخيص الثمن كالخام ومنهم من جعل ملابسه جميعها من لون واحد من القماش أي أن تكون جبته وسراويله وعمامته وطيلسانه من قطعة قماش واحـــــدة .

وكان الطابع العام للملابس الصوفية أضافة الى الخشونة والبساطة هو لبس المرقعات وكانت من مختلف الالوان لذلك سميت (المصبغات) كما أنهم بالغوا في تكثيف وتثقيل المرقعات . وكان الفلاحون يلبسون الثياب الغليظة من الصوف شتاء ومن القطن صيفا ولبس الجند الاقبية .

أما بقية المجتمع فانهم كانوا يلبسون أنواع الملابس ويفضلون الجيد منها كالحرير والابريسم فكانوا يلبســون الغلالـة وهي ثوب رقيق تحت الملابس ، وفوقها القميص ثم الجبة ، وهي ثوب مفصل ومخيط يحيط بالبدن وله كمان ولقد اختلفت اشكال الجبب باختلاف الغنى والفقر ومكانة الانسان الاجتماعية ، لهذا وجدت جبب ضيقة الاكمام كما وجدت جبب بولغ في توسيع اكمامها واطالة ذيلها حتى اصبحت الاكمام موضعا لحمل ما يود الانسان أن يضعه فيها بدلا من راحة يده ، مثل الكتب ، والدنانير ، أو لحمل ادوات التجميل بالنسبة للنساء . وكان الفلاحون يحملون فيها بعض حاصـلاتهم كالحنطـة والبندق والبلوط والتين ومن جملـة ما حمل فيها الرقاع فكان المراجعون لدواوين الحكومة يحملونها في اكمامهم .

ومن ملابسهم الازار او المئزر وكان يختلف جـودة وصناعة فبعضهم يلبسه من الصوف وآخرون من الحرير وقسم ثالث يلبس ازر القصب كما اختلفت الوانه وكان يلبس فوق الملابس للتجمل به وكان الازار لباس الرجال والنساء الا أن ميزة ازار النساء أنه محلى بالنقوش وكن يضعنه علىَ رؤسهن او يلقينه على وجوههن . وكان الطيلسان من ملابس المجتمع بفئاته المختلفة ،

وهو مربع يطوى بكيفية خاصة ويوضع على الرأس فوق العمامة او القلنسوة ويغطى به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه من تحت الحنك أي يحيط بالرقبة جميعها ثم يلقيان على الكتفين فكان يتجمل بـه العلماء والفقهاء والقضـاة والخطباء والكتاب والمدرسون والاشراف وكبار رجال الدولـة .

أما النساء فقد جعلن لملابس البدن ما يلبس تحت الثياب ملامسا للجسم مثل الاتب والصدار والترقر والمرقل والمجول والشوذر وهذه كلها عبارة عن قمص متقاربة في الشكل من حيث الطول والعرض وعدم وجود الاكمام فيها علاوة على أنها من الملابس الداخلية فقد كن يقتصرن عليها في اوقات الخلوة وعند التبذل ويرى دوزي ان الصدار من بين هذه الملابس كان يلبس من قبل النساء من دون استثناء والغلالة ثوب رقيق يلبس تحت ثوب سميك .

أما ملابس النساء الخارجية فقد ذكر منها الرداء والازار والسروال ، والوشاح الذي كانت تضعه المرأة على صدرها . والنساء كالرجال من حيث التفاوت في نوعيـة الملابس التي كن يلبسنها ففي الوقت الذي كانت فيـه الظريفات المترفات يلبسن الحرير والقز والديباج والوشي ، كانت الفقيرات يلبسن الخشن الغليظ من الملابس أما بقية النساء فكن يتفاوتن في لبسهن ما بين ترف الظريفات وبساطة المتصوفات . وكان الناس يلبسون في ارجلهم الجوارب التي اختلفت من حيث العناية بها كالاختلاف ببقية الملابس من حيث قماش الجورب فبعضها من الخز والمرعزي والقز او الصوف والكتـــان واختلفوا من حيث نظافتها .

ولقد لبسوا فوق الجورب الاحذية وكانت على اشـكال منها النعال وهي ما وقى القدم عن الارض ولم يصل السـاق وقد لبسـها العرب منذ الجاهلية واستمروا على لبسها طوال العصور وتسمى الحذاء فيقال احتذى أذا انتعل ، والنعال أنواع كثيرة اتخذت اسماؤها من اشكالها أو طريقة

صنعها أو أنواع الجلد الذي تصنع منه ، أو نسبة الى البلد الذي صنعت فيه منها الاسماط والسبت والمخصرة والملسنة والممسوحة والمخصوفة والطاق والمطبق والمخثمة والمتسعرة واليمانية والتاسومة والحذو والزيجية والكيتانية واللالكة والتمشك والنعال السندية والجاروكية والكاعب والمداسات والقباقب ، ويبدو أن القبقاب لم يكن معروفا قبل العصر العباسي المتأخر حيث أصبح مظهرا من مظاهر الترف .

أما الوان النعال فقد اختلفت فمنها الابيض والاحمر والاصفر وقد بلغ الترف بصنع الاحذية مبلغا بعيدا في العصر العباسي فقد ورد عن أم الخليفة المقتدر انه كان يعمل لها نوع من النعال المبطن بالمسك والطيب وذلك أن وكيلها يشتري لها ثيابا دبيقية يسمونها (ثياب النعال) وتقطع ويجعل منها عدة طبقات ما بين كل طبقتين من الثياب المسك والعنبر المذاب وتلف ثم تصمغ حواشيها بشيء من العنبر فتلزق حتى تصير كأنها قطعة واحدة وتجعل الطبقة الاولى بيضاء مصقولة ويخرز حواليها الابريسم ، ويجعل لها شراكا من ابريسم يشبه الشرك المضفورة من الجلود . وكانت السيدة لا تلبس النعل الا عشرة ايام أو حواليها حتى تخلق وتتفتت ، وترمى ، فيأخذها الخزان أو غيرهم فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك فيأخذونه ، وبلغ التظرف برجال العصر العباسي ونسائه أنهم كتبوا على خفافهم ابياتا من الشعر لاسيما حين يتهادون . من ذلك ما روى عن الاديب سعيد بن حميد انه اهدى صديقا له نعلا وكتب عليها :

نعل بعثت بها لتلبسها   قدم تسعى الى المجد
لو كان يصلح ان اشركها   خدي جعلت شراكها خدى

والخفاف نوع اخر من الاحذية يختلف عن النعال في كونه يصل الى الساق وقد لبسها الناس على اختلاف مهنهم لاسيما الخلفاء والأمراء والوزراء

والقضاة والكتاب وما قيل عن النعال من كثرة أنواعها يقال عن الخفاف ايضا ، أذ هي أنواع اختلفت شكلا وصنعة منها الموق ، والجرموق ، والتساخين ، والساذجة ، والموزج ، والمفرطمة ، والمشعرة والمكعبة ، والحنبل ، والبهرزي ، والهاشمي ، والمزد (المست) والسقمان •

أما الوان الخفاف فقد كانت الابيض والاصفر والاحمر ومن قبيل تأنق الناس في العصر العباسي في اللباس أنهم كانوا يبطنون الخفاف بأنواع جيدة من الاقمشة والجلود والفرو وكانوا يتفننون في صنعها وفي تغيير شكلها فقيل عن بعضها أنها تتسع لحفظ سكين او منديل •

وقد لبست النساء الخفاف أيضا وزينها وجملنها ، فقد ورد عن السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر ، وشمع العنبر ، وكان من الطبيعي ان تقلدها نساء المجتمع وبصورة خاصة الظريفات المترفات اللاتي اتخذن الخفاف مـن الديباج وزينها بالجواهر وكتبن عليها الاشعـــار •

أما الاعتناء بالمظهر فقد كان يختلف باختلاف أذواق الناس من جهة وامكاناتهم المالية من جهة اخرى ففي الوقت الذي يخرج الزهاد بالملابس الرثة حتى في أيام العيد ، نرى الظرفاء المترفين قد جعلوا لكل مناسـبة مـا يناسبها من اللباس فكانوا يلبســون عند المرض الثياب المشــمعة بالالوان المصبوغة بالزعفران مثل الملحم الاصفر وفي مجالسهم الخاصة عند المنادمة الغلائل الممسكة ، والقمص والاردية الملونة والازر المعصفرة •

واختلفوا في أهتمامهم بنظافة ملابسهم فكان بعضهم يكتفي بغسلها بالماء وحده بينما كان آخرون يغسلونها بالصابـــون •

أما مراعاتهم للانسجام فقد التزم به بعضهم فكان لا يلبس الثياب • الوسخة مع المغسولة ولا المغسولة مع الجديدة وكذلك لا يلبسون الملابس

المختلفة الالوان سوية ، بل كان احسن الزي عندهم « ما تشكل وانطبق وتقارب واتفق » بينما فضل الفلاحون الملابس الملونـــــة .

وكان الناس بصورة عامة يميلون الى الاعتناء بمظهرهم وخاصة عند الخروج من البيت كأن يدهن احدهم شعره ويسرحه ثم ينظر هيئته بالمرآة ليسوى عمامته ، ويلبس ثيابه بعناية كي يجعل منظره مقبولا في اعين الناس ، وقد يتطيب بنوع من الطيب المتيسر لديه أما اهتمام المرأة بلباسها فكان يبدو عليه كثرة الالوان والنقوش الا انهن اختلفن من حيث اذواقهن واوضاعهن النفسية والمالية .

فكانت النساء المهجورات يلبس الملابس البيضاء ، بينما الارامل والمنكوبات بنكبة معينة يلبسن الملابس ذات اللون الازرق والاسود . وأما الفلاحات فكن يلبسن الملابس المصبوغة بالاحمر والاخضر او الموردة منهـــا .

الـــدور

كانت الدور في مدن العراق الكبيرة منها بشكل خاص ترجع لمالكيها أو لمستأجريها ، ولما كان ايجار البيوت ليس بالامر الميسور بالنسبة للفقراء لذلك استأجر بعضهم غرفة واحدة في أحد البيوت وعايش اهلها او المستأجرين الاخرين . او يبني بيتا من الطين ويجصصه بالجص ويسقفه بالقصب أو الخشب ويضع فيه الاثاث حصيرا أو بارية ، والى جانب هؤلاء الفقراء كان هناك من لا يستطيع شراء دار أو ايجارها كالمعدمين أو الزهاد لذلك كانوا يبنون لهم اكواخا يلجأون اليها . وقد حاولت الحكومة في بعض الاوقات مد يد العون الى هؤلاء المعدمين ببناء دور لاصحاب الاكواخ وتهديم اكواخهم كما حصل عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م حيث اعطتهم دورا في محلة المقتدية والمسعودة

والمختارة . الا ان وجود الاكواخ لم يختف نهائيا بعد هذا التاريخ أذ وردت الاخبار عن وجودها كما في سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م .

أمـا بيوت الاغنياء فقد كانت كبيرة وفيها البسـاتين أو فيها احواض الماء . وقد تكون من سعتها مقسمة الى ثلاثة اقسام كل قسم يخصص لشيء معين ، فقسم للاستقبال وقسم للحرم ، وقسم للخدم ، ولها الشرفات المطلة على الطريق او على النهران كانت قريبة منه وتتخذ لها ابواب وشبابيك من الاخشاب الجيدة الغالية الثمن . كما كانت سقوفها تغلف بخشب الصاج وتزين بتعاريج من خشب الابنوس الاسود ، أو العاج الابيض ، وقد تغلف الجدران ايضا . وتطلى الدار بالاصباغ لتزويقها وتجميلها اضافة الى وجود الخدم فيهـــا .

أما المسافرون من الحجاج والتجار وطلبة العلم وغيرهم فكانوا ينزلون في الخانات ليسكنوا فيها بعض الوقت . وكان يبنى هذه الخانات الموسرون ويوقفونها على السـابلـة . كما ان بعض الناس اشـتهر ببناء الربط لايواء الغرباء والصـــوفيـة . وقـــد يبيتون في المســاجـد الى جانب المشردين والمعدمين .

والدار كانت تبنى في الغالب من طابق واحد الا القليل الذي يبنى من طابقين . وشكل البيوت من الخارج متلاصقة عالية الجدران ، ويظهر الباب في جبهة الدار وقد يكون واطئا مع مستوى ارض الشارع او مرتفعا قليلا لذلك تبنى امامه دكة (أو مصطبة) .

ويوجد في الباب حلقة من النحاس تدور على لولب ليطرق بها الباب عند الاستفتاح ويجذب منها عند الاقفال ويكون للبيت شباك أو روشـــن (بالكون) يطل على الطريق .

وأما شكل البيوت من الداخل فاول ما يبدو منه بعد الباب الخارجي

دهليز يوصله بداخل الدار (أي بصحنـه) وكان الدهليز في بيوت الاغنياء يعتنى به فيصبح منزل الضيف • وقـد يوضع في نهايـة الدهليز باب اخر يغلق دون الصـحن أما الصـحن فهـو وسـط الدار وحولـه غـرف الدار مشرفة عليه • أما عدد الغرف فلم يكـن ثابتاً تبعاً لحالة مالك الـدار المالية • وكانت البيوت تحوى مرافق صحية كالحمام والكنيف وقد يكون بها بئر أيضا أو سرداب يستخدم في الصيف للنوم ظهرا لبرودته • وكان استعمال السرداب صيفا والخيش من الامور المالوفة كما قد تحوى الدار تنورا • وكانت سطوح المنازل في الصيف مكان النوم ليلا حتى أذا تغير الجو وشعر الناس بالبرد نزلوا الى الغـرف •

أما تزيين الدار بالفرش والاثاث فكان أمرا يتوقف على الحالة المالية للشخص ، وعلى ذوقه ، فقد يفرش أحدهم بارية أو حصيرا ، وقد يكون غنيا فيفرشها بالبسط المختلفة الانواع وبالوسائد ، ويرخي أنواع الستور ورفيع المطارح المحشوة بالريش ، والمنقوشـة بخيوط الذهب • ومن جملـة اثاث البيت الادوات المستعملة في المطبخ كالصواني والغضائر والادوات المستعملة لغسل الايدي كالطسوت والاباريق أضافة الى المناديل لتنشيف الايدي • واقداح الشراب أو الطاسات • وكذلك هناك أدوات دق الابازير (البهارات وما شابهها) والات البخور ، والحباب لتبريد الماء ، والكيزان ثم لابد من مكنسة ومقدحة كما أن دور الاغنياء لا تخلو من قماقم الذهب والفضـة لحفظ ماء الورد اما اضـاءة البيت فتتم بواسـطـة القناديل أو السرج أو الشـموع •

الحمامات

بلغ الاعتناء بالحمامات الخاصة والعامة مبلغا كبيرا في العهد العباسي فكان الاثرياء وكبار الموظفين يملكون حمامات في دورهم وقد يملك بعضهم اكثر من حمـام •

وكانت هذه الحمامات الخاصة تحوى وسائل الراحة المطلوبة • أما الحمامات العامة فقد كانت كثيرة تظهر كثرتها الارقام المتضاربة عنها لاسيما في العاصمة بغداد ، فقد وردت عن عددها ارقام شابتها المبالغات من دون شك فنرى اليعقوبي يجعل عددها بعد تأسيس بغداد بقليل ١٠٫٠٠٠ حمام وجعلها ابن مهمندار (من اهل القرن الثالث الهجري) ٦٠٫٠٠٠ حمام بعد ان فند المبالغات التي راجت في عصره عن عددهــــا •

ثم اصبحت في أيام المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) ٢٧٫٠٠٠ حمام وفي أيام معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦هـ / ٩٤٥ ـ ٩٧٧م) ١٧٫٠٠٠ حمام وفي أيام عضد الدولة (٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ٥٫٠٠٠ حمام ونيف•وفي عهدبهاءالدولة (٣٧٩ ـ ٤٠٣هـ/٩٨٩ ـ ١٠١٢م) وخاصة في سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م بلغت ١٥٠٠ ونيفا بينما اورد الخطيب عدد الحمامات في السنة التالية أي (٣٨٣هـ / ٩٩٣م) ٣٫٠٠٠ حمـــام •

ويبدو ان عددها نقص في أوائل القرن الخامس الهجري نقصا كبيرا لذلك ذكر هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨هـ / ٩٦٩ ـ ١٠٥٦م) أنها بلغت ١٥٠ حماما ونيف وقد ايد قلة الرقم هذا صاحب كتاب مناقب بغداد حيث ذكر انها في سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م بلغت ١٧٠ حماما وربما يعود هذا النقص لخراب الكثير منها نتيجة الحرائق والفتن وعبث الجند البويهي وعدم تجديد بناء ما تهدم منها • فلما زالت هذه الاسباب وانتعشت دولــة الخلافة بعد ذلك عادت الحمامات الى الزيادة حيث ذكر الرحالة ابن جبير الاندلسي عند زيارتــه بغداد عام ٥٩٠هـ / ١١٩٢م بأن عدد الحمامات في جانبي بغداد ألفا حمـــام •

وكانت الحمامات العامة لاستخدام كلا الجنسين الرجال والنساء ولكل فئات المجتمع لا يمنع منها الا المجذوم والابرص • والحمام يتكون من رحبة واسعة تكون محلا لحفظ الملابس (أي مخلعا) قبل الدخول مباشرة للاغتسال

وفي هذه الرحبة توجد دكاك توضع عليها الملابس ويكون صاحب الحمام (القيم) جالسا في هذه الرحبة ليراقب الناس اثناء خلعهم واثناء لبسهم لها خوفا من السرقة ولكي يقبض الاجر من الخارجين بعد انتهاء الاستحمام .

وبعد ان يخلع الشخص ملابسه في (المخلع) وهو البيت الاول في الحمام يمر ببيتين اخرين غير المخلع يكون الثاني منهما اكثر حرارة من الأول (المخلع) واقل حرارة من الثالث وعليه أن يضع على وسطه مئزرا قبل الدخول الى البيت الثالث وهو محل الاغتسال فأن كان فقيرا او عريبا زوده القيم اعارة او ايجارا .

والبيت الثالث هو محل الاغتسال ويكون عادة على شكل ردهة واسعة عليها قبة فيها نوافذ زجاجية صغيرة مستديرة للنور .

وحول هذه الردهة مخادع كثيرة مفروشة بالقار وقد طلي نصف حائطها مما يلي الارض بالقار وطلي النصف الاخر الاعلى بالجص الابيض الناصع وفي كل مُخدع حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . والى جانب هذه الاحواض الصغيرة الموجودة في كل مخدع فأن هناك حوضا كبيرا في داخل هذا البيت ، وهو الذي ينزل فيه المستحم فيغطس جسمه كله فيه . وماء هذه الاحواض يأتي من خزانة تكون في موضع مرتفع ومنها تأخذ انابيب خاصة الى هذه الاحواض . ومياه الخزانة أما أن يأتيها عن طريق دولاب خاص بالحمام يسحب الماء من بئر مجاور للحمام او يأتيها الماء من النهر . وتحمى مياه الحمام عن طريق موقد خاص يكون في احدى جهات الحمام . وكانت الحمامات تزين جدرانها من الداخل احيانا برسوم مختلفة منها مناظر طبيعية ومنها تصاوير حيوانات كالعنقاء الطائر الاسطوري أو مناظر مطاردة الحيوانات كالفيلة او غيرها من الوحوش . أو رسوم العشاق

ومعسوفاتهم وقد عارض الفقهاء في تصوير الاشكال الادمية ووافقوا على ما عداهـــــا .

وبعد ان يدخل الشخص هذه الردهة (البيت الثالث) يختار له موضعا يجلس فيه ، في أحدى هذه المخادع المحيطة بالردهة ، واثناء جلوسه يبقى متزرا او يخلعه بعد جلوسه مباشرة ويضعه على عورته من الامام . وقد الف الناس هذه الحالة فلم يعد أحد ينكر على احد ذلك ، ما عدا العلماء الذين لم يرضهم كشف الناس لعوراتهم في الحمامات لذا كان من واجب المحتسب مراقبة الحمامات ومنع الرجل من دخول البيت الثالث بدون مئزر .

وكان المستحم أما ان يغتسل مباشرة بعد دخوله الحمام او انه يستلقى على الدكة في وسط الردهة لكي يعرق جسمه وقد يغسل بنفسه أو أن يستعين بالمدلك الذي يتولى غسل الناس نيابة عنهـــم .

وعدوا للحمام فوائد كثيرة فهو اضافة الى تنظيفه الجسم فان فيه يتم ازالة الشعر من الجسم ، وحلاقة الرأس عند الحجام وهو بعد ذلك يوسع المسام ، ويستفرغ الفضلات ويحلل الرياح ، ويذهب الحكة والاعياء ويرطب البدن ويجود الهضم وينضج النزلات والزكام ويفيد في معالجة حمى الملاريا بجميع حالاتها وكانت الحمامات تفتح أبوابها طوال العام أبتداءا من الفجر الى وقت الغروب ، وذلك لان الاستحمام واجب شرعا في حالات كثيرة للنساء والرجال مثل حلول العيدين ، والجمع والاحرام والوقوف بعرفة ، ومزدلفة ودخول مكة وثلاثـة أيام التشريق بعـد النحر وعند الطواف وفي الحالات الاخرى مثل خروج المني والجماع والحيض والنفاس .

وكانت الحكومة تراقب الحمامات بواسـطة المحتسبين فتمنع كل ما يؤدي الى الضرر بالصحة العامة كمنع غسل الاواني او الازر او الطاس في الحوض الرئيسي وتمنع أن تكون ارض الحمام مبلطة بحجارة ملساء مزلقة ،

لكي لا تؤدي الى زلق الغافلين من المستحمين وكان المحتسب يأمر بغسل الحمام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر وأزالة بقايا الصابون أو أوراق السدر والخطمي (نوع من الورق يسمى الغاسول) كما يأمر بغسل الخزانة الرئيسية التي تمد الحمام بالماء مما يتجمع في اسفلها من الرواسب • وأن يشعل فيها البخور عند تنظيفها وأن يغسل ميازره كل عشية بالصابون •

وكان المحتسب يأمر بعدم أجراء ماء الحمام الى النهر لكي لا يتلوث بل يأمر بحفر بئر خاص بكل حمام •

العادات والقيم الاجتماعية

الاعياد

احتفل العراقيون بالاعياد الدينية وغير الدينية خلال العهد العباسي فكانت الاعياد والمناسبات الدينية مرتبة في مواعيد معينة من السنة تبدأ بالاحتفال بحلول شهر رمضان على الصعيدين الرسمي والشعبي • فكانت الحكومة تبادر عند حلوله الى توزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وتعنى بالمساجد فتضيئها ليلا بالمصابيح ويحيي الناس لياليه أما بالذهاب الى المساجد لصلاة التراويح او بالانس وسماع الغناء ، حتى أذا قارب الانتهاء اخرجت الانعام من دار الخلافة الى الفقراء وأستعد الناس بعدها لاستقبال عيد الفطر •

ويكون عيد الفطر في اليوم الاول من شوال ويستمر الى اليوم الثالث ••• أما مراسيم أعلان العيد فكانت تبدأ بمشاهدة الناس لهلال شوال ثم الشهادة لدى القضاة بذلك فيتولون أمر ايصال الشهادة الى قاضي القضاة ومنه الى الخليفة حيث يصدر أمره باذان العيد • أما أذا لم يتحقق للناس رؤية هلال شوال فأنهم ينوون نية الصيام ويكملون عدة رمضان وبعدها يكون اعلان العيد •

وفي صبيحـة اليوم الاول منـه يخرج الناس بملابسـهم الجديدة الى المساجد لاداء صلاة العيد ولاعطاء الفطرة الى الفقراء والمحتاجين ، لمن لم يقدمها في الليلة السابقـة •

وقد حرص الخلفاء على الاحتفال بهذا العيد فكان الخليفة يخرج مبكرا في موكب مهيب وقد ارتدى اجمل ملابسه وبمعيته كبار رجال الدولة • وكان الناس يقفون على جانبي الشارع عند مرور موكب الخليفة • حتى أذا دخل الجامع وصلى صلاة العيد ارتقى المنبر والقى في الناس خطبة العيد ثم يعود بموكبه الى دار الخلافـة •

وكانت العادة ان يجري استعراض عسكري في بغداد في اليوم الاول من العيد وقد يبقى الاستعراض مستمرا طيلة أيام العيد وفي هذا الاستعراض يظهر الجند بملابسهم الفاخرة وقد ركبوا أجود الخيل • ويكون الناس على جانبي الطريق او جالسين الى شرفات منازلهم يطلون على سير الجيش بينما يكون الخليفة وكبار رجال الدولة جالسين في مكان يعد بصورة خاصة لهذه المناسبة وفي هذا المكان يستعرض الجيش ولكي يحافظ على نظام الاستعراض كانت الحكومة تمنع العامة من ركوب البغال او الحمير لكي لا يختلط احد منهم بالجيش المستعرض • وتزين بغداد بالاقمشة الحريريـة ذات الالوان الزاهية وبالاعلام ويضرب فيها بالابواق والطبـول •

وأذا ما اهل شهر ذي القعدة بدأت احتفالات جديدة بحلول (موسـم الحج) في مدن العراق المختلفة حيث ان الحجاج يتوافدون في هذا الشهر من واسط والبصرة والكوفة والموصل ومن بلاد المشرق الاسلامي فيتجمعون في الجانب الغربي من بغداد ويضربون الخيم هناك وتقيم لهم الحكومة مواضع خاصة لشرب الماء كما انها تقدم لهم الاطعمة وقد يبلغ عدد الحجاج المجتمعين ببغداد عدة الاف قبل سفرهم الى الديار المقدسة وقد قدر عددهم المؤرخ ابن الجوزي في سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م بعشرين الف حاج •

وفي خلال هذه الفترة والى أن يحين موعد رحيلهم ترى الشوارع زاخرة بالناس على أختلاف اعمارهم واجناسهم خارجين من دورهم للتفرج على مواكب الحجاج القادمة من بقاع مختلفة ، وقد لبسوا أزياء مختلفة الالوان والاشكال فيكون في هذا الموسم منظر يدعو الى الانشراح والبهجـــة .

وكانت الحكومة تنظم مسيرة الحجاج من بغداد الى الحجاز ثم الرجوع الى بغداد ثانية ومنها يتوزع الحجاج كل الى بلده وممن شاهد مواكب الحج العراقي فوصفها بنيامين التطيلي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م والرحالة الاندلسي ابن جبير سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وأذا رجع الحجاج من الحرمين فيكون ذلك موسما آخر للناس كي يفرحوا ويحتفلوا باستقبال سيرة الحاج .

وأذا حل شهر ذي الحجة احتفلوا في اليوم العاشر لاداء صلاة العيد . ثم يخرجون بعدها لينشغلوا بنحر الاضاحي - وهي أهم ما يميز هذا العيد - وتوزيع لحومها وكان الخليفة يأمر بذبح الاضاحي على أبواب دار الخلافة وتوزيع لحومها على الفقراء وكذلك بقية الناس الذين تسمح اوضاعهم المالية بذلك . وكان الصناع ينتهزون فرصة حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية لبيعها على الاطفال . والى جانب هـذه الاعياد التي جـرى الاحتفال بها في أوقات معينة من السنة القمرية فأن هناك مناسبات احتفل بها في مواعيد ثابتة من السنة وهي عرفية ترجع الى اصول قديمة وذلك عند بداية تبدل المواسم كبداية الانقلاب الشتوي الذي يحصل في السادس والعشرين من تشرين الاول من شهر السريان . وعند حلوله يبدأ الناس بتغيير فرشهم وملابسهم استعدادا لاستقبال الشتاء ، وتراهم يفرحون به فرحهم ببقية الاعياد فيضربون بالبوقات والطبول ويعلقون الزينة . ويبادر الشعراء الى تهنئة الخليفة وكبار رجال الدولـــة .

ومن هذه الاعياد العرفية بداية كل ربيع من الســنة والتــي تقــع في الحادي والعشرين من شهر اذار . ولم يكن الاحتفال بهذه المناسبة مقصورا

على العراق بل كانت اقطار اسلامية اخرى تحتفل به • فكانوا يوقدون في ليلته النيران ويشعلون الشموع ويتبادلون الهدايا والتهاني •

وقد احتفل اهل الذمة باعياد خاصة بهم في معابدهم واديرتهم المنتشرة في ارجائه وكثيرا ما كان المسلمون يذهبون للفرجة والتنزه حول تلك المعابد والاديرة •

المناسبات

وكان لاهل العراق خلال العصر العباسي مناسبات تقع اتفاقا من غير توقيت محدد يفرح بها الناس ويعلنون عن بهجتهم ، منها حدوث أمور سياسية عسكرية كالانتصارات على البيزنطيين الاعداء التقليديين • فما ان ترد الاخبار الى العاصمة بغداد حتى تضرب الطبول والبوقات وتقرأ كتب الفتح في المساجد، ويبادر الشعراء بتهنئة الخليفة ولما ضعفت الخلافة العباسية بعد عهدها الاول اصبح الانتصار على البيزنطيين تحت قيادة سلاطين السلاجقة مما يفرح اهل العراق ويبتهجون به كما حدث سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م في معركة ملازكرت. وسنة ٤٧٩هـ / ١٠٦٨م حيث خرج من بغداد كبار رجال الحكم لاستقبال الوفد الذي يحمل بشرى النصر يرافقهم اهل الطبول والبوقات •

وكان انتصار الخلافة ضد السلاجقة من جهة اخرى يعد انتصارا وطنيا كما حصل عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م حيث احتفل لمدة اسبوع وعلقت الزينة • وصادف في هذا الوقت ان خطب لولي العهد على المنابر فأعيد تعليق الزينة ببغداد ، وساهمت العامة في هذا الاحتفال مساهمة فعالة فصنع بعضهم قببا تدور وعليها تصاوير اشخاص وحيوانات وأثمار وأقام آخرون فوق قبة وهم يغنون ويرقصون ومن جملة مساهمة العامة ما صنعه اهل محلة باب الازج حيث نصبوا اربعة رحى تدور وتطحن الدقيق ، من دون ان يعرف أحد كيف كانت تدور وعمل الملاحون سميرية (سفينة) تسير على عجل ، وكانت بقية

الناس منطلقين بين لاعب ومتفرج • وفي سنة ٥٥٢هـ / ١٠٥٧م على اثر اندحار السلطان محمد الشاه‌الذي كان محاصرا بغداد ، خرج العامة يلعبون في نهر عيسى وغيره بأنواع اللعب والمضحكات فرحا بالسلامة وظهر في هذه المناسبة جماعة وصفوا بانهم العضامية علاوة على القرع والصبيان وكانوا قد اتخذوا زرديات من بعر الغنم وسلاحا من القصب واخرجوا طبلا وبوقا ونصبوا خشبا وصلبوا جماعة تحت آباطهم وهم يلعبون ويضحكون ، ولما بنت الحكومة عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م سورا على حريم دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد خرجت العامة تساهم في بناء هذا السور وهي تحمل الاعلام وتضرب الطبول ، ومعهم أنواع الملاهي (من الحكايات والخبالات) أي عدة التمثيل •

وفي غمرة هذه المناسبة عمل أهل محلة باب المراتب فيلا من البواري المقيرة وتحته قوم يسيرون به ثم عملوا زرافة ايضا وصنع اهل محلة قصر عيسى سميرية كبيرة وقد جلس فيها الملاحون يجذفون وهي تسير والناس يشيعونها بالاهازيج الشعبية وعمل اهل محلة سوق يحيى ناعوراً ساروا به خلال الشوارع وهو يدور بشكل يشبه الناعور الحقيقي وعمل أهل محلة سوق المدرسة قلعة من الخشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب • وأخرج قوم هيئة حائك جالس في حفرته المعهودة وامامه آلته ينسج فيها • وكذلك عمل السقلاطونيون (صانعو الحرير) أما الخبازون فقد جاءوا بتنور يسحبونه وهو يسير خلفهم وكانوا خلال سيرهم يخبزون ويرمون خبزهم للناس المتفرجين على جانبي الطريق •

وقد جدد السور في عهد المسترشد عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م واذن للناس في الخروج للفرجة والمشاركة في البناء فخرجوا على تلك القاعدة • وكان اهل المحال يتناوبون فيما بينهم لبناء السور فكل محلة تعمل لمدة اسبوع وفي خلال ذلك كان العزف بالبوقات والجنك مستمرا • ومن المناسبات المفرحة

زواج الخلفاء والامراء الذي كان يلهب حماس الجماهير بما تعمله الحكومة من زينه وما يرافقه من نثر للنقود وتوزيع للهبات والذي تبقى صورته في مخيلـة الجماهير تتحدث عنـه اجيالا كزواج هارون الرشيد بزبيدة الذي وزعت فيه الهبات غير المحدودة والتي فاقت التصور كاواني الذهب مملوءة بالفضه واواني الفضة مملوءة بالدنانير ونوافج المسك ، وقطع العنبر وكان مجموع النفقات حوالي خمسين مليون درهم •

وأما زواج الخليفة المأمون من بوران (خديجة) ابنه الحسن بن سهل وزير المأمون سنة ٢٠٩هـ فلم يكن اقل ابهة او بذلا للمال من زواج الرشيد ان لم يكن يفوقه بمراحل فمما ورد عنه أن المأمون فرش حصيرا منسوجا من الذهب ، ونثر عليه من اللالي النادرة ما قدر بالف حبة • ثم نثر على المدعوين رفاعا باسماء ضياع وقرى وجوارى او خيل وبنادق المسك (أي على هيئة البندق) ، ودراهم ودنانير وقطعا من العنبر • وأقطع ابا بوران مدينة فـم الصلح وأمر له بمليون دينار • أما والد الفتاة الحسن بن سهل فأنه صرف بهذه المناسبة نثارا على رؤوس الناس أو هبات أو غيرها من المصروفات ما مقداره خمسون مليونا من الدراهم •

أما زواج المعتضد من قطر الندى (اسماء) ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون حاكم مصر سنة ٢٨١هـ فهو لا يقل ابهة ايضا عما جرى قبله وذلك أن صداق العروس كان مليون درهم اضافة الى المتاع المرسل اليها والطيب ولطائف الهند والصين والعراق ولمن حمل الصداق الى مصر أنواع الهبات والاعطيات من الدر والياقوت والتيجان والقلانس والاوشحة • ولما زفت من مصر عمل لها ابوها موكبا ضخما يصحبها يليق بمركز خليفة المسلمين يسير من مصر الى العراق وقد جعل لهذا الموكب مراحل يستريح فيها ، وبنى لها في كل مرحلـة قصرا وأتخذ كل مـا يلزم العروس والموكب من الات وادوات تريحها وتريحه خلال الطريق حتى لا يشعروا بتعب ونصب وأضافة الى ذلك

أمر والدها ان يحمل معها الى العراق مبلغ ١٠٠٫٠٠٠ دينار احتياطا لعلها تحتاج اليه بالعـــــراق •

ولقد تكررت الاحتفالات بزواج الخلفاء طوال العصر العباسي وشغل الناس بها وعلقت الزينة في الشوارع والاسواق وفي كل مرة من هذه المرات يخرج الناس للفرجة والمشاركة كما حصل سنة ٤٢٩هـ / ١٠٦٦م عند زواج الخليفة القائم وسنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م عند زواج الخليفة المقتدي الذي نقل جهاز عرسه على ١٣٠ جملا تسير معهم البوقات والطبول والخدم وبعينهم ٣٫٠٠٠ فارس وكان النثار مستمرا ما دام الموكب سائرا • وسنة ٥٠٤هـ ١١١٠م عند زواج المستظهر بالله الذي حمل جهازه على ١٦٢ جملا و ٢٧ بغلا ولهذا قيل « وتشاغل الناس بالفرح » •

ومن المناسبات الاخرى مجيء مولود جديد للخليفة او أحد الامراء وكذلك عند ختان أولاد الخلفاء حيث تعلق الزينة في المحال او الاسـواق ، وتنصب القباب ويعمل العوام نماذج لصناعاتهم وحرفهم فتسير بشكل مواكب في الشوارع مثل الكرنفالات التي تعملها شعوب كثيرة في عالمنا المعاصر • ويتجمل الناس باللباس الجيد والحلي طوال ايام الاحتفال • أن الذي يتجلى من هذه المناسبات والاحتفالات عدة دوافع محفزة للفرحة والمشاركة منها شعور وطني تمثل بالاحتفال عند أنتصار الخليفة على العصاة المنشقين عن دولة الخلافة في عصرها الاول ، وانتصار الخلافة على سلاطين السلاجقة في عصرها المتأخر • ومنها شعور اسلامي تجلى في الاحتفالات التي اقيمت على أثر انتصار السلاطين ضـد البيزنطيين • ومنها شـعور بالسـعادة في بقيـة المناسبات لاسيما زواج الخلفاء سواء كان زواجا حقيقيا دون مصلحة كزواج هارون الرشيد من أبنة عمه زبيدة او زواج مصلحة سياسـية لكسب ولاء والد العروس ورضاه • وهو ما وقع لبقية الخلفاء مع وزرائهم وولاتهم او مع السلاطــــــين •

وسائل التسلية وملء الفراغ

كان المجتمع العراقي في عهد بني العباس يملك جملة وسائل للتسلية وملء الفراغ وللتخفف من عناء العمل اليومي فمن هذه الوسائل :ــ

أ ــ مجالس الاحاديث :

وهي أما خاصة بين الاصدقاء والاقران وأهل المهنة الواحدة وتكون مادة حديثهم أما عن أمور عامة تعم جميع الناس او خاصة تعود الى مهنهم فيتكلمون في همومها ومشاكلها فكان العامة يتكلمون عن صنائعهم فالحائك عن الثياب التي قطعها ونوعيتها ، وشكلها وما سيقوم به غدا ، والحجام عن الذين حجمهم ومقدار ما كسب منهم ثم يصف من كان بخيلا من زبائنه ، ومن كان كريما ، والمكاري يتكلم عن الكراء ومثلهم الخياط والدلال وكذلك الامر بالنسبة لذوي المهن الاخرى كالعطارين والصرافين والبزازين وغيرهم •

وكانت لفئات المجتمع الاخرى كالادباء والعلماء همومها ومشاكلها ومن ثم احاديثها الخاصة بها التي ملأت بطون الكتب من مذكرات ومفاخرات ومناظرات دونها الادباء وأوردها المؤرخون في التراجم او غيرها •

أما مجالس الخلفاء والوزراء وكبار الدولة التي يحضرها العلماء والادباء فهي شبيهة بمجالس الادباء والعلماء من حيث المناظرات وسماع الروايات والاخبار الغريبة والشاذة وانشاد الشعر •

ومن المرجح ان يكون للقصص الشعبي مكان في هذه المجالس وأنها كانت منتشرة في المجتمع البغدادي منذ عهد مبكر حيث كان الكتاب العرب قد ترجموا القصص من اللغات الاجنبية أضافة الى من كتب والف في الاسمار والقصص وأخبار المندرين والمضحكين •

وكانت قصص الخدم (الخصيان) موضوعا مستمرا للقصاص واصحاب

النوادر والمضاحك في الطرق . وكان تقليد اصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس اليهم . وفي اخبار الحمقى والمغفلين والطماعين أضافة الى ما كان متوارثا من قصص البحريين وقصص الفروسية والفرسان وقصص الحب عند العرب .

ب ـ مجالس الغناء :

وهذه المجالس يصاحبها الموسيقى والرقص من قبل الجواري أو المخانيث وقد يجري فيها تمثيليات مضحكة من قبل المخانيث والمضحكين . وكانت للغناء أصول استقرت منذ العصر العباسي الاول واصبح للموسيقى قواعد معروفة ومدارس متبعة وقد الف كثير من المؤلفين في الموسيقى بشكلها الرياضي النظري أو بشكلها النغمي التطبيقي وفي أخبار المغنين والمغنيات .

وكان من مشهوري المغنين أبراهيم الموصلي وابنه اسحاق وابن جامع ، وأبراهيم بن المهدي وطائفة من الجواري .

وجاء في اوائل القرن الرابع الهجري سنة ٣٠٦هـ /٨١٩م أنه احصيت المغنيات فبلغن ٤٦٠ في جانبي بغداد . و ١٠ من الحرائر و ٧٥ من الصبيان . وكان هذا الاحصاء لمن اشتهر بالغناء أما من كان يغني خفية فلم يعرف عدده . اضافة الى من كان يغني في غير بغداد من مدن العراق .

الا ان الملاحظ في عهد الدولة العباسية الاخير عدم بروز أسماء كبيرة في الغناء كما كان الحال في العهود الاولى . ولكن مجالس الغناء كانت موجودة وكان الناس يحضرونها لسماع الغناء والموسيقى ولمشاهدة الرقص والحركات التي يقوم بها (المصور والمحاكي) لاضحاك الناس .

جـ ـ مجالس الوعظ :

كانت مجالس الوعظ مدرسة شعبية أخذت على عاتقها تثقيف الناس

خلال العصور الاسلامية • وكانت هذه المجالس تعكس حرية التدريس فقد كان مســموحا لاي فرد أن يحضر مجالس الوعظ ، وان يســأل عما يجول بخاطره من الاسئلة التي تتعلق بالدين أو بالمسائل اليومية التي لها مســـاس بالشرع •

وكانت الحكومه تراقب الوعاظ فمتى ما عرفت عن بعضهم انه يسيء القول او انه يشتط في أحكامه مما يؤدي الى حدوث فتنة مذهبية ارسلت اليه ثم احضرت الفقهاء ليناقشوه في اقواله ونتيجة لهذه المناقشة قد يحكم الخليفة على ذلك الواعظ بمنعه من الوعظ او طرده من العراق أذا كان وافدا عليـــــه •

ان مجالس الوعظ لابد انها قد افادت كثيرا في حفظ بعض التــراث العربي الاسلامي من مثل وقيم خلقية نتيجة لتكرار سردها والتأكيد عليها باشكال مختلفة •

وان هذه المجالس كانت تعقد في المساجد والمدارس الا انها عقدت ايضا في المقابر كمقبرة أحمد بن حنبل في مواسم معينة من الســنة ، أو في مقبرة معروف الكرخي أو في المحال وكذلك عقدت في رباطات الصوفية •

د ــ مجالس القصص :

وهي المجالس التي يحضرها الناس لسماع كلام القصاص وكان القاص يجلس في الطرقات وفي المقابر والجوامع والاسواق يذكر للناس شــيئا من الايات والاحاديث وأخبار السلف ثم يعرج على ذكر الحكايات • كان كل ما يذكره من حفظه سواء كان واقفا او جالسا على كرسي • والقاص يختلف عن الواعظ في كونه يهتم بسرد القصص الماضية وتقديم الشروح لها وكان هم الواعظ شرح الاعتقاد الاسلامي الصحيح وتخويف الناس عاقبة الابتعاد عن تعاليم الله ، وجذب الناس الى الايمان وشرح ما يهم الناس في حياتهم كما أسلفنـــــا •

ان مجالس القصص كانت تراثا شعبيا عريقا ورثه العراقيون عن اسلافهم عرب الجاهلية ونتيجة اقبال الجمهور على القصص وحضور مجالسه دفع ذلك الوراقين ابتداء من القرن الثالث الى كتابة القصص فاشتهر منهم ابن دلان (احمد بن محمد) وآخر عرف باين العطار اضافة الى ما كتبه الادباء والاخباريون من كتب الخرافات والاسمار والاحاديث واخبار العشاق والفرسان كما مرت الاشارة الى حصول الترجمة عن الامم الاخرى •

لم يكن حضور مجالس القصص مقصورا على الرجال فقط بل قد حضر النساء أيضا وكان الحضور يجلسون للسماع طويلا أما الطرق التي كان يستعملها القصاص لجلب انتباه المستمعين فكانت متنوعة منها انشادهم الاشعار الغزلية في العشق او اظهارهم التواجد والتخاشع او اتيانهم بحركات تنسجم وقراءتهم الملحنة التي تشبه الغناء وقد يصفقون بأيديهم او يعملون ايقاعا بأرجلهم وقد ينشدون أشعار النواح على الموتى وما يجري لهم من البلاء أو يذكرون الغربة ومن مات غريبا ولما كانت النساء ارق عاطفة من الرجال لذلك كن اسرع تأثرا بهذه الطرق البارعة فيشرعن في البكاء والعويل وعند ذلك يستبشر القصاص خيرا بهذه البادرة لانها تجلب انتباه الناس اليهم وتزيد في عدد مستمعيهم •

لذا كان وجود القصاص رغم كون مجالسهم ملهاة للجمهور خطرا على الدين والثقافة بصورة عامة وذلك لان مستواهم الثقافي لم يكن جيدا فهو لا يرقى الى مستوى الوعاظ الفقهاء أو المحدثين لذا وردت عنهم أحاديث مكذوبة وتفسيرات مضحكة لايات القرآن أو الحديث النبوي ، لهذا كانت الحكومة والعلماء ينظرون اليهم نظرة تغاير نظرة العامة ففي سنة ٢٨٤هـ أصدر الخليفة المعتضد أمره بمنع القصاص من الجلوس في الجوامع أو الطرقات • وفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م أمر عضد الدولة البويهي بمنع القصاص من الجلوس أيضا أذ أعتبرهم مثيرين للفتن المذهبية أما موقف العلماء من

القصاص .فقد كان فيه انكار لاقوالهم واعمالهم وادى ذلك الى الاحتكاك بهم وكانت العامة تقف الى جانب القصاص في أمثال تلك المواقف وذلك لان العوام جهال يرون في كلام القاص وضوحا يجري على حساب ميولهم ويرضي طموحهم بأسلوب بسيط يكون هزلة اكثر من جده • ومن الذين حاربوا القصاص الدار قطني علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م) وأحمد ابن المظفر (ت ٤٤١هـ / ١٠٢٩م) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) من حفظة الحديث ، والمتصوف المكي ، كما نظر اليهم بعض المؤرخين نظرة غير محترمة فوصفهم المسعودي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) بأنهم يروون الاكاذيب ووصفهم المقدسي (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) بأنهم يروون الاعاجيب والترهات والاباطيل وأن قصصهم ما هي الا تزاوير • وقال عنهم البيروني (٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) بأنهم لا يرجعون الى تحصيل • وأما الخطيب والمؤرخ ابن الجوزي (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) فأنه كان واقفا لهم بالمرصاد يرد عليهم ويفند اقوالهم ويفضح اكاذيبهم • وقد صرح بذلك في عدة مواضع من كتبه كما في (الموضوعات) وفي (تلبيس ابليس) و (أخبار الحمقى) ثم لم يكتف بذلك فخصص للحديث عنهم كتاب (القصاص والمذكرين) •

هـ ـ اللعب بالحيوانات :

والمقصود بالحيوانات (الحمام ، والديكة ، والخيل) أما النوع الاول فهو الحمام الذي يربى لشكله الجميل وقوة طيرانه وقد اعتنى به الهواة طوال الحكم العباسي وحتى العصر الحالي • وكانت تربيته في البيوت هواية محببة لكثير من الناس تملأ عليهم فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة • وكان للحمام سوق في الجانب الشرقي من بغداد يتردد اليه أهل هذه الهواية للبيع أو الشراء ويبدو أنهم من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم بأنهم قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا •

كما وان الطيور نالت أعجاب الخلفاء انفسهم فاستخدموها للمراسلة

(لاسيما الزاجل) وللتمتع بها ايضا فاقتنوا الجيد منها وحسنوا اجيالها . واولع الناس بمهارشة الديكة والسمان والأكباش والقبج فأذا أرادوا المهارشة جاءوا باثنين من كل نوع وجعلوا الواحد مقابل الاخر فتبدأ هذه الحيوانات بالمهارشة فيجد الهواة عند ذلك متعة وقضاء للوقت . ومن الهوايات المحببة الى كثير من الناس سباق الخيل الذي كان يحضره الخلفاء والامراء ويحضره الناس للفرجــــة .

أما الفروسية فكانت مطمح انظار الشباب أذ تستهوي قلوبهم لما فيها من الوان الشجاعة لذا مارسوا هذه الهواية واتخذوا لها زيا خاصا وتدربوا على استعمال السلاح كالضرب بالسيف أو الرمح أو الرمي عن القسي بالنبل . وأدت براعة الشباب في استعمال السلاح الى استعدادهم للوقوف دفاعا عن بغداد ضد عصيان البساسيري سنة ٤٥٠هـ وأمام الجيش السلجوقي في سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٣ م ، ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م .

وأضافة الى أستعمالهم السلاح فأنهم كانوا يخرجون الى الصيد وأسلحتهم في ذلك متنوعة بحسب الحيوانات التي يريدون صيدها فأن كانوا قد خرجوا لصـيد الطيور فأنهم يحملون معهم قســي البندق التي برع أهل بغداد في صناعتها . وكان البندق الذي يرمى عن القوس عبارة عن كرات صغيرة من الطين المدملق . وقد يسمى البندق بـ (الجلاهق) ويسمى قوســه (قوس جلاهق) .

أما أذا خرجوا لصيد الاسود فأن أسلحتهم في ذلك لابد أن تكون النبال بدلا من قسي البندق فاذا اصطاد شباب محلة من محال بغداد حيوانا من الضــواري طافوا على بقيــة محــال بغــداد ليتبجحوا بذلك ويظهروا فروسيتهم وشجاعتهم وقد يتصدى لهم شباب المحلات الاخرى لمنعهم من المرور فتنشب معارك بين الطرفين .

وهكذا كانت هواية اللعب بالحيوانات واصطيادها حركة شعبية غير منظمة يجد فيها الشباب قتلا لفراغه ومجالا للتنفيس عن حيويته ونشاطه .

وأضافة الى الهوايات المار ذكرها والمجالس التي كانت تأخذ من اوقات فراغ الناس الساعات الطوال هنالك وسائل اخرى مارسها الناس في مدن العراق المختلفة لملء الفراغ كزيارة الاضرحة وترب الاولياء والخروج الى المزارع في أوقات الربيع للنزهة وللتمتع بالخضرة والمياه الجارية .



المصادر والمراجع

ابن الاثير : ابو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني ٦٣٠هـ / ١٢٢٣م
تاريخ الكامل ـ القاهره ١٢٩٠هـ

آدم متز : الحضارة الاسلاميه في القرن الرابع الهجري ـ مطبعه لجنه التأليف والترجمه والنشر ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م

الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين الاموي ٣٥٦هـ / ٩٦٧م
الاغاني ـ ط دار الكتب وط التقدم ٠

بدري محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧٣
العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ـ مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٧
العمامة ـ مطبعة الحكومة ١٩٦٨

البغدادي : محمد بن الحسن (الف كتابه سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)
الطبيخ ـ مطبعة أم الربيعين الموصل ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م

بنيامين : التطيلي النباري الاندلسي ٥١٩هـ / ١١٧٣ م
رحلة بنيامين ـ مطبعة الشرقية ـ بغداد ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م

التنوخي : أبو علي المحسن بن علي القاضي ٣٨٤هـ / ٩٩٤م
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، ج١ نشره مرجليوث القاهرة ١٩٢١ ، ج٢ نشر في مجلة المجمع العلمي بدمشق في مج ١٢ ، ١٣ ، ١٧ مطبعة الترقي ـ و ج٨ نشره المجمع المذكور بدمشق ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م ٠

التوحيدي : أبو حيان ٣٨٠هـ / ٩٩٠م
الامتاع والمؤانسة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م
حكاية أبي القاسم البغدادي ـ هيدلبرج ١٩٠٢

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥هـ / ٨٦٩م
البيان والتبيين ـ مطبعـة لجنـة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٠ ـ ١٣٨١هـ / ١٩٦٠ ـ ١٩٦١م ٠
رسالة في وصف العوام ـ في أثناء كتاب طراز المجالس للخفاجي ـ المط الوهبية ٠

أبن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الاندلسي ٦١٤هـ ١٢١٧م
رحلة أبن جبير ـ ليدن ١٩٠٧م

أبن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ٥٩٧هـ / ١٢٠١م
تلبيس ابليس أو نقد العلم والعلماء ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة
القصاص والمذكرين ـ خط جامعة ليدن تحت رقم ٥٠٣
المنتظم في تاريخ الملوك والامم دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧ ـ ١١٥٩هـ

الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م
تأريخ بغداد او مدينة السلام ـ القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م

دوزي : رينهارد
المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ـ دار الحرية ـ بغداد ١٣٩١هـ / ١٩٧١م

أبـن السـاعي : تاج الدين أبـو طـالب علي بن انجب البغدادي ٦٧٤هـ / ١٢٧٥ ـ ١٢٧٦م
الجامع المختصر ـ ج٩ مطبعة الكاثوليكية ، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م
نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء ـدار المعارف بمصـر ٠

السامرائي : يونس أحمد ـ سـامراء في ادب القـرن الثالث الهجري ، بغداد ١٩٦٨م ٠

السامر : الدكتور فيصل ١٩٨٣م
الدولة الحمدانية ـ مطبعة الايمان بغداد ١٩٧٠

الشابشتي . أبو الحسن علي بن محمد ٣٨٨هـ / ٩٩٨م
الديارات ـ بغداد ١٩٥١م

الصابي : أبو الحسن هلال بن المحسن ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م
رسوم دار الخلافة ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠هـ / ٩٢٣م
تاريخ الامم والملوك ـ ليدن ـ ١٨٧٩ ـ ١٩٠١م

عبدالجبار ناجي : أمارة بني مزيد في الحلة ـ رسالة ماجستير ـ مطبوعة على الالة الكاتبة ـ مكتبة كلية الاداب

الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد ٥٠٥هـ / ١١١١م
احياء علوم الدين ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م
نهافت الفلاسفة ـ مطبعة الكاثوليكية بيروت ـ ١٩٦٢م

القفطي : جمال‌الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م
تاريخ الحكماء ـ ليبزك ١٩٠٣ .

القلقشندي : أبو العباس أحمد ٨٢١هـ /١٤١٨م
صبح الاعشى في صناعة الانشا ـ مطبعة الاميريـة ـ القاهرة ـ ١٩١٣ ـ ١٩١٧م

الكازروني : ظهير الذين أبو الحسن علي بن محمد ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م
مقامه في قواعد بغداد في الدولة العباسية ـ بغداد ١٩٦٢م

مجهول : مناقب بغداد ـ مطبعة دار السلام ـ بغداد ١٣٤٢هـ

المسعودي : أبو الحسن علي بن ابي الحسين ٣٤٦هـ / ٩٥٧م
مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ ـ باريس ١٨٧٧م

ابن المعمار : أبو عبدالله محمد بن أبي الكرم البغدادي ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م
الفتوة ـ مطبعة شفيق ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠م .

ابن منظور : جمال‌الدين محمد بن مكرم ٧١١هـ / ١٣١١م
لسان العرب ـ بيروت ١٣٧٤هـ ـ ١٣٧٦هـ

أبن مهمندار : يزد جرد بن مهمندار (كان حيا في النصف الثاني من القرن الثالث)
فضائل بغداد العراق ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٦٢

أبن النديم : محمد بن أسحاق (حوالي سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م)
الفهرست ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة

الوشاء : أبو الطيب محمد بن أسحاق ٣٣٥هـ / ٩٣٦م
الموشى أو الظرف والظرفاء ـ القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م

ياقوت الحموي : شهاب‌الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م
معجم الادباء ـ مطبعة هندية ـ القاهرة ١٩٢٣م
معجم البلدان ـ لا يبزك ١٩٢٤م

اليعقوبي : أحمد بن واضح الكاتب (بعد عام ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)
البلدان ـ النجف ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م



الفصل الثالث

المرأة

د . واجدة مجيد الأطرقجي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

تمهيـد

نظرة المجتمع الى المرأة

مما لاشك فيه ان المرأة في كل احوالها وظروفها مظهر من مظاهر الرقي في المجتمعات أو انحطاطها، ووجه من وجوه حضارتها، وان وضعها الاجتماعي وما يتصل به من تفصيلات تتعلق بالحجاب والزواج والتعليـم ، وبالمكانة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وبمدى فاعلية الدور الذي تنهض به ، كل ذلك يعد من ضمن المؤشرات العامة التي تشير الى تكامل المستوى الحضاري لعصر من العصور او مجتمع من المجتمعات وتبقى النظرة المتخلفة الى المرأة في عصر بعينه ثغرة في جبين ذلك العصر ومنقصة في سفره ، بالرغم من ايراد الكثير من المبررات التي ادت الى تلك النظرة في حينها .

ولا يخفى ان النظرة الى المرأة وليدة عوامل اجتماعية كثيرة ، ومؤثرات

بيئية معينة تعمل متضافرة على تلوين العرف والفيم والتقاليد فتؤثر بدورها في الموقف تجاه المرأة .

وكانت مكانه المرأه عند العرب خاضعة لتلك المؤثران ، الا أن المؤشرات العامة تسير الى أنها كانت عزيزة الجانب عالية القدر ذات شخصية ورأي وحرية ، رغم ما كان يسود بعض المجتمعات ويبدو في بعض المواقف ويؤكد ذلك ظهور عدد من النساء من ذوات الشأن منهن الشاعرة المجيدة والفارسة المحاربة والخطيبة المفوهة والسياسية البارعة والحكيمة المحنكة والطبيبـة والكاهنـة والمتنبئـة .

وكثيرا ما تكون المرأة موضعا للفخر والمديح وقد تكون مدعاة للمهانة والهجاء فقد يفتخر احدهم بانه ابن فلانة التي شرفت ابنها وقومها بمتانة خلقها وشرف سيرتها وحصافة عقلها .

ولهذا رأينا ظاهرة التكنى بالام ، وقد ورد في كتب التأريخ والادب ــ والاخبار كثير من رجالات العرب وشعرائهم كانوا يتكنون باسماء امهاتهـم فالمناذرة نسبوا الى امهم (ماء السماء) وعمرو بن المنذر ملك الحيرة كان يقال له (عمرو بن هنـد) .

والفت الكتب الكثيرة في رجالات العرب الذين نسبوا الى امهاتهم وهو ضرب من التأليف عالجه امام من ائمة الاخبار والانساب وراوية من رواة الشعر وهو محمد بن حبيب بن جعفر في كتاب (من نسب الى امه من الشـعراء) تناول فيه تسعة وثلاثين شاعرا من المنسوبين الى امهاتهم اكثرهم جاهليون .

ولابد لنا ان نفصل بين المرأة الحرة والمرأة الامة ، لان لكل منهما مكانة تميزها عـن الاخرى .

فالمرأة الحرة محصنة محترمة يعترف الرجل باولادها ، أما المرأة السبية فهي احط منزلة وأقل قدرا ، ولدها هجين سواء كانت امه عربية أم غير عربية

وسواء كانت الام بنت رئيس شريف أم رجل من عامة الناس ، وربما كان السبب في ذلك ما يلحق السبية وقومها من عار الهزيمة والخذلان .

ولعل هذا هو الذي أدى عدم اعتراف الاباء باولاد ألاماء الا" ان يتفوق الهجين بشاعرية ار بفروسية أو بموقف منشهود محمود يدفع اباه ألى الاعتراف بـه كالذي حصل لعنترة بن شداد العبسي في ذوده عن عشير ته وقومه مما حمل اباه على تحريره من العبودية والسماح له بالتزوج من أبنة عمه (وسنعرض في الصفحات اللاحقة للتطور الحاصل في هذا الموقف) .

ولما كان العربي شديد الحرص على شرف نسائه كثير الاعتداد بكرامتهن ولما كانت حياة الغزو والاقتتال التي سادت المجتمع في العصر الجاهلي كثيرا ماتعرض هذا الشرف الى الامتهان نتيجة لسبي البنات واسرهن فقد شاعت عند بعض القبائل العربية عادة وأد البنات ساعة ولادتهن الامر الذي نهـى عنه القرآن الكريم بقوله تعالى (واذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت) أو قولـه تعالى مبينا كره الآباء لولادة البنات (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهـه مسوداً وهو كظيم يتواري من القوم من سوء ما بشربه أيمسكه على هـون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وقد استمر هذا الموقف من البنات لدى البعض فترة طويلة بالرغم من أن الاسلام قد خفف كثيرا من غلواء هذه النظرة بالمثل الانسانية التي اكـد عليها الا أن بعض الجذور الجاهلية بقيت ممتدة تخف حدتها احيانا وتشتد احيانا اخرى ، وقد ورد في كتب الاخبار والأدب مايشير الى ذلك ، قال الحسـين (رضى) : (والد بنت متعب ، ووالد بنتين مثقل ، ووالد ثلاث فعلى العباد أن يعينوه) وقـال الزهري : (وكانوا لايرون على صـاحب ثلاث صدقة ولاجهادا) .

ورغم ذلك فان الكثير من الاباء كانوا يحبون بناتهم ويعتزون بهن ،

قيل أن عامر بن الظرب قال لصعصعة بن معاوية لما خطب اليه ابنته عمـيـرة (ياصعصعة : انك اتيت تشتري مني كبدي ، وارحم ولدي عندي ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب) .

وقال عتبة لابن اخيه عثمان بن عنبة وقد خطب اليه ابنته :

(مرحبا بابن لم الده ، اقرب قريب خطب الي احب حبيب ، قد زوجتكها وهي ألوط بقلبي ، فأكرمها يعذب على لساني ذكـرك ، ولا تهنهـا فيصغر عندي قدرك) .

ومن مظاهر حب الآباء لبناتهم انهم كانوا يحترمونهن ويستمعون الى منسورتهن ويعملون بها .. وقد ورد في السعر العربي الكثير من الاشعار التي تدل على ذلـك .

وعلـى كل حال فلابد ان نؤكد بأن المرأة عموما قد نعمت بظل الديـن الاسلامي بمنزلة محترمة ، حيث اعلى مكانتها واحاطها بسياج من الحمايـة وكفل لها حياة مرضية ورضيـة .

وكان الرسول (ص) المثل الاعلى في العطف على البنات ، كان يصلي وهو يحمل على عاتقه حفيدته امامة بنت ابنته (السيدة زينب) وكان يقبل ابنته (السيدة فاطمة) أذا قدم من سفره . وله في وجوب اكرام البنت والعطف عليها احاديث شتى نذكر منها قوله (ص) (من كانت له انثى فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، ادخله الله الجنة) .

أما في العصور اللاحقة فقد خضعت النظرة الى البنت لظروف وعوامل ادت الى ظهور المواقف باختلاف المستويات الاجتماعية والثقافيـة للابـاء بالاضافة الى اختلاف المؤثرات السائدة في المجتمع بصورة عامه .

ولم يكن اعتبار الانثى ثقلا وهما وغلا في اعناق الاباء بمستحدثة في هذا

العصر في المجتمع العراقي .. انما هي نظرة تقليدية يتجاوزها البعض ويتسامون عنها بالمخالفة وقد يلفه التيار التقليدي فلا يكاد يبتعد عنه وكتب الاخبار الادب مليئة بما يدل على اختلاف المواقف وتباينها .

وتتصل بهذه النظرة ، النفقة على اباء البنات والعطف عليهم ومد ايادي العون والمساعدة اليهم لتربيتهن وتزويجهن .

قيل ان ابا جعفر المنصور أمر باعطاء بنات ابي زيد الست ثلاثين الف دينار لكل منهن وأمر بتزويجهن باكفاء .

على أن هناك من نهى عن انكار الاناث ودعا الى حبهن ورعايتهن وايقن بأن منهن من تتفوق فتغدو مفخرة للاباء وذكرا حسنا ، قال الصاحب بن عباد :

اياك ان تنكر الاناث فكم   انثى غدت في فخارها ذكرا

ومثله ابن المقفع الذي بعث بكتاب الى صديق له يبارك ولادة ابنة له فقال (بارك الله في الابنة المستفادة وجعلها لك زينا واجرى عليكم خيرا ، فلا تكرههن ، فانهن الامهات والاخوات والعمات والخالات ، ومنهن الباقيات الصالحات ورب غلام ساء اهله بعد مسرة ، ورب جارية فرحت اهلها بعد اساءتهم) وتروي لنا كتب الاخبار والادب مواقف تصور الحب الخالص والعطف العميق ، كما تصور احترام البنات وتقدير ارائهن والعمل بمشورتهن .

ولم تقتصر المواقف الايجابية تجاههن في المجتمع العراقي في العصر العباسي على ماأوردناه وانما تعدته لدى البعض وبخاصة ممن يتمتع بقسط وافر من الثقافة وحظ عال من المكانة الاجتماعية الى السرور الذي يستدعي التهنئة بميلادها أو التعزية بوفاتها أو رثاءها بقصائد من ارق الشعر واصدقه

ولسنا في مجال التفصيل في هذا الموضوع ، وانما هي ملاحظات عامة توضح لنا اختلاف المواقف وتباين وجهات النظر .

ولانشك في وجود مثل هذا الاختلاف في أكثر المجتمعات وهو لايمنع على كل حال من أن تأخذ المرأة مكانها في المجتمع فيكون مابلغته من المستوى الاجتماعي والعلمي والثقافي مظهرا يحدد لنا موقعها من حضارة العرب ويكشف بالتالي عن حضارة العراق بكل جوانبها .

المرأة في الحياة الاسرية والزوجية

لقد عني الدين الاسلامي بجملة من الامور التي من شأنها ان تحفظ كيان الاسرة وتمدها بالقدرة على الاستمرار وتقيها من التدهور والانحلال .

وكانت المرأة اهم عنصر من عناصر نجاحها ، فالام هي عماد الاسرة والركيزة الاساسية في بناء العائلة ، لذا اكد الرسول (ص) على حسن اختيار الزوجة من ذوات الدين والشرف والخلق والعمل الصالح ، ومن المنبت الحسن لان حسن الاختيار هو الاساس في تكوين الاسرة الصالحة قال (ص) اياكم وخضراء الدمن قيل : وما خضراء الدمن يارسول الله قال (المرأة الحسناء في المنبت السيء) .

وامتد ذلك الى ابناء العصر ونظرتهم الى المرأة التي تختار للزواج فمن ذلك قول عثمان بن ابي العاص الثقفي وهو صحابي من اهل الطائف (يابني اني قد امجدتكم في امهاتكم واحسنت في مهنة اموالكم) ثم قال والناكح مغترس فلينظر امروء منكم حيث يضع غرسه والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين) وقال غيره لبنيه : (احسنت اليكم قبل ان ولدتم وبعده ... قالوا كيف احسنت الينا قبل ولادتنا ؟ قال : لاني اتخذت امهاتكم من حيث لاتعابون به) .

وحرص الاسلام على ان تقوم الرابطة الزوجية (النواة الاولى) للاسرة والعلاقات العائلية على المحبة والتعاون والتفاهم والانسجام ، وحث على ذلك في حديثه الشريف (ص) : (خيركم خيركم لاهله) أو (خير الرجال من امتي الذين لايتطاولون على اهليهم ويحنون عليهم ولا يظلمونهم) .

وحث الاسلام الرجال على الزواج في آيات قرآنية كريمة واحاديث واقوال شريفة ، ولم يترك المرأة في الاسرة تحت السلطان المطلق للرجل وانما تناول نظام الاسرة من نواح متعددة فاصلحه اصلاحا بينا ، واجاز الطلاق على بغض له علاجا لبعض الحالات الزوجية ، وحرصا على اقامة حياة الاسرة على اسس سليمة من الوجوه كافة ، حيث جعل العشرة الطيبة اساسا ضروريا لبناء الاسرة تطبيقا لقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

فان استحالت الحياة الطبيعية بين الزوجين (فامساك بمعروف او تسريح باحسان) .

وقد اجملت الحقوق الشرعية للرجل في الاسرة بانه رب الاسرة والقائم بشؤونها والانفاق عليها ، وله الحق في التزوج بواحدة الى اربع ضمن الشروط المعروفة في الاسلام كما اباح له حق الطلاق في ظروف معينة . أما حقوق المرأة وواجباتها فهي : حق المهر والنفقة والمعاملة الحسنة من قبل زوجها ، وحرية التصرف بمالها وحق طلب الطلاق عند الضرورة كما فرض عليها الامانة والطاعة والوفاء لزوجها .

واعتمدوا صفات وخصائص في الزوجة المثلى منها الحسب والشرف ومكارم الاخلاق اضافة الى المحاسن الجسمية المتعارفة وبالرغم من كثرة الزيجات من العشيرة والاقارب الا انهم كانوا يؤثرون الاغتراب . فالرسول (ص) يوصي باختيار الغريبات مخافة ضعف النسل (اغتربوا تضووا) وعمر

ابن الخطاب (رضى) ينظر الى قوم صغار الاجسام فيقول : مالكم صغرتم ؟ فيقولون : قرب امهاتنا من ابائنا : فيقول : صدقتم ، اغتربوا ... فتزوجوا في البعداء فانجبوا .

الا ان بعضهم كان بالرغم من ذلك يؤثر بنات العم اذ يرون انهن اصبر على ريب الزمان ونبوة الخلق ، فقد سئل بنو عبس : أي النساء وجدتهم أصبر ؟ قالوا : بنات العم .

وقد استمتعت المرأة العربية بحريتها في اختيار زوجها فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه أو تزوج بغير مشورة .

وجعلوا للمرأة مهرا اوصداقا ، ونهوا الاولياء عن الاستئثار به ، ونهى الاسلام عن المغالاة فيه لئلا يكون عاملا في الزهد بالزواج أو الانصراف عنه . والزواج عادة يكون بالحرائر ، وحدد الشرع شروطا للحر الذي يريد التزوج من امة ، وتقضي بأن لايكون متزوجا بحرة والا يكون لديه من المال مايكفي لصداق الحرة وان يخشى عليه من التهور في حياة المجون . الا انه يحق للرجل ان يحرر امته أم الولد ليتزوجها زواجا شرعيا رفعا من شأنها وشأن اولاده منها فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر ، كالذي حصل مع الخيزران حينما اعتقها المهدي فخرجت الى مكة وعادت منها فتزوجها .

وكانوا يعقدون في المهر والزواج احتفالات خاصة فينحرون الذبائح ويقيمون الولائم ويسمرون الليل غناء وعزفا ورقصا .

وتزود الفتاة حينما تزف الى بيت زوجها بشيء من الهدايا والحلى كما تزود ببعض الوصايا والتوجيهات التي توضح لها سبيل المعاشرة وحسن التكيف للحياة الجديدة وفي الادب العربي الكثير من تلك الوصايا التي استمر التأكيد عليها في العصر الاسلامي وحتى عصرنا الحاضر لانها يمكن ان نعد دليلا للفتاة في حياتها الزوجية ومظهرا من مظاهر الحضارة العربية يكشف لنا

عن بعد نظر المرأة ومدى ادراكها للجوانب الصحية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمعاشرة الزوج • فمن وصايا الامهات ما اوصت به أم ابنتها حينما زفت الى زوجها :

(أي بنية : انك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت الى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه فكوني له امة يكن لك عبدا واحفظي له خصالا عشرا يكن ذخرا ، أما الاولى والثانية فالخضوع له بالقناعة وحق السمع والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وانفه ، فلاتقع عينه منك على قبيح ولا يشم انفه منك الا اطيب ريح ، واما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، واما السابعة والثامنة ، فالاحتراس بماله والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الامر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير ، واما التاسعة والعاشرة فلا تعصي له امرا ولا تفشي له سرا ، فانك ان خالفت امره او غرت صدره وان افشيت سره لم تأمني غدره ، ثم اياك والفرح بين يديه أذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه أذا كان فرحا) •

وفي هذه الوصية قوام السعادة الزوجية على مر العصور لان الام تريد ابنتها على طاعة زوجها والعناية بنظافتها ومراعاة راحته في منامه وطعامه وان تقصد في نفقاتها وتربي اولادها وتحسن معاشرة عائلته وان تصون اسراره وتشاركه في السراء والضراء وهي قمة الوعي النفسي والحضاري •

وقد حظيت الزوجة في أكثر الاحيان عند الزوج بالحب والاعزاز وفي كتب الادب العربي اشارات كثيرة الى حب الازواج زوجاتهم • تغزلوا بهن وعددوا محاسنهن الخلقية والجسمية واشتاقوا اليهن في الحل والترحال، الا أن من المفيد ان نبين أن مابين ايدينا من تلك الاشارات لم تستطع الكشف عن استمرار جذوه العاطفة الجياشة القوية من الحب والاخلاص التي كانت تربط بين الزوج وزوجته في العصور الاسلامية الاولى •

فقد تأثرت صورة الزوجة والزواج بالتيارات والمؤثرات الاجتماعية فنتج عن ذلك تباين في المواقف نتيجة لتوسع الفتوحات العربية في العصر الاموي ثم مافتئت تقوى وتشتد كلما تقدمنا في العصر العباسي فقد ظهر موقف جديد وتجلت نظرة اخرى ترى في الزواج عبئا ثقيلا وهما مستديما .

وقد بدت اثار هذين الموقفين المتباينين في اقوالهم واشعارهم واخبارهم ، فهناك اشارات كثيرة الى تفضيل التزوج بالحرائر على التسرى بالجواري ننقل منها قول بعضهم : (لا تغترس من تداولتها ايدي النخاسين ووقع ثمنها في الموازين) أو قولهم : (لاخير في بنات الكفر وفد نودي عليهن في الاسواق ومرت عليهم ايدي الفساق) .

وقال الشاعر يحث على التزوج من الحرائر ونبذ الجواري :

اذا لم يكن في منـــزل المرء حرة　　راى خلـــلا فيما يولـــي الولائد
فلا يتخـــذ منهـــن حـــر قعيدة　　فهـــنّ لعمر الله شـــر القعائد

أما اولئك الذين كانـــوا يرون الزواج غلا ووثاقا وعبئا فقـــد كانت دوافعهم الى ذلك متعددة نستفيدها مما بين ايدينا من نصوص ، فمن الدوافع التي تصرفهم عن الزواج المهر الغالي الذي كان يرهق كاهل طالب الزواج ، ومنها التخفف من صعوبة توفير اسباب المعيشة للعيال .

وللزواج في المجتمع العراقي مراسيم معينة تبدأ عادة بالخطبة وتنتهي بالزفاف ، فقد كان الرجل اذا أراد الزواج قام بتكليف أحدى قريباته أو معارفه لتختار له فتاة جميلة صالحة وقد يكلف دلالة لتقوم بهذه المهمة .

ولا يمكن للرجل ان يرى عروسه في اكثر الاحوال الا بعد الزفاف وذلك بسبب الحجاب الذي فرض على المرأة والذي سنتناول دراسته بشـــيء من التفصـــيل .

وكان لابد من اخذ موافقة البنت على زواجها ، وتجهز العروس قبل العرس بالمال الذي قدمه العريس مهرا ، وقد يتولى ابوها تجهيزها ، او يقدم لها بعض الهدايا والحلى الذهبية والملابس والمفروشات •

وتجلى العروس استعدادا للزفاف وتزين باجمل الملابس واحلى الحلى فان لم تكن من الموسرين استعار لها اهلها الملابس والحلـى من الاقـارب والمعارف ليكون مظهرها لائقـا •

وتقام للاعراس حفلات في دار العريس تقدم فيها الاطعمة الشهية والاشربة المتنوعة ، ونعقد فيها مجالس الرقص والغناء حيث يؤتى بالمغنين والمغنيات لهذا الغـرض •

وتتفاوت مستويات الاحتفالات بين الفخامة والبساطة تبعا للمسـتوى الاقتصادي والاجتماعـي وتختلف الهدايا التي تقـدم للعروس بما يتفق وامكانيات العريس أواهل العروس •

واجاز الشرع الاسلامي للرجل أن يجمع بين اربع زوجـات •• وقد يحصل هذا بالفعل ، الا أنه كما يبدو كان في المجتمع البغدادي في العصر العباسي أقل مما كان عليه في العصور السابقة ، فمن الظواهر الاجتماعية التي بدت الحث على الاكتفاء بزوجة واحدة • جاء في المقامة المضرية للهمداني قوله على لسان احد تجار بغداد عن زوجته (ولورأيت الدخان وقد غير ذلك الوجه الجميل ، واثر في ذلك الخد الصقيل لرأيت منظرا تحار فيه العيون ، وانا اعشقها لانها تعشقني ، ومن سعادة المرء ان يرزق المساعدة من حليلته ، وان يسـعد بظعينته) •

وربما كان دافعهم الى ذلك الحرص على العيش الهادىء وتفادى المشاكل التي تحدث عادة بين الضرائر ،

ومن الصور الاجتماعية التي تجلت في المجتمع البغدادي في ذلك العصر

عدم الرغبة في التزوج بالارملة ، وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة واستغرب من ابناء عصره أنهم صاروا يعافون المرأة الحرة اذا فارقت زوجاً واحداء ويلزمون من خطبها العـــار ويلحقـــون به اللـــوم ويعيرونه ، بينمـــا كانـوا في العصـور الاسـلامية الاولـى (لا يـرون بأسـا بان تنقـل المرأة الى عدة ازواج لا ينقلها عن ذلك الا الموت مادام الرجال يريدونهـا ويعتبرون معاودة المرأة للزواج بعد ان تمضي عدة وفاة زوجها او عدة طلاقها آمرا طبيعيا لاينكره احـد) .

فقد كان هناك عدد من عقائل المسلمين وسيدات المجتمع ممن عرفـن بالجمال والخلق ورجاحة العقل وجزالة الرأي قد تزوجن من سادات المسلمين وسراتهم منهن : (عاتكة بنت زيد بن عمرو) التي نزوجها عبد الله بن ابي بكر الصديق (رض) ثم عمر بن الخطاب (رض) ثم الزبير بن العوام ، ثـم تزوجها الحسين بن علي بن ابي طالب (رض) ثم تأيمت بعده فكان عبد الله بن عمر يقول : من اراد الشهادة فليتزوج بعاتكة .

وعائشة بنت طلحة التي تزوجها اربعة من سادات العـــرب والمسلمين، واسماء بنت عميس التي تزوجها جعفـر بن ابي طالب فلما قتل عنها تزوجها ابو بكر (رض)فلما مات تزوجها علي بن ابي طالب (رض).

ولانشك في ان للظروف الاجتماعية اثرها في كلتا الحالتين ، ففي صدر الاسلام كانت الحروب والفتوحات الاسلامية كثيرا ماتعرض الازواج الى الاستشهاد ولهذا كانت معاودة زواج الارامل أمرا طبيعيا تفرضه الظروف .

ويرد الطـلاق في الحيـاة الزوجية احيانا ، وقد تعددت الدوافع الـى ذلك ، فقد تكون تنافرا في الصفات والطباع ، وقد تكون عبثاً وتحللا مـن قيود الزوجية ، وقد تكون رغبة في التمتع بالصبا والجمال بعد نضوب ماء الصبا في الزوجة وتلاشي معالم الجمال على مرالسنين فقد عاتبت امرأة زوجها

وكان فد طلقها بقولها : (ابعـد صحبة خمسين سنة ؟) فقال لهـا (مالك عندنا ذنب غيرها) .

الحجـاب

اشار الجاحظ الى اباحـة الاختلاط عند العرب في العصور السابقـة (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، وكانوا يرضون مع سـقوط الحجاب بنظرة الفلتة وبلحظـة الخلسة دون ان يجتمعـوا علـى الحديث والمسامرة ويزدوجوا في المناسمة والمشافعة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال بالزير المشتق من الزيارة ، وكل ذلك بعين الاولياء وحضـور الازواج ، لاينكرون ماليس بمنكر أذا امنوا المنكر) .

ويضرب الجاحظ لذلك مثلا ببثينة وصاحبها جميل ، أنه لما استعظم اخوها مخالطتها جميلا ومحادثتها اياه ، وشكا ذلك الى زوجها ، كمنا لجميل عند اتيانه بثينة ليقتلاه ، فلما دنيا منهما وسمعاه يقول ممتحنا اياها (هـل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفيء ثائـرة الشوق ؟ قالت : لا ، قال : ولم ؟ قالت : ان الحب اذا نكح فسد ، فأخرج جميل سيفا كان قد أخفاه تحت ثوبه فقال : اما والله لو انعمت لي لملأتـه منك ... فلما سمعا ذلك منه وثقا به وركنا الى عفافه وانصرفا عن قتله واباحاه النظـر والمحادثـة .

وقال الجاحظ فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي (ص) خاصـة .

والملاحظ فيما سـبق من النصوص ان المحادثة والمخالطة من الامـور المقبولة عند العرب ، سيما في البادية وقد تحقق في كثير من الاخبار ان المرأة كانت تغشى مجامع الرجال ، وتخطب وتنشد الشعر ، وتحرض على القتال ، وتقاتل وتخدم الجرحى ، وهذا يستدعي بلا شـك ان تكون مكشوفة الوجه ،

الا انه لا يعني انتفاء وجود الحجاب عند بعض القبائل أو الاشخاص أو في المدن والحواضر اسوة بما كان شائعا منذ القدم عند بابل واشور وفارس ، والروم والهند وقد ذكرت كتب الاخبار والادب اشارات الى ذلك ، قال توبة في ليلى واشار الى حجابها :

وكنت أذا ماجئت ليلى تبرقعت   فقد رابني منها الغداة سفورها

وقال صخر في اخته الخنساء مشيرا الى عادة من عادات النساء في تمزيق البراقع والخمر في حالات الجزع في المصائب :

ولو هلكت خرقت خمارها   واتخذت من شعر صدارها

ويؤيد ذلك مانراه في كتب السنة والفقه في البحث عما يجوز رؤيته من المخطوبة ، ففي الحديث الذي روي عن محمد بن سلمة دليل على الحجاب قال : (خطبت امرأة فجعلت اتخبأ لها حتى نظرت اليها في نخل لها ، فقيل له اتفعل هذا وانت صاحب رسول الله (ص) ؟ فقال : سمعت رسول الله (ص) يقول (أذا القى الله في قلب امرىء خطبة امرأة فلا بأس ان ينظر اليها) .

ويسمح للنساء المسنات بمخالطة الرجال سافرات ، وتسمى المرأة حينذاك (برزة) وممن عرفن بذلك (أم الدرداء) فكانت تجلس للصلاة في صفوف الرجال وتحب مجالسة العلماء .. وكذلك (خولة بنت منظور) : (فلما اسنت كشفت عن قناعها وبرزت للرجال وصارت تجالسهم) .

وفصل الاسلام في أمر الحجاب قال تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن) .

وبذلك حرم على المرأة المسلمة ان تكشف عن مواضع زينتها لغير المحارم

الا ماظهر كالوجه والكف لان في اخفائها تضييقا وحرجا ، وذلك درءا للفتنة ووقاية من النزوات .

ولهذا رأينا حرص الامة على التشبه بالحرة وهو امر يصوره الامام مالك انه بلغه ان امة كانت لعبدالله بن عمر بن الخطاب رآها عمر (رض) وقد تهيأت بهيئة الحرائر .. فدخل على ابنته حفصة فقال : الم ارجارية اخيك تجوس الناس وقد تهيأت بهيئة الحرائر ؟ وانكر ذلك.على ان الوضع لم يعدم وجود البعض من المسلمات كانت تسفر كعائشة بنت طلحة التي كانت لا تستر وجهها من احد وسكينة بنت الحسين التي كانت تجالس الجلة من الرجال والادباء . وقد اشرفت (هند بنت النعمان بن بشير) على وفد عند زوجها وهي سافر وكذلك كانت تسفر امرأة عبدالملك بن مروان .

وربما كان السفور مباحا لبعض علية القوم ، وهذا يعني بالضرورة اباحته لدى البعض من عامة الناس وهو على كل حال خاضع كما يبدو لمستواهم الثقافي والاجتماعي .

وتشددوا في حجب المرأة ومنعها من الاختلاط كلما بعدوا عن عصر النبوة واختلفت اراؤهم في ذلك ، فمنهم من انكر منع مارخص به الرسول من الخروج للمساجد ومنهم من اجاز ذلك جريا على قاعدة (تتبدل الاحكام بتبدل الزمان) وايد ابن عمر مرة رأيه بالحديث (لاتمنعوا اماء الله من مساجد الله) فقال بعض ولده : بلى والله لنمنعهن ، فضربه وغضب عليه ، وقال : تسمعني اقول قال رسول الله (ص) وتقول بلى ؟ ... وقد ذيّل الغزالي هذه الحادثة بقوله (انما استجرأ ولده على المخالفة لعلمه بتغير الزمان) .

وروى ان الزبير بن العوام شق عليه خروج امرأته الى المسجد ليلا ، وكره ان يمنعها ، فكمن لها في موضع مظلم في الطريق ، فلما مرت وضع

يده على طرف من جسدها ، فكرت راجعة ، وسبقها الزبير الى الدار ، فلما دخلت عليه تسبّح قال لها : ماردك عن وجهك ، قالت كنا نخـــرج والناس ناس أما اليوم فلا ، وتركت طلب المســجد ٠

وهكذا كان التضييق علــى المرأة في فرض الحجاب ومنع الاختلاط والحذر منه واقعا تحت تأثير المجتمــع ، وكلمــا زاد تحللا ، كلمــا كثرت عفتها فتشددوا في الحجاب واكدوه ٠

ونشط الفقهاء في الاجتهاد بمنع المرأة مــن الخروج من بيتها وتأكد ذلك في المجتمع العراقي منذ ان اصدر المتوكل والقادر بالله العباسي امرهما بمنع النساء من الصلاة في المساجد ومخالطة الرجال في المحافل والمجتمعات ٠

وكانوا يغارون ويخشون على الحرائر اكثر من غيرتهم وخشيتهم على الجواري ويحجبون الحرة ويشددون في حجبها ، ويحرصون عليها ان تظن بها الظنون وان تكون من المبتذلات بالخروج من الدار ٠

فقد ذكر ابو عمر القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الازدى (وهو ثقه ، فاضل توفي سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢م انه كان مرة عند التاجــر ابي عبدالله الجصاص وكان في صحنه سرادق مضروب ، وبينما كانوا يتحدثون اذا بصرير نعل من خلف السرادق فصاح ابن الجصاص : ياغلام جئني بمن مشت خلف السرادق ، فاخرجت الينا جارية سوداء فقال : ماكنت تعملين هاهنا ؟ قالت : جئت الى الخادم لاعرفه اني قد فرغت من الطبخ واستأذن في تقديمه فقال : انصرفي لشأنك، قال : فعلمت انه أنما اراد أن يعرفني ان ذلك الوطء وطء سوداء مبتذلة ، وأنها ليست من حرمه ولا ممن يصونه ، فيزيل عني ان اظن به مثل ذلك في حرمــه ٠

ولم يقتصر الحجب على الحرائر فقط ، وانما تعداهن الى الكثير من جواري القصور والبيوتات ، فكان الخروج ممنوعاً على حريم الخلفاء والامراء

والوجهاء الاعلى القهرمانات اللائي يسمح لهن بالدخول والخروج لقضاء الحاجات ، ولهذا رأينا احدى مملوكات السيدة أم المقتدر حينما اشتهت رؤية الناس ، سعت اليها حتى جعلتها قهرمانة .

وبلغ الامر بعزل النساء عن الرجال وعدم اباحة الاختلاط انهم كانوا اذا اقاموا حفلة عرس أو ختان وحضرها الغرباء لجأت النساء الى مكان منعزل أو صعدن فوق السطوح للتفرج على سير الحفلة فينظرن من حيث لا يراهن أحد .

وأذا دخل غريب الى أحدى الدور سارعت النساء الى وضع خمارهن أو تغطية وجوههن .

وفي عام ٣٢٣هـ /٩٣٤م قام الحنابلة بمطاردة المنكر في بغداد وصاروا يعترضون في امور كثيرة وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان، فأذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو ، فأخبرهم والاضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة حتى ارهجوا بغداد .

ولم يكتف المحتسب في عام(٥٠٢هـ/١١٨٠م) بذلك بل اصدر أمره بمنع الزوجين من الوقوف في طريق خال من المارة ، كما منع النساء من العبور مع الرجال في الزوارق وأمر بالفصل بينهما .

وربما كان حضور مجالس الوعظ واداء صلاة التراويح السبيل المسموح به للنساء ، وقد اشارت الاخبار الى أن عدد النساء اللائي حضرن لاستماع أحد الوعاظ في المدرسة النظامية ببغداد قدر بثلاثين الف امرأة ، وقد يكون في هذا الرقم شيء من المبالغة الا أنه يدل على كل حال على كثرة النساء اللائي كن يحضرن للوعظ ، ويبدو أن النساء كن يخرجن للتفرج ليلا باعداد كبيرة لذلك أمر الخليفة المحتسب ان ينهي النساء عن الخروج ليلاً .

ثقافة المرأة

لم تخل العصور العربية قبل الاسلام من ذكر عدد من النساء الفضليات اللائي تميزن في جوانب معينة من العلم والمعرفة ٠

وبالرغم من أن الامية كانت تسود المجتمع العربي قبل حلول الاسلام حتى أن مكة لم يكن فيها أكثر من سبعة عشر رجلا يقرأون ويكتبون ، كان بعض النساء يعرفن القراءة والكتابة وبعضهن يعلمنها ، منهن فاطمة بنت مر الخثعمية ، كانت قد قرأت الكتب في الجاهلية ، ومنهن الشفاء بنت عبدالله ابن عبد شمس القرشية كانت تكتب وترقي، وقد قدمت على النبي قبل الهجرة فقال لها : (ماعليك أن تعلمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة) ٠

فكانت حفصة وأم كلثوم من زوجات النبي تكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرآن المصحف ولا تكتبان ٠

وقد تجلت القدرات والمواهب النسائية في كثير من المعارف التي كانت تكتسب بالسماع والممارسة كالخطابة والشعر والحكم والفراسة والطب والانواء والفلك والرواية ٠ نذكر منها : السيدة عائشة (رض) والسيدة فاطمة (رض) والشاعرة ليلى الاخيلية ، وزينب طبيبة بنى اود وتماضر بنت الشريد وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين (رض) ٠

ثم كان العصر العباسي عصر الازدهار الحضاري الذي شمل المرافق الحيوية في المجتمع كافة ٠٠٠ وكان نصيب الثقافة والاداب في التقدم والازدهار عظيما حتى صار الناس يقدرون الاشخاص بمقدار نصيبهم من العلوم والاداب ونالت المرأة قسطا جيدا من ذلك التقدم لتساير تيار العصر فاستطاعت رغم ما فرض عليها من حجر وحجاب في اكثر الاحوال ان

تثبت جدارة واستحقاقا وان تتبوأ منزلة ثقافية لايستهان بها ، لقد كان لابد للفتاة كحد ادنى من التعلم ان تلقن مبادىء الدين وبعض الفنون المنزلية لتكون على بينة من امور الدين وامور الدنيا ، اما بنات السراة والاغنياء فقد تجاوزن ذلك الى تعلم القراءة والكتابة والموسيقى والاداب الاجتماعية والوقوف على أسرار اللغة والمنطق وقرض الشعر ، وكانوا يستعينون على تعليم البنات بالنساء المتخصصات ويشتد الاقبال عليهن وبخاصة المدرسات اللائي يثبتن جدارة ويتميزن بمتانة الخلق وبالعلم والادب .

ولم يقتصر دور المرأة في هذا العصر على كونها طالبة ، فقد كانت احيانا من الاساتذة المعتمدين،فقد ترجم الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)في تاريخ بغداد لاثنتين وثلاثين من النساء من اهل بغداد المذكورات بالفضل ورواية العلم ؛ مبتدئا بالخيزران المتوفاة سنة ١٧٣ هـ /٧٨٩ ، ومنتهيا بخديجة بنت محمد الشاهجانية المتوفاة سنة ٤٦٠ هـ /١٠٦٧م ، وقد ذكر لكل منهن ماثرها الاجتماعية والعلمية والادبية ، وذكر بعض اساتذتهن وطلابهن ممن اخذ عنهن من العلماء المعروفين كما ان في وفيات الاعيان والوافي بالوفيات والمنتظم لابن الجوزي ونشوار المحاضرة للتنوخي ومرآة الجنان لليافعي ونزهة الجلساء للسيوطي ونساء الخلفاء لابن الساعي أشارات كثيرة الى عدد من النساء العالمات ، وان في الورقة لابن الجراح وطبقات الشعراء لابن المعتز والاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ومعجم الادباء للمرزباني وغيرها ذكر لعدد من الأديبات والشاعرات اثبتن جدارة واستحقاقا في ان تدون اسماؤهن وتذكر اخبارهن واشعارهن .

ويمكننا حصر العلوم التي تميزت بها المرأة في ثلاثة مجالات اساسية هي : العلوم الدينية وما يتصل بها من حديث وفقه، الادب والشعر ثم الموسيقى والغناء . ممن تميزن بالعلوم الدينية السيدة أم عمر الثقفية وهي

محدثة معروفة روى عنها كثير من الاعلام المشهورين منهم احمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م) والسيدة زينب بنت سليمان الهاشمية (ت٢١٨هـ/٨٣٣م) وكانت من افضل النساء ومن ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة حدثت عن ابيها سليمان وروى عنها كثير ممن اشتهر بالحديث ، وعبدة بنت عبدالرحمن أم احمد الانصارية وكانت محدثة ذات دين وفصاحة حدثت عن ابيها وروى عنها محمد بن مخلد الدوري العطار (ت٢٣١هـ/٩٤٢م) وسمانة بنت حمدان الانبارية وكانت محدثة روى عنها ابو بكر الشافعي وابو القاسم الطبراني . وامة الواحدة بنت القاضي المحاملي واسمها ستيتة ، حفظت القرآن والفقه على مذهب الشافعي ، والفرائض وحسابها والنحو وغير ذلك من العلوم وكانت تفتي وكتب عنها الحديث (٣٧٧ هـ/٩٨٧ م) .

واستمر عدد من فضليات النساء يترأسن الحلقات الدراسية ويمنحن الاجازات العلمية لعدد من علماء العصر وادبائه حتى نهاية العصر العباسي فقد كانت (فاطمة بنت الامام احمد الرفاعي) (ت٦٠٩هـ/١٢١٢م) التي نشأت في العراق تدرس في مجلس خاص بها ، واخذ عنها عدد من رجال العصر ونقلوا عنها وزينب بنت الشعري (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) التي ادركت جماعة جماعة من العلماء واخذت عنهم رواية واجازة وقال فيها ابن خلكان : (ولنا منها اجازة سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م) .

وهناك من الاعلام النسائية في قصور الخلافة ممن عرفن بحبهن للاداب والعلوم ، فقد تثقفت الخيزران زوجة المهدي ثقافة جعلتها عاملا من عوامل نشاط الحركة الادبية والعلمية في قصر الخلافة ، تقابل العلماء وتناظرهم ، ويفد اليها الشعراء من شتى الاصقاع ،وكانت تحض المهدي على تشييد دور العلم

ومكافأة الموهوبين ، وانشأت اولادها على حب العلم والعلماء والادب والادباء .

والسيدة زبيدة التي اوتيت من العقل والعلم ما اهلها لان يجعلها الجاحظ خلال حديثه عن مآثر الرشيد وعظمته ضمن الامور التي اتيحت للرشيد مما لم يتح لغيره ، وعرفت عنها قدرتها على النظم والكتابة ، وقد اثرت عنها اشعار معروفة ورسائل وتوقيعات ووصايا تدل على القدرة البارعة والموهبة الفذة ، ومما يدل على براعة السيدة زبيدة في الجواب وسرعة البديهة ماذكره الجهشياري اذ قال : (دخل الرشيد على ام جعفر (زبيدة) فقال لها قد تهتك كاتبك سعدان فاعزليه ، قالت : وبأي شيء تهتك ؟ . قال : بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر :

صب في قنديل سعدا ن مع التسليم زيتا
وقناديل بنيه قبل ان تخفى الكميتا

فقالت له : وقد قال الشاعر في كاتبك ابي صالح أشنع من هذا ، فقال : وما قال ؟ قالت : قال :

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل ابي صالح
تراه في مجلسه اخوصا من لمحه للدرهم اللائح

فقال لها : كذب على كاتبي وكاتبك .

ويذكر ان الخليفة المأمون عندما تسلم رسالة من السيدة زبيدة تهنئه فيها بالخلافة بعد مقتل ولدها الامين ، قال بعد ان قرأها واطلع على ما فيها من بعد نظر وبلاغة وتعقل : (ما تلد النساء مثل هذه ، فماذا ابقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال ؟) .

وتذكر علية بنت المهدي في الادب والغناء والشعر فكانت الى جمالها تجمع

بين الذكاء والصوت الحسن والصنعة الموسيقية واستطاعت ان تتخطى الاغراض التي الفت الحرائر القول فيها من رثاء ومديح الى الغزل وصارت تسن احكام الحب وتستخلص خباياه ، مما يدل على تطور روح العصر وتبدل المقاييس العامة ، قالت :

بني الحب على الجور فلو　　انصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن فيحكم الهوى　　عاشق يحسن تأليف الحجج
وقليل الحب صرفا خالصاً　　هو خير من كثير قد مزج

اما ليلى بنت طريف الفارسة الشاعرة التي عرفها العصر العباسي تدخل الحروب لابسة عدتها وتحمل على الجيوش بعد ان قتل اخوها الوليد بن طريف فلم تكن باقل شاعرية ممن سبق ذكرهن من الحرائر ولعل اشهر قصيدة لها قولها في رثاء اخيها :

فياشجر الخابور مالك مورقا　　كأنك لم تجزع على ابن طريف

وغير ما ذكرنا من النساء المبارزات كثير مما يدل على ثقافة المرأة وسعة اطلاعها في المجتمع العراقي في العصر العباسي ٠

وكان للجواري نصيب واسع في هذا المجال فقد حرص العباسيون على ان لا تستأثر ابصارهم بالجمال المحسوس فقط وانما كانوا يريدون اشراك ارواحهم في الاستمتاع بالكمال الفني والادبي فصارت الجارية لاتحسن عندهم لمجرد حسنها وفتنتها ورخامة صوتها ورشاقة قدها وجمال رقصها ، ولكنهم ارادوا فيها حلاوة في الحديث وبراعة في المنطق وذكاء في الاجابة وقدرة في الشعر الى غير ذلك من اداب المجالسة والمناظرة والمفاكهة ٠٠٠ ولن يجتمع مثل هذا في جارية الا بالثقافة والتدريب والتعليم ٠

وكان اصحاب هؤلاء الجميلات المثقفات من الجواري يفخرون بهن وبما

يتفردن به من النفائس والطرف ويأذنون لهن حينا بالظهور على الاصدقاء او يضربون بينهن وبين اصدقائهم حجبا فيجلسن وراءها يغنين ، او يختلطن بهم ويتجاذبن معهم الحديث فيناشدون الشعر ويتسامرون بالقصص والاخبار .

وعن (نبت) جارية المعتمد على الله انها عرضت عليه فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من امرها ، ثم قال لبعض الشعراء قارضها .. بل لقد كانوا احيانا يشترون الجارية ومالهم فيها من اربة غير الشعر .

واذا ماأرادوا وصف الجارية ذهبوا في وصفها كل مذهب فقالوا في وصف عريب (كانت عريب مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام ، ونهاية في الحسن والظرف وحسن الصورة ، وجودة الضرب ، واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والاوتار والرواية للشعر والادب وبلغ من براعتها في الغناء والصنعة انه كان لغنائها ديوان مفرد من شعرها والصنعة فيه لها) .

وقيل في وصف عنان الشاعرة : (وكانت صفراء جميلة الوجه شكلة مليحة الادب والشعر سريعة البديهة ، وكان فحول الشعراء يجالسونها ويعارضونها فتنتصف منهم) . كما قيل في فضل انها كانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء ، وانها كانت من احسن الناس خطا وافصحهم كلاما وابلغهم في مخاطبة واثبتهم في محاورة .

ولم تقتصر ثقافة المرأة على الجوانب الاجتماعية والدينية والادبية والفنية فقد عرف للمرأة في المجتمع العراقي في العصر العباسي مساهمات سياسية منها ما يتصل بالمشاركة في المواقف والاعداد كالذي حصل في التهيئة للثورة العباسية فقد ترددت بعض الاسماء في الاخبار مشاركات في المواقف ومناصرات بالاموال ، قيل (وكانت المرأة تخرج من جميع حليها الذي على جسدها فتبعث به لنقباء الدعوة العباسية واعلامها) .

اما (ماوية بنت عمرو بـن سعيد) وهي بنت خالة عامر احد رجال الثورة العباسية وكانت قبلت دعوته للتأييد فخلعت ما كان عليها من حلي وبعثت به •

وهكذا كان للمرأة في المجتمع العراقي نصيب وافر من الثقافة والاطـلاع وكان لها مساهمات مختلفة تدل على علو المكانه الثقافيـة للمرأة في العصـر العباسي ••• ويكفي ان نلقي نظرة على كتب التاريخ والادب والاخبار لنجد اي نوع من النساء حرائرهن وجواريهن قد حفل بهن العصر في مختلف صنوف الثقافـة والمعرفـه •

الحالة الاقتصادية

وتتمتع المرأة في المجتمع العراقي بقسط من الاستقلال الاقتصادي نتيجة بعض الموارد الخاصة التي تؤول اليها اما عن طريق الحق الذي منحه اياهـا الشرع الاسلامي في الارث ، اذ يتكون لديها من الارث الذي يصلها من والديها او ذوي رحمها ما يكون لها موارد مالية مستقلة لها الحرية التامـة في التصرف بهـا واكثـر ما يحصـل هـذا فـي العوائـل الموسـرة • وامـا عـن طريق ما يملكهـا الـزوج من صـداق او يهديهـا ذووهـا فـي مختلـف المناسبات او نتيجة قيامها ببعض الصناعات او الاعمال التي تدر عليها ارباحا معينة • ولابد لنا في هـذا المجال ان نفـرق بـين نسـاء القصور ونسـاء العامـة مـن حرائر وجـوار •

اما نساء القصور فان اخبار ثرائهن تملأ كتب السير والاخبار والتاريخ فالخيزران حينما حجت عام ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م قسمت بالمدينة اموالا واجازت بجوائز عظيمة وزوجت ايتاما وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من انواع الطيب وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالايعطون • وقد بلغت غلتها قبل موتها مائة الف وستين الف درهم •

والسيدة زبيدة قامت بالكثير من المآثر الجليلة ومنها حفر (عين المشاش) بالحجاز وكان جملة ما انفقت عليها الف الف وسبعمائة الف ومنها انفاق الالوف على المصانع والدور والبرك والآبار ، وما عرف عنها من انعامها على الشعراء والمغنين والقضاة ، وكان لها ضياع كثيرة جعلت عليها وكيلا خاصا . وعليـة بنت المهدي واخبار بذخها وترفها كثيرة ويشير ابو الفـرج الاصفهاني الـى انـه كان لها وكيل خاص باموالها يقال له (سباع) . وقبيحة زوجة المتوكل التي ذكر عنها ابن الاثير انهم وجدوا عندها مليونا وثمانمائة الف دينار .

أما عامة النساء فتشير الاخبار الى انه كان لبعضهن اموال خاصة بهـن تنحدر اليهن أما عن طريق الارث كما اشرنا أو عن طريق مايملكهن أزواجهن من صداق وأولياؤهن من عطايا وهبات أو عن طريق قيامهن ببعض الاعمال التي يزاولنهـا .

وكان لهن حق التصرف باموالهن في حاجاتهن ومطاليبهن الخاصة من الامور الدنيوية كشراء الاثاث والحلى والملابس ، او شراء الجواري لمساعدتهن في الاعمال البيتيه .

وقامت المرأة ببعض الاعمال وربما كانت اكثر الاعمال موقوفة على الجواري دون الحرائر وذلك لعدم التحرج في الاذن لهن بمزاولة مايستدعي الخروج في الطرقات أو يستوجب مجالسة الرجال والتحدث معهم ، وقد يتساهلون مع الحرائر اللائي بلغن سنا لا يخشى معه من شيء .

فمن الاعمال التي زاولتها المرأة بصورة خاصة الخط والكتابة وقد تناول ابو بكر الصولي(ت٣٣٥هـ/٩٤٦م)ذكر ما استحسن من خط الجواري اسوة بما ذكره من خط الكتاب . وكانوا يعدون الخط مظهرا من المظاهر الثقافية التي يستحسن توفرها في الجارية فقد قال المأمون حينما رأى جارية من جواريه تخط خطا حسنا .

وزادت لدينا خطوة حين اطرقت وفي اصبعيها اسـمر اللون أهيف

وقال احمد بن صالح يصف جارية كاتبة :

(كأن خطها اشكال صورتها وكأن مدادها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها اديم وجهها ، وكأن قلمها بعض اناملها ، وكأن بناتها سـحر مقلتها ، وكأن سكينها سيف ألحاظها ، وكأن قطعها قلب عاشقها) •

واشتغلت المرأة حجامة للنساء والى ذلك أشار السرى الرفاء بقوله معزيا صديقا له بزوجته الحجامة :

وكاتبة اقلامهـا حـين تنتضى حديد واعناق النساء طروسـها

واشتغلت المرأة بالطب والتوليد ، وكـان محمد بن الجهم يقـول : (لاتتهاونوا بكثير من علاج القوابل والعجائز ، فان كثيرا من ذلك وقع اليهن من كبار قدماء الاطباء) •

ومن الاعمال التي زاولتها النساء عامة من الحرائر والجواري الغزل وهي من الاعمال المستحبة للمرأة وقد حث الرسول (ص) على تعليم النساء الغزل وحببه اليهن بقوله (نعم لهو المؤمنة في بينها الغزل) ، وسأل احدهم أم سلمة قائلا : (كلما اتيتك وجدت في يدك مغزلا ، فقالت انه يطرد الشيطان ويذهب حديث النفس) • وكان الغزل مورد رزق جيد للمرأة لها ان تحج بمورده أذا شـاءت •

وهناك الكثير من الاعمال ورد ذكرها ، فقد اشتغلت بعضهن ماشطات أو مقينات (مزينات للعرائس) وخبازات أو دلالات أو نائحات في المآتم وغيرها من الاعمال التي فرضتها الظروف الاجتماعية والمعاشية اضافة الى ان البعض كن يساعدن الازواج في اعمالهم وحرفهم ، أذا ما اتخذوا من بيوتهم دكاكـين لهم •

نستخلص من كل مااوردناه ان المرأة في المجتمع العراقي كانت تتمتع بشيء من الموارد الاقتصادية تدعم لها حرية التصرف وتقلل من التبعية التامة للرجل في النواحي الاقتصادية .

جمال المرأة وزينتها

تتأثر معايير الجمال في أي مجتمع من المجتمعات بالمستوى الحضاري والحالة الاجتماعية لتلك المجتمعات .. حيث ان المؤثرات المختلفة للتيارات الحضارية لا تلبث ان تلون المظاهر الجمالية بالوان جديدة ربما لم تكن مألوفة فتتغير تبعا لذلك الاذواق العامة وتتبدل المعايير ، فما كان يرى جميلا في عصر من العصور قد لايراه ابناء عصر اخر بالمستوى الجمالي نفسه ... وهكذا فأن للزمان احكامه بحكم المؤثرات الاجتماعية والحضارية التي تفعل فعلها في ذلك .

لقد كانت المعايير العامة للجمال في العصرين الجاهلي والاسلامي متمثلة بالبياض والطول والسمنة وسواد الشعر وسعة العينين ، فكانوا أذا ماارادوا وصف المرأة شبهوا عينيها بعيني الظبية واشراقة وجهها بالشمس أو القمر كما اتخذوا من كثبان الرمال في استدارتها وتمايل اجزائها وتحركها لهبات الريح صورة لوصف اوراكها ، وغير ذلك من الصور التي لونتها لهم حياتهم الاجتماعية والبيئية .

أما في العصر العباسي حيث ازدهرت الحضارة وعمت المدنية أرجاء المجتمع الحضري بصورة خاصة فقد تغير الكثير من معايير الجمال وسنت معايير جديدة ملائمة للتطور الحاصل حتى صار البعض يزدرون بالمعايير السابقة.

وكانت المرأة على امتداد العصور تسعى دائما الى التجمل وتمارس الوسائل المختلفة لاظهار مفاتنها وزيادة محاسنها كالوشم والخضاب والتكحل

والتزجيج والتعطر ، وكالتفنن في تصفيف الشعور وزركشة الملابس ولبس الحلى وغـير ذلك .

ولما كان العصر العباسي عصر ترف وثروة وحضارة وذوق وفن وادب ، فقد بدت اثار التأنق والجمال في جميع المظاهر الاجتماعية كالمسكن والمأكل والمشرب والملبس ... وبدت اثار تلك السمات الحضارية في المرأة بشكل واضح ، ذلك لانها تمثل العنصر الذي تصبو اليه القلوب وتهفو له النفوس فتريده رقيقا حلوا عبقا يثير السحر واللطف والجمال حيثما حل .. ولهذا رأينا المرأة تبالغ في الاناقة وتتفنن في اساليب الزينة في المجتمع العراقي في العصر العباسي ، وتأتي بضروب شتى وفنون مبدعة في هذا المجال .

واهتمت المرأة بصبغ شـعرها وتجعيده ، فقال ابن بطلان ، وهـــو خبير بجمال المرأة (يكسبون الشـعور الشقر حالك الســواد ويجعدون الشعور الســبطة) .

كما تفننت في تصفيفه وتسريحه وتزيينه وتعطيره ... فقد تجعل الشعر غدائر جعدة وقد تتركه مسدولا من الخلف وترصف الاصداغ بعناية ودقــة وربما كانت الاصداغ ظاهرة جديدة في تصفيف الشعر ، فهي مرة تجعلها شبيهة بالعقارب او بالنون المعجمة بالخال ومرة اخرى تصففها مشبهة لحــرف القاف أو الحلق السود المنتظمة فوق صفحة العاج . أو قد تزين شعرها بالسلاسل والحلى المختلفة ... وقد وردت نماذج عدة لتصفيف الشعر التى كانت تمارسها المرأة في تلك العصور نقلها مزوقو المخطوطات والرسامون ، ففي رسوم سامراء الجدارية تظهر لنا صورة امرأتين قد صــففتا شعريهما وزينتاه ببعض الحلي .

وقد تجعل المرأة شعرها ذوائب تجمعها بوقاية مطرزة بالذهب والدرر أو مزينة ببعض الابيات الشعرية المنقوشة بالحرير .

وكانت الموسرات يطبىن شعورهن بانواع الطيب او يغسلنه بالمسك والعنبر والبان .

واستعملت المرأة اغطية لرأسها أو حفاظات لشعرها ، وتعددت مسمياتها تبعا لاوصافها واستعمالاتها كالمقانع والعصائب والمعاجر والقلانس والكرزان وتفننت في تزيينها بالاحجار الكريمة والنقوش الجميلة ، وربما طرزت عليها ابياتا من اشعار الجمال والدلال والحب والمناجاة بخيوط من الذهب أو الحرير وغير ذلك مما يدل على الاناقة والفن والذوق الرفيع .

واستعملت المرأة الخضاب وسيلة من وسائل التجميل منذ العصور القديمة بصور مختلفة واساليب متعددة تدل على التطور الحضاري والفني ، وقد وردت اشارات كثيرة في الادب الجاهلي والاسلامي تدل على ذلك

اما في العصر العباسي وفي المجتمع العراقي بالذات ، فقد زادت الحاجة اليه لزيادة الحرص على التجميل . وذلك لانتشار فنون الجمال وصوره .

وتفننت النساء في نقش الحناء وفي تشكيل الزخارف والنقوش التي تدل على الفن والذوق ، وبلغ من براعتهن في ذلك انهن كن يكتبن بمهارة ودقة على راحات الايادي او على الاقدام اشعار الحب والغزل قال الماوردي : رأيت على راحة احدى جواري المأمون اليمنى بالحناء :

فديتك قد جبلت على هواكا   فقلبي ماينازعني سواكا

وعلى اليسرى :

احبك لابيعضي بل بكلي   وأن لم يبق حبك من حراك

ونوع من الخضاب شاع استعماله ذلك هو صبغ الاظافر بمواد حمراء اللون كالعلم والشناذر والعناب وغيرها ، ويؤيد ذلك ماقاله ابن الجوزي : (ان رجلا رأى امرأة قد خضبت رؤوس اصابعها وشـــنذرتها) كما تشير الرسوم الاثارية الى أن المرأة كانت تطيل اظافر اصابعها وتصبغها كما هـــي الحال عليه لدى المتأنقات في العصر الحاضر ، وتصبغ اظافر رجليها .

وكانت النساء يخضبن خدودهن وشفاههن بالحمرة ويطلين وجوههن بالبياض وبلغ من ترفهن انهن استعملن البسك والعنبر والمسك والغالية لرسم الخال والتنقيط .

وكان لجمال عيني المرأة عند العرب موقـــع خاص في نفوسهم ، لهذا عنيت المرأة بعينيها على مر العصور ، وكان الكحل ابرز سبيل الى اضفاء السحر والجمال على العينين وكان من اهم ما توصي به الفتاة حين زفافهـــا ، ان لاتتهاون في مراعاة خصلتين هما : التكحل والنظافة ... وقد كثر ورود ذلك في وصايا الامهات والاباء نذكر منها قول الفرافصة الكلبي لابنته حين جهزها الى عثمان بن عفان (رض) : (يابنية انك تقدمين على نساء قريش وهن اقدر على الطيّب منك ، فلا تغلبي على خصلتين الكحل والماء ، تطهري حتى يكون ريحك شنّ اصابه المطر) .

وتناول الشعراء التغزل بجمال العيون الكحيلة ، وعبروا عن تعلقهم بهذه السمة من سمات الجمال في الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي .

أما في العراق فقد اكثر الشعراء من ذكر التكحل والكحل ، ولايكاد شاعر من شعراء الوصف أو الغزل يتجاوز ذلك .

وحظي الحاجبان بالكثير من العناية والاهتمام فاستعملت طريقة تدقيق

الحاجبين واطالتهما أو تزجيجهما بالاثمد • ويبدو من خلال ما وردنا من اشعار واخبار ان الحف أو (التنمص) كان معروفا منذ صـــدر الاسلام أو قبله ، واستمر النتف والحلق والتخطيط والتزجيج (الصبغ) وسيلة المرأة لتجميل حاجبيها في العصر العباسي،ويبدو ان المرأة كانت احيانا تزيل حاجبيها باكملهما لترسم بدلهما بالاثمد الشكل الذي تريده ••• وهي الطريقة التي تقوم بهـــا في عصرنا الحاضر بعض النساء اللائي يبالغن في التزيين •

واستدعت الاناقة في الحياة والترف فيها والتفنن في التمتع بكل مايلذ الحواس ، ان يهتموا بالطيب بانواعه المتعددة ، فاستعملوا المسك وهـــو من اغلى أنواع الطيب ، وجعلوا له اسماء كثيرة منها : المسك التبتي نسبة الى التبت ومنها المسك الذبيح والمسك الاذفر ، وتطيبوا بالعنبر والعبير والند والكافور والبان والزعفران وغيرها •

وقد جعل (الوشاء) في كتابه (الموشى) للمتظرفات من النساء زيا خاصا في الطيب حيث يقول : (ومن زيهن في الطيب الذي ليس للرجال فيه نصيب استعمال اللخالخ والصـــندل والصيـــاح والقرنفل والســـاهرية والادقال والمعجونات والزعفران والخلوق وماء الخلوق والكافور وماء الكافور ، والمثلثة الخزائنية البرمكية السلطانية وسائر صنوف الادهان من البنفســـج والزئبق والبان) ويذكر الانواع العامة من الطيب في حديثه عن القيان وعن الهدايا التي تبعث اليهن في المناسبات (من اللخالخ المعجونة ومخالق الكافور المنظومة ، ومراسل القرنفل المجمرة ، والمسك الاذفر ، والعنبر الاشهب ، والعود الهندي والند الخزائني والماورد الجوري) •

وهكذا رأينا شغف النساء باستعمال الطيب الذي كانوا يتطيبون بـــه

باساليب مختلفة ... فهو مره دهان يدهن به الشعر أو الوجه والجسم وهو مرة ماء يستخلص من أنواع النبات ترش به الملابس (القمص المعنبرة والغلائل الممسكة والاردية المرشوشة) . وربما جعل الطيب على شكل قلائد تلبسها المرأة (المخانق المنظومة من الكافور) وغير ذلك مما يدل على رقي الذوق ورهافة الحس بالجمال وترف العيش في المجتمع العراقي .

الملابـــس

واتخذت المرأة من الملابس ما اتسم بالاناقة والبذخ والجمال وبالـغ التجـار في جلب الاقمشة الثمينة النادرة والارديـة الرشيدية والطبريـة والنيسابورية والخراسانية وتفننوا في تزيينها بالدر والذهب واللؤلؤ وغيرها وجعلوا اللباس مظهراً لتمييز طبقة عن طبقة وصنف عن صنف وجنس عن جنس فاعتمدوا للرجال الوانا معينة وللنساء غيرها ... واتخذوا الالوان لمختلف المناسبات والاحوال فالمتظرفات من الطبقة الراقية لا يلبسن من الثياب ماكان مصبوغا ولايتخذن الا ماكان جنسه التزويق والخضرة والتوريد والحمرة من اللاذ والحرير والديباج والقز والخز والوشي .. وكان اللـون الاسود والازرق دليل الترمل والحداد والاحمر آية الفرح والطرب والسرور اما الشديد الحمرة والتوريد فهو لبس النبطيات والامـاء .

وكان البياض لبس المهجورات وربما لبسته بعض النساء في حالات الحزن والتسلب فقد ذكروا انه (لما احضرت جواري المتوكل بعد قتله حضرن وعليهن الثياب الملونة المذهبة والحلي وقد تزين وتعطرن الا محبوبة فقد جاءت متسلبة عليها ثياب بيض غير فاخرة حزنا على المتوكل) .

وتغطي المرأة جسمها ورأسها حين الخروج من المنزل او في بعض المناسبات بالجلباب او القباء وهو نوع من اللباس يرجح انه كان يلبس في المناسبات والحفلات ويصنع من الاقمشة المتنوعة •

وربما استعاضت المرأة عن الجلباب بالازار وغطت رأسها بالمقانع او البراقع ويدل على ذلك قول ابن المعتز :

جلتها علينا الريح بين كواعب ﴿﴾ وقد كتمتهن المقانع والازر

اما الاردية فهي لباس تلبسه المرأة عادة في بيتها يغطي الجسم كله وله كمان ، وتتفاوت الاردية في نوعية قماشها وفي مادة تطريزها فقد تصنع من القطن او الكتان او الحرير او القصب وتطرز بالخيوط القطنية او الحريرية ذات الالوان الزاهية ، وقد ترصع بالاحجار الكريمة من اللؤلؤ او الزبرجد والياقوت ، وقد تحلى بالاشعار التي تدول حول الغزل او مايتصل باللهو والطرب والحب •

ورغبت النساء في الوشي رغبة شديدة فانتشر بينهن وكانت السيدة زبيدة تلبسه دائما ، حتى صنع لها من الوشي الرفيع مابلغ ثمن الثوب منه خمسين الف دينار واستعملته النساء الموسرات من الحرائر والجواري •

وكانوا يتفنون في خياطة الملابس وتفصيلها •• فمنها الطويلة التي تسحب على الارض كالتي ذكرها ابو نواس في قوله (مقرطقة لم يحنها سحب ذيلها) او قوله ذاكرا (السداسي) الطويل (اذا هي قامت والسداسي طالها) • ومنها القصيرة التي تنصف الساق (كالاتب) ، وربما كان الاتب نوعا من الملابس الداخلية التي تلبسها المرأة عند نومها او تحت ملابسها وهو مانسميه (الاتك) ، ومثله الصدار والقرقر والقلقل والمجول والشوذر وهي كلها عبارة عن

قمص متقاربة في الشكل من حيث الطول والعرض وعدم وجود الاكمام فيها وحرصا من المرأة على اظهار مفاتن قوامها لبست المناطق والقراطق وزخرفتها بالنقوش والاحجار الكريمة وطرزتها بالنقوش وابيات الشعر •

أما الزنانير فكانت من أزياء أهل الذمة • وكان على المرأة الذمية ان تشد زنارا فوق الازار وتحته تفريقا عن غيرها •

ويلخص الوشاء اسماء ملابس النساء فيقول : (أما ملابسها فهي الاردية والغلائل والمجاسد والقراطق والمناطق والبنائق والقمص والاقبية والدراريع والسراويل) •

واتخذت المرأة في رجليها (الخفاف والنعال والجوارب الخز) ولم تشر المصادر التأريخية الى ارتداء النساء للاحذية الا أن بعض الصور الاثارية تظهر لنا أن المرأة لبست نوعا من الاحذية لها كعب ورقبة مرتفعة تشبه (الجزمة) •

وكانت النعال والخفاف مما اعتادت ان تلبسه المرأة في ذلك العصر وربما جُعلت (صرارة) تصر عند المشي • وتلبس النساء الظريفات النعال المشعرة والمدهونة المخصرة ، ولم يقتصر صنع النعال الخاصة بالنساء على الجلود ، وأنما اتخذتها من النسيج فقد ذكر التنوخي ان السيدة أم المقتدر عرفت بنعلها المصنوع من ثياب ديبقية والمحشوة بالمسك والمخيطة بالحرير وتسمى (ثياب النعل) وذلك (انها كانت صفاقا مقطعا على قدر النعل المحذوة وتطلى بالمسك والعنبر وتجمد ذلك بين كل طبقتين من الثياب من ذلك الطيب حتى تلف بعضها على بعض وتصمغ بالعنبر وتلزق حتى تصير قطعة واحدة) •

الحلـــى

ولبس الحلي من متممات جمال المرأة ، لذا أهتمت النساء في المجتمع العراقي باقتنائها والحرص على التحلي بها بسيما في المناسبات العامة وتشـير كتب التأريخ والاخبار والادب الى كثره استعمال الحلى في العصر العباسي والى التفنن في صياغته واستعمالاته • وذلك لارتباط حضارة العصر بمظاهر الترف والجمال الى ابعد الحدود مما أدى الى المبالغة والاسراف في توفير مسـتلزماتها •

وأخبار حلى نساء الخلفاء وجواريهم كثيرة مبثوثة في مدونات العصر ومصادره وواضحة في آثـــاره •

ولم يكن الامر مقصورا على نساء القصور ، فقد كان من أهم الهدايا التي يقدمها الازواج لزوجاتهم أو محظياتهم أنواع مختلفة من الحلى •

وقد استعملت المرأة الخلاخل المجوفة أو المرصعة بالاحجار والمحشوة بالقطع الصغيرة التي تصوت عند المشي • وقد اشار الجاحظ الى ذلك في وصفه احدى الجواري بقوله : (قد خالط صرير نعلها اصوات خلخالها) •

ولبست المرأة المناطق والقراطق من الذهب أو الفضة ، وزينت اذنيها بالشنوف والاقراط وجيدها بالقلائد ولبست الاسورة والدمالج في معصميها والخواتم في اصابعها ، وجعلت الامشـاط وأنـواع التيجان والسـلاسل لتحلية شـعورهن •

وكانت عادة لبس الحلى في المناسبات السعيدة عند عامة النساء ضرورية وربما لجأت بعضهن ممن لا يمتلكنها الى استعارتها من الاصدقاء والاقارب •

ولابد لنا في ختام الحديث عن المرأة في حضارة العراق ان نقول : انه

لايمكن لاية حضارة ان ترقى ويقوى شأنها الا أذا كانت المرأة جزءا اساسيا محركا فيها ، تؤثر في المجتمع وتتأثر به .

وأن مارأيناه من احوالها في المجتمع العراقي في العصور الاسلامية والذي تجلـى في الموقـف منها والنظرة اليهـا ، وفي المكانـة التي احتلتها ، وفي شؤونها المختلفة في حياتها الزوجية والاسرية وفي مستواها الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ، ثم في المظاهـر الفنية التـي بدت في لباسها وسمات زينتهـا والتي تعبر بلاشك عن وجه من وجوه شخصيتها ، وما بلغته من النضج في الذوق والتحضر كل ذلك دليل واضح على الدور الكبير الذي لعبته المـرأة في ذلك العصـر ، والرقي الحضـاري الذي بلغه المجتمع العربـي في العـراق .

المصادر والمراجع

اخبار ابى نواس لابن منظور ، تحقيــق محمــد عبدالرسول ابراهيم وعباس التربينى (مطبعة الاعتماد) .

اخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول من الفرن التالث الهجري مطابــع دار صادر ١٩٧١ / بيروت .

اخبار النساء لابن فيم الجوزية اصدار دار الفكر .

ادب الكتاب لأبي بكر محمد بن يحيى الصولى، تحقيق محمد بهجة الاىري، مطبعة السلفيه بمصــر ١٩٤١ هـ .

الاغانى لأبي الفرج الاصفهانى ، دار الثقافة ، بيروت .

البيان والىبين للجاحظ ىحقيق عبد السلام محمد هارون ط ٣ (١٩٦٧) بين

بين الخلفاء والخلعاء ، د. صلاحالدين المنجد ، دار الحياة ١٩٥٧ .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

تاريخ الطبري ، ىحقيق ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ١٩٦٦ .

التزيق والحلى في العصر العباسي زكية عمر العلى دار الحرية للطباعة ١٩٧٦ .

ىلاث رسائل لابن عثمان عمرو ىن بحر الجاحظ ط ٢ (١٢٨٢ هـ) المطبعة الســلفية .

جمال المراة عند العرب د . صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٥٧ م.

جمهرة خطب العرب د . احمد زكي صفوت ط ٢ (١٩٦٢) .

جمهرة رسائل العرب في عصــور العربية الزاهرة د . احمد صــفوت ط ١ (١٩٧٣) .

الحضارة الاسلامية لآدم متز .

الحياة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة د . مليحة رحمة الله بغداد مطبعة الزهراء ١٩٧٠ .

ديوان ابن المعتز دار صادر بيروت ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م

ديوان ابي نواس تحقيق عبدالمجيد الغزالي مطبعة مصر ١٩٤٣ م .

ديوان الصنوبري تحقيق احسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٧٠ م .

ديوان المعاني (ابو هلال العسكري) مكتبة الاندلس بغداد ١٣٥٢ هـ .

رسالة نافعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون ط ١ ١٩٥٤ م .

رسائل الجاحظ مطبعة التقدم ط ١ (١٣٢٤ هـ) .

رسائل الخوارزمي ط ، مطبعة الجوائب ١٢٩٧ .

سيدات البلاط العباسي ، للدكتور مصطفى جواد ، مطبعة دار الكشاف بيروت ١٩٥٧ .

عالمات بغداديات في العصر العباسي .

العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري بدرى محمد فهد ١٩٦٧ م مطبعة الارشاد ببغداد .

لسان العرب لابن منظور ، بيروت دار صادر ١٩٥٥ م .

مجمع الامثال للميداني ١٣٥٢ .

المحاسن والمساوىء للبيهقي تحقيق (محمد ابو الفضل ابراهيم) مطبعة النهضة ـ مصر .

المرأة في الجزيرة في القرن الاول الهجري عبداللطيف جاووك .

المرأة في حضارة العرب ، محمد جميل بيهم .

المرأة في الشعر الجاهلي د . محمد الحرفي .

مروج الذهب للمسعودي مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨ .

المنتظم لابن الجوزي ، مطبعة دار المعارف العثمانية ١٩٧٦ م .

الموشى أو الظرف والظرفاء لابي الطيب محمد بن اسحاق الوشاء تحقيق د. كمال مصطفى ط ٢ (١٩٥٣ م) .

الفصل الرابع

المدينة والتحضر

د. خالص الأشعب

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

تمهيد

تعبر الظاهرة الاستيطانية الحضرية والتحضر في العراق ــ وكما في أي مكان آخر ــ عن التطور الحضاري للقطر في سياق تطور الحضارة العربية. ومع ان تاريخ المدن هو تاريخ الحضارة، فلم ينل الموضوع من الاهتمام والدراسة مايستحقه وبما يليق والوزن الذي يحتله، مقارنة مع غزارة الدراسات التي عالجت الجوانب السياسية والعسكرية للامة. ان ذلك يدفع الى أمل التمكن من الوصول الى كشف جوانب أساسية لا زالت مهملة تتعلق بمقومات المدينة العربية العراقية[1]، الوظيفية والتخطيطية وأصالتها ومراحل نموها ومراتبها[1 آ] وفق معايير معينة. ومن ثم الانتقال الى ظاهرة التحضر وعواملها واتجاهاتها وما يترتب عليها. وفي كل ذلك يؤكد على محاولة الكشف عن صيغ ومجالات الابداع والابتكار في جانبي الوظيفة (أستعمال الارض والمعمار)، مما يعبر عن أصالة الاضافة لحضارة الانسان في أبعاد مثل المفاهيم

والانجاز ـ صيغا ووسائل ونتائج ، على مستوى المدينة ووحداتها المعمارية •
وفي ذلك سيتم تجنب الدخول بتفاصيل أتى اليها هذا الكتاب في مواقع أخرى على ضوء طبيعة الموضوع ومتطلبات دراسته • أتت هذه الدراسة لتعبر عن حقيقة كون المدينة ـ بمراتبها ـ رمزا صادقا لحضارة الامة ، حيث مثلت ولازالت الاطار المكاني لشبكة العلائق الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ الادارية والتخطيطية • فهي اذن المتحف الحضاري الذي احتوى كل أبعاد الازمات والتطور • ومن مظاهر ازدهار الحضارة العربية هو تضاعف عدد المدن وتطور نمو غالبيتها • وفي تطورها قد امتلكت المدينة العربية شخصية مميزة بين المدن التي تنتمي الى حضارات اخرى مما ينبغي الاهتمام به وابرازه• وهنا لابد من التأكيد على تكامل عناصر المدينة العربية مما خلق تجانساً عضويا وتخطيطيا لا يمكن تجاهله ، هذا رغم تفاصيل التطور في الفترة التي غطتها الدراسة وهي الفترة التي تنتهي بغزو المغول لمدينة بغداد عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨ م) •

ما هي المدينة

وفي مستهل المعالجة نرى ضرورة توضيح ما المقصود بالمدينة في الاطار الحضري العربي • يغطي مصطلح الحضر المستوطنة المدينية والريفية • اذ أن ظاهرة الاستقرار توحد بين النوعين • الا ان الشائع هو اقتصار مصطلح الحضر على المدن ، مما لا يتفق والاساس اللغوي(٢) •

وتنقسم المدن في العراق الى مدن قائمة موروثة تعود الى فترات سابقة ، طورها العرب المسلمون لما ينسجم ومفهوم المدينة لديهم فأقاموا الوحدات الدينية ومايرتبط بها ، ووفروا الخدمات العامة كالمستشفيات والحمامات والمدارس ضمن النمو العضوي التلقائي للمدينة الذي في حالات معينة يتم التدخل لتعديله وتوجيهه • اما النوع الثاني فهو المدن الجديدة التي انشأها

العرب لتؤدي وظائف عسكرية ـ سياسية ـ أدارية أو غيرها . وفي كلا النوعين جاءت المدن لتنسجم والحضارة العربية بكل أبعادها ومتغايراتها . وفي المرحلة التي نغطيها الدراسة يمكن التمييز بين المدينة والريف من خلال اعتماد معايير معينة كالمظهر العام والكثافة المعمارية واستعمالات الارض والكثافة السكانية وتفاصيل المخطط العام والناحية الادارية والتاريخية .

يظهر التكتل المعماري اكثر وضوحا في حالة المدينة التي تكون كثافتها السكانية والمعمارية أعلى منها في القرية . كما ان الغالبية من الوظائف فيها لا ترتبط بالارض ، أنما تتجه الى التجارة والحرف والخدمات الدينية والصحية والتعليمية ، والتي يعمل فيها العاملون داخل المدينة وليس خارجها كما يحدث لسكان المستوطنات الريفية . وتمتلك المدينة على ضوء ذلك منشآت ندر أن توجد في المستوطنات الريفية مثل الجامع والسوق وملحقاته والمدارس والمستشفيات والحمامات ومظاهر التحصين مما لا يرتبط وحياة الحقل كما يحدث في القرية .

ومن ناحية المظهر العام فللمدينة مظهرها النابع من مبانيها العامة والخاصة وشرايين الاتصال (الطرق الداخلية) . لقد أدى كل ذلك الى تطوير انظمة للشوارع عضوية الطبيعة (على انماطها) تنمو تدريجيا وبدون توجيه مسبق ، حيث الشوارع الملتوية المتباينة في العرض والتي تختلف في سعتها أيضا من جزء لآخر في الشارع نفسه . ويرافق ذلك نمطا للساحات العامة على امتداد الشوارع الرئيسة ذاتها ، أو عند التقاء أكثر من شارع مما لا يظهر بالمستوطنة الريفية . الامر الذي يجعل المدينة العربية كلا عضويا مترابطا . وفي هذا المجال تخلو المستوطنة الريفية من منطقة مركزية تستقطب الوظائف الاساسية مقارنة مع المدينة العربية الاسلامية التي يكون الجامع مع دار الامارة وبيت المال والدواوين مثل هذه المنطقة المركزية .

وبذلك يختلف خط الافق في المدينة عنه في المستوطنة الريفية ، اذ أنـه يكون أكثر تعرجا في المدينة حيث الجامع ومنارته والقصر او القصور والسور مقارنة مع خط أفق القرية الذي يكون اكثر انتظاماً .

وهنا ينبغي توضيح حقيقة هامة وهي وجود متصل بين المدينة والريف . اذ لا يوجد انتقال مفاجىء بين الاثنين . يغطي مفهوم ثنائية ريفي ــ حضري عمليات التغير الاجتماعي الذي يحدث تدريجيا ويستغرق وقتا ، فلا فـروق واضحة حدية . هذا وقد توجد بعض الملامح الدينية في بعض القرى كـأن يوجد مسجد أو وظيفة قضائية او سوق . ويظهر ذلك عند ملاحظة مراتـب المستوطنات وتدرجها حيث سيظهر ان هناك مدنا شبه ريفية ، اذ تؤدي بعض خدمات التسويق والمواصلات والتي يمارس بعض سكانها النشاط الزراعي سواء أكان نشاطا زراعيا أم كان نشاطا خاصـا بتربيـة الحيوانـات داخـل المستوطنة . وفي هذا السياق يمكن أن نوجد تنوعا في تخصص المدينة العربية كأن تكون مدن دفاع أو مدن تسويق أو مدن ادارة مقارنة مـع المستوطنات الريفية التي يسودها تخصص واحد وهو النشاط الزراعي . أما من الناحية الادارية ــ القانونية فللمدينة عادة وضعها الخاص الذي يؤهلها لتبؤ مكان مركزي تمارس فيه السيطرة والتوجيه على ذاتها واقليمها التابع . واكثر من ذلك تتوفر أدارات من مرتبة ادنى لكل محلة من محلات المدينة معنية بـادارة شؤونها مما لا يتوفر في القرية . وعلى ضوء عدم توفر الاحصاءات المتعلقـة بالسكان والمساحات الحضرية فلا يمكن اعتماد الاساس السكاني (الديمغرافي) لتمييز المدينة عن الريف في مرحلة الدراسة ، ذلـك المعيار المعتمد في ظرفنـا المعاصر ، بعد معرفة المجمـوع الاجمالي للسكان وكثافتهم ، سواء أكانـت الكثافة الكلية أم الكثافة الصافية التي ينسب فيها عدد السكان الاجمالي الى الجزء المبني من المدينة .

وبخصوص المعيار التاريخي الذي يرتبط بنشأة وتطور المدينة ، فـلا

يخلو هو الاخر من بعض الصعوبات المتمثلة في انه بالوقت الذي يمكن تمييز الكثير من المستوطنات على انها مدينية من خلال صيغ تطورها وكونها قائمة ، فهناك مدن أخرى تحولت الى اطلال ، واخرى اضمحلت لتتحول الى مجـرد تجمعات عمرانية صغيرة • وفي ذلك فقد لعبت عوامل مثل تغير طرق المواصلات ومجارى الانهار والحروب أدوارها في انعاش مدن وإماتة أخرى • وهنـا ينبغي التاكيد على أن لهـذا المعيار اهميته في تتبع تطـور المدينة اكثر مـن استعماله لتصنيفهـا •

المدينة مركز للتغير

تمثل المدينة اهم مراكز الاحتكاك والتلاقح والتطور والاشعاع الحضاري في الدولة ، يجذب نحو المدينة وخاصة تلك التي من مراتب اعلى طلاب العلم وممثلي الدولة والتجار وغيرهم مما يزيد من فرص التطور • ومما يسـاعد المدينة على ذلك أنها تحتضن مركز السلطة أو القوة التي باستطاعتها اتخـاذ القرار • كما وأنها الحيز الذي تتركز فيه القوة الاقتصادية • اذ توجد فيهـا بيوت المال والادارات الاقتصادية ومراكز الصيرفة والوكالات واسواق الجملة والمفرد والصناعات الحرفية ، أي انها مركز الاستثمارات الرئيسة •

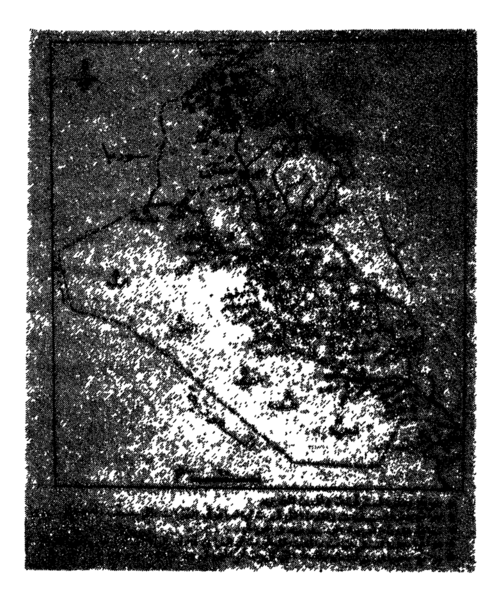
وهكذا فالمدينة العربية مؤهلة لان تكون الحيز" الذي تتطور فيه الافكار الجديدة العلمية منها والاجتماعية ، والتي تسود بالانتشار علـى المستويات المحلية والقومية والعالمية ، خاصة وأنها المأوى الذي يلتجىء اليه المهاجرون ، ذلك انها تستقطب الامكانات الفردية من أنحاء الاقليم التابع لها • وبذلـك فقد لعبت المدينة العربية ولا زالت دورا بارزا في تغيير الاوضاع السائدة من خلال بلورة الاطار العام لشخصية ساكنيها•وتترجم هذه الصيغ من التغيرات الى نماذج معمارية ــ تخطيطية اكثر تطورا استجابة لمتطلبات المرحلة الحضارية • ومن هنا تشهد مدن العراق على منجزات شعبه العربي الحضارية باجنحتها المختلفة وستبقى أهم حيز للتطلعات الحضارية الاسمى والاكثر تطورا •

عوامل قيام المدن وتطورها

مما لا ريب فيه أن الحضارة هي نبت العراق ، وأن المستوطنة المدينية فيه كذلك ، ومنه انتشرت الى انحاء الدنيا • فمن ناحية رأسية (زمانية) تمد الظاهرة الحضريةجذورها بعيدة في تاريخ الاستيطان البشري في هذا الجزء من الوطن العربي حيث تعود الى ما قبل النصف الثاني من الالف الرابع ق•م •أما من ناحية افقية (مكانية) فيمتلك العراق أيضا أوسع انتشار لهذه الظاهرة التيأثراها العربفيمرحلةحضارتهمالاسلامية (شكل رقم ــ ١) وفي كــل ذلك جاءت المدينــة ــ بغض النظــر عن مرتبتها ــ لتعبــر عن المســتوى الحضاري للامة بكل أبعاده ، سواء أجاء هذا التعبير بتطوير وانعاش المدن القائمة وظيفيا ومعماريا ، أم باقامة المدن الجديدة ، وفي كل ذلك استجابت المدينة العربية وبصيغ من الانشاء والتخطيط والنمو المتناسق استجابة تامة لانسانية الانسان بعنصريه الجســدي ــ المادي والنفســي الروحي ، مما يمكن اعتباره من اغنى المدارس التخطيطية التي يمكن ، بل ينبغي ، على الاختصاصات ذات العلاقة أن تستلهم منه بعد استيعابه ، وهو ما تحاوله هذه المعالجة • تم التعبير عن هذا الانجاز الحضــاري على مستوى المدينة وفي مجريات ظاهرة التحضر سواسية • وفي كلتا الحالتين تفاعلت بشكل جدلي العوامل الطبيعية والبشرية وانعكس أثر هذا التفاعل علــى البعدين (الحيزين) المكاني والزماني الذي ترجم الى حضارة الامة •

العوامــل الطبيعيــة

لعبت العوامل الطبيعية دورا بارزا في اقامة المدن وتطورها ولم يكن ذلك بالامكان لو لم يكن الانسان العربي قد استوعب أهميتها • أكتشف الانسان أهمية الاماكن المركزية التي تمثلها المدن بعنصري الموضع والموقع



شكل ــ ١
توزيع مدن العراق

وميزات كل منها . اذ تتصف مدن العراق عموما بأنها تمتلك مواقع ومواضع من نمط خاص مكنها من أن تتحكم بالطرق التي تمر وتلتقي فيها مما يعطيها أهميتها الوظيفية .

الموضـــع

فهم الموضع بالنسبة للمدينة العربية على أنه المكان او الحيز الذي أنشئت المدينة فوقه وتطورت عليه على مدى عمرها . تشمل عناصر الموضع جيلوجيته، تضاريسه ، تربته ، مناخه ، ومصادر المياه فيه . وهذه العناصر تتفاعل وتتكامل لتؤثر بشكل مباشر أو غير مباشـر في البنية الوظيفية والتخطيطية للمدينة العربية . اذ تتداخل عناصر الموضع في التشكيل النهائي لاستعمالات الارض في المدينة ومظهرها العام . وفي حالة العراق يمثل النهران الخالدان دجلـة والفرات محورين للجذب الوظيفي والمعماري للمدن . وترجم ذلك الى أرتفاع التجاذب الوظيفي وكذلك المعماري كلما تم الاقتراب من النهر . وكثيراً مـا شكل النهر المدينة طوليا على شكل مستطيل (سامراء) أو مستطيل منشطر (بغداد مابعد المدورة) او شبه مثلث قاعدته علىالنهر أو شبه نصف دائرة قطرها النهـر . فالنهروان اذن محـور مغناطيسي فعـال يرسـم مخطط المدينـة (طوبوغرافيتها) الاجتماعية ، اذ تصل القمة قرب شاطئه ، ويقل ثقلها بعيدا عنه . تقام مدن العراق دوما على كتوف الانهار لارتفاعها عما يجاورها عادة مما يقيها أخطار الفيضانات المكررة .

آمن باهمية مواصفات الموضع وترجمها الى تطبيق في اختيار مواضع المدن المسؤول الاول في الدولة وممثلوه وقواده المسؤولون عن التخطيط وتطويره من المهتمين بتنظيره وتنفيذه . ولا أدل على أهمية مواصفات الموضع عند اقامة المدينة من تدخل أعلى سلطة في الدولة العربية الاسلامية ، الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، عندما شخص مواصفات الموضـع المطلوب فـي المرحلة الحضارية التي تمر بها الامة حينما وصى عتبة بن غزوان تسهيلا له لاختيار موضع مدينة البصرة التي مصرها العرب عام ١٤ هـ (٦٣٧ م) «أن أرتد لهم منزلا قريبا من المراعي والماء وأكتب لي بصفته ، فكتب الى عمر أني قد وجدت ارضا كثيرة القضة[٣] في طرف البر الى الريف دونها مناقع فيها ماء وفيها أقصباء»

ولما وصلت الرسالة الى عمر قال هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب فكتب اليه أن انزلها فنزلها • وبذلك فقد لوحظت جوانب التضاريس والتربة ومصادر الماء وغنى الموضع وما حوله من مصادر طبيعية مثل الحطب والمرعى التي توفر مصادر أساسية لغذاء ومعيشة سكان المدينة ، وهو مـا يلاحظ عند أنشاء أية مدينة معاصرة في تصاميمها الاساسية • وقد ساعدت مواصفات موضع مدينة الكوفـة على انشائها لتأدية الوظيفة العسكرية ومن ثم تطورها بصفتها مدينة مركزية مزدهرة ، اذ تقع في سهل خصيب يطل على الفرات الذي شكل عصب الحياة • هذا مقارنة مع موضع مدينة واسط على الضفة الغربية من نهر دجلة غربي مدينة كسكر التي تقابلها على الضفة الشرقية، وقد ربط المدينتين جسر من السفن • فالموضع اقتصادي حيث خصوبة الارض، والموقع ستراتيجي بين دجلـة والفرات تلتقـى عنده طـرق المواصلات • امـا بالنسبة لمـدن اخرى قائمة طورها العرب عبر مسيرتهم الحضاريـة ، فقد تميزت مواضعها بتوفرالمياه والتربة الجيدة الملائمةللزراعةوالمناخ الملائم وبذلك يقول ابن حوقل « واما الموصل فمدينة على غربي دجلة صحيحة التربة والهواء وشرب أهلها من مائها وفيها نهر يقطعها » مما يعكس توفر عناصر الحياة وازدهارها بعد تدخل الانسـان حيث شـق الترع وأقام النواعير والطواحين • وعموما تختلف اهمية الموضع مقارنة مع الموقع بالنسبة للمدن في العراق حسب العامل الذي أنشئت من أجله وحسب الوظائف التي تسود المدينة • ففي المدن الحربية مثل البصرة والكوفة ينبغي أن يكون الموضع ذا مواصفات تعبويـة (ستراتيجي) بينما الموقع سوقيا (تكتيكي) ، مقارنة مع الموضع بالنسبة للمدن الدينية التي قد يتجاوز دور عامل الدين في قيامها المنطق في المواصفات التقليدية المطلوبة • في حين ترتفع قيمة الموقع علـى الموضع في المدن السياسية ــ الاداريـة والاقتصادية •

فهم العرب في هذه المرحلة مقومات الموقع كما فهمه المعنيون بحقـل دراسات المدن في عصرنا الحالي . فقد شخصوه على أنـه العلاقة المكانيـة والوظيفية المتبادلة بين موضع المدينة والاطار العام لاقليمها أو أقاليمها ، وبين الموضع والمواضع الاخرى ضمن حيز الاقليم التابع . ومن هنا فقد تباينت درجة مركزية مدن العراق بفعل التبايـن في سهولة الوصول الى كل منها ، الذي تحدده عوامل مثل طبيعة التضاريس ، وهل أن الموقع بري أو بحري أو نهري ، ووسائل النقل المعتمدة . وهنا العلاقة تعد ايجابية دوما بين سهولة الوصول وأهمية الموقع . أذ كلما سهل الوصول الى الموضع (المدينة) زادت قيمة الموقع وتفاعله معها . واكثر من ذلك فكلما اتسعت رقعة (مساحة) الاقليم الذي يعكس اهمية موقع المدينة ، ارتفعت قيمتها . فعند كـون العلاقات محلية الطابع تتدهور المدينة أي تقل قيمة موضعها . يقابل ذلك ارتفاع أهميتها عندما تتوسع العلاقات لتصبح عالمية الصفة . فعندما انتقلت خطوط المواصلات العالمية عبر العراق ازدهـرت مدنه مقابل انكماشها عندما كانت تتجه تلك الخطوط نحو البحر المتوسط . تنعكس سـعة العلاقات أو صغرها على البناء الوظيفي للمدينة وبالتالي على معمارهـا والمخطط العام لها ، اذ أن درجة المركزية وما يرافقها من أهمية للوظائف الاساسية تحـدد موارد المدينة المادية من خارجها والتي توظف دون ريب في تطويرها . لقد شخص الحموي أهمية مدينة خانقين النابعة من وقوعها على طريق دولي بين بغداد والاقاليم الشرقية من الدولة العربية الاسلامية علىسبيل المثال . وتعبيرا عن اكتشاف اهمية الموضع والموقع كثيرا ما تسبق اختيارهما دراسات ميدانية واسعة واستشارات لاولي الاختصاص من قبل المسؤولين في الدولة . وخير دليل على ذلك الاستطلاعات التي سبقت بناء بغداد حيث اسـتطلع الخليفة المنصور مؤسس المدينة عـام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م الموضع فسأل دهقانا حول

ذلك والذي أجاب « وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان وتحمل اليك طرايق الهند والصين والبصرة وواسط في دجلة • وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامرا • وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة وأنت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل اليك عدوك وانت قريب من البر والبحر والجبل » فأية خارطة للعلاقات التجارية والحضارية التي يمكن ان تتحقق من موقع مثل موقع مدينة بغداد التي استفادت من تباين مناسيب دجلة والفرات ، اذ طورت عدة قنوات ملاحية وللري تربطهما • وضعت تلك الخارطة واستوعبت من قبل بانيها ، مما تنبغي ملاحظته عند أية مستوطنة جديدة • ان هذا الافق الواسع في استيعاب صيغ وأبعاد الاتصال الحضاري كان وراء نجاح المدينة العربية في العراق في تحقيق أفضل صيغ للنجاح الوظيفي والازدهار المعماري • وفي هذا المجال أكد اليعقوبي المعالم الايجابية لموقع مدينة بغداد بقوله « ثم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات ، فيأتيها التجارات والميرة برا وبحرا بما يسر السعي ، حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الاسلام وغير أرض الاسلام • فأنه يحمل اليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان ، حتى يكون فيها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها » • وهكذا يصبح من اليسير انتعاش وازدهار مدينة بغداد لتصبح عاصمة الدنيا المعروفة وقتذاك • فقد وهبها موضعها وموقعها الصفة العقدية التي تبدأ منها وتنتهي عندها أهم الطرق العالمية التي تربط الاقاليم التابعة وذات العلاقة ببغداد • ان هذه الميزات التي امتاز بها موقعها كانت مع عوامل اخرى بشرية وراء تحويلها الى أهم مركز استقطاب حضاري تشع منه عناصر الحضارة •

وفي مدينة البصرة فقد أهلها موقعها « لتلعب دور باب بغـداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع الجلدية من أطـراف الدنيا . واكثر من ذلك فقد كانت مقصد القوافل الواردة من كل صـوب وحدب ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى » . الامر الذي يدل على سعة اقليمها ويفسر ازدهار العمران فيها .

ومن مزايا موقع مدينة الموصل أنها تتوسط حوض دجلة الاعلى والتي تلتقي عنده المناطق السهلية المجاورة والمناطق الجبلية ذات الطبيعة الرعويـة وأقليم الجزيرة الرعوي ومرتفعات سنجار ، الامر الذي يفسر أزدهارها في هـذه الفتـرة .

العوامل البشرية

تصب مختلف العوامل البشرية في مصب الوظيفة أو الوظائف التي يراد للمدينة أن تقدمها ، سواء كان الهدف من انشاء وتطوير المدينة عسكريا أم لايواء عوائل المجاهدين أو لممارسة الادارة أم الانشطة الثقافية بأبعادهـا والتجارية والحرفية . تعكس استعمالات أرض (وظائف) المدينة المستوى الحضاري لمجتمعها واقليمها والذي بدوره يحدد نوعها وصيغ أدائها وكفاءة هذا الاداء وأهمية كل وظيفة منعكسة على بناء المدينة معماريا وتخطيطيا . تنوعت وظائف المدينة العربية العراقية لتشمل الوظائف السـكنية والدينية والتجارية والصناعية والحرفية والعسكرية (الدفاعية) والسياسية والادارية بما فيها العاصمية والخدمية الاخرى . وهنا تنبغي الاشارة الى أنه ما مـن مدينة تختص بوظيفة واحـدة ، حتى وان كانت السـبب وراء انشائها . اذ تتنوع وتتطور الوظائف حالما تقام المدينة وبغض النظر عن سبب اقامتها ، ذلك بفعل عامل داينمي تتصف به المدن هو عامل التجاذب الوظيفي ليسد حاجة سكان المدينة ذاتها وسكان أقاليمها وفق المستوى الحضاري لهما .

وبذلك يكون تصنيف المدن وظيفيا أمرا لا يخلو من تجاوز على الواقع . ان ذلك يجعل التصنيف الذي اعتمدناه هنا على أساس السبب الرئيسي للنشأة وليس على أساس أستعراض البنية الوظيفية مما ستأتي اليه الدراسة .

العامل الدفاعي (العسكري)

على الرغم من قدم هذا العامل بصفته سببا من أسباب نشوء المدن فقد أخذ اهمية خاصة في المدينة العربية العراقية . أنعكست هذه الاهمية على الاهتمام باختيار اكثر المواضع والمواقع التي توفر أعلى نسبة من ميزات الدفاع انسجاما مع الدافع الاساس للانسان في رغبته بالاستيطان الآمن . تتمثل اهمية هذا العامل ليس في المدن المقامة أصلا كمواقع عسكرية ، بل تتمثل أيضا في المدن الاخرى الجديدة مثل البصرة والكوفة (١٧ هـ/٦٣٨ م) . عبر عن هذاالاهتمام بالمنشآت التي تخدم وتعزز من عمليات التحصين وزيادة امكانيات الدفاع ، التي تتفاعل مع ميزات الموضع الدفاعية . من الميزات الدفاعية لموقعي مدينتي البصرة والكوفة وقوعهما على مشارف (حافة) البادية ولا توجد أية موانع طبيعية بينهما وبين الجزيرة العربية . وقد أنشئتا ترجمة للضرورة العسكرية حيث لعبتا دور المنطلق (المدخل) لمواصلة نشر الحضارة العربية الاسلامية ، خاصة وأن طلائع العرب قد أبتعدوا كثيرا عن حاضرة دولتهم ، المدينة المنورة ، مما مد من خطوط المواصلات التي اصبح الاعتماد عليها يستهلك وقتا وجهدا كبيرين ، الامر الذي يلقي الضوء على ازدهار المدينتين ، وان بدأتا كمعسكرين قريبين من سوح القتال . لم تعد هاتان المدينتان مقتصرتين فيسكانهما علىالجنود وعوائلهم، اذ سرعان ماجذبت مختلف أنواع السكان حيث توفر فرص الحياة الواسعة . ومن أهم الوظائف الاخرى التي جذبتها الوظيفة العسكرية الوظيفة الادارية ، اذ تقاسمت المدينتان مسؤولية ادارة الاقاليم التي حررها العرب وأتبعوها لادارتهم . ويحدث الجذب بسبب الحماية التي يوفرها العامل العسكري . كانت مسؤولية البصرة

ادارة جنوب العراق وأغلبية الاصقاع المطلة على جانبي الخليج العربي مقارنة مع الكوفة التي أنيط بها أدارة اقليم وسط العراق وما يتبعه من اقليم الجزيرة وارمينيا وأذربيجان وبلاد الجبل وخراسان والري• وفي تطورهما فقد اصبحت مدينتا البصرة والكوفـة مركزين للنشاط الفكري والاقتصادي •

من المدن الاخرى التي يبرز بها أثر العامل العسكري مدينتا الموصل وبغداد المدورة حيث لا فاصل بينهما وبين السهل الرسوبي • وعند كل منهما تلتقي أقاليم متميزة • وبالنسبة لبغداد ، قد تيقن الخليفة المنصور من حصانة مدينته حيث لا يمكن أن يصل العدو اليها الا على جسر أو قنطرة مما يسهل تخريبهما عند الضرورة • وهنا فلابد من الاشارة الـى أن أهمية العامـل العسكري قد تجاوزت عامل اختيار الموضع والموقع المناسبين كثابتين طبيعيين لتنعكس على مخطط المدينة وبنائها الوظيفي والمعماري حيث المتغاير البشري الذي ترجم الى العديد من المنشآت الدفاعية التي أسهمت باعطاء المدينة العربية هويتها • ومن أهم المظاهر المعمارية ـ التخطيطية التي تدعم وتعبر عن الوظيفة الدفاعية هي حسن اختيار الموضع والموقع واقامة الاسوار والابراج والخنادق والمداخل المنحرفة أو المنكسرة • كما تم تجاوز ذلك الى نواحي تنظيمية كأن يضمن جانب الساكنين داخل المدينة المسورة وتحديد البوابات المستعملة للدخول أو أوقات ذلك • بما أن مدن العراق العسكرية أنشئت اصلا في مناطق الخطر فلابد ان تكون مواقعها ستراتيجية مقارنة مع مواضعها التي ينبغي أن تكون تكتيكية حيث تمثل نقاط ارتكاز قوية • ان ذلك يحقق أعلى حد من امكانات ومناورات الهجوم والدفاع وبذلك يكون الموضع موازيا في أهميته للموقع •

العامـل الاداري

دفع العامل الاداري الى اقامة مدن معينة مثل مدينة واسط التي أنشأها الحجاج عام ٨١ هـ / ٧٠٠ م في وقت كان العراق مقسما الى ثلاثة أقســام

ادارية • الاول مركزه مدينة الموصل والثاني مركزه مدينة الكوفة والثالث مركزه مدينة البصرة • وتتجلى أهمية اقامة هذه المدينة اذا ماعرف بأنه اصبحت مدينتا البصرة والكوفة أقل تأهيلا للادارة بسبب الاضطرابات فيهما، وكذلك ليتجنب المؤسس الفتن ضده فيهما خاصة وأن لموضع واسط على الضفة الغربية من نهر دجلة ميزات في التربة والمناخ ، ولموقعها اهمية كبيرة حيث التوسط بين مدينتي البصرة والكوفة • وفعلا فقد مارست المدينة ولفترة الاشراف على أدارة كل العراق لتنتقل منها هذه الوظيفة الى مدينة الكوفة مرة ثم الى بغداد مرة اخرى • انعكس ذلك على توسعها لتشمل جانبي دجلةفترة الدولة العباسية بنظام متكامل للمحلات والشوارع والاسواق والتحصين والمنشآت الخدمية الدينية والتعليمية • وفي تجربة العراق الحضارية العربية ، يندر أن تقام مدينة لسبب سياسي ــ اداري الا وتتبوأ المرتبة العاصمية مما ينعكس على مخططها العام النابع من وظائفها • ومن الامثلة التي تعكس الارتباط الجدلي بينالوظيفة السياسية ــ الادارية والدور العاصمي فيالادارة هو التنقل من عاصمة الى أخرى أكثر من مرة ، الى أن تم الاستقرار نهائيا في بغداد التيهي الاخرى قد أقيمت مدينة سياسية تمارس الوظيفة العاصمية (الادارية) بعد نقل الخزانة (بيت المال) والدواوين (المكاتب الحكومية) اليها •

وهكذا توفرت القواعد السياسية ــ الادارية والعسكرية والاقتصادية لتصبح عوامل لقيام المدن التي ما لبثت بتوسعها أن تعددت وظائفها بشكل عضوي انعكس على طبيعة نموها ودرجة اهميتها لاقاليمها •

العامل السياسي

تمثل الوظيفة السياسية أقدم وظائف المدن • ولابد ان تمارس الوظيفة السياسية ــ الادارية من مكان مركزي • ومن ناحية المراتب هناك ثلاث مراتب للمدن ذات الطبيعة السياسية ــ الادارية هي مدن محلية واقليمية

وقومية . تمثل الوظيفة العاصمية قمة تطور الوظيفة السياسية ـ الادارية ولكنها ليست آخر مراحل تطور هذه الوظيفة ، اذ قد تجاوزتها مدينة بغداد التي أقيمت لعامل سياسي،لتصبح مدينة عالمية،حيث تعدت في منطقةنفوذها حدود دولتها العربية الاسلامية على سعتها . وفي تطورها فقد جمعت مدينة بغداد بين التاريخ القومي والنشاط الاقتصادي . ذلك أنها عاصمة طبيعية نمت طبيعيا مقارنة مع عواصم اصطناعية مثل واشنطن . وبما أن العاصمة بحاجة الى موقع بارز تطل منه على العالم الخارجي فقد اصبح اكثر أهمية من الموضع . ضمن موقعها تمارس وظيفة ادارة الدولة داخليا ، والبوابة التي تتفاعل الدولة من خلالها مع العالم الخارجي . ولا يتحقق ذلك الا اذا توفرت شروط معينة منها التوسط الجغرافي وتوسط المعمور (الاكيومين) والعامل التاريخي الذي يمدها بعناصر الديمومة والاستقرار .

على الرغم من كون العامل السياسي أهم العوامل في انشاء مدينة المنصور المدورة من قبل الخليفة المنصور ، فقد تفاعلت معه وبشكل عضوي عوامل اخرى انعكست على تخطيط المدينة وبنيتها الوظيفية ، منها العامل الاداري والعامل العسكري ومن ثم العامل التجاري فالديني ـ الثقافي . لقد ترك كل عامل من هذه العوامل أثره على تفاصيل الوظائف والمعمار في المدينة سواء المدورة منها أم المتوسعة خارجها . وعندما أقيمت المدينة لم يكن بعيدا عن التصور هدف توحيد الامة العربية الاسلامية واخضاعها لادارة عاصمة جديدة اكثر مركزية هي بغداد . اذ لم تكن أي من المدن القائمة على ضوء تطورها التاريخي والاجتماعي مؤهلة لان تتبوأ مثل هذا المركز الموحد . وبالتأكيد فلا يمكن لبغداد ان تقوم بهذا الدور ما لم تكن محصنة على أكفأ ما يكون التحصين . وهكذاجاءت خطتها الدائرية (المدورة) تماما ، باستحكاماتها التي نوقشت في مجال آخر من الكتاب ، والتي سيتم التطرق اليها اينما يكون ذلك مبررا . ولضمان مزاوجة النجاح السياسي ـ الاداري مع الجانب

العسكري للمدينة فقد كان سكان المدينة المدورة ممن يأتمنهم الخليفة . وعندما توسعت المدينة الى الجانب الشرقي اخذ الجانب الدفاعي ايضا بنظر الاعتبار سواء بتركز القادة العرب وتجمع مواطنيهم حولهم أم بتنظيم الجيش (شكل رقم ــ٢) وهنا فقد تحدث مفارقات معينة في مجال نشوء



شكل ــ ٢
مراحل نمو مدينة بغداد

المدن كما حدث في حالة بغداد ، وهي أنه ما أن اكتملت المدينة المدورة الا وظهر نمو حضري غطى مساحة أوسع من المساحة التي تشغلها المدورة ليؤوي الالاف مـــن العاملين في بنائها والمنجذبين اليها • وبذلك فقد مثلت المدورة بالنسبة لبغداد بصيغة أو أخرى ما يشبه فرساي بالنسبة لباريس • ويبدو من تتبع العواصم واسباب اقامتها أن هناك ارتباطا بين تطور السلطة من طبيعتها العامة الى طبيعتها الاسرية وبين تعدد العواصم التي أنتقلت دوما اتجاه الشمال مرافقة لتوسع الدولة العربية الاسلامية شمالا والى الشمال الشرقي والغربي من الجزيرة العربية • فقد تحولت العاصمة من المدينة المنورة الى الكوفة ، الى دمشق ، الى الانبار ، الى هاشـــمية الكوفة ، الى بغداد ، الى سامراء ، الى المتوكلية لتستقر نهائيا في بغداد • ومن المدن الاخرى التي انشئت بسبب سياسي هي مدينة سامراء اذ انشأها الخليفة المعتصم وبنى جامعها وقصـــره وبقية المنشآت ، ونقل الوظيفة العاصمية اليها عام ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، وبقيت كذلك الى ان اعيدت العاصمة الى بغداد مرة ثانية زمن المعتمد • وقد عبر عن أهمية العامل السياسي الاداري في المدينة بالتوقيع المركزي لدوائر الدولة المركزيـــة حيث تمـــد منها السيطرة والتوجيه على انحاء المدينة والدولة • ولتسهيل ذلـــك فقد ارتبطت هذه المنشآت بشبكة الشوارع الرئيسية التي تتفرع منها •

العوامل الاخرى

تتمثل أهم العوامل المتبقية بالعوامل التجارية والدينية والثقافية • وفي ذلك تجاذب يعكس داينمية الحياة وتكامل متطلباتها التي تظهر في المدينة • فلو أخذت مدينة الموصل مثلا فسيظهر تفاعل اكثر من عامل في تطورها ونموها حيث أنها من المدن القائمـــة والتي فتحها العرب المسلمون زمن الخليفة عمر (رض) عام ١٦ هـ/٦٣٤م ويعكس اسمها أهمية موقعها ، اذ تعتبر من محطات القوافل الرئيسية التي تمر بها التجارة بين الشرق والغرب مما انعكس على توسع

أسواقها • دخلت الوظيفة الادارية زمن الامويين متمثلة بدار الامارة وقصور الخلفاء • كما زاد الاهتمام بالوظيفة الدينية حيث طورت المنشآت الدينية مثل المسجد الجامع • وأنعشت هذه الوظيفة الاستعمال التجاري للارض مرة أخـرى •

الى جانب ذلك لعب عامل الدين الاسـلامي الحنيف دورا أساسيا في اقامة مدن وتطور اخرى ، ذلك أن تعاليمه تدعو للحياة الجماعية ، من خلال التأثيرات المعمارية والتخطيطية التي اسبغها على المدينة متمثلا بالموقع المركزي للجامع وارتباط وحدات تعليمية به ، وبالعناية الكبيرة في التعبير المعماري والتشكيلات الزخرفية لتفاصيل مكوناته • وما أن تتكون المدينة بفعل عامل الدين الا وتتجاذب الوظائف المختلفة نحوها وخاصة الاقتصادية والثقافية • ويلعب الموضع الدور الاول في المدن الدينية مقارنة مع الموقع • فموضـع المدن الدينية عموما لا يخضع لمبدأ الحتم الجغرافي ، مما يفسر تعارض مواضع بعض المدن الدينية مع المواصفات الطبيعية الملائمة • وقد كان العامل الديني وراء نشوء وتطور نوى حضرية تطورت لتصبح مدنا عامرة او لتلتحم مع مدن اخرى مثل النجف ١٧٠ــ١٩٣ هـ / ٧٨٦ــ٨٠٨ م • والكاظمية والاعظمية وكربلاء ٦٥ هـ / ٦٨٤ م •

وهناك ارتباط أزلي بين التجارة والمدن • اذ ما أن يتكون فائض تقوم الحاجة اليه وتتوفر وسائل وطرق نقله الا وتكون النتيجة تطوير مدينة (مكان مركزي) • واذا ما درست مدن العراق من زاوية التجارة فيمكن ايجاد مدن الاسواق المحلية ومدن التجارة الاقليمية ومدن التجارة العالمية مثل بغداد والبصرة والموصل • يكون الموضع في المدن التجارية أقل أهمية من الموقع ، فالمدن التجارية تبحث عن مواقع يتحقق لها فيه مبدأ الانقطاع ، ففكرتـا الطريق والانقطاع ضروريتان كما هو ملاحظ في مختلف المدن التجارية في العراق •

وهنا تجدر الاشارة الى انه ما أن تظهر المدينة لعامل ما الا وتتجاذب نحوها الوظائف المختلفة مما قد يجعل وظيفة لم تقم المدينة من أجلها اكثر اثرا على البناء الوظيفي والمعماري لها ، كما فعلت التجارة لمدن مثل الكوفة والبصرة وبقية المدن الواقعة على اطراف الصحراء في العراق حيث تلعب دور الوسيط التجاري بين سكنة الصحارى والسكان المستقرين •

مقومات المدينة العربية وأصالتها

مثلت المدينة العربية في هذا العصر الاسلامي خلية حضارية ورحما حضاريا تشع منه عناصر الحضارة على أنحاء الدنيا المعروفة • وجاء هذا الاشعاع علميا ـ ثقافيا ومعماريا ـ تخطيطيا ، لا يمكن نكرانه مهما تقادم الزمن • ومن مظاهر الازدهار الحضري اقامة مدن جديدة ونمو أخرى الى حجوم لم تصلها سابقا ، واكساب شبكة المدن طابعا حضاريا وظيفيا وتخطيطيا مميزا • وجاء ذلك مع انتقال مركز الحضارة الى العراق مما انعش مدنه وموانىء الخليج العربي جميعا •

المقومات الوظيفية

لعبت الوظائف دور المبرر الاول لانشاء المدن ، ومثلت السبب الرئيسي في تطورها وديمومتها • فلا مدينة بدون وظائف ، ولا وظائف بدون تعبير معماري تخطيطي • وكلما كانت الوظيفة منسجمة مع الفضاء الذي تقدم منه في المدينة ازدادت كفاءة الاداء مما ينعكس على رفاه المدينة وتقدمها ورضا وقناعة ساكنيها •

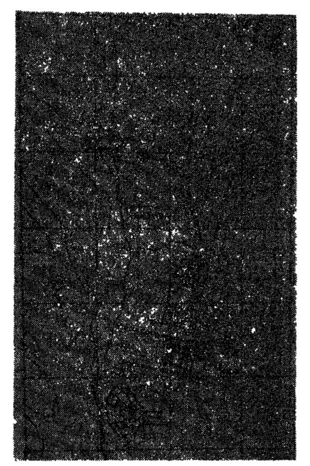
تتعدد الوظائف وتتنوع وتتغير أو تتطور حسب المستوى الحضاري لسكان المدينة واقليمها ، وهي بذلك تعبر عن الصفة الداينمية لها والنابعة من عدم جماد الانسان الذي يتطلع الى التطور دوما • ومهما يكن نوع وعدد الوظائف المقدمة من قبل المدينة فانها تتكامل وتتفاعل بشكل تلقائي أو عن

طريق التخطيط لذلك مما يصب في خدمة الانسان . وقد أكتشفت أهمية عنصر التكامل هذا بغض النظر عن درجته . اذ تقدم كل مدينة نوعين من الوظائف أساسية وغير اساسية . أما الاساسية فهي كل وظيفة تجلب المال (الدخل) الى المدينة من خارجها ، اي تخدم سكان المدينة وسكان أقاليمها ، مثل الجباية على القوافل (تجارة المرور) والتجارة بما فيها وظيفة الميناء ، والصناعة الحرفية وبعض الخدمات ، كالخدمات التعليمية والصحية والدينية وبعض الخدمات الادارية المركزية . هذا مقارنة مع الوظائف غير الاساسية التي تخدم المدينة فقط وليس سكان اقاليمها . وهي على اهميتها في استمرار وجود المدينة فلا تجلب أموالا او دخلا من خارجها . ومن هنا يمكن فهم لماذا كانت بغداداكثر ازدهارا من مدينة مثل هيت أو حديثة الفرات . ومن جملة الوظائف غير الاساسية الوظيفة السكنية واستعمال الارض لخدمات مثل الحمامات ودفن الموتى في أغلب المدن والحراسة والسقاية .

يرتبط تخصص المدينة الوظيفي ونسبة امتلاكها للوظائف الاساسية من عدمه بسعة الاقليم التابع مما سيعالج في مجال لاحق . وان التباين في سعة الاقليم هو الاخر يتأثر بمتغاير طرق النقل والمواصلات وسهولة الوصول . تتأثر البنية الوظيفية للمدينة العربية بعاملي التجاذب أو التنافر الوظيفي مما يفسر صيغ وانماط توزيع استعمالات الارض فيها . فهناك وظائف تنجذب الى وظائف اخرى لتكملها مما يطور كفاءة الاداء ، مثال ذلك انجذاب الوظيفة التجارية الى الوظيفة الدينية وتركز الخانات وبعض الدوائر المركزية قربهما . مقارنة مع تنافر استعمال الارض السكني مع استعمالها للمجازر . ونتيجة لهذين العاملين مع تدخل تخطيطي مركزي أحيانا ، فقد ظهر في المدينة العربية ما يمكن اعتباره تنطيقا وظيفيا . فهناك مناطق خاصة بالسكن واخرى بالادارة واخرى بالتجارة واخرى لدفن الموتى واخرى للترفيه وهكذا .

وعند الكلام عن البناء الوظيفي للمدينة العربية فلا يمكن تجاهل العلاقة

العضوية الجدلية بين كل من استعمالات الارض وتطورها • ومن يتابع تطور أية مدينة عربية مثل سامراء أو بغداد أو الكوفة سيجد أن هناك معامل ارتباط قوى بين ازدهار الوظائف وبين انتعاش المدينة وزيادة سكانها وبالتالي نموها • فالفرق واضح بين سامراء العاصمة التي استقطبت العديد من الوظائف الاساسية بما فيها الوظيفة العاصمية وبين سامراء الظل التي سلبت منها غالبية هذه الوظائف عندما عادت الوظيفة العاصمية الى مدينة بغداد مثلا • (شكل رقم — ٣) •



شكل — ٣
مراحل نمو سامراء

ورغم تعدد وتكامل الوظائف وتغيرها يمكن تصنيف المـدن العربية حسب تخصصها الوظيفي • فهناك المدينة العاصمية (السياسية) مثل بغداد والدفاعية (العسكرية) مثل البصرة والادارية مثل واسط والتجارية (مدن السوق) مثل الموصل ونسبة عالية من مدن العراق الاخرى ، والدينية مثل النجف • ستظهر هذه المعالجة أن هناك علاقة جدلية بين الوظيفة والشكل مما يفسر البنية المعمارية والتخطيطية للمدينة مما له علاقة بكفاءة الاداء وأصالة الانجاز المعماري ودرجة التحوير الذي تتعرض له الوحدات المعمارية • ان اهم استعمالات الارض في المدينة العربية هي السكنية والدينية والتجارية والصناعية الحرفية والعسكرية والثقافية •

اســتعمال الارض الســكني

يمثل استعمال الارض السكني أهم الاستعمالات الموجودة في المدينة العربية فهو يغطي أعلى نسبة من مساحتها وبنسبة تتراوح بين ٦٥و٧٠٪ • كما يحتل المسكن مكانا بالغ الاهمية في نفوس المواطنين اذ بدون توفـره لـن يمكن ممارسة اية وظيفة أخرى بأبداع • وللمسكن قدسيته في الاسلام اذ أنه يمثل حرم الاسرة • وعبر عن ذلك بعناصر معينة ، في الوقت الذي حافظ فيه على الالفة والتراحم بين الناس من خلال قربه ومجاورته لبقية المساكن • يأخذ المسكن عدة صيغ أو أنماط توزيعية حسب المتغايرات المعتمدة • فمن ناحية الكثافة السكنية فيوحدة المساحة يظهر أن أقلالاجزاء كثافة هي المناطق المشغولة بالسكن الراقي للخلفاء والامراء والقواد وكبار رجال الدولة والتي قد تزيد مساحة الوحدة منها على ٣٤ ألف م٢ كما في قصر المنصور ببغداد • يليها في ذلك المناطق السكنية للمتمكنين اقتصاديا مثل كبار التجار ، وأخيرا المناطق عالية الكثافة لبقية السكان • الا ان هذا التنطيق المكاني قد تعرض للتحوير الكبير في مراحل لاحقة من تطور المدينة فاصبحت ظاهرة الخلط في الكثافة سمة تميز المحلة السكنية التقليدية ترجمة للتفاعل والتكامل الاجتماعي

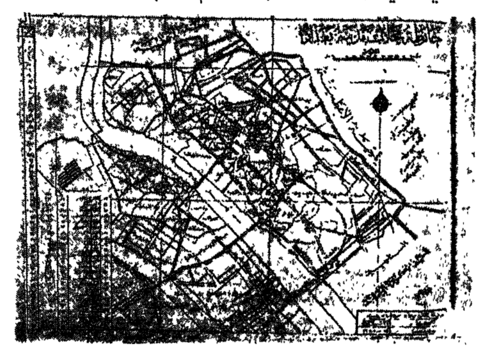
مما يشكل أصالة في مجال ايجاد البيئة السكنية الملائمة . ومـن هنا أصبح من الشائع وجود أوسـع البيوت الى جوار أصغرها وبدون أن توجد أيـة حساسية اجتماعية لذلك . انعكس ذلك على صعوبة تمييز ضخامة البيوت من مداخلها المتشابهة الى حد بعيد في التصميم والطراز . أما عند اعتماد متغاير الارتفاع فسيظهر بان الصفة السائدة هي الوحدات السكنية ذات الطابق الواحد وهو ما فضله الخليفة عمر (رض) على ضوء ظروف المرحلة مع استثناء القصور . غير أنه ونتيجة للتطور الاجتماعي ــ الاقتصادي في مراحل لاحقة بدأت تسود ظاهرة تعدد الطوابق والتي يسودها ظاهرة البيوت ذات الطابقين . وهنا فالامتداد الافقي وبكثافة عالية هو سمة من سمات المدينة العربية (شكل رقم ــ ٤) .



شكل ــ ٤
نسيج المحلة العربية التقليدية ــ بغداد

وبالامكان اعتماد متغاير مواد البناء للتمييز بين الوحدات السكنية . وفي هذا المجال تكون الاولوية للبيوت المبنية من اللبن والطابوق والجص والطين ، كما ستظهر مواد اخرى مثل الكلس والاخشاب والحجارة والزجاج والحصى والقصب مما يتفق وما يقدمه الموضع مـن مواد بناء محلية .

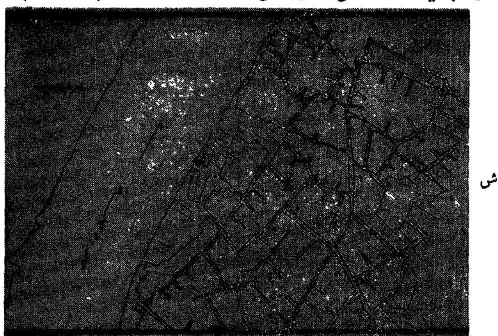
وفي كل ذلك فقد اتصفت المدينة العربية بنظام المحلات التي أخـذت شكل القطائع أو الخطط في مرحلة النشوء ، كما ظهر في مدن مثل البصرة (خمس قطائع) والكوفة (سبع قطائع) وبغداد المدورة.(أربـع قطائع) يسكنها الناس حسب متغايرات اجتماعية معينة . لكن هذه الصيغة تطورت وبسرعة ليحل محلها نظام المحلات (الحارات) الذي لازال قائما في اجزاء مدننا التي تنتمي الى هذه المرحلة (شكل رقم ــ ٥) . ويبدو أن المحلة قـد



شكل ــ ٥

تطورت لتصبح متكاملة في بنائها الوظيفي والمعماري مما يزيد من ارتباط سكانها بها . فهناك الجامع الذي يلتقي عنده سكان المحلة بانتظام . كما وهناك السوق الذي يمثل محور الحركة الرئيس للسكان مما يزيد من تلاحمهم ، والحمام وبقية الخدمات . وعموما تكون بيوت المدينة العربية الموزعة على محلاتها متراصة (متلاصقة) بدون المساس باستقلالية البيت من خلال امتلاكه

الساحة الداخلية والمدخل المنكسر والحيطان العمياء وعدم تقابل مداخل البيوت • وبالنسبة لانظمة الشوارع في كل من هذه المناطق السكنية ، فقد كانت مستقيمة ووفق تدرج مرتبي في المرحلة الاولى ، لتصبح عضوية الطبيعة، تلقائية النمو فيما بعد ، استجابة لمتطلبات الدفاع والمناخ وتقنية التخطيط مما يصب في خدمة الساكن وتحقيق أعلى درجات الرضا والسعادة (شكل ــ ٦) •



شكل ــ ٦
مراتب الشوارع في مدينة بغداد العربية

وفي سامراء أخذ توزيع المساكن في المرحلة الاولى صيغة اخرى هي قصور الخلفاء وقطائع الامراء وبيوت اهل المدينة • وبغض النظر عن انماط توزيع الوحدات السكنية فقد مرت بمراحل تطور من ناحية مواد البناء المستعملة وتفاصيل التصميم والطراز والكفاءة • وعموما تتكون الوحدة السكنية من عناصر الساحة (الحوش) الوسطية القائمة الزوايا غالبا ، والايوان والغرف والاروقة والمماشي والدهاليز المسقوفة التي تربط بين

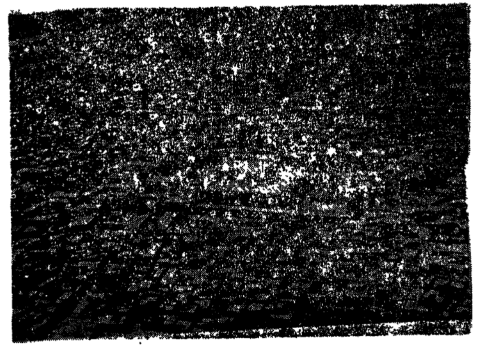
المسكن والشارع والظلة (الطارمة) والسلم والملقف والسرداب وغـرف المرافق المنزلية • تتوزع هذه الفضاءات بشكل كفوء لا اهدار فيه بالمساحة ويحقق اعلى درجات المواءمــة الاجتماعية ــ المناخية وبمواد بناء محلية صريحة التعبير • ويغلب على الدور أن تشتمل على مجار تحت الارض وقد يكون في بعضها آبار •

وعندما يرتفع الضغط (الطلب) على الوحدات السكنية في مراحل نمو المدينة تزداد قيمتها مما يشكل بداية لمشكلة سكنية • وبهذا الخصوص فقد كانت الدولة تساعد من قصرت يده وذلك بأقراضه من بيت المال • وكان ذلك يجري تحت اشراف « مجلس البناء والمرمة » وهــو تابـع الى ديوان النفقات في بغــداد • ان ذلك يمثل درجــة متقدمة في مجال تطوير العمارة وتخطيط المدينة واضافة عربية تطبيقية لحل مشاكلها •

استــعمال الارض الدينــي

انه لمن اليسير جدا تشخيص اهمية هذا الاستعمال للأرض في المدينة العربية الاسلامية وقياسه ، سواء على أساس وظيفي أم معماري ــ تخطيطي ــ مكاني • جاء الدين الاسلامي الحنيف منظما لحاجات الفــرد والمجتمع وموازنا اياها بالقيم الروحية والسلوكية • ومنا هنا فقد أصبح الجامع المعبر الرئيس عن الوظيفة الدينية • فهو الحيز للقاء والالتقاء الروحــي والثقافي والاداري والتعليمي والسياسي والاجتماعي لسكان المدينة ، وعبرعن كل ذلك معماريا بابداع • فمن ناحية وظيفية ترتبط الوحــدات الدينية بالبعد الروحي للانسان الذي لا توازيه أية قيمة حياتية اخرى ، والذي أسبغ على المدينة رمزا موحدا من خلال وحدة القبلة ، أي الاتجاه نحو الكعبة المشرفة التي وجهت أبنية الجوامع وعمقت مشاعر الوحدة لدى المصلين • وفي حالات معينة فقد تكافل الجامع والقصر في تنظيم أمور الحياة ضــمن الاطار العام للحضارة العربية الاسلامية •

ومن ناحية التوزيع تحتل الوحدات الدينية وعلى رأسها الجوامع أكثر الاماكن مركزية في المدينة ، أي المناطق التي يسهل الوصول اليها • وتتناسب سهولة الوصول أي مركزية الوحدة الدينية مع مرتبتها (شــكل ــ ٧)



شكل ــ ٧

مركزبة الجامع ــ ضريح الشيخ عبدالقادر الكيلاني ــ بغداد

أذ أن للجوامع مراتبها فهناك المسجد الجامع الذي تدور حول رحاه غالبية وظائف المدينة الاخرى ، وتصب عنده أهم شوارع المدينة التي تربطها بالعالم الخارجي • يليه في الاهمية جوامع من المرتبة الثانية فالثالثة وهكذا • وتحتل الجوامع من المراتب الادنـى هي الاخرى مناطق مركزية في محلاتها • يرتبط عدد وسعة الجوامع والوحدات التي ترتبط بها مثل الربط والسقايات والحمامات والمدارس بتطور المدينة • فعندما انشئت طلائع المدن العربية الاسلامية كان يفضل ان تحتوي على جامع واحد ، لتتعدد فيما بعد وتوزع على انحاء المدينة

المتوسعة بما يتفق وزيادة عدد المصلين الذين لم يعد الجامع الرئيسي قادرا على استيعابهم .

تتجاوز أهمية الوظيفة الدينية كل ذلك لتعبر عن نفسها معماريا حيث تحتل الابنية الدينية أنبل واوسع واضخم واجمل الوحدات المعمارية في المدينة العربية الاسلامية .وبغض النظر عن تفاصيل عمارة الجامع ومرتبته، يمكن القول بأن أهم عناصره المعمارية هي القبة والمأذنة التي تؤشر الشخصية المعمارية المميزة للجامع . أما المكونات المعمارية الاخرى فتشمل المحراب والمنبر والمسقفات الخارجية وفضاءات المرافق والميضأة والسور والابواب والنوافذ مع العناصر المؤثرة في توفير الشعور بالارتباط بالخالق ممثلة بعناصر زخرفية تشكيلية تعبر عن الابعاد الروحية وانسجاما مع تعاليم الاسلام .

لعبت الوحدات الدينية دور النوى التي نشطت النمو الحضري في أجزاء جديدة من المدينة العربية أثناء نموها . ولولا الجوامع التي تعددت زمن الدولة العربية العباسية في جانبي بغداد مثلا لما توسعت في عصرها الذهبي ذلك التوسع الكبير . اذ ما أن يقام جامع الا وتتجاذب حوله وظيفيا استعمالات أرض هامة اخرى كالتجارة والصناعة الحرفية والتعليم ، وتخطيطيا الشوارع الرئيسية والساحة المركزية . يعتبر الجامع أو الجوامع معيارا لتأشير حجم المدينة سكانيا، فمن عدد المصلين يمكن تقدير عدد العوائل الساكنة في المدينة أو في اقليم الجامع المباشر . كما وتبرز أهمية الوحدات الدينية في كتابات الرحالة والباحثين من المؤرخين والجغرافيين ، اذ كانت الوحدات الدينية أهم واول ما يجذب نظرهم فيعالجونها وصفا وتحليلا . وعلى مستوى المدينة من ناحية تخطيطية تبرز أهمية الجامع عندما يعرف بأن أول الوحدات المعمارية التي تنشأ في المدينة هو الجامع عادة ، مع استثناءات لاحقة حيث يبنى القصر أحيانا أولا . كما ويشكل الجامع بمنارته او مناراته أعلى نقطة في خط سماء المدينة عاكسا أهميته . واكثر من ذلك فقد كان العامل الديني ، كما تمت الاشارة اليه ، عاملا

أساســيا لقيام أو ازدهار مــدن مثل الكاظمية والاعظمية وكربلاء والنجف والموصل وغيرها .

استـعمال الارض التجـاري

تقاس أهمية الوظيفة التجارية بمركزية المدينة العربية بالنسبة لاقليمهـا ومركزية أسواقها التي غالبا ما ترتبط مع الجوامع التي يجتمع ويتفرق عندها الناس . تتمثل أهمية هذه الوظيفة أيضا بأنتشارها في كافة المدن وان تباينت صيغ ودرجة هذه الاهمية سواء كان استعمال الارض التجاري أساسياً أم غير أساسي .

وفي حالات كثيرة وبغض النظر عن سبب النشأة، تتطور الوظيفة التجارية لتصبح ذات أهمية قد تفوق الوظيفة الاساسية التي أنشـئت المدينة أصـلا لتأديتها .

يعبر عن الوظيفة التجارية باسواق ثابتة ووقتية . وما يهم هنا هو الاسواق الثابتة التي تحتل أهم شوارع المدينة واكثرها جذبا للسكان في ذهابهم وايابهم . فهي تأخذ النمط الطولي ـ الخطي والمتشعب ، الذي يبدأ من وينتهي عند الجوامع الرئيسة ويمتد مع المحاور الرئيسة التي تتجه نحو مداخل او مخارج المدينة . ولزيادة كفاءة استعمال الارض التجاري ظهر مفهوم تخصص الاسواق حسب السلع المقدمة من كل منها ، مما يرضي طبيعة المتسوق في فحص بضاعته ومقارنتها مع نظائرها بسهولة وبوحدة مساحية محدودة . واستيعابا لظروف المناخ السائدة فقــد سقفت أغلبية الاسواق بطرق ومواد معينة ، مما يشد المواطن الى مدينته وكانت معظم الاسواق مبلطة أو يكون على جانبيها رصيفان . وشأنها شأن الجوامع فقد لفتت الاسواق انتباه الدارسين والرحالة الذين مروا في أو اهتموا بدراسة المدينة العربية . وترتبط سـعة الاقاليم التسـويقية (التجارية) للمدينة بدرجة التخصص الذي وصلته اسواقها . فكلما ازداد

التخصص كلما اتسعت مناطق نفوذ المدينة مما ينعكس على ازدهار المدينة وتطور عمرانها. جاء تخصص الاسواق تجاريا لاسباب اجتماعية نفسية اقتصادية وتخطيطية رئيسية . اذ بالامكان ايجاد أكثر من ٢٦ تخصصا داخل المنطقه التجارية لاية مدينة تجاوزت حدا معينا من الاهمية (وهي : اسواق الزياتين والدقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة واسواق القمح والطرازين والسماكين والايزاريين والقصابين وباعة البقل واصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين والعطارين والجزارين والاساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين والحلاجين والحذائين) .

وفي مجال توزيع الاسواق والمنشآت التجارية ، يمكن التوصل الى ان نوعا من المراتب كان سائدا اذ تستعمل الاسواق دليلا ومعيارا على حجم وأهمية المدن أو أهمية أقسامها . فللمدينة اسواقها المركزية ، وللمحلات أسواقها الخاصة من مرتبة ادنى كما وجدت الدكاكين المتفرقة أيضا . ويربط بين هذه المراتب شوارع يتحول قسم منها الى شوارع أسواق أيضا .

استعمال الارض الصناعي ــ الحرفي

لعبت الصناعة ــ الحرفية دورا هاماً ليس في سد الحاجات لسكان المدينة بل لتوفير وارد من خارجها حيث تسوق منتجاتها. ويمكن قياس أهمية الصناعة الحرفية من المواقع المركزية للاسواق التي توجد فيها . اذ يمكن لمثل تلك المواقع أن تسد حاجة المستهلك الذي يسهل وصوله اليها . وقد كان لكل حرفة سوقها الخاص الذي يحمل اسمها كما أشير اليه قبل قليل . كما تمتد الاهمية أحيانا الى الحد الذي تسمى فيه بعض المحلات باسماء الحرف التي تسودها . وعمليا تختلط استعمالات الارض الصناعية في المدينة العربية مع استعمالاتها للتجارة .

استعمال الارض العسكري (الدفاعي)

يحتل هذا الاستعمال اهمية بالغة في غالبية المدن العربية سواء القائمة

منها أم التي انشأها العرب مع الفتح الاسلامي • وفي حالات معينة كان عامل الدفاع هو الحاسم في اتخاذ قرار انشاء المدينة مثل الكوفة والبصرة ، وبالـغ الاهمية في انشاء مدينة مثل بغداد المدورة • ولكن مع كل ذلك فان المساحة التي تشغلها الوحدات العسكرية تكون محدودة ، وكذلك عدد هذه الوحدات• الا أن ذلك لم يحل دون أن تكون الوحدات المعبرة عن هذا الاستعمال من أهم وأبرز معالم المدينة متمثلة بالسور والخندق والابراج والبوابات والقلاع ونظام الشوارع المتعرج أو الشكل التخطيطي المعتمد كالدائري مثلا (شكل ـ ٨)



شكل ـ ٨
الباب الوسطاني لسور بغداد

ومما يعززها هو حسن اختيار المواضع ذات المواصفات المعينة • واكثر من ذلك فقد أثر هذا العامل حتى على محلات المدينة التي كثيرا ماكان لها بواباتها التي تقفل وقتما يكون ذلك ضروريا •

استعمال الارض الخدمي

احتلت الخدمات المجتمعية والعامة مكانها في المدينة العربية حيث خصصت الاراضي للخدمات التعليمية التي تمثلت بالدرجة الرئيسة بالمدارس والجامعات

حيث تتوفر فيها اختصاصات متعددة منها التفسير والحديث والرياضيات وعلوم القرآن والطب والفلك . وبلغ عدد المدارس في مدينة بغداد مثلا ٣٤ مدرسة على امتداد فترة الدراسة ، الى جانب دور الكتب العامة التي بلغت ١٩ دارا . أما الخدمات الصحية (مشافي) فقد انتعش بناؤها في مدينة بغـداد وبقية الامصار وخاصة في القرنين التاسع والعاشر للميلاد . وكذلك الحمامات ذات النمط الموحد عموما والتي ميزت العديد من المدن من حيث صيغ تصميمها وانتشارها (توزيعها) هذا الى جانب الربط التي وصل عددها الى ٦٠ رباطـا في بغداد والزوايا التي بلغ عددها ٥ زوايا في بغداد ايضا ، والسقايا ، ممـا يسهل ويكامل عمل المدينة لخدمة سكانها .

كما كانت تجهز المياه بطرق متقدمة من جملتها استعمال القنوات المكشوفة أو المغطاة مستفيدين من انحدار الارض واتجاهاتها الى أبعد الحدود . وتمتلك المدينة العربية أيضا نظاما كفوءا لرفع القمامة وبشكل دوري ومنتظم . اما الطرق فكثيرا ما كانت تعبد . كما وكانت الخانات تلعب دور الفنادق في مختلف المدن . ومما ساعد على تحقيق ذلك انتظام مالية الدولة والمستوى الحضاري للامـة .

ومهما يكن التركيب الوظيفي للمدينة العربية ، فقد تأثر بمـواصفات الموضع التفصيلية سواء على مستوى التوزيع أم المعمار والتخطيط أم الكفاءة في الاداء . جاء هذا التأثير من عناصر مثل التضاريس والتربة والمناخ ومصادر الميـاه .

وهكذا يتوزع سكان المدينة بجناحيهم الحضري الاصلي والمهاجرين على الانشطة المختلفة التي تمثل استعمالات الارض ، ومن اهمها استعمال الارض التجاري (تجار، مصدرين، موردين، صيارفة، سماسرة) واستعمال الارض الصناعي ــ الحرفي (أرباب الحرف ومساعديهم) واستعمال الارض الديني والاداري والعسكري (الجنود) والتعليمي وبعض السكان الذين يعملون أو

يرتبطون بالزراعة (من بينهم الملاك الغائبون) واستعمال الارض الترفيهي (حدائق ـ برك ـ ساحات سباق) والنقل والمواصلات وخدمات اخرى مثل الحراسة • ولكي تكمل معالجة وظائف المدن العراقية فلابد من التوضيح بانها جميعا أو أغلبها تتفاعل في بعدي المكان والزمان • وفي سياق هذا التفاعل قد تنقرض وظيفة وتتطور اخرى • اذ ليس شرطا أن تمتلك المدن كافة الوظائف ، اذ قد توجد مدينة كبغداد تمتلك الوظائف كلها في حين يتناقص عدد الوظائف في مدن اخرى لتصبح على أقلها في المدن ذات الطابع والوظيفة المحلية • وبهذا المنظور يمكن ايجاد عدة طبقات (مراتب) وظيفية للمدن في العراق •

المقومات التخطيطية للمدينة العربية

في نشوئها وتطورها كانت حركة الانسان وأبعادها الموجه الاساس في تخطيط المدينة العربية ، سواء كان ذلك على مستوى المدينة بالحجم الـذي تصله أم على مستوى مساحات المحلات المكونة ومقاسات شبكة الطرق في بعديها الطولي والعرضي ، مع استيعاب تام لمواصفات الموضـع كالتضرس الذي كثيرا ما تتبعه الشوارع ، أم في توفير مواد بناء محلية مناسبة • لقـد أعطي لجانب المعنويات والروحانيات اهميته البالغة ، فالشوارع والساحات والاسواق والوحدات المعمارية المختلفة توفر كل العناصر التي تساعد على ممارسة الحياة بانتظام وانسانية ، وذلك من قبل كل من الفـرد والجماعة • وهكذا كان مكان العمل والسكن وقضاء وقت الفراغ محققا وبكفاءة عالية بالوحدات المعمارية والتخطيطية التي طورها العرب في مدنهم • ومن هنا فقد آمن الانسان العربي المسؤول والمخطط والاعتيادي بأنـه ليس فقط بالآجر والحجارة والجص والطين والاخشاب وشبكات الفضاءات المغطاة وغير المغطاة تقام المدن • فالمدينة أريد لها أن تكون فاضلة قدر المستطاع • وفي هذا السياق فقد اصبحت المدينة في العراق بناء وانجازا حضاريا بابعاده المعمارية التخطيطية المتكاملة من أجل خدمة الفرد والمجتمع •

ولا يمكن فهم تخطيط المدينة العربية بدون استيعاب البنية الوظيفية لها والتي تمت معالجتها بايجاز ، والتي ترسم صيغ تحرك وتجمع وسكن الافراد والمجتمع • فهي المتغايرات التي تبنى على ضوئها النواحي الاجتماعية والاقتصادية وتحدد درجة رضا الناس • يعبر عن ذلك بعناصر ووحدات معمارية تخطيطية تتمثل على التوالي بالوحدة السكنية والوحدة الدينية والسوق وملحقاته والوحدة العسكرية والوحدات الخدمية ، يربط بين كل ذلك انظمة شبكة الشوارع والساحات والفضاءات الاخرى المفتوحة • سوف لن تتطرق الى التفاصيل المعمارية لهذه الوحدات التي عولجت في مواقع اخرى من هذا الكتاب وسيؤكد في التعرض لها ، ومن خلال كونها الخلايا المكونة للكل الحضري ، على المفاهيم والقيم التخطيطية والمعمارية التي اضاف بها العرب الى حضارة الانسان بالوقت الذي اكسبوا فيها المدينة هويتها الحضارية المميزة •

ومن كل ذلك النسيج الوظيفي الذي عبر عنه معماريا وتخطيطيا بتشكيل يسبغ على المدينة هويتها يمكن اكتشاف أن المدينة العربية تتكون من المنطقة المركزية الرئيسة والمناطق المركزية من مراتب ادنى والمناطق السكنية وانظمة الشوارع والساحات والاماكن المفتوحة ، والوحدات المعمارية التي تؤدي منها الوظائف الاخرى كالمقابر (الجبانات) والمنشآت العسكرية بما فيها الاسوار • تتفاعل هذه الاجزاء لتشكل الكل الحضري الغني بالقيم المعمارية والمبتكرات والانجازات التخطيطية التي ستعالج في هذا الكتاب •

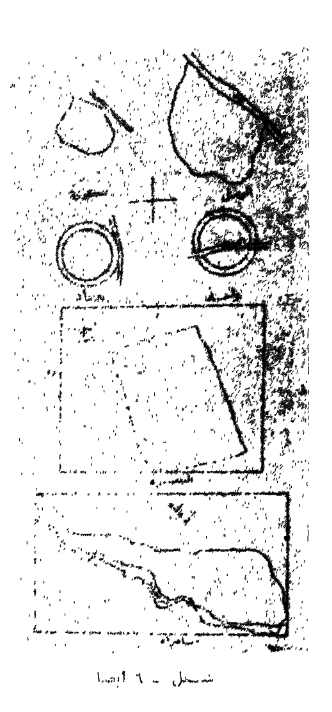
تستقطب المنطقة المركزية ، حيث اعلى درجات ، واسهل صيغ الوصول ، الوظائف المركزية وبالتالي الوحدات المعمارية المركزية مثل الجوامع والاسواق والدواوين وبيوت المال وقصور الخلافة أو الامراء والولاة • وتظهر مراكز اخرى من مراتب أدنى تستقطب أو تجذب استعمالات مماثلة ولكن لتغطية حاجات مجتمعات أصغر تتمثل بمجتمع المحلات مقارنة مع المنطقة بالمركزية

الرئيسة التي تخدم المدينة كلها وأقاليمها التابعة ، مستفيدة من مركزية الموقع وكفاءة شبكة الطرق التي تبدأ منها وتنتهي عندها .

تأخذ المدينة العربية في الغالب اشكالا دائرية اما منتظمة كما هي الحال في مدينة بغداد المدورة أو قريبة لذلك في مدن اخرى مثل واسط والموصل والحضر أو طويلة مستطيلة مثل سامراء أو خطية مثل عانة او على شكل يقرب من المثلث قاعدته النهر (شكل ـ ٩) . وفي ذلك فقد كان لعاملي التخطيط



شكل ـ ٩



شكل ـ ٦ أيضا

وصفات الموضع آثرها . وسوف لن ندخل في تفاصيل اي من الخطط لانها درست في مجال آخر من هذا الكتاب وسنكتفي بالاشارة الى اي من التفاصيل اينما يكون مبررا ومنسجما مع الموضوع المار . . ؤكد في دراسة المقومات

التخطيطية للمدينة العربية على المفاهيم التخطيطية والمبادىء المعمارية ومظهر المدينة العام وتأثيرها العالمي .

المفاهيم (القيم) التخطيطية

تظهر آثار هذه المفاهيم التي اعتمدها المخطط العربي في العراق على مستوى المدينة ككل ، وعلى مستوى أجزائها المكونة (محلاتها) مما أسهم في اعطاء الوجه الحضاري المميز لها بين مدن العالم التي تنتمي الى حضارات اخرى والتي تأثرت بها مدن عديدة .

مفهوم نظام المراتب

بالاضافة الى اعتماد هذا المفهوم على مستوى اقليمي كما سيظهر ، فقد كان أساسيا في تخطيط المدينة . ان من ينظر الى المدينة العربية في العراق سيكشف حقيقة فاعلة هي أنها تتكون من سلسلة من مراتب العناصر المكونة لها . لم يأت ذلك عفويا انما قد جاء من خلال الممارسات ليصل بالمدينة واجزائها الى أعلى درجات الكفاءة والمواءمة الانسانية . يحدث هذا على مستوى الجوامع والمناطق المركزية (الاسواق) والشوارع والساحات .

فعلى مستوى الجوامع هناك الجامع المركزي أو المسجد الجامع الذي يحتل مركز المدينة أو اكثر اجزائها مركزية . ويحتل مساحة لا يحتلها أي جامع آخر . ويعبر عنه بمعمار وتفاصيل معمارية وتكوينية لا تتكرر على المستوى ذاته بالجوامع الاخرى . انه أسهل الجوامع وصولا ، وبالتالي أهمها وظيفة حيث يخدم سكان المدينة كلها وسكان اقليمها . وتعبيرا عن أهميته فأنه يؤشر بمناراته وقبابه أعلى الوحدات المعمارية في المدينة ، وكثيرا ما يكون اكثر استقلالية من ناحية معمارية من الجوامع الاخرى التي تلتحم عضويا بمباني الاحياء التي توجد فيها . ومن ناحية معمارية فأنه اكثر تأثيرا على الناظر حيث تأثيراته الكبيرة في المظهر والتشكيل (شكل ــ ١٠) . فواجهاته وقبابه



شكل ــ ١٠
منظور المدينة العربية ــ بغداد ــ الكاظمية

ومآذنه وساحاته وحتى سواد بانه لا تتكرر بنفس الصيغة بالانجاز والتفاصيل في الجوامع الاخرى الاكثر تواضعا . ويرتبط ذلك بالاضافة الى الجانب الروحاني والمعماري بتابعية ومركز المسؤول . فيغلب على الجوامع المركزية أن تكون مرتبطة من الخلفاء والأمراء والحكام مقارنة مع الجوامع الاقل مرتبة والتي ترتبط بسكان المحلات التي تظهر فيها . وهكذا فعند مسح أية مدينة عربية كبيرة في العراق ستظهر بان لعدد وتوزيع ، أي مراتب ، الجوامع أثره الكبير على شكلها العام . اذ يؤشر كل جامع وبدرجات (مستويات) مختلفة درجة امتداد استعمالات ارض مركزية تعبر عنها بوحدات معمارية مركزية مثل الاستعمال التعلمي والثقافي والصحي للارض والتي تكون على أعلى مراتبها

حول المسجد الجامع لتتدرج في الاهمية حول أو قرب الجوامع من مراتب ادنى • يحدد عدد مراتب الجوامع حجم المدينة السكاني الذي يؤشر عـدد المصلين ، وبالتالي سعة الرقعة التي تشغلها ومدى سماع صوت المؤذن وعمقها التأريخي • يلعب الجامع بغض النظر عن مرتبته دورا روحيا بالغ الاهمية بالنسبة لمجتمع المدينة واقليمها • تطورت أهمية الجامع والتعبير عنها في مراحل نمو المدينة حوله ، اذ كان المكان المركزي الذي تصدر منه التعاليم الاسلامية وفيه يلتقي الحاكم بابناء رعيته ، ليصبح مرتبطا في مرحلة لاحقة بوحدات معمارية وظيفية اخرى كالقصر ودواوين الدولة وبيوت مالها ، الى أن وصل الى مرحلة لم يفقد بها مركزيته ولكن جاء بعد منشآت أخرى مثل قصر الحاكم • واخيرا اصبحت الجوامع وتعددها تعبيرا عن رغبات وتمكن بعض الناس •

كذلك عمل مفهوم المراتب عمله في توزيع الاماكن المركزية التي توزعت على عدة مراتب ، الاولى منها منطقة واحدة ويزداد العدد كلما هبطت مرتبة (فئة) المنطقة • وبالامكان اعتماد متغايرات معينة لقياس اهمية هذه المناطق أهمها وجود الجامع ، اذ يظهر الجامع المركزي في المنطقة المركزية لتظهر الجوامع الاخرى في المراكز التالية • الى جانب ذلك فهناك متغاير سهولة الوصول الذي تحدده طرق المواصلات • اذ تلتقي عند المنطقة المركزية مقارنة مع المناطق من مراتب ادنى ، التي قد لا يمر بها سوى شارع أو زقاق واحد • هذا الى جانب التجاذب الوظيفي الذي سبب اعلى تركز بالوظائف في المنطقة المركزية مقارنة مع المناطق المركزية من مراتب ادنى ، والتي تتنوع فيها الوظائف ، ولكن مستوى تخصصها وعددها والوحدات المعمارية التي تؤدي منها أقل كفاءة مما هو ملاحظ في المنطقة المركزية • ينعكس ذلك على سعة اقليم كل مركز وعلى تفاصيل وحداته المعمارية التي تكون اكثر تطورا في المنطقة المركزية •

وتلعب الاسواق دورا رئيسيا في تحديد مرتبة المنطقة • وجاءت اهمية الاسواق لتعبر عن دور التجارة في المدن العربية التي انتعشت الوظيفة التجاريـة في

أغلبها من خلال موقع الوطن العربي الذي يربط بين مناطق الحضارات الاخرى، وبذلك فقد كثرت المدن النهرية والبرية والبحرية التجارية التي أشرت أسواقها أهم معالم المدينة .

تظهر الاهمية التخطيطية للاسواق وتوزيعها وصيغ انجازها في أنها اكثر العناصر الوظيفية التخطيطية ارتباطا بالناس حيث يمارس فيها النشاط الفردي والجماعي . ودليل ذلك ان الاسواق كانت اقل العناصر التخطيطية تأثرا بأهواء وتطلعات ورغبات المسؤولين وفي مختلف مراحل نمو المدينة . ومن هنا ونتيجة لاستمرار وديمومة وتطور الاسواق وفق المتغايرات الاجتماعية ـ الاقتصادية والتخطيطية السائدة في مراحل نمو المدينة فقد اصبحت الاسواق من اهم وأغنى الموروثات الحضارية على مستوى التصميم في المدينة .

وفي حالة الشوارع(٤) فلها مراتبها هي الاخرى سواء عند تخطيط المدينة الجديدة كما في واسط والبصرة والكوفة وبغداد المدورة أو في المدن ذاتها بعد تطورها ، أو في المدن القائمة . ففي مدينة مثل البصرة جعلت الشوارع الفاصلة بين الخطط بعرض ٤٠ ذراعا تفصل بينها شوارع أقل مرتبة بعرض ٢٠ ذراعا لتهبط الى أزقة بعرض ٧ أذرع . هذا مقارنة مع الشوارع زمن الرسول (ص) والتي أوصى ان لا تقل عن ١٠ أقدام عرضا . وفي واسط كان التدرج من ٨٠ ذراعا للشوارع الرئيسة يليها الدروب فالسكك في حين كان عرض الشارع الاعظم في مدينة سامراء ٢٠٠ ذراع ممثلا المرتبة الاولى لتقل بعد ذلك . وعندما تدرس الشوارع كمراتب ، ينبغي عدم تجاوز المتغاير الانساني لها سواء بالعرض أم الطول أم توفير الظل أم عضويته مما يصب في توفير اعلى صيغ الانسيابية للسكان في حركتهم من والى المسكن ، للعمل أو للتسوق مما وفر هو الآخر الارضية التي حققت روابط اجتماعية موفقة بين سكان المحلة نفسها وبين سكان المحلات المختلفة . يتجه الشارع

الرئيس (المرتبة الاعلى) نحو مركز المدينة حيث الجامع والسوق ، كما وينتهي عند مدخل أو مخرج المدينة • يتفرع منه شارع من مرتبة ادنى ومن الاخير شارع أو زقاق من مرتبة ادنى لينتهي الشارع أو ليصبح دربا مغلقا • ان هذه العضوية والتدرج والتشعب في شبكة الطرق تذكر بنظام العروق في ورقة العنب • انعكس اثر هذا النظام المرتبي حتى على تفاصيل حركة وتصرفات المتجول الذي يكـون اكثر التزاما كلما اقترب مـن بيته حيث الشوارع الضيقة أو المسدودة ، مقارنة مع تحرره النسبي عندما ينتقل في حركته الى شوارع من مراتب أعلى حيث يتحول استعمالها الى سـكان جاؤوا من مختلف المحلات في المدينة بل حتى من خارجها •

ومع الشوارع تظهر الساحات التي هي الاخرى لها مراتبها • فكلما كانت الساحة عامة كلما ارتفعت مرتبتها وهكـذا كانت السـاحات العامة المرتبطة بالجوامع المركزية • ويحدد مرتبة الساحة درجة وانتظام وحجم التردد عليها واستعمالها ، ويحدد ذلك الوظائف التي تقدمها للسكان من أجـل ممارستهم لانشطتهم ذات الطابع الجماعي ،«الدينية منها والتجارية والسياسية حسب المرحلة الحضارية للمدينة العربية •

وقد لعب فناء الجامع المكشوف دور الساحة العامة في المدينة العربية الاسلامية • ولكن ذلك لم يحل دون أن تتطور ساحات عامة توجد امام الجوامع أو عند التقاء اكثر من شارع أو حتى عند نقطة معينة أو اكثر على الشارع نفسه • وتتصف الساحة من هذا النوع بعدم انتظامها • ونظـرا لاهميتها بالنسبة للسكان يندر أن يحدث تجاوز عليها من قبل البناء حيث تمثل الحيز الذي تمارس فيه التجمعات في الافراح والاتراح ، فهي ملـك للكل • وهكذا فقد ارتفعت قيمة الساحة تدريجيا ومعها أخذ النظر يتوجه الى اعتبار ساحة المسجد جزءا وظيفيا ومعماريا منه بالدرجة الرئيسة(٥) •

مفهوم التنطيق الوظيفي

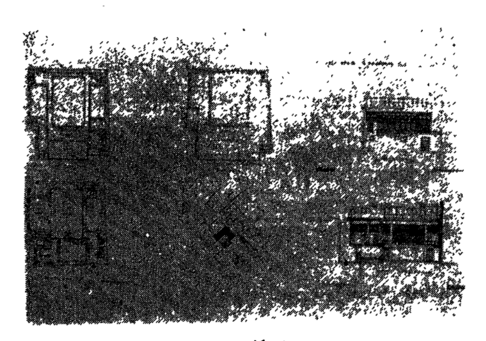
رغم تشكيلها الوظيفي والمعماري النسيجي فيمكن ملاحظة تخصصا مكانيا نسبيا لاستعمالات الارض . فهناك قلب المدينة أو منطقتها المركزية الاولى التي تستقطب استعمالات الارض المركزية التي يهمها التواجد في هذه المنطقة . كما وهناك الاشرطة التجارية والشريانية المتمثلة بالاسواق هذا الى جانب التخصص السكني لغالبية المحلات بالمقارنة مع مناطق أخرى تخصصت بالوظيفة الترفيهية أو دفن الموتى . وفي الغالب فقد جاء هذا التخصص الوظيفي النسبي بشكل تلقائي تجريبي وبتدخل تخطيطي أحيانا ، يستثنى من ذلك التوزيع الوظيفي الصارم نسبيا في مدينة مثل المدينة المدورة التي لم تقاوم النمو العضوي لمدينة بغداد المتوسعة الا فترة وجيزة ، استوعبت بعدها من قبل مدينة بغداد الكبرى .

مفهوم الانفتاح على الداخل والانغلاق على الخارج

تتصف المدينة العربية بتشكيلها العام وبوحداتها المعمارية المكونة بأنها عموما قد أدارت ظهرها نحو الخارج لتتوجه نحو الداخل على مستوى المدينة ومحلاتها وعناصرها المختلفة . فعلى مستوى المدينة كان السور بمثابة القميص الحجري او الآجري أو الظهر تجاه اقليمها الذي غالبا ما يكون مصدرا للرياح الصحراوية في مدن الهوامش ، والجهة التي يهجم منها الاعداء. أما على مستوى الوحدات المعمارية والتخطيطية فقد ضيقت الشوارع وأحيطت هي والساحات بأبنية متصلة ، وكذا الحال بالنسبة للجوامع والمدارس والمساكن التي انفتحت على الساحة (الفناء أو الحوش) الداخلية، المحور الوظيفي والتخطيطي والمعماري الاساسي في ابنية المدينة العربية . ومن مظاهر الانغلاق نحو الخارج المداخل المنكسرة للوحدات المعمارية والحيطان العمياء في الطوابق الارضية وضيق الفتحات وارتفاعها ان وجدت. وقد جاء ذلك نتيجة لتفاعل متغايرات نابعة من الجانب الطبيعي ، وخاصة

المناخي ، الاكثر ثبوتا ، والبشري بأجنحته السكانية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية والامنية • وفي كل ذلك لم يبتعد الانسان العربي عن معياره الانساني في الحجوم المناسبة التي يسمح بتطويرها في مدينته • ويقصد بالانسان العربي هنا ، المعمار والمهندس والعامل بالدرجة الرئيسة الذي صب جهوده على انجاز تفاصيل الوحدة المعمارية وحتى في الحالات التي خطط فيها للمدينة ككل مثل مدينة المنصور المدورة •

ومن هذه المنطلقات كان عرض الشارع في الغالب أقل من ارتفاع الوحدات المعمارية التي تنتظمه مما يحقق اكبر نسبة من الظل علاجا للمناخ السائد وقد تصل الحالة الى تسقيف الشوارع كما في الاسواق التقليدية التي تزدهر فيها الحركة التجارية • وفي هذا الاتجاه تركزت امتدادات (بروزات) الابنية نحو فضاء الشارع أو الزقاق بالطابق العلوي محاولة توفير اكبر كمية من الظل بالوقت الذي يحافظ فيه على عرض الشارع في الطابق الارضي • يساعد هذا الانجاز على تحريك الهواء وتجدده وفي هذا التلاحم المعماري على جانبي الشوارع وعلى مستوى المحلة والمدينة تم ضمان نوع من الطمأنينة حيث زيادة الامكانية الدفاعية للساكنين • وعموما تتجه الحياة العامة لسكان المدينة نحو الخارج في الشوارع بمراتبها المختلفة ونحو الداخل في الوحدات المعمارية ذات الافنية الداخلية (شكل ــ ١١) • وهكذا تتصف المدينة العربية في هذه المرحلة بوجود عنصر التضاد بين اتجاه الانفتاح وما يرافق ذلك من تباين في المساحات الحجمية • فبينما يكون الفضاء الخارجي واسعا واحيانا بلا حدود ، يكون الداخل محدود المساحة متمثلا بالافنية الداخلية للوحدات المعمارية والساحات بمراتبها المختلفة • وترجمة لاستيعاب المتغايرات الطبيعية والبشرية فقد أزداد التحام الابنية مما يسهم في زيادة تكتل المدينة مما جعل تشكيلها الحجمي



شـكل ــ ١١
البيت التقليدي العربي ــ بغداد

بأبعاده الانسانية شبيهاً بخلية النحل وبدون المساس باستقلالية وخصوصية الفرد والعائلة .

مفهـوم البعد الانساني للمدينـة

في توسعها لم تتجاوز المدينة البعد الانساني ، أذ أنها جاءت وتطورت خدمة للانسان وانسجاما مع متطلبات الحياة التي اوجدتها الحضارة العربية الاسلامية . فقد نجحت المدينة في توفير ربط سليم بين الانسان والحيز المكاني الذي يتواجد فيه مما يوصي به الدين الجديد ، مذكرا بأن مفهوم المجاورة على مستوى المحلة والمدينة قد تم استيعابه ، سابقا بذلك ما أرادته المدينة الفاضلة . وعلى مستوى شبكة الشوارع العضوية بما فيها المغلقة وما تنتظمها من أبنية فقد كان المقياس الانساني واضحا حيث توفير الظل وتناسق الابعاد وضمان توفير الضياء الكافي . كما وقـد روعيت مشاعر

الانسان بمواصفات مثل مواد البناء المستعملة والارتفاع وطبيعة الالوان • وعندما يتجول الانسان في شبكة الشوارع فسيجد ألفة كبيرة مع الوحدات المعمارية منجذبا في نظراته نحو قباب ومآذن الجوامع • وعلى مستوى المحلة فقد وجه التشكيل المعماري لوحداتها في اتجاه ضمان البعد الانساني مقارنة مع المدن الحديثة التي توسعت بواسطة ومن اجل السيارة •

مفهوم المحلة

رغم ان المدن الجديدة التي أنشأها العرب كواسط وبغداد تحتوي على قطائع او خطط معينة مما قد يدفع الى اعتبارها بديلا للمحلات ، الا أنه لم تتطور المحلة كبيئة سكنية تسهم في تشكيل المدينة العربية الا لاحقا ، حيث قد دفعت ظروف عدم الاستقرار والقلاقل والتنافس على الحكم في المدينة العربية المواطنين الى اعطاء الامور الخاصة أهمية اكبر ، اذ تمارس الحياة بتفاصيلها الخاصة في حيز المحلة عادة • ان ذلك دفع الى تبلور مفهوم المحلة ومحاولة جعلها مكتفية ذاتيا في أنظمة شوارعها العضوية وخدماتها الدينية والتعليمية والتجارية والامنية حيث تمتلك بواباتها التي تغلق وقتما يكون ذلك ضروريا • ومن هنا بينما قد ازداد ارتباط السكان بمحلاتهم ، نجد ان الاخيرة ارتبطت بالدولة عن طريق المسؤولين من المختارين (المشايخ) • وكلما ازدادت القلاقل ازداد تقوقع المحلات ، وبالعكس عندما يسود النظام والهدوء والسيطرة الحكومية تنفتح المحلة على المحلات الاخرى التي تكون مجتمعة النسيج الحضري للمدينة •

المبادىء المعمارية

وعلى السياق ذاته فقد وجهت الوحدات المعمارية للمدينة العربية لتخدم الانسان وتنسجم مع تطلعاته مما جعله يألفها بشكل تلقائي أقرب للعفوية • اذ يندر أن توجد وحدة معمارية أو تخطيطية دون أن تكون

قد استوعبت الابعاد الروحية للانسان وصيغ علاقاته الاجتماعية والظروف البيئية المحيطة به ، الطبيعية منها والحضارية • وهكـذا جاءت التصاميم وتفاصيل الانجاز للوحدات المعمارية معبرة بصدق عن مستوى الانسـان الحضاري ، أي عن المرحلة الحضارية ، ملبية لحاجاته في السكن والتنقل والعمل • ولم يكن ذلك بالامكان بدون تطوير مبادىء معمارية بالغة الاهمية من أهمهـا :

مبـدا الانسـجام بين الوظيفـة والشـكل

ان من يستعرض استعمالات الارض في المدينة العربية والتي أتى البحث اليها قبل قليل ، سيجد أن أيا منها قد عبر عنه عضويا وبطريقة تلقائية اعتمدت مبدأ التجربة والخطأ لتصل الى الانموذج المعماري المنسجم معها تماما والذي قد استوعب متغايرات البيئة الطبيعية والحضارية للانسان • ولا أدل على مصداق ذلك من ملاحظة مخطط وتصميم الوحدة السكنية والدينية (الجامع) أو أي من الوحدات الاخرى • وفي سياق تطور المدينة العربية فان الاختلال في هذا الانسجام (المواءمة) بين الوظيفة والوحدة المعمارية التي تقدمها يؤدي الى احداث التحويرات بدرجاته المختلفة ، واذا وصل التضاد الى حد كبير لا يجدي معه التحوير ، فكثيرا ما يصار الى هدم الابنية واعادة بنائها •

مبـدا صراحـة التعبير المعمـاري

١ ــ تعبر الوحـدات المعمارية في المدينة العربية معماريا عـن مقوماتها الانشائية ومن أجل ذلك تستعمل مواد البناء المحلية غـير الدخيلة (الاصيلة)[٦] ، ثم انها لا تخفي انشائيا معالم مواد البناء أو الوانها، اذ لا تستعمل الالوان أو مواد اخرى لاخفائها كالدهانات او التكسية الجصية • ان ذلك يخلق انسجاما بيئيا ناجحا بالوقت الذي تقدم فيه مواد البناء هذه كفاءة انشائية عالية تتعلق بتوفير عنصر موحد للتمدد والتقلص تحت الظروف المناخية السائدة •

٢ ـ الطرق الانشائية : امتدت صراحة التعبير الى الطرق الانشائية كما هو واضح في السمك المعتمد للجدران ، الذي أستفيد منه في خلق تفاصيل وظيفية في الداخل ، أضافة الى وظيفته الاساسية في البناء . فقد خلقوا مفاصل (اكتاف) انشائية لها اهميتها في تفاصيل البناء ويقع ضمن ذلك وحدات مثل الملاقف .

٣ ـ التسقيف : كان صريحا في التعبير حيث استعمال مواد بناء أصلية كالطين والاخشاب أو القصب أو الطابوق . تمت الاستفادة من كل مادة وفق قابلياتها الانشائية فمن الطابوق خلقت قبابا جميلة صغيرة تميز العمارة المحلية .

٤ ـ اهتم المعمار العربي بفكرة ايجاد التكامل بين المتضادات حيث تم فتح الفتحات المناسبة في الاجزاء الصماء كالجدران ، وكان ذلك ممكنا بالطرق الانشائية التي تعتمد مواد البناء المحلية . فالفتحات الطولية والعقود وخاصة المدببة منها وفر ارتباطات طبيعية غير مصطنعة .

٥ ـ الفكرة التصميمية : أهتمت الفكرة التصميمية بجانب التكرار (التنغيم) الذي يظهر في واجهات الوحدات المعمارية العامة والسكنية التي تتكون في الداخل من مستويات أفقية للعناصر المختلفة ذات حركة متصلة . كما ويظهر التكرار في الداخل ايضا سواء كان ذلك منتظما مع تباين في المستوى أم بايقاع غير منتظم .

كما وأبدع المعمار العربي في الاستفادة من مبدأ تداخل الفراغات وتكاملها في مختلف الوحدات المعمارية المكونة للمدينة . يتوضح ذلك بالانتقال من فضاء الى آخر بينهما ممرات أو غرف وأروقة . وضمن مبدأ التنغيم تتكامل فضاءات غرف الطابق العلوي مع فضاءات غرف الطابق الارضي ، مثلما تتكامل فضاءات المداخل المنكسرة مع فضاءات الساحات الداخلية الاوسع ، الامر الذي يحرك ويجدد الهواء .

وضمن استعراض عناصر الاصالة المعمارية لا يمكن تجاوز ايجاد التفاوت في أبعاد الارتفاع بين الطابقين الارضي والعلوي حيث يزيد الارتفاع في الثاني عن الاول مما يخلق تلاعبا في الفضاءات بدوافع وظيفية • وسع المعمار العربي من حجم غرف الطوابق العليا بمد الشناشيل (المشربيات) تجاه الشارع بدافع توفير الظل وتوسيع مساحة الغرف العلوية وتعديل الشكل غير المنتظم لقطع الارض السكنية وزيادة الاستفادة من ارض الشارع ، وخلق قيم جمالية بالوقت ذاته • وكما لوحظت قيمة الانفتاح نحو الداخل على مستوى المدينة يتكرر ذلك على مستوى الوحدات المعمارية ترجمة لمتطلبات الحياة الاجتماعية والبيئية المناخية •

٦ ــ متغاير المناخ : أهم جانب مؤثر على التصميم هو عنصر الحرارة المرتفعة وتباين مداها والرياح الجافة التي قد تكون متربة وعلاجا لها فقد طورت عناصر معمارية مثل الحوش (الفناء) الذي يوفر الضياء والهواء للفضاءات المطلة عليه(٧) ، كذلك ابتدع عنصر الملقف الذي يخرج من الجدار ويوجه تجاه الرياح الملطفة القادمة في حالة العراق من الشمال والشمال الغربي ويوزع الهواء فيما بعد الى اجزاء الوحدة المعمارية • كذلك تستعمل مواد البناء المحلية بمواصفاتها الملائمة ويزاد سمك الجدران بدافع ضمان العزل الحراري • كما توزع الفتحات لتضمن وصول اكبر كمية من الضياء بأقل كمية من اشعة الشمس • لاتقتصر هذه الجوانب على الوحدات المعمارية بل تتعداها الى وحدات اوسع كالسوق المسقف الذي يحمي الدكاكين التي تنتظم جانبيه • كما تلاحظ في مختلف هذه المعالجات حركة الشمس الظاهرية واتجاه الرياح • تمثل الشناشيل (المشربيات) انجازاً معماريا تحت الظروف المناخية السائدة ، حيث تزيد من الفتحات

التي توفر التهوية والانارة الكافية وذلك بزيادة طول محيط الطابق العلوي مقارنة مع ابقائه كخط مستقيم واحد ، كما وتستعمل المشربيات لتبريد مياه الشرب •

٧ ــ التشكيلات الهندسية ــ الزخرفية : عبر الفنان والمعمار العربي عن وحدة الارض والسماء بالفن التشكيلي الذي طوره معبرا بذلك عن النظرة المطلقة للاسلام • تتداخل في هذا المجال الابعاد وتنتشر وتترابط بداية خطوطها مع نهاياتها مما يجعل معرفة نقطة البداية والنهاية أمرا صعبا ترميزا بذلك للكون اللامحدود • وتستند هذه التشكيلات على اسس وتقسيمات هندسية دقيقة ومتداخلة • تمثل هذه التشكيلات انجازا غير معروف سابقا • طورت هذه التشكيلات الى ما اصبح معروفا بالتوريق العربي (الأرابسك) والذي يقوم في زخرفته على التشابك والتناظر والتنامي لعناصره النباتية التي ابتكرت ابتعادا عن تصوير الكائنات الحية • ساعدت مواد البناء المستعملة كالطابوق على تطوير هذا الفن ، ذلك لسهولة تقطيعه وحفره ونقشه مما مكن من انجاز عدد من النماذج الزخرفية سواء كانت بارزة أم غائرة (محفورة) كالزخرفة الحصيرية والاطباق النجمية والمضلعات • وتمتد التشكيلات الزخرفية الى المقرنصات والكتابة التذكارية • وتستعمل في عدة اماكن منها الواجهات والنوافذ والابواب والحيطان والاطارات وبواطن المقرنصات وارضيات الكتابة (شكل ــ ١٢) •

مبدأ التكرار المتميز

على الرغم من تنوع أساليب البناء حسب تباين التفاصيل في البيئات المختلفة التي بتكاملها تكون العراق ، فهناك الجانب الحضاري الموحد حيث المقومات الروحية ــ الثقافية ــ الاجتماعية ــ الاقتصادية الموحدة



شـكل ــ ١٢
الزخرفة الكتابية ــ نماذج من بغداد ــ المدرسة المستنصرية

والتي تظهر واضحة في الوحدات المعمارية الدينية والسكنية • وهكذا فبغض النظر عن التباين في مواد البناء فقد عبر معماريا بشكل موحد في بناء الجدران من حيث السمك وطريقة الانشاء واسلوب التسقيف (العكادة) واعتماد الاقواس والفناء الداخلي ، الامر الذي ساهم مع عوامل اخـرى في عملية التواصل الحضاري •

مما سبق يظهر ان الوحدات المعمارية المختلفة في المدينة العربية قـد جاءت لتعبر عن وظائفها المتعددة • يربط بين هـذه الوظائف والوحدات المعبرة شبكة من الطرق والساحات لعبت دور الشرايين التي تزود خلايا المدينة بعناصر الحياة • يخضع النسيج الوظيفي ــ المعماري للمدينة العربية الـى التطور المستمر شأنه في ذلك شأن الانسان الذي يستعملها ويبنيها • وان هذه الصفة العضوية هي التي ندعو الى اكتشافها كي تسهل عملية تأصيل القيم

الحضارية لمدننا بوحداتها المكونة والتي قد تأثـرت وسـتبقى بمواصفات الموضع مما اسهم في اعطائها معالم شخصيتها المميزة .



شـكل ــ ١٢
زخرفة كتابية ــ نماذج من بغداد ــ المدرسة المستنصرية

وهكذا جاء المظهر العام للمدينة العربية منسجما وقيم الانسان العربي وطبيعة الوظائف المقدمة من المدينة ومواد البناء المتوفرة ومستوى تقنيات البناء والتخطيط • واهم ما يعطي المدينة العربية مظهرها العام هو تلاحم اجزائها لتصبح كلا (كتلة) متكاملة الاجزاء • وعمليا يصعب تمييز حدود المحلات التي تتكون منها المدينة •

كما وينتظم خط سماء المدينة باستثناء الارتفاع المميز في نقاط معينة تؤشر مواقع الجوامع ومناراتها في قلب المدينة وفي المراكز من مراتب ادنى مما يسهم في التكوين العام للمدينة • هذا الى جانب غنى المدينة بعنصر الظل الذي جاء حصيلة لهيكلها المعماري المتداخل والكثيف الذي يؤدي الوظائف المختلفة • وفي هذا النسيج تؤشر الاسواق المسقفة فيها وغير المسقفة محاور الحركة والتفاعل البشري الرئيسي لسكان المدينة ومحلاتها • جاءت انظمة الطرق في المدينة العربية بطبيعتها العضوية ممثلة لعروق الحياة التي تتتابع بصيغة طبقية (مرتبية) ابتداء من الشارع وانتهاء بالزقاق المغلق • يستثنى من ذلك انظمة الشوارع في طلائع المدن المنشأة حديثا كالمدورة التي تؤشر مداخل ومخارج المدن واذا مانظر الى المدينة العربية من اعلى فسيظهر مسطحها على أنه سلسلة من تتابع سطوح الابنية وفتحاتها مما يجعلها اقرب شكلا الى العجينة المختمرة او قطعة الكيك المخرمة • تتكامل قباب المدينة ومآذنها مع خط أفق المدينة لتكون لوحة فنية فريدة (شكل ــ ٧) •

الاصالة التخطيطية ــ المعمارية للمدينة العربية

يجدر التنبيه هنا الى ان اصالة العرب في المجالين التخطيطي على مستوى المدينة والمعماري على مستوى مكوناتها قد ظهرت فيما تمت دراسته توا من مفاهيم تخطيطية ومبادىء معمارية • تحتاج جوانب الاصالة هذه والتي سيضرب لها امثلة الى الايمان بأهمية تأصيلها وضمان ديمومة فاعليتها

من أجل تحقيق البيئة المعمارية والحضرية التي تنسجم معه ، وتليق بانساننا •
لا تظهر جوانب الاصالة في النجاح في التخطيط المديني والتصميم المعماري فحسب ، بل على مستوى مدننا في العراق وبقية الوطن العربي وفي أماكن اخرى من العالم تنتمي الى حضارات مختلفة لا زالت تحكي قصة الانجازات العربية في هذين الميدانين • تمثلت الاصالة في التخطيط في أجلى صورها في المدن التي أنشأها العرب مما تمت مناقشته في مجال آخر ، وكذلك في شبكة المدن القائمة التي أخضعها العرب لتعديلات واضافات جذرية بهدف جعلها منسجمة والمتغايرات الحضارية الجديدة للامة •• وهكذا فيمكن القول بأن الاصالة التخطيطية قد واكبت تطور ممارسة التخطيط نفسه منذ الفترة التي سبقت الاسلام في مستوطنات الجزيرة العربية ، وعند انشاء المدن الجديدة ، وفي مرحلة النضج الحضاري بما فيه الشق الحضري زمن الدولة العربية في العراق • عبر عن الاهتمام بالتخطيط المسبق بالتحريات الميدانية من اجل ضمان اختيار الموضع والموقع المناسبين للمدينة الجديدة • يليها في ذلك التخطيط على الارض بالرماد أو تصويراً ، حيث ترسم المناطق التي يراد التخطيط لها سواء كان ذلك على الجلود أم الاقمشة • كما وأعطي اهتمام للجانب المادي حيث قدرت كلف انشاء المدن وطور العرب أيضا مفهوم المراتب والمراحل على مستوى المدينة واجزائها • وابتدعوا الشكل الدائري المنتظم خطة مدينية بما في ذلك من ميزات تحقق العدالة في التوزيع وزيادة الامكانية الدفاعية وتحقيق الاحتشاد السكاني ــ المعماري لأسباب دفاعية ــ مناخية • كما وقلصت الكلفة باعتماد الخطة الدائرية ذلك أن محيط الدائرة أقل من محيط المربع مثلا الذي يساويها بالمساحة بحوالي ١١٫٤٪ • وفي كل ذلك تعكس الخطة الدائرية تصور داينمية الحياة التي تبدأ حيثما استقر الانسان بمثل هذه الخطة الرمز • هذا الى جانب تمثيل

الخطة الدائرية لوحدة الامة والادارة ممثلة بمركزيـة مجمع القصـر ــ الجامع ــ الدواوين .

اخذ الابداع (الاصالة) المعماري عدة صيغ يتمثل اهمها في أن الوحدة المعمارية ذات قابلية على الامتداد والنمو حيثما توفر الفضاء المفتوح . كما وجاءت الجوامع أقرب ماتكون الى التحف الفنية ترجمة لموقعها في قلوب المسلمين ، وجاء الابداع في ناحية التصميم والتشكيلات الزخرفية. فلو أخذت المنارة لظهر أنها ذات تناسق كبير بين اجزائها المختلفـة وبين التكامـل في الشكلين الاسطواني للابدان والرباعي او المضلع للقواعد . تأتي المقرنصات لتزيدها متانة وجمالا ، مع عدم الابتعاد من الهدوء والبساطة . تمكن المعمار العربي من تطوير المنارة الملوية التي حاكت الزقورات البابلية (مربعة الشكل). كما وعولجت المساحات الكبيرة للجوامـع بتدعيم جدرانهـا بابراج ذات مواصفات معينة . وفي كل ذلك فقد جاءت الجوامع تعبيرا عـن متطلبات الدين الحنيف ، وبادخالها أثـرت تفاصيل خطة المدينة . ومن الوحدات الدينية الاخرى التي نالها التطوير المشاهد المخروطة (الصنوبرية)(٨) فوق عدد من الاضرحة حيث تمثل القبة المقرنصة التي جاءت انسجاما مع المستوى الذي وصلت اليه تقنيات البناء وباستعمال مواد البناء المتوفرة ، وفي مراحل تطور بنائها فقد ازدادت اتقانا في الانجاز التصميمي . كما وتعتبر المقرنصات وتطوير استخدامها اضافة معمارية ــ فنية عربية حيث تستعمل في الاروقة والمداخل والممرات وفي المآذن والقباب المخروطة . وتتكون بطرق انشائية معينة لها مفاتيحها لتخلق اشكالا بديعة تؤدي وظيفة انشائية للتقوية . كما قطع العرب شـوطا كبيرا في اعتماد الخط عنصرا زخرفيا تجميليا اخباريا (تذكاريا) . وقد نجح الفنان العربي باستعماله التوريق العربي من ان يصوغ فلسفة حضارته العربية الاسلامية ويعبر عنها بتشكيلات زخرفية نادرة مما لم تعرفـه أمم الدنيا التي اعتمدت التجسيم والتصوير أساسا للتعبير عن

فلسفاتها . وفي ابنية أخرى (دفاعية) طور نظام المزاغل بنوعيه الافقـي والرأسي لاغراض دفاعية ـ مناخية . كما وطور العرب طريقة اعتماد الانفاق (الدهاليز) تحت الارض لربط ابنية مع بعضها كما حدث في قصور الخلفاء ببغداد وسامراء .

وفي مجال العقود فقد ابتدع العرب العقد والقباب ذات الاشكال المدببة وذلك لغايتين انشائية وتجميلية .

التأثير العربي في مجالي التخطيط والعمارة

اذا ما أريد استعراض تأثير الحضارة العربية في هذين المجالين يمكن متابعة ذلك افقيا على وحدة المكان ، ورأسيا في وحدة الزمان . فمن ناحية أفقية طبعت التأثيرات المستوطنات القائمـة في العراق واكسبتها الهويـة الحضارية العربية الاصيلة ، بالوقت الذي أوجدت شبكة من المدن الجديدة بمقومات تخطيطية جديدة ، ذات وحدة فلسفية وصيغ وأساليب للانجاز لم يسبق أن حاكتها أغلب التجارب السابقة . ومن يلاحظ المدن المقامة في هذه الفترة مثل المهديـة والمنصورية والمحمديـة والقاهرة والقيروان وفاس والزهراء يظهر له مدى التأثير على مخططاتها . ومن العراق والوطن العربي انتشرت التأثيرات وخاصة في أساليب العمارة الى كافة انحاء الوطن العربي وأصقاع مختلفة من العالم . وذلك من خلال التلاقح الحضاري الذي أحدثه العرب اما مع فتوحاتهم وانتشارهم الحضاري أو من خلال البعوث التي كانت ترسل الى العراق والوطن العربي أيام ازدهار حضـارتهم في فترة الدراسة ، لينقلوا معهم حصيلة تحصيلهم . اما مـن ناحية رأسية ـ زمانية فقد حدث هذا التأثير على امتداد الرقعة الزمنية التي أبدع العرب فيها في مجالي تخطيط المدن والعمارة بتفاصيلها ، والتي لا زالت تجري بصيغة أو أخرى في اكثر من مكان بعالمنا المعاصر كما سيظهر .

فبينما نزامن التأثير مع الانجاز أحيانا نجده يتأخر في أحيان آخـرى • حدث هذا زمن السلم والحرب أو خلالهما حيث الاحتكاك الحضاري وان كان بصيغ ونتائج مختلفة •

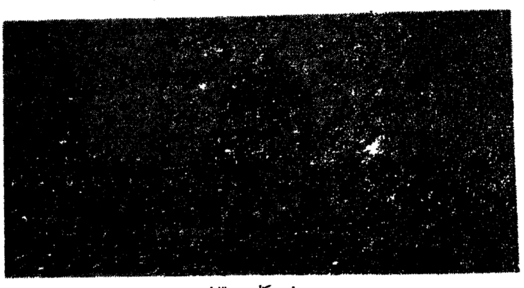
فعلى مستوى المدن انتشرت أو زرعت أو أقتبست غالبية المفاهيم أو القيم التخطيطية التي تم استعراضها قبل قليل وانعكست على مخططات اكثر من مدينة ، وكذا في مجال العمارة • ومما سهل ذلك ان دنيا الغرب وقتذاك كانت تسبت سباتا حضاريا ، انقطعت فيه عن حضارتها ذاتها وعن حضارة العرب في عصرها الذهبي •

ففي مجال تخطيط المدن ظهرت الانظمة العضوية للشوارع أينما وصل العرب ، بما فيها النظام المغلق (الشوارع العمياء) • كما ظهرت المساجد والساحات العامة وفق نظام مرتبي لم تعرفـه هاتيك المناطق مثل اسبانيا وجنوب البحر المتوسط وشـرقا حتى شـمالي الهنـد وجنوب الاتحـاد السوفيتي • ومن الامثلة الشاخصة على التأثـير المعماري العربي من العراق على بعض الكنائس مثل كنيسة سان لورنزو في اسبانيا والتي انتقلت عن طريق قرطبة محاكاة لمسجدها الجامع • كما وتأثرت العمارة القوطية في الغرب بطراز وتصميم البيوت التقليدية في العراق • كما ظهر تأثير الابعاد الروحية بالمعالجات المعمارية علىابنية معروفة في بريطانيا (ساسكس وديرهام وأدنبره) وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية (بوسطن) مما يشهد على أهمية الرجوع الى أصالة التعبير والانجاز المعماري للوحدات المعمارية العربيـة المختلفة للوصول الى أفضل صيغ التطور •

وفي الوطن العربي بنيت مدينـة الرقـة عام ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م لتحاكي مدينة بغداد المدورة في مقوماتها التخطيطية في جوانب بناء الاسواق والابواب الحديدية والفواصل رغم كون الجانب الجنوبي مستقيما ، مقارنة مع المتبقي الذي اخذ شكل حذوة الفرس تقريبا مع تدببه قليلا •

أضافة الى ذلك استفادت مدن مختلفة في تطوير اسس للاشراف، على تطور المدن من الواجبات التي كانت مناطة بالمحتسب وديوان الابنية اللذين تمثل واجباتهما الاساسية في منع تجاوز الابنية على فضاءات الشوارع وكذلك بمنع اقامة ما يعرقل كفاءة المرور بالشوارع والاشراف أو المساهمة بالابنية .

لقد أقام العرب وحدات معمارية جديدة منبثقة من متطلبات حضارتهم ، أينما وصلوا بطرز وأساليب جديدة تأثرت بها عمارات لاحقة أقيمت في مناطق مختلفة ، سواء كان ذلك في اعتماد أساليب التصميم أم الانشاء أم تفاصيل معينة مثل الاضاءة بواسطة نماذج للفتحات تضمن الاضاءة والتهوية الكافيين. ومن الامثلة الاخرى تأثر بيوت مصر العربية بأصول الفن العراقي زمن أحمد بن طولون الذي ولد في عام ٢٢١هـ/٨٣٥م ونشأ في سامراء حيث نقل تلك الاصول واسس التصاميم المعمارية للبيوت والمساجد مستفيدا من تفاصيل قصر الاخيضر ومساجد وقصور سامراء كما دلت الحفريات في الفسطاط وكما يظهر في مسجد ابن طولون حيث الزخارف الجصية في بطون العقود وحولها وتحت شريط الكتابة بأعلى الجدران الداخلية (شكل ١٣) .



شكل ـ ١٣
جامع ابن طولون

كما وتم استخدام القوس (العقد) المدبب في اكثر من جزء في العالم وهو المعروف بالقوس العربي • هذا الى جانب اقتباس ونقـل نمط القبة المقرنصة المخروطة الى مختلف انحاء الدولة العربية الاسلامية والاعمدة الهيف ومتدلياتها • كما وانتشر استعمال التوريق العربي كانجاز عراقي عربي أصيل وقد أقام العرب أبنية في مختلف الاماكن التي وصلوها مثل الهند وايران وأفريقيا وأسبانيا وصقلية والصين وجنوب الاتحاد السوفياتي • ولا زالت بعض هاتيك الابنية قائمة حتى وقتنا الحالي متمثلة بالمساجد وبعض القصور• وبذلك يمكن القول بأنه ما من أمة استطاعت ان تؤثر كما أثرت حضارة العرب والتي كان للعراق دوره البارز في نشرها ، ذلك أن مختلف الامم التي اتصل بها العرب تطبعت واستوعبت بل اعتنقت حضارتهم وانصهرت فيها بدرجات مختلفة وترجم ذلك الى أنماط تخطيطية ـ معمارية لازالت شاهدة على ذلك •

مراحل نمو المدينة

لا يمكن فهم واقع حال المستوطنة الحضرية ما لم يتم الالمام الكافي بصيغ تطورها والكيفية التي تفاعلت فيها مقوماتها التخطيطية ــ المعمارية المستندان على البعد الوظيفي لها • ذلك أن الجذور قد أستقرت عبر مسيرة التطـور التي قطعتها المستوطنة ، مما أسهم في اكسابها معالمها الوظيفية ــ المعمارية ــ التخطيطية المميزة • وهكذا تعبر المدينة عن المرحلة الحضارية للامة أصدق تعبير • ومن أجل تسهيل فهم تطور المدينة العربية في العراق يفضل اعتماد مفهوم المراحل الحضارية • اذ أن كل مدينة في العراق قد مرت باكثر من مرحلة حضارية معينة • انعكست معطيات كل مرحلة على نسيج المدينة الوظيفـي المعماري والتخطيطي الى الدرجة التي يمكن فيها ــ لو كانت الوحدات المعمارية المثلة لاستعمالات الارض باقية ــ أن تحدد تفاصيل الشخصية الحضرية لاجزاء المدينة حسب انتمائها المرحلي (للمراحل) • اذ يندر ان تكرر المدينة

نفسها تماما . فالتعبير عن وظائف المدينة يتغير أو يتطور لينسجم والبيئة الحضارية لكل مرحلة . ومن هنا نلاحظ تطور تفاصيل الوحدة السكنية والابنية المركزية وانماط الشوارع . وبهذا المجال ينبغي التذكر بأن فضاءات الشوارع والساحات تمثل أكثر العناصر التخطيطية مقاومة في التغير ، يليها في ذلك الوحدات المعمارية ــ التخطيطية وخاصة الوحدات الدينية والاسواق، لتهبط المقاومة الى أبعد الحدود بالنسبة للوظائف (استعمالات الارض) ، التي تتصف بأنها أسرع العناصر استجابة للتغيير . وهكذا يمكن ملاحظة فضاءات للشوارع وبعض الابنية لا زالت قائمة في مدن عربية عراقية تقليدية مقارنة مع استعمالات الارض التي قد تغيرت صيغ توزيعها والتعبير عنها بشكل كلي تقريبا . وان من أهم المعايير التي يمكن بها تحديد عمر المراحل (زمنيا) وامتداد معطياتها أفقيا ، هي أنظمة الشوارع والنسيج المعماري (الوحدات المعمارية) التي تنتظمها بما في ذلك مواد البناء[٩] واستعمالات الارض . ومهما يكن وبالاستناد على ما قدمته المراجع والخرائط وما توفره الوحدات المعمارية التخطيطية الشاخصة في اكثر من مدينة ، يمكن القول بأن المدينة العربية العراقية التي أنشأها العرب قد مرت في ثلاث مراحل ، الاولى مرحلة النشأة والتي كان عامل التخطيط هو الموجه الرئيس في بنيتها سواء باستعمال مواد بناء معينة أو أعتماد انماط خاصة للشوارع أو تطوير وحدات معمارية سكنية دينية أنشئت وفق تعليمات تخطيطية معينة تمت مناقشتها في مجال سابق . لم تدم هذه المرحلة طويلا اذ سرعان ما نمت المدينة بشكل سريع وكبير مما جعل هذه النوى تتفاعل مع التوسع الحضري الجديد الذي اعتمد في تطوير وحداته المعمارية مواد أكثر تطورا من ناحية الشكل ودرجة المقاومة ضد الزمن ومعطياته . وبذلك فقد دخلت في مرحلتها الثانية مرحلة النمو والازدهار سواء قيس ذلك في المساحة التي تشغلها المدينة ام مظاهر الاتقان والابداع التي قدمها العرب في وحدات مدنهم المعمارية التخطيطية .

وفي هذه المرحلة أصبحت مدن مثل بغداد والبصرة والكوفة والموصل محط انظار العالم جاذبة العديد من الباحثين عن العمل والعلم • أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي أستقرت فيها تقاليد العمارة والتخطيط • وعبر هذه المراحل الثلاث تبلورت شخصية المدينة العربية العراقية وظيفيا على مستوى الاداء والتوزيع ، ومعماريا على مستوى التصميم والطراز والكفاءة بما وفر البيئة الحضارية ذات البعد الانساني بكل اجنحته • واثناء ذلك قد تعرضت المدينة الى حالات المد والجزر بسبب عوامل طبيعية مثل الفيضان وتكرره أو تغيير مجرى النهر كما حدث لبغداد وواسط ، أو بشـرية مثل الغـزو والحصار والاضطرابات والقلاقل الداخلية وتغير مكان العاصمة والمنافسة بين المدن كما حدث لسامراء والكوفة ، والقرارات التخطيطية ، بغض النظر عن مستواها، ودخول بعض القيم الدخيلة الاجنبية ، والتهديم من قبل الناس لاستعمال مواد البناء في ابنية جديدة ، أو انتقال السكان من مدينة لاخرى كما هـي الحال عند هجر السكان مدينة البصرة القديمة والانتقال الى البصرة الجديدة عام ٩٧٨ هـ / ١٢٩٧ م •

أما بالنسبة للمدن القائمة فيمكن اعتبارها قبل ادخال التخطيط وصيغ التطور العربية ممثلة للمرحلة ، تليها المرحلة الثانية التي اثرت فيها ذات القيم الحضارية والتي كان من حصيلتها تحويلها الى مدن تعمل بالمقومات الوظيفية ـ المعمارية ـ التخطيطية العربية ذاتها • وفي الواقع ونتيجة للتطور العمراني وفق الاطر العربية فلم يعد بالامكان التمييز بين النوعين، لان كلا منهما أصبح أنجازا عربيا خالصا •

وهكذا فان ما قد تمت مناقشته من عناصر معمارية وتخطيطية انما قد جاء عبر هذه المسيرة الحضارية الزاخرة الطويلة التي قـدمت لنا مدرسـة معمارية ـ تخطيطية لا حدود للاستلهام منها • ومن المفيد هنا أن تتطرق الى انماط النمو في المدينة العربية العراقية • فهناك النمو والتوسـع (الزحف)

التدريجي من المركز نحو الاطراف وعلى امتداد محاور الشوارع الرئيسة، الى جانب نمط النمو حول النوى المختلفة ، كالنمو الذي حدث حول جامع او قصر او ضريح او معسكر ، مثل ذلك النمو جرى حول قصر المأمون وحول دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد . ونوع ثالث هـــو الالتحام ، حيث تلتحم المدينة بتوسعها بمستوطنة او اكثر كانت في وقت سابق بعيدة عنهـا لتحتويها وتصبح جزء من الكل الحضري ، كما حـــدث لقرى قائمة قـرب الكوفـة ولبغداد مع الحربية شمالا ولسامراء عندما التحمت مـع المتوكلية . هذا بالاضافة الى نوع رابع من النمو الذي ينتج عنه ملء الفضـاءات غـير المبنية داخل الرقعة المبنية قريبا او بعيدا عن الاسوار . اما النمو العمودي فلم يظهر في المراحل الاولى سوى بالوحدات المعمارية العامة كالجوامع وقصور الخلفاء وعلية القوم مقارنة مع الوحدات السكنية التي حافظت على مستوى ارتفاعها التقليدي من طابق واحد حتى فترات متأخرة حيث بدأت تظهر بيوت من طابقين . وفي حالة بغداد يمكن ملاحظة نمط سادس هو النمو نحو الداخل حيث توجه النمو نحو المدينة المدورة من اكثر من جهة مما جعل مدينة بغـداد الكبرى تستوعب المدورة لتصبح جزءاً عضويا منها .

وعلى الرغم من تلقائية النمو وعضويته في المرحلتين الثانية والثالثة فقد كان يتأثر كثيرا بعملية التحضر التي سنناقش بعد قليل ، وكذلك بخضوعـه بصيغة او اخرى لتوجيه السلطات ذات العلاقة متمثلة بالخليفة وتوجيهات ولاته وقـواده ، اذ قـد توجه بعض أموال الخزينة لتشجيع التجارة او الصناعة مما ينعش المـدن ، وكذلك تحت اشراف معين من قبل المحتسب . الى جانب ذلك كان هناك ديوان الابنية الذي ظهر في زمن الدولة العباسية حيث تمارس فيه عمليات ذات علاقة بنمو المدينة مثل اقامة وحدات معمارية او الاسهام فيها والاشراف عليها او تعيين مراقبين على العمل او خزن مواد البناء او تخطيط ما

يعهد اليه . هذا الى جانب اعتماد تعليمات معينة تحدد مواصفات الوحـــدات المعماريـــة التـــي يسمح بانشائها .

مراتب المدن

تتكون البيئة الحضارية لمدن العراق من شقين : طبيعي اقرب الى الثبوت بمختلف عناصره ، وبشرى متغير متمثلا بأبعـاده الاجتماعيـــة ـ الدينية ـ الاقتصادية ـ التقنية بما فيها النقل والمواصلات والثقافية . انعكســت آثار هذين الجانبين المتفاعلين على المدن العربية العراقية في مراحل نموها المختلفة. جاء التأثير على صيغ التطور والنمو وعلى انماط التباعد والتوزيع وبالتالـــي المراتب والتي تتأثر بحجم نشاط كل منها . وفي كل ذلك كـان للتضاريس ونوع وسائل النقل أثر بالغ الاهمية في تحديد المسافة المقطوعة بوحدة الزمن . وكما هو واضح من شبكة مدن العراق يزداد معدل مسافة التباعد بين المدن الكبيرة مقارنة مع معدل التباعد بين المـدن الصغيرة .

واستعملت المراحل او الفراسخ(١٠)لقياس التباعد بين المدن.ويؤثر عدد المراحل الفاصلة بين المدن (المسافة) فياقامة محطات السفر التي يتحول بعضها الـى مـدن بمراتب مختلفة .

بالاضافة الى عامل التباعد الذي تحدده طرق ووســائل النقل وبالتالـــي سهولة الوصول ، هناك عدة معايـير تتفاعل لتحـدد المرتبة (الطبقة) الحقيقية للمستوطنة الحضرية والريفية وبالتالي سعة اقليم كل منها . ومـن هــذه المعايير المتغير السكاني (حجم الســكان) والوظيفي بما فيــه التجاري (عـدد الدكاكـين) والديني (عـدد الجوامع) وخاصة المخصصة للجمعات والمعيار الاداري . وعلى ضوء عدم توفر المعلومات الاحصائية يمكن القــول بأن شبكة مراتب المدن في العراق جاءت نتيجة لتفاعل عضوي بين المعايــير والمبادىء السابقة في كل من مراحل الامة الحضارية . فمن ناحيـة سـكانية

يصعب استنباط عدد سكان المدن على ضوء المعلومات المتوفـرة . ففي الوقت الذي لم يذكر فيه بالضبط عدد سكان الغالبية العظمى من المدن ، نرى ان مـا ورد من اشارات عن المساحة او عدد الحمامات والجوامع او الاطباء لا يوفر ارضية دقيقة ، حيث التناقض في حالات معينة او المبالغة بالارقام . ومع كـل ذلك فكل الدلائل تشير الى أن ظاهرة المدينة الاولى قد مثلتها بغداد التي تفوق بحجمها كثيرا المدينة الثانية . يظهر ذلك اذا ما طبق مقياس مؤشرات السيطرة او المؤشر الرباعي(١١). وكما للعراق شبكة مراتب مدنه فأن لكل اقليم من اقاليمه شبكته المرتبية ايضا . يحدد التباعد بين مدن كل اقليـم مركزيـة (مرتبة) كل منها وسائل النقل وطبيعة التضاريس . تتبايـن وسائل النقل السائدة في كل من المنطقة الجبلية ووسط وجنوب العراق مما يسهم في تحديد انماط التباعـد في كل منهـا .

كان العراق يتكون من ست كور (اقاليم اداريـة) هي الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وحلوان وسامراء . ان لكل اقليم مركزه الاداري الذي يحتل موقعه في سلم مراتب المدن . وفي هذا المجال يمكن اعتبار عـدد الموظفـين المركزيين الذين يوجدون في المدينة لتحديد مرتبتها ، اذ ترتفع مرتبة المدينة عندما يوجد فيها موظفون مثل القاضي وصاحب الجنـد وصاحب البريـد ومتول للضياع ومحتسب الخ ... وعلى ضوء المعيار الاداري وجدت مراتب للمستوطنات البشرية تتمثل بالامصار (المرتبة الاولى) والتـي تتركز فيها الدواوين وتشرف على ادارة الدولة والقصبات (المرتبة الثانية) وغالبا مـا تكون مراكز للاقاليم والمدن او المدائن (المرتبة الثالثة) والنواحـي (المرتبة الرابعة) والقرى التي لها مراتبها هي الاخـرى .

وعندما يربط الأقليم ومساحته وما يحتويه من سـكان ومـوارد بالمستوطنة فللعلاقة المتينة بينهما . اذ يسهم بشكل مباشر او غير مباشر بنمو وازدهـار المدينة المركزية التي يتبعها والمدن الاخرى التابعة لها .تعني زيـادة

مركزيـــة المدينة ارتفاع مرتبتها المتسبب من زيادة كثافة المـــرور الداخـــل والخارج ، وبالتالي رواج التجارة وسعة الافق الذي تغطيه ، مما يضمن موردا كبيرا ينعكس على انعاش المدينة • ومن اجـل تشــخيص حجـوم (مراتب) المستوطنات فكثيرا ما كان يصار الى المقارنة بين وحدة واخرى ، كأن يقال بأن مدينة ما تعادل نصف مدينة اخرى كما قيل بأن الكوفة في القدر كنصف بغداد ، او ان بغداد سبعة اضعاف القسطنطينية كما كان الحال زمن ازدهارها• او احيانا تذكر المساحة الفعلية بالضبط كما فعل بالنسبة لبغـداد • واحيانـا أخرى توصف المرافق وعناصر الثروة والرخاء في كل مدينة مقارنة مع الاخرى مما يؤشر فئاتها • وهكذا تتفاوت احجام المراكز المدينية تفاوتا واضحا بـين المدينة المليونية[١٢] كمدينة بغداد الى المدينة الصغيرة (البليدة) التي تتصارع فيها المعالم الحضرية والريفية • وهنا يمكن القول بتناقص اعداد المراكـز الحضرية مع تزايد مستوى الفئة (المرتبة) الحجمي • وعلى ضـــوءالمعالم التفصيلية لانحاء العراق ، وكما أشر قبل قليل فقد تطـــورت عـدة انماط لتوزيع مستوطناته ، منها النمط المنتشر في المنطقة الجبلية وشبه الجبلية ومنطقة الاهـوار ، والمبعثر الهامشي في منطقة الهضبة الغربية ، والشريطي (الخطي) على امتداد نهري دجلة والفرات والمتجمع في منطقة خصر الرافدين الذي تمثل مركزه مدينة بغداد • وهنا ينبغي الاشارة الى وجود علاقـة بـين موقـع المستوطنة وحجمها ، فكلما كانت المستوطنة هامشية (عموما) صـغر حجمها وأنتمت الى فئة او طبقة اصـــغر •

امتدت اهمية مفهوم المراتب لتشمل المستوطنات الريفية ايضا • وعلـى ضوء هذا الاستيعاب يمكن تصنيف مدن العراق الى مدن كبيرة ومتوسطة وصغيرة الحجم عموما • وبتفصيل اوسع الى مراتب (فئات) المدينة الكبرى والمدينة المتوسطة والمدينة الصغيرة والبلدة والبليدة • وعلى ضوء مـا تقـدم يمكن القول أن من أهم الظواهر التوزيعية للمدن هو غلبة المراكز المدينية من

المراتب الادنى . هذا الى جانب وجود ظاهرة المدينة الرئيسة متمثلة بمدينة بغداد ، كما وأن نسبة سكان مدن كل مرتبة (فئة حجمية) من مجموع السكان ترتفع مع أزدياد حجم الفئة .

ويمكن القول بأن أقليم وسط العراق يستقطب أعلى نسبة من السكان عامة والسكان الحضر خاصة ، ذلك لتفاعل عوامل البعد التأريخي والمناخ والتضاريس ومصادر الماء والجانب التخطيطي . وفي كل ذلك تقدم الشبكة العامة لتوزيع مدن العراق في هذه الفترة صورة متوازنة انعكست على استثمار وتنمية المكان والانسان بصيغ مثمرة جدا في كل أقاليم القطر .

كان لاقليم المدينة أهمية بالغة ، اذ لا يمكن ان توجد مدينة مركزية بدون اقليم تتطلع قراه وسكانه اليها . وهكذا يتناسب عدد الاقاليم الوظيفية مع عدد المدن . ويرتبط الاقليم بمدينته المركزية بشبكة من العلاقات المتبادلة والمتطورة . تلعب المدينة في كل ذلك دور الموجه المباشر وغير المباشر للانشطة الاقتصادية في الاقاليم حيث تمثل مركز الخدمات والسوق الرئيس لمنتجات الاقليم . وكما أن للمدن مراتبها فان للاقاليم مراتبها أيضا . تتأثر سعة الاقاليم بمتغيرات مثل درجة مركزية المدينة وسهولة الوصول والاتصال بمختلف الوسائل بما فيها البريد الذي كان متطورا في ربطه العاصمة مع انحاء الدولة[١٣] . هذا الى جانب المنافسة بين أكثر من مدينة لاستقطاب الاقليم أو أجزاء منه مما يحدده عاملا المبرر والمدى لكل استعمال أرض مديني ، مع أخذ ظروف التضاريس بنظر الاعتبار والتي تحدد معدل المسافة المقطوعة في وحدة الزمن . قد تتجاوز حدود الاقاليم العراق الى انحاء الدولة العربية الاسلامية ، بل تتجاوزها في بعض الحالات لتغطي بلدان مثل الصين وروسيا وجنوب أوربا والعلاقات التجارية بين مدن العراق وبين هذه الاصقاع توضح ذلك . وباكتشافهم وتطويرهم لمفهوم المراتب على مستوى مكونات المدينة

وعلى مستوى المدن والاقاليم يكون العرب في العراق قد أضافوا كثيرا في المجالين العلمي والتطبيقي مما يعمـل فيه حاليا في مختلف انحـاء الدنيا في دراسات المدن واقاليمها وتخطيطها .

التحضر في العراق

يمكـن تعريف التحضر احصائيا بأنه عـدد السـكان الذين يقيمون بمستوطنات حضرية ، بغض النظر عن مراتبها ، وهكذا يعبر عنه كميا . كما وبالامكان تفسيره من زوايا اقتصاديـة حيث تحول حرف السـكان الـى الاقتصاد غير الزراعي ، وديمغرافية من حيث نمو وبنية السكان ، وسلوكية على ضوء أنماط سلوك السكان . هذا بغض النظر عن مصدر سكان المدينة اصليين كانوا أم من المهاجرين . تشهد مدن العراق العربية القديمة علـى أصالة ظاهرة التحضر فيه والتي تعود الى ما قبل الالف الرابع ق.م أما المدن التي أنشئت في هذه المرحلة فتشهد ليس على الاصالة فحسب ، بل تؤشر عصر نهوض وبعث حضري لم يسبق له مثيل . انعكس ذلك على تخطيط المـدن وتوسعها الى حد لـم يحدث سابقا ، وانتشارها بصيغ توزيعية معينة . ومن ميزات التحضر في العراق العربي هو تواصل الظاهرة الحضرية اذ لم يحدث فيها أي انقطاع كما حدث لبلدان أخرى مثل اليونان . ومما يميز التحضر في العراق الموازنة في العلائق بين سكان الحضر والريف والذي ترجم الى موازنة بين عدد وحجوم المدن والقرى . اذ ظهر أن هناك ارتباط بين عدد المستوطنات الحضرية والريفية في العدد والتوسع . فكلما ازداد عدد وحجوم المستوطنات الريفية نما عدد وتوسع حجم المستوطنات المدينية التي تلعب دور الاماكن المركزيـة . الأمـر الذي تأثرت بـه البنية الداخلية للمدن أيضا . لا يمكن تحديد نسـبة التحضر في العراق في هـذه الفترة لعـدم توفر المعلومـات الاحصائية . الا أنه يمكن القول بأن العـراق قد قطع شـوطا في هـذا

المضمار لم تصله أية دولة عاصرته . أما الحضرية فهي سلسلة من العمليات التي تؤدي بالنتيجة الى تغير نوعي في مفاهيم الناس الحياتية والسلوكية وفي علاقاتهم مع بعضهم ومع المؤسسات التي توجد في المدينة . وترتبط الحضرية في العراق مع ظاهرة التحضر ذاتها . لذلك فهي قديمة قدم المستوطنة الحضرية التي رعي سكانها الحضرية كأسلوب حياة ، مما يجعلها من أثرى أنواع الحضرية في العالم في مجال القيم الحضارية الاصيلة والمتطورة . وهنا يمكن القول بترابط ظاهرة التحضر والحضرية بالعراق في مراحله الحضارية المختلفة بمدها وجزرها ، وان كان من المحتمل أن لا ترتفع درجة التحضر بالضرورة بشكل تلقائي مع ارتفاع عدد سكان المدن . ان ذلك يدفع الى توضيح معنى معدل (درجة) التحضر . فهو يدل على التغير في درجة التحضر في كل من المراحل الحضارية (بفترة زمانية) معينة مقاسا بنسبة مئوية[١٤] مقارنة مع النمو الحضري الذي يقاس بعدد سكان المستوطنات الحضرية بمراتبها المختلفة. تمثل فترة الدراسة العصر الذهبي لظاهرة التحضر في العراق مقارنة مع الادوار التي سبقتها ، مما يذكر بالمرحلة الحضرية التي يجتازها حاليا . ولو توفرت الارقام لكان بالامكان قياس درجة التحضر بصيغة أخرى[١٥] .

بتفاعل عاملي الجذب نحو المستوطنة الحضرية ، والطرد من الاماكن الاخرى ضمن البعدين الزمني (التأريخي) والمكاني (الجغرافي) ومتغيراتهما تحدث حركةسكانية تختلف فيحجمها وسرعتها وتوقيتها.ومنأهم نتائج هذه الحركة هو التأثير على المستوطنات المدينية من خلال عملية النمو الحضري . تمثل اقامة المدن الجديدة مثل البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامراء عامل جذب سكاني كبير . وبما أن المدينة العربية في العراق تحتضن الوظائف الاساسية المختلفة التي توفر فرص العمل والعلم ، مثل الوظيفة التجارية والصناعية ـ الحرفية[١٦] والادارية والعسكرية والعلمية الثقافية ـ الدينية[١٧] والخدمية الاخرى وبما انها توفر للمهاجر فرص الارتقاء بمنزلته الاجتماعية

الاقتصادية والتحرر من بعض القيود الاجتماعية في منطقته الريفية ، لذلك بات معروفا لماذا يقدم على استيطان المدن قادما ليس من العراق فحسب بل من انحاء الوطن العربي ومن خارجه متمثلا بالعلماء والادباء ورجال الفن . فقد جذب التطور العلمي والصناعي ـ الحرفي في المدن عددا من المهاجرين من اكثر من جهة . وكانت الهجرات نحو المدن العراقية من النوع الاختياري . ان مصادر النمو الحضري في العراق هي النمو الطبيعي[١٨] لسكان المدن ، وصافي الهجرة[١٩] المتمثل بما تحصل عليه المدن من سكان جراء الحركات السكانية الافقية . ويلعب القادمون من الريف اضافة الى القادمين من البادية والاقطار الاخرى دورا هاما في تتيجته[٢٠] .

وبالنسبة لانماط الهجُرة نحو المدن في العراق فيمكن تصنيفها حسب المصدر الى ريفي وبدوي وعربي أو أجنبي . أما من ناحية المسافة المقطوعة فيمكن ايجاد هجرات داخلية وخارجية ، الاولى تحدث من أنحاء القطر نحو المدن الجاذبة فيه وهي اما قريبة أو متوسطة أو بعيدة ، مقارنة مع الثانية من الوطن العربي ، كما حدث نحو البصرة أو مـن خارجه . كما وقد تكون الهجرة من بعض المدن الى مدن أخرى وعند ذلك تلعب الفتنة والقلاقل وبعض الحركات الداخلية الدور الرئيسي ، كما حدث لمدينة الموصل التي استقبلت اعدادا ليست قليلة من سكان مدينتي البصرة والكوفة .

يمثل الريف في ذلك أهم مصدر للمهاجرين وذلك لتغير العلاقات بـين الفلاحين والملاكين . اذ قد خلص العرب المسلمون الارض من الاقطاعيين وألغى نظام الرق الذي كان يعتمده ملاك الاراضي في العراق . فترك هؤلاء الاراضي مما أثر على العلاقة بين الفلاحين المحررين وبينها (الارض) وبذلك تغيير جذري ومفاجيء في صيغ العلاقات مما دفع سيول من الهجرة الريفية

نحو المدن . ان تمتع الفلاحين بالحرية وبصورة لم يكونوا يتوقعونها وضعهم في موقف قلق مرحليا ، مما انعكس على هبوط في الانتاج وضعف في الحياة الاقتصادية ، فلاذ قسم من هؤلاء بالمدن التي كانت تمر بحركة عمرانية مزدهرة وحيث تتوفر فرص العمل الواسعة سواء في تطوير المدن القائمة أم اقامة مدن جديدة .

ويمكن اعتبار عامل تدهور الري أيام ضعف الدولة ، كما حدث أواخر العهد الاموي العربي وضعف سيطرة الملاكين سببا آخر وراء الهجرة الريفية نحو المدن ، يقابله الانتعاش الاقتصادي وخاصة التجاري في مدن مثل البصرة ، مما يشجع التجار ورجال المال على الهجرة اليها مما زاد من ازدهارها . وهكذا فللهجرة نتائجها العمرانية الاجتماعية الاقتصادية على مناطق الطرد والجذب ، خاصة وان الدولة العربية الاسلامية قد أباحت الهجرة للسكان متى شاؤوا . أما المصدر الذي لا ينضب للهجرة نحو المدن والقرى العربية في العراق وخارجه في الوطن العربي فكانت القبائل العربية في الجزيرة العربية وبتشجيع من الخلفاء في اكثر من حالة ، سواء كانت الهجرة عسكرية من الذكور فقط أو من المقاتلين وعوائلهم كما حدث في مدينة الكوفة أو مدينة البصرة ، فردية أو جماعية ، وفي حالة عسكرة الجند قد يكون ذلك نواة لنمو مستوطنة حضرية كما في حالة الكوفة .

يبدو أن عملية التحضر قد أخذت اتجاهات معينة اذ يمثل مركز الاستقطاب الاول المدينة العاصمية يليه في ذلك المدن التي انشأها العرب التي تتركز فيها الادارة ، ثم بعض المدن القائمة ذات المراقد والمواقع المهمة والمزدهرة تجاريا . وبالنسبة لمدينة بغداد فقد انجذبت اليها اكبر امواج الهجرة مقارنة مع المدن الاخرى سواء قيس ذلك باعداد المهاجرين أم سعة الاقليم المجهز أم تنوع

مصادر الهجرة التي تجاوزت المناطق الريفية في انحاء الدولة الى مدن هامة مثل الابلة وواسط • وفي ذلك لعب النهران العظيمان دجلة والفرات دورهما في استقطاب مثل هذه المدن كما وان للبنية الطوبوغرافية لاجزاء العراق اثراً في نمو مراكز في الجزء الشمالي واخرى في الجنوبي تستقطب المهاجرين • وهنا لابد من الاشارة الى أن تغير مكان العاصمة يؤشر الاطار العام لتوزيع مراكز الجذب الحضرية ، وفي ذلك فهناك انتقال تدريجي عام من الجنوب نحو الشمال ليصل مداه عندما أصبحت سامراء عاصمة الدولة العربية الاسلامية • كما وتتصف هذه الحركة بانها غير ثابتة في اتجاهاتها مما يتفق والمراحل الحضارية التي تجتازها الامة ، مما يفسر تغيير صيغ انماط توزيع ومراتب المستوطنات الحضرية • فبينما شكلت ظاهرة الهجرة زمن الحجاج أزمة اجتماعية اقتصادية ، مما حدا به الى اتخاذ اجراءات صارمة لتنظيم حركة السكان واعادة بعض المهاجرين الى حقولهم ، نراها ايجابية في أوقات اخرى عندما تكون اكثر ايجابية ولا تؤثر على موازنة توزيع السكان وتجمعاتهم •

ومن نتائج التحضر في العراق تغير الصورة النهائية لتوزيع السكان ومستوطناتهم • حيث يتباين حجم وسرعة النمو من مدينة لاخرى ، أي تتباين سرعة التحضر • وتسهم سيول الهجرة أيضا في ظهور مدن جديدة • كما وتتغير حرفة المهاجرين لتصبح غير مرتبطة بالارض من ناحية انتاج الغذاء عموما ، اذ قد يعمل بعض من سكنة المدن في الزراعة التي تشكل ركيزة هامة للمدينة في اقليمها • كماوأسهمتالهجرة في ازدهار بعض المدن لتلعب دور المكان المركزي للاقاليم المحيطة حيث تمثل نقاط تجميع وتوزيع للحاصل في الوقت ذاته • ولاشك فقد أدت الهجرة في اكثر من حالة الى تدن في مستوى الخدمات العامة وضغط على الوحدات السكنية في المدن وتدهور الانتاج

الزراعي في المناطق المصدرة للمهاجرين • كما وأدت الهجرة في حالات أخرى الى احداث عمليات تريف اجتماعي ـ معماري مؤقت في المدينة الجاذبة مما يجعل للمدينة وجهها الريفي أحيانا • وهكذا تسهم عملية التحضر في اعطاء الصورة النهائية لانماط التوزيع السكاني وكثافاتهم المرتبطة بشبكة المستوطنات المدينية والريفية • وفي حالة العراق يمكن ملاحظة أنماط ثانوية للتحضر ضمن الاطار العام للتحضر فيه ، وذلك على ضوء تأثير العوامل الجغرافية في اقاليم العراق • تسود ظاهرتا القرى والمدن الصغيرة في الاقليم الجبلي لتظهر المدن المتوسطة في اقليم السهول المتموجة لتبرز أهم المدن في اقليم السهول الفيضية مقارنة مع اقليم الهضبة الغربية حيث تقل المستوطنات وتتباعد كثيرا • وفي كل ذلك كان للتضاريس والمناخ ومصادر المياه والبعد التاريخي الدور الاول في التوزيع •

الهوامش

(١) يقصد بالمدينة العربية المدينة العربية العراقية اينما وردت في الدراسة .

(١آ) طبقاتها او فئاتها .

(٢) جاءت كلمة مدينة من مدن بالمكان اي اقام به على وزن فعيلة ، وتجمع على مدائن ومدن . ومدن المدينة اي مصرها . والحضر والحضارة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف . ومدن الرجل اذا أتى المدينة . وتحضر البدوي تشبه بأخلاق الحضر . والحضر القرى بالارياف والمنازل المسكونة وحضير في الاصل تطلق على الذين يحضرون الماء ، اي ينزلون عليها ، فيقيمون بها ولايرتحلون عنها . وقد ورد ذكر المستوطنات في القرآن الكريم ١٥١ مرة بصيغة المفرد والمثنى والجمع ، ١٣٤ ذكرا منها للقرية و ١٧ منها للمدينة . وهنا فقد يقصد بالقرية في اكثر من موقع المدينة .

(٣) القضة من المضاعف الحجارة المجتمعة المتشققة وقيل ارض قضة ذات حصى .

(٤) تغطي الشوارع في المدينة العربية نسبة من المساحة الكلية تتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ .

(٥) في حالة بعض المدن الجديدة حدد طول ضلع الساحة ب ٣٠ م .

(٦) تتمثل مواد البناء بما يلي مع التباين في درجة اهمية كل مادة حسب الموقع الاقليمي للبناية وتقنيات البناء والمستوى الاجتماعي ـ الاقتصادي للسكان : اللبن، الطابوق (الآجر) بانواعه واحجامه المختلفة، الطين كملاط، الحجر ، الجص ، الكلس ، الخشب ، الرخام ، الزجاج ، المسامير النحاسية ، الدهانات ، الحصى ، الرمل ، الرصاص المصهور ، الحديد والقار .

(٧) ومع معالجتها للمناخ فللأفنية الداخلية ابعادها الروحية ـ الدينية حيث تضمن حرمة العائلة من خلالها ويتم الاتصال بالسماء منها .

(٨) تشبه في بنائها ثمرة الاناناس .

(٩) تتغير هذه المواد من حيث النوعية ولكنها عموما تبقى انتاجا بيئيا محليا .

(١٠) المرحلة تعادل ٥ـ٦ فراسخ وهي مايقطعه المسافر خلال يوم وتعادل ٣٥كم اما الفرسخ فيعادل ٥ـ٦ كم .

(١١) وبموجبه يتم تقسيم عدد سكان بغداد ، اكبر مدينة ، على مجموع سكان المدن الثلاث التي تليها حجما (البصرة والكوفة وواسط) يتوقع حسابيا ان تزيد النتيجة عن ٣٣و٠

(١٢) مقارنه مع مدينة قرطبه التي كانت تنافسها حيث قدر عدد سكانها بما لا يزيد على نصف مليون نسمة .

(١٣) كان للبريد وسائل متعددة ويقام له على الطرق ، وعلى مراحل معينة ، وحدات معمارية (خانات) لتقديم الخدمات للمسافرين بما فيها توفير الماء . يجرى ذلك تحت اشراف ديوان البريد .

(١٤) درجة التحضر = $\frac{\text{السكان الحضر}}{\text{مجموع السكان}}$ × ١٠٠

(١٥) ع=١٠٠ $\frac{\text{م} - \text{ح}}{\text{م} + ١٠٠}$ حيث ان ع = معدل نمو السكان الحضر سنويا .
م = مجموع السكان . ح = السكان الحضر .

(١٦) هناك اكثر من١٥ نوعا منانواع الصناعات التييغلب عليها الطابع الحرفي في المدينة العربية العراقية .

(١٧) كان العلم بما فيه تعلم حفظ القرآن الكريم عامل هجرة نحو واسط مثلا وبغداد . وما وجود المدارس والجامعات ودور الكتب والربط الا دليل على اهمية الوظيفة العلمية .

(١٨) النمو الطبيعي = $\frac{\text{عدد الولادات في السنة}}{\text{مجموع سكان المدن}}$ × ١٠٠

(١٩) لو توفرت المعلومات الاحصائية لامكن معرفة صافي الهجرة من طرح المهاجرين من المدن من عدد المهاجرين اليها اما اجمالي الهجرة فيعني مجموع السكان النازحين والقادمين .
ن = (و ــ ت) + ا ــ هـ حيث أن : ن = النمو السكاني العام .
و = ولادات . ت = وفيات . هـ = الهجرة من الداخل الى الخارج .

(٢٠) وعلى هذا الاساس تعني الهجرة تغيير مكان الاقامة بعد قطع مسافة جغرافية من اجل الاستقرار مع مايرافقه من تغير حضاري .

المصـــادر

١ ــ ابن بطوطة ، شرف‌الدين ابو عبدالله الطنجي ، رحلة ابن بطوطة ، بيروت دار صادر ١٩٦٤ .

٢ ــ ابن خلدون ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، بيروت ، دار احياء التـــراث العربي ، بدون تاريخ .

٣ ــ ابن سلام ، كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٤ ــ ابن مسكويه ، تجارب الامم ، القاهرة ، ١٩١٤ .

٥ ــ ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، بيروت ، دار لسان العرب ، بدون تاريـــخ .

٦ ــ ابن الوردى ، سراج‌الدين ، خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب، القاهرة، المكتبة التجارية ، بدون تاريخ .

٧ ــ أبو عياش ، عبدالاله ، أزمة المدينة العربية ، الكويت ، ١٩٨٠ .

٨ ــ أبو الفداء ، عمادالدين اسماعيل بن محمد بن عمـــر ، تقويـــم البلـــدان باريس ١٨٤٠ .

٩ ــ اسماعيل ، احمد علي ، دراسات في جغرافية المدن ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

١٠ــ الاشعب ، خالص ، المدينة العربية ، الكويت ، ١٩٨٢ .

١٠أ ــ الاشعب ، خالص ، مدينة بغداد ، ١٩٨٠ .

١١ــ الاعظمي ، خالد خليل حمودي ، الزخارف الجدارية في آثـــار بغـــداد ، بغـــداد ١٩٨٠ .

١٢ــ الاندلسي ، ابو عبيد عبدالله البكرى ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١٣ــ البغدادي ، صفي‌الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت) تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي ، القاهـرة ، ١٩٥٤ .
١٤ــ ابراهيم ، عبدالباقي ، تاصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الاسـلامية المعاصرة ، القاهـرة ، ١٩٨٢ .
١٥ــ البلاذرى ، احمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، القاهرة ، بدون تاريـخ .
١٦ــ جواد ، مصطفى ، دليل خارطة بغداد المفصل ، بغداد ١٩٥٨ .
١٧ــ الجاحظ ، عمرو بن بحر ، كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٦ .
١٨ــ حمدى ، عطيات عبدالقادر ، جغرافية العمران ، الاسكندرية ١٩٦٥ .
١٩ــ حمدان ، جمال ، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة ، م٢ ، ١٩٨١ .
٢٠ــ حمدان ، جمال ، المدينة العربية ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربيـة ، ١٩٦٤ .
٢١ــ حمدان ، جمال ، جغرافية المدن ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٢٢ــ الخطيب البغدادي ، الحافظ ابو بكر محمد بن علي ، تاريخ بغـداد او مدينة السـلام ، بيروت ، م١ بدون تاريخ .
٢٣ــ الزمخشري ، محمود بن عمر ، كتاب الامكنة والمياه والجبال ، بغـداد ، مطبعة السعدون ، بدون تاريخ .
٢٤ــ سوسه ، احمد ، فيضانات بغداد في التاريخ ، جـ ١ ، بغداد ، ١٩٦٣ .
٢٥ــ سامح ، كمال‌الدين ، العمارة في صدر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧١ .
٢٦ــ سلمان ، عيسى ، هناء عبدالخالق ، نجاة يونس ، العمارات العربية في العراق ، جزءان ، بغداد ١٩٨٢ .
٢٧ــ العاني ، علاءالدين احمد ، المشاهد ذات القباب المخروطة على العـراق ، بغـداد ، ١٩٨٢ .
٢٨ــ عباس ، عبدالرزاق ، جغرافية المدن ، بغداد ، ١٩٧٧ .

٢٩ـ العلي ، صالح احمد ، مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية ، مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ١٤ ، بغداد ، ١٩٦٧ .
٣٠ـ العلي ، صالح احمد ، الحيرة ، دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية ، مجلة كلية الاداب ، بغداد ، ١٩٦٢ .
٣١ـ العلي ، صالح احمد ، منطقة واسط ، دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية ، مجلة سومر ، م٢٦ ، بغداد ، ١٩٧٠ .
٣٢ـ عبدالباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، بيروت، دار احياء التراث ، بدون تاريخ .
٣٣ـ فواز ، مصطفى ، مبادىء تنظيم المدينة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٣٤ـ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ .
٣٥ـ القطب ، اسحق ، التحضر ونمو المدن في الدول العربية ، عمان ، ١٩٨١
٣٦ـ القطب ، اسحق وعبدالاله ابو عياش ، النمو والتخطيط الحضري فيدول الخليج العربي ، الكويت ، ١٩٨٠ .
٣٧ـ لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
٣٨ـ الكتبي ، الوطواط محمد بن ابراهيم بن يحيى ، من مباهج الفكر ومناهج البصر ، تحقيق عبدالمنعم الشامي ، الكويت ، ١٩٨١ .
٣٩ـ ماجد ، عبدالمنعم ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطي ، القاهرة ١٩٦٣
٤٠ـ متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ط ٣ ، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
٤١ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، أخبار الزمان ، القاهرة، ١٩٣٨ .
٤٢ـ ماسينيون ، المسيولويس ، خطط الكوفة ، ترجمة تقي محمد المصعبي ، بغداد ، ١٩٧٩ .
٤٣ـ المعاضيدي، عبدالقادر سليمان، واسط فيالعصر الاموي، بغداد ١٩٨٣ .

٤٤ـ معهد البحوث والدراسات العربية ، التحضر في الوطن العربي ، جـ ١ ، القاهــرة ، ١٩٧٨ .

٤٥ـ معهد البحوث والدراسات العربية ، التحضر في الوطن العربي ، جـ ٢ ، القاهــرة ١٩٨٠ .

٤٦ـ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٤ .

٤٧ـ مصطفى ، فريال ، البيت العربي في العراق في العصر الاسلامي ، بغداد ، ١٩٨٣ .

٤٨ـ المقريزي ، المواعــظ والاعتبــار في ذكــر الخطط والاثار ، بدون تاريخ وبدون مكان الطبع .

٤٩ـ ممفورد ، لويس ، المدينة على مر العصور ، ترجمة ابراهيم نصيحي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٥٠ـ منظمة المدن العربية ، تقارير المؤتمر الخامس ، المنعقد في الرباط للفترة ٦ـ١١ يونيو ، ١٩٧٧ .

٥١ـ المورد ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ، م ٢ . ع ٤ ، بغــداد ١٩٧٩ .

٥٢ـ الموسوى ، مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المــــدن العربية الاسلامية ، بغداد ، ١٩٨٢ .

٥٣ـ الهمداني ، ابن الفقيه ، بغداد مدينة السلام ، تحقيق صالح احمد العلي ، باريس ، ١٩٧٧ .

٥٤ـ وينهايم ، يو ، بلاد مابين الرافدين ، ترجمة سعدى فيضي عبدالرزاق ، بغداد ، ١٩٨١ .

٥٥ـ يوسف ، شريف ، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور ، الكويت ، ١٩٨٢ .

٥٦ـ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٥٧ـ اليعقوبي ، البلدان ، النجف ، ١٩٥٧ .

المراجع الاجنبية

1- Arnold, Sir Thomas W, Painting in Islam, Oxford, MCMXXVIII

2- Burchart, Titus, Art of Islam, Language and Meaning, London, 1976.

3- Benet, F, The Ideology of Islamic Urbanization, International Journal of Comparative Sociology, 4, 2, 1963.

4- Breeze, G., Urbanization in the Newly Developing Countries, London, 1966.

5- Creswell, K.H.C., The Evolution of Minaret, with Special Reference to Egypt, 1, Burlington Magazine, 48, 1926.

6- ————, Early Muslim Architecture, Penguin Books, 1958.

7- Hourani, A.H. and S.M.. Stern, The Islamic City, Oxford, 1970.

8- Hassan, R., Islam and Urbanization in the Medieval Middle East, Ekistics, 33, 95, 1972.

9- Ismail, A.A., Origin, Ideology and Physical Pattern of Arab Urbanization, Ekistics, 33, 95, 1972.

10- Lassner, J., Massignon and Baghdad, The Complixity of Growth in an Imperial City, Wyne State University, U.S.A., N.D.

11- ————, Notes on The Topography of Baghdad, The Systematic Description of the City and the Khatib al-Baghdadi Journal of the American Oriental Society, Vol. 83, No. 4, Sept. - Dec., 1963.

12- ————, Some Speculative Thoughts on the Search for an Abbasid Capital, Second Installment, Wyne State University, U.S.A., N.D.

13- Lapidos, L., Muslim Cities in the Late Middle Ages, Harvard, 1967.

14- Sjoberg, G., The Pre - Industrial City, Past and Present, U.S.A.

15- Strange, G., LE, Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1900.

16- Toynbee, Arnold, ed., Cities of Disting, London, N.D.

17- Von Granebaum, C.E., The Muslim Town, Landscape, Spring, 1958.



الفصل الخامس

الزراعة

١٥ - ٦٥٦هـ / ٦٣٦ - ١٢٥٨م

د. عواد مجيد الاعظمي

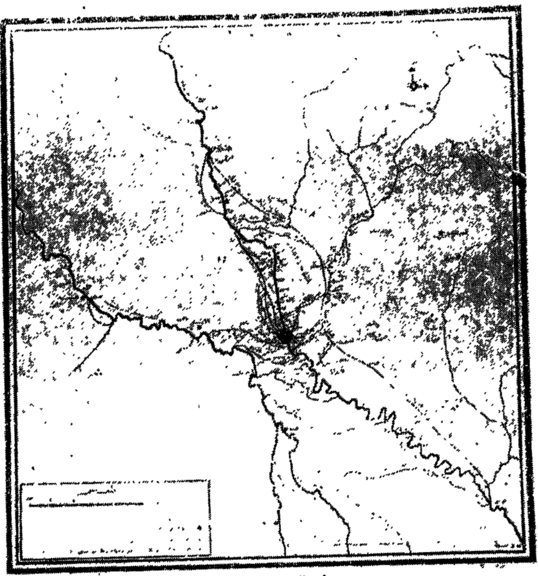
كلية الاداب - جامعة بغداد

دجلة والفرات

رافدان توأمان خالدان ، هما هبة العراق ونعمته .. لهما الفضل في بزوغ فجر الحضارة العراقية . وعليهما قامت الزراعة في العراق ، وتطورت عبر الدهور والحقب . وبرواسبهما الغرينية كونا تدريجيا هذه الارض الغنية الخصبة الواسعة التي سميت السواد لسواد ارضه بالزروع والاشجار اي لخضرتها لان الخضرة عند العرب تقارب السواد .

وعلى دجلة والفرات اعتمدت الزراعة في جنوب العراق ووسطه ، وعلى مجاريهما ومستوى ضفافهما قامت مشاريع الري المتعددة . وكان لطبيعة تضاريس العراق الاثر الكبير في جريان هذين النهرين العظيمين . فنهر دجلة يجري من منبعه الى سامراء في مناطق جبلية او تلولية وضفافه عاليه لدرجة الا يخشى فيها من خطر الفيضان . ويجري الفرات بين منبعه والانبار

في منطقة تلولية أو في صحراء ، وقاع النهر واطئة لم تكن تسمح بشق الجداول والترع • ولكن دجلة والفرات يجريان بعد بغداد والانبار في السهل الغريني الرسوبي المنخفض ، فتحمل كميات كبيرة من الغرين في موسم الفيضان •• والى انخفاض ضفاف دجلة والفرات يعود الفضل في انشاء شبكة من القنوات في العراق التي قامت فيه عبر العصور التاريخية •



اعمال ريف بغداد

ومستوى مياه الفرات بين الفلوجة الحالية وبين الديوانية اعلى من مستوى ماء دجلة بين بغداد وكوت العمارة ، وهذا هو سبب وجود عدد من الانهـر والجداول التي تاخذ مياهها من الفـرات وتصب في دجلـة ، كنهـر عيسى ونهر صرصر ، ونهر الملك ، وكانت تسقى أخصب أراضي هذه المنطقة في العصر العباسي •

اما اراضي مابين النهرين فترتفع تدريجيا باتجاه الشمال وتشكل منطقة «الجزيرة» واذا ما قورنت الجزيرة بالسواد تبين انها اكثر امطارا ، فان زراعتها اقل اعتمادا من زراعة السواد على مياه الفرات •

وتتكون المنطقة الجنوبية من سهل غريني غني ، ولا تكفي الامطار للزرع وكان هذا يستوجب حفر القنوات ، وبنتيجة ذلك اقتصرت السكنى على ضفاف الانهار وتبع ذلك توزيع المدن والقرى •

وفي المنطقة الجنوبية مساحات واسعة من الاراضي المغطاة بالمستنقعات والمياه الراكدة في المناطق الواطئة من مجرى نهري دجلة والفرات بين الكوفة وواسط شمالا ، والبصرة جنوبا ، وقد قدرت حدودها بخمسين ميلا عرضا وثمانين ميلا طولا ، وتسمى هذه المنطقة البطائح •

نشوء ملكية الارض : تطورها وانواعها

١ ـ ملكية ارض الموات بعد احيائها

كانت ملكية الارض الزراعية عندما كون الرسول الكريم (ص)الدولة العربية الاسلامية في المدينة المنورة متعددة الاشكال اولها القطائع للاراضي الموات التي ليست في حوزة احد او ملك احد يقوم صاحبها باحيائها فهي له • فهذا النوع من الملكية هو ملكية ارض الموات ، وتعود جذورها الى عهـد الرسول (ص) وعلى حد قوله (ص) : « من أحيا ارضا ميتة فهي له » ••

وقد أقطع الرسول (ص) عددا من الصحابة في المدينة وفي مناطق اخرى من الجزيرة العربية • وقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول (ص) من منح هذا النوع من القطائع سواء في الجزيرة العربية او في العراق بعد تحريره من الفرس الساسانيين •

وقد اقطع الخليفة عمر بن الخطاب عددا من اصحاب النبي (ص) في العراق واقطع عثمان بن عفان عددا من المسلمين « استينيا » وهي قرية بالكوفة •

٢ ـ ملكية ارض الصوافي

لقد اصفى المسلمون من اراضي السواد في العراق بعد تحريره عشرة انواع ، وهي :

١ ـ اراضي كسرى •
٢ ـ اراضي غيره من افراد العائلة المالكة •
٣ ـ اوقاف البريد وطرق البريد •
٤ ـ اوقاف بيوت النار
٥ ـ الآجام •
٦ ـ اراضي من قتل في الحرب •
٧ ـ مغايض الماء والمستنقعات كالبطيحة في جنوب العراق •
٨ ـ اراضي من هرب من اهل البلاد في فترة الحرب •
٩ ـ كل صافية اصطفاها كسرى •
١٠ـ الأرحاء والطواحين•

واعتبرت الصوافي ملكا عاما للدولة ، وتكون تحت تصرف الخليفة ان شاء اقطع منها وان شاء لم يقطع •

وقد اقطع الخليفة عثمان بن عفان من هذه الصوافي في العراق • اقطع

طلحة ، وعدي بن حاتم الطائي ، والاشعث بن قيس الكندي ، واقطع جرير بن عبدالله البجلي ارضا على شاطىء الفرات •

والمسلم الذي يقطع من ارض الصافية عليه ان يدفع العشر من غلتها الى بيت مال الدولة ، وقد بلغ خراج ما استصفاه الخليفة عمر بن الخطاب سبعة ملايين درهم •

٣ ــ ملكية ارض الصلح

وهي الاراضي التي صالح اهلها العرب المسلمون ، وتبقى ملكية اراضيهم فيايديهم على ان يدفعوا عنها ضريبة • وكان منها ارض الحيرة وارض باتقيا (وهي ناحية من نواحي الكوفة) •

٤ ــ ملكية الارض الخراجية

بعد تحرير العراق من الهيمنة الساسانية الفارسية ، شاور الخليفة عمر بن الخطاب الناس في اراضيه ، فرأى بعضهم ان يقسمها ، وكان رأي الخليفة عمر ومعه بعض الصحابة ان يتركها بأيدي أهلها ولايقسمها • وأشار الخليفة عمر الى قوله تعالى : « للفقراء والمهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا •• » حتى بلغ الى قوله تعالى « والذين جاءوا من بعدهم » • وقال : « فكيف أقسمها لكم وادع من يأتيبغيرقسم فأجمع على تركها ، وجمع خراجها ، واقرارها في ايدي اهلها •

وبذلك بقيت ملكية هذه الاراضي ــ والتي عرفت بالاراضي الخراجية ــ بايدي اهلها دون الحاق الاذى او الضرر بهم •

وقد استهدف الخليفة عمر من عدم تقسيم هذهالاراضي تحقيق امور جوهرية تخدم مصلحة الدولة والمجتمع يمكن تركيزها بما يأتي : ــ

١ ــ ضمان الحصول على مورد مالي ثابت ومستمر لبيت مال الدولة (خزينة

الدولة) تنفق منه الاموال في تطوير مختلف شؤون الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعمرانية والعسكرية .

٢ ـ اعتبار واردات هذه الاراضي فيئا لكل المسلمين ، وليس لشخص دون اخر . قال عمر : « والله لا يفتح بعدى بلد فيتكون فيه كبير نيل ، بل عسى ان يكون كلا على المسلمين » .

٣ ـ عدم تحقيق مبدأ وراثية الارض . قال عمر : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت » .

٤ ـ استمرار شحن الجيوش العربية الاسلامية وادرار العطاء عليها ، وحماية الثغور والذود عنها .

قال عمر : « أرايتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام ، والجزيرة ، والكوفة ، ومصر ، لابد لها من ان تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء ، فمن ايـن يعطى هـؤلاء اذا قسمت الارضون والعلـوج » .

كما راعى الخليفة عمر حقوق المزارعين والفلاحين وطبق مبادىء العدل والانصاف عليهم .

كانت هذه هي القواعد والاسس العامة في مبدأ ملكية الارض ، ومـن الجديربالملاحظة هنا ان السياسة العامة للدولة قد وضعت نصب عينها الخير والصلاح فيما تريده للامة ، وما تريده للانسان ، ومن هنا برزت العقليـة العربية وتميزت في حسن التعامل والتفاعل مـع الارض والانسان الذي يمتلكها ويعيش عليها .

وقد نال العراق النصيب الاوفر من هذه السياسة العامة في مختلف انواع الملكية الزراعية ، وكان مركز الرعاية والاهتمام البالغ من قبل الخلفاء الراشدين وولاتهم .

وقد ازدادت ارض العراق اهمية في سياسة الخلفاء الامويين وولاتهم فاخذوا يوسعون من عملية منح الاراضي وقطعها ، فتوسع بذلك نطـاق الملكية الزراعية واصبح يشمل اضافة الى الخلفاء الامويين انفسهم الولاة والقواد ، والخاصة والعامة من الناس .

اما ارض الصوافي ، فان معاوية بن ابي سفيان رأى أن يستصفي لنفسه ما كان لكسرى وآل كسرى من صوافي العراق التي لا تجـري مجـرى الخراج (اي ليست من ملكية الارض الخراجية) وامر عامله على خراج العراق عبدالله بن دراج ان يحوز تلك الاراضي ويقوم باحيائها وزرعها ، واقامة مشاريع الري عليها .. وقد بلغ مقدار غلة مااستصفاه لمعاوية خمسين مليون درهم وكان معاوية ــ في الوقت نفسه ــ يقطع من هذه الصوافي اهل بيته وخاصته ، كما شملت اقطاعاته العديد من الناس . ففي سواد العـراق اقطع معاوية الحسن بن علي بن ابي طالب قطيعة تدعى « عين الصيد » ، واقطع شخصا بطيحة في البصرة ، وفي الجزيرة الفراتية اقطع بعض بني اخوته اراضي سبخة فيها ، واقطع عددا من الاشخاص وفدوا عليه من الحجاز قطائـع في نصيبين ، ثم استعاد ذلك منهم وابدلهم بقطائع جديدة في منطقة الرها .

وكان لزياد بن ابيه (والي معاوية على البصرة) قطائع فيها وقـد عين من يقوم بالاشراف عليها ، وكان ــ في الوقت نفسه ــ يقطـع منها القطائع ، وكان زياد يحدد مساحة ملكية الارض التي يقطعها ، فأقطع مُرّة ابن ابي عثمان مائة جريب ، وامره ان يحفر لها نهرا فنسب اليه ، واقطع زياد بناته ، وحدد لكل منهن ستين جريبا ، واليهن نسب نهر البنات ، وكان زياد يقطع العامة من الناس ، ويروى عنه أنه كان لا يقطع ارضا لشخص حتى يقوم باحيائها وعمارتها ، وكان يدعه سنتين فان عمرها والا أخذها منه .

وكان خلفاء بني امية يقطعون الاراضي لبعض ولاتهم وقوادهم تقديرا لجهودهم وخدماتهم للدولة ، فأقطع يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد ارضا

في حلوان ، وأقطع الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي ارضا في العراق ، وكان الحجاج يقطع منها من يشاء .

فقد أقطع الحجاج بشار بن مسلم الباهلي سبعمائة جريب ، فحفر لها النهر الذي يقال له نهر بشار ، واقطع الحجاج ايضا خـيرة بنت ضسرة القشيرية امرأة المهلب بن ابي صفرة ارضا في البصرة ، وكان ذلك تقديرا للجهود التي بذلها المهلب في قتال الخوارج .

وكان بعض الخلفاء الامويين يمنحون في اقطاع الاراضي لبعض ولاتهم، فأقطع الخليفة سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب بن ابي صفرة اراضي في البطيحـــة .

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد فضل سياسة عدم منح القطائع الارضية ، ولكنه اقر القطائع التيأقطعها أهل بيته ، كما انه اتبع سياسة عدم اقطاع اراضي الصوافي ، بل فضل اعطاءها بالمزارعة بالنصف أو الثلث أو العشر ، وان لم تزرع من قبل احد ، فالاتفاق عليها من بيت مال المسلمين .

وبعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز استمرت عملية اقطاع الاراضي ، فقد أقطع الخليفة يزيد بن عبد الملك الهلال بن آحوز المازني أرض المرغاب في البصرة مساحتها ثمانية آلاف جريب ، فحفر لها نهر المرغاب ، وشق السواقي، واقام المعترضات بالتغلب على الماء . كما اقطع عمر بن هبيرة (والي يزيـد بن عبدالملك على العراق) غابة له في ارض الجزيرة .

أما الخليفة هشام بن عبـد الملك ، فقد عين عامله حســان النبطي في استخراج أرضين له من ارض البطيحة واستصلاحها لنفسه .

وبهذا لم تقتصر ملكية الارض خلال العهد الامــوي على الخلفاء وحسب ، وانما تعدى ذلك الى ولاتهم وقوادهم والى عامة الناس من رجال

ونساء ، وان عملية منح الاراضي قد تركزت على اراضي الصوافي والبطائح التي هي جزء منها ، كما شملت ايضا اراضي في الجزيرة شمال العراق •

وكان هدف الامويين الأساسي من منح الاراضي وتملكها هو احياؤها وزرعها ، فنشطت بذلك الحركة الزراعية في العراق نشاطا واسعا ، سواء كان ذلك على صعيد الدولة من خلفاء وولاة وقواد ، او على صعيد الشعب والافراد من رجال ونســاء •

وعندما ولى العباسيون الخلافة ، نقلوا مركز الخلافة العربية الاسلامية الى العراق منذ عام ١٣٢ هـ ــ ٧٥٠ م •

وقبل أن يبنى ابو جعفر المنصور مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ ــ ٧٦٢ م ، اتخذ العباسيون من الكوفة،والحيرة،والانبار مراكز لخلافتهم•وكل هذه المدن تقع على نهر الفرات ، وضمن منطقة السواد ، ويعنى هذا ان العباسيين قــد أدركوا منذ البداية أهمية سواد العراق الغني بثروته الزراعية ، لذلك وجهوا عنايتهم ورعايتهم صوب هذه الارض المعطاء •

ان انتقال السلطة السياسية الى العراق صاحبه نقل ملكية الاراضي التي كانت في عهدة الامويين الى العباسيين ، وكان معظم ملكية هذه الاراضي في أصلها من ارض الصوافي ، وارض البطائح التي تشكل جزءا من الانواع العشرة للصوافي التي اشرنا اليها سابقا •

ونذكر من جملــة تلك الاراضي التي استصفــاها العباســيون من بني امية ــ املاك يزيــد بن عبدالملك ، وهشــام بــن عبدالملك ، ومسلمة بن عبدالملك ، وكانت تلك الاملاك منتشرة في مختلف انحــاء العــراق : في البصرة ، والكوفة ، وواسط ، والموصل ، والجزيرة الفراتية •

وبدأ الخلفاء العباسيون يقطعون منها القطائــع للخاصة والعامــة من الناس • وكانت هذه الاقطاعات او ملكيــات الارض الزراعية على نوعين :

١ ــ اقطاع تمليك ، وقد تكون وراثية وصاحبها يدفع العشر ، وكان يعطى عادة من الارض الموات لاحيائها ، او من ارض توفي صاحبها دون وارث .

٢ ــ اقطاع استغلال ، وكان يعطى عادة لرجل الجيش ، ولا يورث ، ويعطى من بين ارض الخراج .

واستمر الخليفة العباسي يملك حق منح قطع الاراضي للافراد وعلى مختلف مستوياتهم الرسمية والشعبية ، فعندما قبض الخليفة ابو العباس السفاح املاك يزيد بن عبدالملك في عباسان (من نواحي البصرة) اقطعها لسليمان بن علي ، وكذلك أقطع بعض الاراضي في الجزيرة (في نصيبين والرها) الى ميمون بن حمزة مولى عبدالله بن عباس .

واقطع الخليفة ابو جعفر المنصور وائل بن الشحاج الازدى ماتبقى من قطيعة الموصل من الصوافي تقديرا لخدماته التي قدمها للعباسيين اثناء قيام دولتهم .

كما اقطع الخليفة هارون الرشيد ارضا لطبيبه قدرت قيمتها بمليون درهم ، ولكن الطبيب فضل شراء ضيعة بدلا منها .

وكانت هناك ايضا اقطاعات خاصة تمنح الى افراد لهم خدمات خاصة ، أو قابليات خاصة دون أن يكونوا موظفين كالشعراء مثلا ، ويكون لصاحبها الملكية التامة ، وحق توريثها من بعده ، فكان لحفيدة الشاعر البحتري قطعة من الارض تتمتع بها في خلافة الراضي ، كانت قد منحت لجدها .

وكانت تمنح اقطاعات مدنية للموظفين بدل الرواتب وكانت اكثر انواع الملكية شيوعا في مفتتح القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكانت تشمل الوزراء وكبار الموظفين .

وقد ظهرت انواع اخرى من ملكية الارض ، نذكر منها « الألجاء » ،

وقد تجلت هذه الظاهرة في العصر الاموي ، وخاصة عندما ألجأ بعض الناس ضياعهم الى مسلمة بن عبد الملك في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق ويبدو أن ذلك كان تعززا بمسلمة بن عبد الملك وتقديرا له . وان هذا النوع من الالجاء ، وان كان فيه الحماية ، ولكن كان برضا وقبول الملاك الاصليين للأرض . وقد تطور هذا النوع من الالجاء خلال العهد العباسي الى ما سمي (بالايغار) ، ويعني الحماية ايضا ، وذلك ان يضمن صاحب ضيعة أو رجل موسر من أهل قرية خراجها برضاهم ، فيدفع الضمان الى الحكومة على أن لايدخلها عامل أو حاجب ..

وقد كان الاقطاع العسكري من ابرز وأخطر أنواع الملكية التي برزت خلال التسلطين البويهي والسلجوقي على العراق،والتي تركت ابعادا سلبية على النشاط الزراعي في القطر العراقي عامة .. فقد أعطى معز الدولة البويهي الاقطاعات لجنده دون حساب ، وكان الاقطاعيون من الجند لايدفعون للخزينة (بيت المال) شيئا يذكر ، وكانوا يتحكمون بزراعة الارض كما يشاءون واعتادوا ان يديروا اقطاعاتهم بواسطة وكلائهم ، ولم يحتفظوا بأي سجل بواردهم .. وقد ساروا على ذلك طيلة العهد البويهي ٣٣٤ هـ ــ ٤٤٧ هـ (٩٤٥ م ــ ١٠٥٥ م) .

وعندما جاء السلاجقة الى السلطة ٤٤٧ م ــ ٥٧٥ هـ / ١٠٥٥ ــ ١١٧٩ م ، لم يكن حظ العراق بأحسن حال من اسلافهم البويهيين ، وبلغ الاقطاع العسكري في زمانهم شكله المتكامل ، واصبح الاقطاع العسكري السياسية الرسمية للدولة ، كما انهم اتخذوا لانفسهم حقوق السيادة على الفلاحين والزراع ، وفرضوا السخرة عليهم ، وبلغ اقطاع السلطان السلجوقي ملك شاه الى جنوده ٤٦ الف اقطاع .

وفي خلافة الناصر لدين الله ٥٧٥ هـ ــ ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ م ــ ١٢٢٥ م تحرر العراق من الاقطاع العسكري السلجوقي ، واخذ هذا الخليفة والخلفاء

الذين جاءوا من بعده يطبقون الاسس والقواعد التي كانت سائدة في العهود العباسية الاولى في ملكية الارض ، وعملية منح القطائع الارضية ، وخاصة لهؤلاء الذين يقدمون خدمات جليلة للدولة من الوزراء ، وكبار موظفي الدولة ، وكذلك للخاصة والعامة من الناس •

كما ان ضياع الخلافة نفسها اخذت تدار من قبل ديوان خاص يدعى « بديوان المقاطعات » ، وكان يسمى ايضا « بديوان الضياع والنفقات » •

وان اقطاع الضمان قد اتخذ شكلا أخر ، تم بموجبه تحديد المنطقة المراد ضمانها للشخص الذي يتحلى بالنزاهة ويتصف بالولاء والاخلاص للدولة كما حصل ذلك سنة ٥٩٧ هـ ــ ١١٩١ م حينما عقد ضمان البصرة على الامير عماد الدين طغرل ، وحدد مقدار الضمان بما قيمته ١١٥ ألف دينار ، وكان هذا النوع من الضمان يخلو من اسلوب الظلم والحيف في جباية الامـــوال •

وان كان يحدث منح بعض الرجال العسكريين قطائع ارضية خلال هذه الفترة ، ولكنه كان يعطى لمن يقدم خدمات عسكرية جليلة للدولة من الوفاء والاخلاص على غرار ما كان يمنحه ابو جعفر المنصور للقائد وائل بن الشحاج الازدى • فقد اقطع الناصر لدين الله سنة ٥٩٦ هـ ــ ١١٩٠ م م الامير فلك الدين المعروف بالطويل قطائع في دقوقا وتكريت ، وذلك تقديرا لفروسيته وشجاعته خاصة في استعادته لبعض المناطــق التي سلخت من العــراق في بلاد فارس •

ومن انواع الملكية التي وجدت خلال العهد العباسي وفي هذه الفترة « املاك التناء » • ويراد بالتنــاء ملاكــون صغـــار يــزرعون اراضيهــم ، ويقيمون في القرى والمزارع ، وهم بذلك يختلفون عن ارباب الاملاك الذين غالبا ما يقيمون في المدن ، ويعمل الوكلاء نيابة عنهم • وقد ورد ذكر املاك

التناء في هذه الفترة في عدد من مناطق نهر عيسى ، ونهر الملك ، وفي الانبار وهيت •

والواقع أننا لو استثنينا فترة التسلطين البويهي والسلجوقي على العراق ، والذي ساد خلال حكمهما الاقطاع العسكري البغيض ، فأن سياسة الخلفاء العباسيين تجاه ملكية الارض ومنح القطائع ، كانت امتدادا طبيعيا لسياسة اسلافهم الخلفاء الامويين والراشدين والتي تجلت في منح هذه القطائع من أرض الصوافي ومن أرض الموات أو البطائح ، والتي تمنح للخاصة والعامة من الناس ، وان الهدف الاساس من منح كل هذه الانواع من الملكيات هو احياء الارض وزرعها واقامة مختلف مشاريع الري عليها •

احياء الارض : اقامة مشاريع الري

أبدى العرب المسلمون اهتماما كبيرا بأحياء ارض العراق ، ولقوا كل رعاية وتشجيع من قبل الخلفاء الراشدين وولاتهم •

يروى عن الخليفة عمر بن الخطاب قوله : « من احيا ارضا مواتا فهو أحق بها » •• وكان الخليفة عمر يكتب الى أمراء العراق والشام أن يشجعوا الناس على احياء الارض وحرثها وزرعها ، واعتبارها صدقة لهم لوجه الله وانه كتب الى المغيرة بن شعبة (والي البصرة) ان يساعد أبا عبدالله على الزرع ، ولا يعرض له الا بخير •

وأخذ العرب المسلمون يتدفقون الى ارض العراق ، وقد سألوا عتبة بن غزوان (والي البصرة ومؤسسها) عن هذه المدينة واحوالها ، فاخبرهم بخصوبة ارضها ، فسار اليها خلق كثير •

وقد سار الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان على خطة الخليفة عمر في احياء ارض العراق وزرعها ، فقد اعطى عثمان بن ابي العاص الثقفي ارضا سبخة في البصرة ، فقام بأحيائها وزرعها ، وكتب الخليفة عثمان الى

معاوية بن ابي سفيان ــ والي الشام ــ بان ينزل العرب في الجزيرة الفراتية في مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لاحق فيها لاحد ففعل معاوية ذلك في ديار ربيعة ، ومضر ، وقيس وأسد ..

كما شجع الخليفة الراشدي الرابع على بن ابي طالب على احياء الارض وزرعها ، فمن ذلك أن رجلا جاء اليه وقال له : أحييت أرضا قد خربت ، وعجز عنها اهلها فكريت انهارا وزرعتها . فقال له الخليفة على « كُل هنيئا ، فأنت مصلح غير مفسد ، ومعمر غير مخرب » ..

وقد كان لمشاريع الري المتعددة أثرها الكبير في احياء أرض العراق واستصلاحها . وقد أولى الخلفاء الراشــدون وولاتهم عنايتهم الفائقة في اقامتها على كل ربع من ربوع وادي الرافدين .

وقد اتجهت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب صوب العناية الفائقة بالنهرين العظيمين دجلة والفرات ، حيث أبدى توجيهاته القيمة في تنظيم مياه هذين النهرين التوأمين .. فقد روى عنه قوله « المسلمون جميعا شركاء في دجلــة والفرات ، وكل نهر عظيم .. يسقون منه الشفة والحافر والخف وليس لاحد ان يمنع ، ولكل قوم شرب ارضهم ، ونخلهم وشعيرهم ، ولا يحبس المــاء عن أحد دون أحد ، وان أراد رجل أن يكرى نهرا في ارضه من هذا النهر الاعظم ، فان كان في ذلك ضرر في النهر الاعظم لم يكــن له ذلك ، ولــم يترك بكريه وان لم يكن فيه ضرر ترك بكريه » ..

ومن هذا النص نستطيع أن ندرك مدى الاهتمام البالغ الذي أبداه الخليفة عمر في الاستفادة من مياه هذين النهرين العظيمين دجلة والفرات في السقي والارواء الحيواني والزراعي ، ولمختلف أنواع المحاصيل الزراعية من نخل وشعير ، كما أكد على ضرورة كرى أي نهر فرعي يخرج منهما اذا استوجب ذلك ضرورة الكرى ، ودون أن يحدث ذلك أي ضرر بالنهريــن العظيمــين ..

مسح سواد العراق

ان اهتمام الخليفة عمر بنهري دجلة والفرات والاراضي السهلية المحيطة بهما دفعه الى القيام بتطبيقات عملية تجلت بالقيام بأعظم عملية مسح لاراضي هذين النهرين ، وخاصة السهول الجنوبية المعروفة بسواد العراق .

ومن الواضح ان عملية مسح أراضي سواد العراق تحتاج الى درايه وخبرة في معرفة طبيعة سطح الارض . وعلى حد قول الخليفة عمر : « فقد بان لي الامر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الارض مواضعها ، ويضع على العلوج مايحتملون .. » .. واجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا له : « ان له بصرا وعقلا » فاسرع اليه عمر فولاه مسح ارض السواد ، كما بعث معه حذيفة بن اليمان ..

وامر الخليفة عمر ايضا بمسح آخر لمنطقة دجلة فعين لهذا الغرض ابا موسى الاشعري على ولاية البصرة وحذيفة بن اليمان على ما سقت دجلة سنة ستة عشر ويقال سنة سبعة عشر للهجرة ، فاستقرى مناطق دجلة ، فأمر بمساحتها ، ووضع الخراج على قدرا حتمالها وقد بلغت مساحة السواد ستة وثلاثين مليون جريب . (والجريب على وجه الدقة يساوي ١٥٩٢ مترا مربعا) .

وقد ترتبت على عمليتى المسح هذه نتائج مهمة تجلت آثارها في انشاء العديد من مشاريع الري في السهل الجنوبي من سواد العراق ، نذكر من ذلك أن الخليفة عمر عندما بعث حذيفة بن اليمان لمسح السواد ، فان حذيفة قام بمسح سقي دجلة ، وان قناطر حذيفة نسبت اليه ، وذلك أنه نزل عندها ويقال حددها .

وكان على أثر عملية المسح التي قام بها أبو موسى الاشعري ان تقدم اليه بعض زعماء البصرة بحفر انهار فيها ، من ذلك ان الاحنف بن قيس شكى

ملوحة مياهها ، فقام ابو موسى الاشعري بحفر نهر الأبلة ، وجعل منبعه من نهر دجلة ، فأحيا أراضي كانت سبخة لا عمارة فيها .. كما امر الخليفة عمــر ابا موسى الاشعري بحفر نهر في البصرة ، وان يجريه على يد معقل بن يسار المزنى ـ احد اصحاب الرسول (ص) ـ فنسب اليه ، فقال الناس « نهــر معقــل » ..

وفي الانبار ، كتب سعد بن ابي وقاص الى سعد بن عمرو بن حرام ، يأمره بحفر نهر فيها يأخذ ماءه من نهر الفرات .

وفي خلافة عثمان بن عفان تم حفر انهار عديدة في البصرة ، فقد أشار الخليفة عثمان على عبد الله بن عامر ان يتم حفر نهر الابلة من حيث انظم حتى يبلغ به البصرة . كما حفر عبدالله بن عامر نهره الذي عند دار فيل ، وهو الذي عرف بنهر الاساورة .

وفي الجزيرة الفراتية حيث تم اقامة جسر في مدينة « منبج » ، ولــم يكن الجسر يومئذ وانما اتخذ في خلافة عثمان بن عفان .

وقد أبدى الخليفة على بن ابي طالب أهمية كبيرة في احياء الارض ، وتشجيع الزراعة ، واقامة مشاريع الري في سواد ارض العراق . فقد أمر واليه قرضة بن كعب الانصاري بحفر نهر لاهل الذمة ، كما كتب الى كعب بن مالك عامله على سواد العراق : اما بعد ، فاستخلف على عملك ، واخرج في طائفة من اصحابك حتى تمر بأرض السواد منطقة منطقة ، فتسألهم عن عمالهم ، وتنظر في سيرتهم ، حتى تمر بمن كان معهم فيما بين دجلة والفرات ، فتولى معونتها واعمل بطاقة الله فيما ولاك منها » .

وبهذه الروح الوثابة والعقلية النيرة ، أنقذ الانسان العراقي ارضــه المعطاء ، مما قد أصابها من خراب ودمار أثناء السيطرة الساسانية الفارسية حيث تؤكد لنا المصادر التاريخية ان تكوين البطائح من المستنقعات والمياه

الراكدة يعود تكوينها الى عهد السيطرة الساسانية الفارسية منذ عهد قباذ بن فيروز الواهن الضعيف ، ومن جاء بعده ، وانه بين عامي ست أو سبع للهجرة حدثت زيادة عظيمة في نهر دجلة والفرات انكسرت من جراء ذلك السدود والمسنيات، ولم يستطع ملوك فارس سدها ، فكانت البثوق تنفجر ، ولا يلتفت اليها ، ويعجز الدهاقين الفرس عن سدها .. حتى يسر الله تحرير هذه الارض الطيبة على ايدي ابنائها ، فأعادوا اليها روحها ، وبعثوا فيها الحياة من جديد ..

وقد اخذ الخلفاء الامويون وولاتهم على عاتقهم ان يكملوا ويطوروا مابدأ به أسلافهم من الخلفاء الراشدين وولاتهم في احياء أرض العراق ، واقامة العديد من مشاريع الري فيها ..

فأرض الصوافي التي استصفاها الخليفة عمر بن الخطاب من أراضي كسرى وآل كسرى وغيرها كانت كبيرة ، وارض البطائح التي تركها الفرس وراءهم بعد هزيمتهم كانت واسعة . لذا رأى معاوية بن ابي سفيان ـ الخليفة الاموي الاول ـ ان لابد لارض الصوافي من أن تستخرج وتستثمر ، وأن لابد لارض البطائح من ان تستصلح،وان فيهما من الموارد الطائلة ما تعود بالنفع والفائدة له وللدولة والمجتمع .. وبذلك وجه معاوية عنايته القصوى نحو استصفاء الصوافي واستصلاح البطائح ، فعين عبدالله بن دراج عامله على خراج العراق ، بان يقوم بأحصاء تلك الصوافي واحيائها ، فأقام المسنيات عليها (وهي السدود تقام في وجه المــاء)، فبلغت وارداتها خمسين مليون درهم من ارض الكوفة وسوادها ، كما كتب معاوية الى عبد الرحمن بن ابي بكرة بمثل ذلك في صوافي البصرة .

وبخصوص البطائح ، ولى معاوية عبدالله بن دراج أيضا ، فاستخرج له من الارضين بها مابلغت غلته خمسة ملايين درهم ، وذلك أنه قطع القصب فغلب على الماء بالمسنيات ..

وبذلك ادرك خلفاء بني امية وولاتهم ما للبطائح من اهميـــة كبرى في الحقل الزراعي ، وماتدره من فوائد ومبالغ طائلة ، لذا اســتمروا باحيائها واستصلاحها ، كما تجلى ذلك في خلافتي الوليد بن عبدالملك واخيه هشام . فقد انبثقت بعض البثوق الجديدة في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي نتيجة الحرب بينه وبين عبدالرحمن بن الاشعث الكندي ، فكتب الحجاج الــى الخليفة الوليد يعلمه انه قدر لسدها ثلاثة ملايين درهم فأستكثرها الوليد ، غير ان مسلمة بن عبدالملك تعهد بالانفاق عليها واستصلاحها على ان تقطع له بعض الاراضي المنخفضة التي يبقي فيها الماء ، وان يقوم الحجاج الثقفي بالاشراف على ذلك فأجابه الوليد على طلبه ، فقام مسلمة بأصلاحها بعــد ان تألف الاكرة والمزارعين ، وحفر السيبين ، وعمر تلك الارضين ، وألجأ الناس اليه ضياعا كثيرة للتعزز به .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك ، لعب حســان النبطي دورا كبيرا في تجفيف المستنقعات وعمل المسنيات على نهر دجلة ، فاستصلح لهشام مساحات واسعة من البطائح وبهذا ربط الخلفاء الامويون بين عملية احيــاء الارض واستصلاحها وبين اقامة مشاريع الري عليها .

وقام الولاة الامويون بمسح ارض سواد العراق ، وابتكروا وحدات قياسية جديدة كان لها أثرها الكبير في تحديد المساحات الارضية ، وقد تجلى ذلك بما قام به كل من زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي من عمليه مسح منطقة السواد ، وقد ابتكر زياد وحدة قياسية جديدة دعيت « بالذراع الزيادي » وهي تساوي وفق الحسابــات الحديثــة ٦٦ر٥ سم ، ويعلــق لوككارد احد المؤرخين المحدثين على ذلك بقولــه : « ان هذين العاملــين زياد والحجاج يستحقان كل تقدير واعجاب في استعمالهما لهذه الوحــدة المساحية في تنظيم أراضي هذا الاقليم » .

وقام الوالي عمر بن هبيرة بمسح آخر لمنطقة السواد بأمر من الخليفــة

يزيد بن عبد الملك عام ١٠٥ هـ ــ ٧٢٤ م ، وصارت مساحة ابن هبيرة هي المساحة التي يؤخذ بها .

وان كانت هذه المسوحات تهدف الى تنظيم موارد الخراج ، غير ان العناية بالخراج يعني الاهتمام بالارض واحيائها ، لذا كانت هذه المسوحات ــ في الوقت نفسه ــ متابعة لاحوال شؤون الري ، خشية انكسار سد ، او وجود بثق ، أو تصدع قنطرة ، أو كرى نهر ، وبذلك أولى الخلفاء الامويون وولاتهم رعاية كبيرة في تحسين مشاريع الري السابقة وتطويرها ، واقامة مشاريع ري جديدة شملت مختلف ربوع وادي الرافدين من شماله الى جنوبه ، وسنعرضها هنا بشيء من الدقة والتركيز وذلك وفقا للتسلسل الزمني للخلافة الاموية ..

ففي خلافة معاوية بن ابي سفيان وولاية زياد بن ابيه على مدينة البصرة، تم حفر العديد من الانهار فيها ، نذكر اسماء بعض هذه الانهار : نهر ثار ،ونهر معقل ، ونهر دبيس ، ونهر ام حبيب ، ونهر حرب ، ونهر مسلم ، ونهر مرة ، ونهر البنات . وبهذا اصبحت منطقة البصرة عبارة عن شبكة من الانهر والقنوات والجداول ، فلا غرو والحالة هذه ان تنتعش الحياة الزراعية فيها وتصل وارداتها في ولاية زياد بن ابيه الى ستين مليون درهم .

وفي الكوفة قام زياد بن ابيه بانشاء قنطرة فيها . وفي خلافتي عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك تم اقامة العديد من مشاريع الري في العراق .

وقد بذل الحجاج بن يوسف جهودا كبيرة في هذا المضمار ، فقد اتم حفر نهر الانبار والذي بدأ بحفره في ولاية سعد بن ابي وقاص كما قام بحفر انهار عديدة شملت المنطقة الواقعة بين الكوفة وواسط والبصرة ، فحفر نهر الصين ــ سمي بهذا الاسم نسبة الى موضعين في كسكر (بين واسط والبصرة) يسميان بالصين ، او نسبة الى بليدة تقع جنوب واسط يقال لها

الصينية ـ وحفر نهر النيل ، وكان يأخذ ماءه من الفرات ويصب في دجلة في منطقة تقع شمال بابل ، وقد سماه الحجاج بالنيل تيمنا بنهر النيل في مصر ، وكان يمر بقرى عامرة كثيرة ، وتتفرع منه انهار صغيرة متعددة ، واحدث الحجاج المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها . كما حفر نهر الزابي ، وسمي بهذا الاسم لأخذه الماء من الزابي القديم .

أما في القسم الشمالي من العراق ، فقد تم حفر أنهار عديدة هناك ، فعندما ولى عبد الملك بن مروان ابنه سعيد على الموصل ، قام بحفر نهر فيها عرف بنهر سعيد .

وفي الجزيرة الفراتية قام سعيد ايضا في خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك بحفر نهر فيها ، وعمر ما هناك من الاراضي ، وكان يقال له سعيد الخير .

وفي بالس والحد الاعلى من الجزيرة ، قام مسلمة بن عبد الملك بحفر نهر من الفرات ، يسقى قرى هذه المنطقة فنسب اليه النهر المعروف بنهر مسلمة .

ويبدو أن أعظم انجاز قام به مسلمة بن عبد الملك في مجال الري في الجزيرة الفراتية ، قد تمثل في بنائه لاكبر مشروع اروائي على نهر البليخ ، والذي عرف بسد حصن مسلمة ، وقد وصفه ياقوت الحموي في معجم البلدان بقوله : «وحصن مسلمة بالجزيرة بين رأس العين والرقة ، بينه وبين البليخ ميل ونصف وشرب اهله من مصنع فيه طوله مايتا ذراع في عرض مثله ، وعمقه عشرون ذراع معقودة بالحجارة والماء يجري فيه من البليخ في نهر مفرد في كل سنة مرة حتى يملأه ، فيكفي اهله بقية عامهم ، ويسقى هذا النهر بساتين هذه المنطقة » .

وللخليفة عمر بن عبد العزيز مواقف مشهودة تجاه الارض والفلاح والماء فيروى عنه قوله : « من غلب الماء على شيء فهو له .. » .. وكتب الى وال

له : « ان أجر لهم (اي الفلاحون) ما أحيوا ببنيان او حرث » . وكان يفضل اعطاء أرض الصافية بالمزارعة ، فأن لم تزرع فينفق عليها من بيت مال المسلمين . وفي خلافته حفر واليه عدى بن أرطاة نهرا في البصرة ، عرف بنهر عدى . كما حفر يزيد بن المهلب في البصرة ايضا نهره المعروف بنهر يزيد .

وفي خلافة هشام بن عبدالملك ، نشطت حركة مشاريع الري نشاطا كبيرا شملت سهول وادي الرافدين الشمالية والجنوبية .

ففي الجزيرة الفراتية ، استحدث الخليفة هشام مدينة الرصافة ، والتي كانت تدعى « رصافة هشام » ، ر . . فيها نهري الهني والمري ، واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري .

وفي الموصل ، قام الحر بن يوسف ـ بعد اذن الخليفة هشام ـ بحفر نهر المكشوف فيها ، يأخذ ماءه من دجلة . وبدأ العمل به عام ١٠٧ هـ/٧٢٦ م وقد آتمه الوليد بن تليد العبسي عام ١٢١هـ/٧٣٩م ، وقد بلغ مقدار ماصرف على حفر هذا النهر ثمانية ملايين درهم مع اقامة الارحاء (الطواحين) عليه .

وفي خلافة هشام بن عبدالملك وولاية خالد بن عبدالله القسري ، أصبح العراق بمدنه الثلاث ـ الكوفة وواسط والبصرة ـ المحور التي تركزت فيها حركة انشاء مشاريع الري المتعددة : من حفر الانهار ، وشق القنوات والجداول واقامة السدود والقناطر .

ففي الكوفة ، قام خالد القسري بحفر نهر الجامع فيها كما اصلح قنطرتها واستوثق منها ، وهي القنطرة التي احدثها عمر بن هبيرة الفزاري أيام ولايته على العراق في خلافة يزيد بن عبدالملك .

وفي البصرة ، اخذ بعض الافراد يستثمر رؤوس امواله فيحفر الانهار واقامة السدود والقناطر على غرار ماسبق ان اشرنا اليه من قيام مسلمة بن

عبدالملك باحياء اراضي البطيحة ، وهو ما ندعوه في الوقت الحاضر « بالقطاع الخاص » . فمن ذلك ما قام به بشير بن عبيدالله بن ابي بكرة في البصـرة وفي ولاية خالد القسري من حفـر المرغاب ، واقامة السواقي والمعترضات بالتغلب على الماء ، وفي البصـرة ايضا ، احتفـر كثير بن عبدالله السلمي ـ وهو ابو العاج وعامل يوسف بن عمر الثقفي ـ نهرا من نهر ابن عنبسـة الى الخستل (موضع في البصرة) فنسب اليه .

واشتهر خالد القسري بحفر اعظم نهر في العراق عرف بنهر المبارك ، وقد بلغت نفقات حفره اثني عشر مليون درهـم ، وكان هـذا النهـر يسقى مساحات واسعة من اراضي السواد وهي المناطـق المحصـورة بين واسط والبصرة .

وكان لحفر هذا النهر وقعه الحسن ، واثره الطيب في نفوس الناس ، حتى جاء فيه قول الفرزدق الشاعر المعروف :

اعطى خليفته بقـوة خالـد ... نهرا يفيض له على الانهـار
ان المبارك كأسمـه يسقى به ... حـرث السواد وناعم الجبار

ولم تتوقف عمليات انشاء مشاريع الري في العراق حتى اواخر العهد الاموي ، ففي خلافة الوليد بن عبدالملك ١٢٦ هـ/٧٤٤ م ، قام عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ـ والي البصرة ـ بحفر نهر فيها عرف بنهر عمر ، ويروى عن الخليفة الوليد انه كتب الى عبدالله : « ان بلغت نفقة هذا النهـر خراج العراق وماكان في ايدينا فأنفقه عليه .. » .. وقال رجل ذات يـوم في مجلس ابن عمر : والله اني أحسب نفقة هذا النهر ثلثمائة الف او أكثر . فقال ابن عمر : « لو بلغت خراج العراق لانفقته عليه » .

أن أهم مايمكن أن نستخلصه من هذا العرض الدقيق الشامل مـن اقامة العديد من شبكات الري في سهول وادي الرافدين يتجلى في أن العراق

ـ منذ تحريره من السيطرة الساسانية الفارسية وحتى نهاية العهد الاموي ـ لم يشهد وقوع حادثة فيضان واحدة ، وان مصادرنا التاريخية تخلو من الاشارة الى ذلك ، وان دل على شيء فأنما يدل على مدى ما قد تحلى به الانسان العراقي من طاقات وقدرات هائلة ـ جسمانية وعقلية ـ فد وظفها في خدمة ارضه ومياهه في الميدان الزراعي .

وبهذه الصورة ورث العباسيون هذا الزخم الحافل من مشاريع الري في العراق ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل عملوا على تطويرها وتوسيعها ؛ وتجديدها .

وكان بناء ابي جعفر المنصور مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ ـ ٧٦٢ م ولاختيار موقعها على نهر دجلة ، اهمية كبيرة في احياء الاراضي واستصلاحها واقامة مشاريع الري واستحداثها . قال ابن جبير في رحلته عندما زار بغداد عام ٥٨٠ هـ ـ ١١٨٥ م : « وحسبك من شرف موضع بغداد ان دجلة تسقي شرقيها والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما » .

ولم تقتصر جهود الخلفاء العباسيين في مجال احياء الارض واستصلاحها او اقامة العديد من مشاريع الري على مدينة بغداد وحسب ، وانما امتدت لتشمل مساحات واسعة من الاراضي التي عرفت « بسواد بغداد » أو ما أطلق عليها ايضا « بريف بغداد » ، والتي يمكن حصرها ضمن الحدود الجغرافية الممتدة من الخط الوهمي الواصل من تكريت على دجلة الى هيت على الفرات شمالا وحتى الخط الوهمي الواصل من مدينة الكوت على دجلة والى الكوفة على الفرات جنوبا ، وبذلك وجه الخلفاء العباسيون عنايتهم صوب الانهار والقنوات المتفرعة من نهري دجلة والفرات ، والتي كانت تسقي العديد من القرى والبساتين الواقعة ضمن هذا الريف البغدادي الواسع .

ويمكن تقسيم الانهار المتفرعة من نهري دجلة والفرات الى قسمين مهمين هما :

١ – انهار ريف بغداد الغربية (الكرخ)

أما الانهار المتفرعة من الضفة اليمنى لنهر دجلة فاهمها نهر الدجيل بينما الانهار المتفرعة من الضفة اليسرى لنهر الفرات هي : نهر عيسى ، ونهر صرصر ونهر الملك وجميع هذه الانهار تسقى الاراضي المحصورة بين دجلة والفرات •

أما نهر الدجيل ، فيأخذ ماءه من الضفة اليمنى لنهر دجلة في منطقة تقع أعلى بغداد قرب تكريت في نقطة تقع على مسافة قليلة من شمال موضع سد نمرود جنوب سامراء ، وقد تشعبت من نهر الدجيل فروع عديدة تنحدر بأتجاه الجنوب والجنوب الغربي ، وبعضها باتجاه الجنوب الشرقي حتى تصل مياهها الى بغداد ، والدجيل تصغير دجلة ، ويرجح انه سمي بذلك نسبة الى دجلة الكبير باعتباره فرعا منه • وقد روي أن أبا جعفر المنصور حين بنى بغداد اخرج من دجلة دجيلا يسقى القرى التي يمر بها غرب دجلة سماه دجيلا •

اما نهر عيسى ، فيأخذ مياهه من الفرات عند « قنطرة دمما » ، ويصب في دجلة في الجانب الغربي منه جنوب بغداد ، والنهر الكبير منه يدعى بنهر عيسى الاعظم تمييزا له عن نهر عيسى الفرع ، وقد سمي بهذا الاسم لان الامير عيسى بن علي شيد قصره عليه حيث المكان الذي يصب فيه في نهر دجلة ، وقد اقيمت على ضفافه قرى ومزارع كثيرة ذكر ان عددها كان في اوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) سبعين قرية ومزرعة ، كما شيدت على نهر عيسى قناطر عديدة قبل ان يدخل مدينة بغداد ، وقد ذكر ان أبا جعفر المنصور بنى قنطرة جديدة عليه •

اما نهر صرصر ، فهر ثاني الانهار الكبيرة الذي يأخذ مياهه من الفرات أسفل قرية ار قنطرة (دمما) ، ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن وكان يسقى قرى وضياع كثيرة فيهذه المنطقة •

أما نهر الملك فيأخذ مياهه من الفرات ايضا ، وهو نهر كبير ، ويصب في نهر دجلة تحت المدائن ، وفرع منه يسير نحو الجنوب الى الكوفة ، وكان يسقي قرى كثيرة في سواد العراق تصل الى حوالي (٣٦٠ قرية) •

٢ ـ انهار ريف بغداد الشرقية (الرصافة)

وكانت هذه المنطقة تسقى بنهرين كبيرين هما : نهر تامرا ، والنهروان • فأما نهر تامرا : فهو نهر كبير ، وكان على نهر ديالى الحالي ، وهو رافد من روافد دجلة وليس فرعا منه ، ومنبعه من جبال شهرزور (في السليمانية) ومصبه في دجلة تحت بغداد ، ويسقي قرى وبساتين كثيرة بين بعقوبة وبغداد •

أما النهروان : فهو نهر قديم ، يتفرع من الجانب الايسر لنهر دجلة في جوار سامراء (عند الدور) ، ويستمر في جريانه بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق فيلتقي به بعد مائة كيلومتر جنوب بغداد عند الكوت •

ومن الانهار الاخرى التي تسقي الجانب الشرقي لريف بغداد (نهر الخالص) ويسير بين النهروان ودجلة ويلتقي بدجلة شمال مدينة بغداد عند الشماسية •

وقد أولى الخلفاء العباسيون الاوائل وولاتهم عناية فائقة بأحياء الارض واقامة العديد من مشاريع الري من السهل الجنوبي من العراق بين واسط والبصرة •

ففي مدينة واسط تم حفر نهر الميمون ، حفره وكيل لام جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور يقال له سعيد بن زيد ، وكذلك تم حفر نهر الامير نسب الى الامير عيسى بن علي ، وكان في قطيعته ، كما أمر الخليفة المهدي بحفر نهر الصلة فيها ،وأجبي ماعليه من الارضين ، وجعلت غلته لصلات أهل الحرمين والنفقة هناك ، وطبق عليها نظام المقاسمة على النصف •

اما البصرة فقد حظيت ايضا بنصيب وافر من اهتمام الخلفاء العباسيين وولاتهم بأحياء ارضها ، واقامة العديد من مشاريع الري فيها ، فقد استخرج لابي جعفر المنصور ارضا من اراضي البطيحة فيها تدعى السبيطية وتم حفر نهر الامير للنمصور ، وفد وهبه لابنه جعفر ، كما تم حفر نهر أبي الاسد فيها ، حفره قائد من قواد المنصور • وقام سليمان بن علي بنشاطات زراعية واسعة في البصرة ، تمثلت في حفر الانهار ، واقامة السدود وأحواض المياه ، كما آنشاء المغيثة بهدف زيادة المياه في نهر الدير ، وأنفق عليها مليون درهم •

وأحيا عيسى بن علي اراضي واسعة في منطقة السواد تمتد بين العذيب (القادسية) وهيت ، وعمر ما عليها من الارضين ، وغرس النخيل ، وحفر فيها العيون وكانت تدعى « العرق » •

واولى الخليفة المعتضد عناية فائقة في تحسين مشاريع الري ، فأمر سنة ٢٨٣ هـ ـ ٨٩٦ م بكرى نهر الدجيل ، وقلع صخر في فوهته كان يمنع الماء فيه •

وكان الخليفة المعتضد يشرف على توزيع المياه ، ويستمع الى شكاوى الزراع ، فكان من ذلك أن أتفق اصحاب الضياع على تضييق أبواب قنطرة (دمما) الواقعة على صدر نهر عيسى لغرض استئثارهم بالماء ، فأمر المعتضد بتكوين لجنة للتحقيق التي قررت توسيع الباب الاوسط للقنطرة وجعل سعته اثنين وعشرين ذراعا •

وكان على بن عيسى أكثر وزراء المقتدر في عمارة الاراضي ، وكان يعتقد أن حفظ نظام الري هو العامل الرئيسي في رفاه البلاد •

وفي فترة امرة الامراء ٣٢٤ هـ ـ ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ م ـ ٩٤٥ م ، أهملت وخربت البلاد نتيجة المنازعات والحروب بين الامراء الطامحين ونتيجة

فوضى الجند ، فقد خرب ابن رائق نهر ديالى ، وكان سببا في بثق النهروان الذي ادى الى تدمير المزروعات • كما انبثقت أنهر أخرى مثل نهر بوق ، ونهر الرفيل ، ولم تقع أية عناية بكل هذه الكسور •

وفي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) جرت محاولات لاصلاح بعض نظم الري ، فقد حاول معز الدولة البويهي ٣٣٤ هـ ـ ٣٥٦ هـ / ٩٤٥ م ـ ٩٦١ م سد بثق نهر الرفيل ، ونهر الروبانية ، ولكن محاولاته تلاشت أمام سياسته الهدامة تجاه الاراضي بسبب اقطاعه الاراضي لقواده وخواصه • وحاول عضد الدولة البويهي ٣٦٩ هـ ـ ٩٧٩ م القيام بأصلاح نظام الري ، فقد حاول كرى نهر عيسى ، ولكن فترة المحاولات هذه كانت قصيرة فسرعان ماساد الخراب والدمار ، وقد شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فيضانين جارفين •

وفي عهد السيطرة السلجوقية ٤٤٧ هـ ـ ٥٧٥ هـ / ١٠٥٥ م ـ ١١٧٩ م • زادت أحوال نظم الري سوءا وخرابا ، ويكفي أن نشير هنا الى ان جيش السلاجقة اثناء اعتدائه على مدينة بغداد سنة ٥٥٢ هـ ـ ١١٥٧ م خرب (٧٧٠) دولابا وكانت هذه الدواليب قائمة على شاطىء الجانب الغربي لنهر دجلة ، وبشكل خاص على نهر عيسى ، لان المياه كانت تنقطع عنه في فصل الصيف بسبب نقص مياه الفرات ، فتقوم الدواليب بسقي المزارع والبساتين •

ان تغلغل النفوذ الاجنبي ، وسيطرته على مقدرات العراق والاستحواذ على ثرواته الطبيعية ، ابتداء منفترة امرة الامراء وامتداداً الىالعهدين البويهي والسلجوقي ، قد أدى الى الاهمال الشامل ، وعدم العناية بمختلف شؤون الري ، مما سبب وقوع العديد من حوادث الفيضانات في بغداد أشار اليها الدكتور أحمد سوسه في كتابه (فيضانات بغداد) حيث سجل حدوث سبع عشرة حالة فيضان في بغداد خلال هذه الفترة •

وعندما جاء الناصر لدين الله الى الخلافة ٥٧٥ هـ ـ ٦٢٢ هـ / ١١٧٩ ـ ١٢٢٥ م ، عمل على انقاذ الخلافة العباسية من الهيمنة السلجوقية ، وتخليص البلاد من سيطرتهم السياسية ، والمالية والاقتصادية ، وبذل جهودا كبيرة في ابعاد خطر الفيضانات عن بغداد وذلك بالعمل على تحسين نظم الري •

فامر بكرى نهر دجلة وتطهيره من الرواسب ، وحشد لها عددا كبيرا من الناس ، وفي خلافته تم ايضا كرى نهر الدجيل وحفره ، كما تم اصلاح السدود والقناطر ، وعند وقوع فيضان سنة ٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م خرج الناصر لدين الله بنفسه متألما ، مشجعا الناس على دزئه مخاطبا اياهم بقوله « لو كان هذا الماء يرد بمال أو حرب لدفعته عنكم •• » •

وابدى الخلفاء الذين جاءوا بعد الناصر لدين الله اهتماما بتحسين شؤون الري وتطويرها ، فقد قام المستنصربالله سنة ٦٢٩ هـ ـ ١٢٣١ م بحفر نهر جديد يأخذ مياهه من نهر الدجيل سمي « بدجيل المستنصري » وشيد عليه القنطرة المعروفة « بجسر حربى » •

كذلك اهتم الخليفة المستعصم بأصلاح السدود وبنائها ، ففي سنة ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٥ م ، أمر ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة ليزداد ماء النهر •

وفي الجزيرة الفراتية حافظ الخلفاء العباسيون وولاتهم على نظم الري المتعددة التي انشأها وأقامها الولاة الامويون في مختلف مناطقها ومدنها ، كما أولوا عناية واهتماما في حفر الابار ، والعناية بالعيون العديدة المنتشرة فيها خاصة وان نظام الري المتبع في مناطق الجزيرة قائم على مياه العيون ، فقد كان في مدينة رأس العين ثلثمائة وستون عينا للماء يستفاد منها في ري البساتين ، وكانت حقول وبساتين نصيبين تروى من عين ماء في التلال المجاورة ، كما كانت الامطار مهمة للزراعة في منطقة الجزيرة واكثر الغلات الزراعية تعتمد على ماء الامطار في اروائها وسقيها •

والخلاصة ـ فرغم الانتكاسات التي أصابت أرض العراق في مختلف مشاريع الري وعمليات أحياء الارض واستصلاحها خلال فترة امرة الامراء ، وفترة التسلطين البويهي والسلجوقي ، الا ان الخلفاء العباسيين ووزراءهم وولاتهم كانوا علىمستوى كبير من الشعور بالمسؤولية بالانتماء الى الارض ، ولم يتهاونوا عن القيام بجهود كبيرة ملموسـة في الانهار وكريها ، واقامة السدود والقناطر ومراقبة الزيادات في مياه نهر دجلة ، وذلك باستعمال آلات مقاييس الماء التي كانت تعطي الاشارة الى ارتفاع مناسيب المياه ، والعمل بكل جد واخلاص لدرء خطر الفيضانات ، ومساهمة الانسان العراقي وتعاونه مع خلفائه وولاته من اجل خير العراق واستمرار عطائه المثمر .

وسائل الري وطرق الزراعة

١ ـ وسائل الري

كانت هناك ثلاث محاولات لسقي المزارع وارواثها في العراق :

١ ـ السقي سيحا .
٢ ـ السقي بالمطر : وهي مانطلق عليه بالاراضي الديمية .
٣ ـ السقي بالواسـطة .

أما السقي بالواسـطة ، فكانت اكثر الآلات اسـتعمالا وشيوعا هي : الدالية ، والناعور ، والدولاب .

فالدالية : هي دولاب يديره ثور او بقرة ، والناعور دولاب يديره تيار الماء ، والدولاب كانّ يديره حصان أو ثور .

وكانت النواعير تستعمل في منطقة النهروان وفي غرب بغداد ، وأما الدواليب فكان أكثر انتشارها على نهر عيسى وذلك لنقصان مياه الفرات في فصل الصيف . كما استعملت آلات أخرى كالشواديف والغرافات وهى تعمل بقوة الانسـان .

وقد بنيت القناطر على كثير من أفواه القنوات لتنظيم توزيع الماء ، ولرفع مستواه في القنوات الفرعية ، لتسهيل السقي سيحا ، وكانت هـذه القناطر تبنى عادة بالجص ، والنورة والآجر .

استعمل العباسيون مقياسا لتسجيل مناسيب المياه لمعرفة خطر وقوع الفيضان ، وقد ذكر نصب هذا المقياس فيما كتبه ابن الجوزى في كتابه « المنتظم » في حوادث سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ ـ ٩٠٦ م . ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعا (ما يساوي نحو اثني عشر مترا ونصف المتر) ، وعلى كل ذراع علامة مدورة ، وكل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة علامة الاذرع تعرف بها مبالغ الزيادات .

٢ ـ طرق الزراعة

اتبع الفلاح العراقي طرقا عديدة في الزراعة وكان ذلك يتوقف على نوع الغلة المراد زراعتها : حبوبا كانت أم نخيلا أو فواكه .

فبالنسبة للحبوب ، كالحنطة والشعير فكان المتبع الحرث أولا ثم نشر البذور بعد الحرث وتغطيتها حسب الامكان ، وبالنسبة للنخيل والفواكه ، فقد اتبعت طريقة البذر احيانا او طريقة الغرس بواسطة الشتلات ، كما استعملت طريقة الترقيد ، وطريقة التطعيم في تكاثر الاشجار وزيادتها .

وبصورة عامة : كانت طريقة المناوبة في الزراعة هي السائدة ، فكان يزرع نصف الارض ويترك النصف الثاني دون زرع .

وكانت الارض تحرث بالمحراث الخشبي البسيط تجره الثيران أو البقر لذلك كان يمنع ذبح البقر بهدف زيادتها ، واستعمالها في الحرث كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق .

وكان الفلاح العراقي يستعمل بعض الوسائل لمكافحة الحشرات خاصة

الجراد ، كما حدث ذلك في سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م وسنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م عندما ظهر جراد كثير دفعه الفلاحون بواسطة الطبول والابواق .

أما ابعاد الطيور — وخاصة العصافير — فكان الفلاح يعلق بعض الطيور المخيفة كالغراب وغيرها ، كما كان الفلاحون يستخدمون الاطفال لافزاع الطيور وابعادها عن الزرع .

الخراج

يعود وجود هذا النوع من النظام المالي الى عهد الرسول (ص) بعد فتح خيبر عام ٧هـ / ٦٢٩م ، عندما دفع الرسول (ص) الارض الى يهود خيبر يعملونها على نصف ماخرج منها .

وصار الخراج يختص بالاراضي التي لايملكها المسلمون ، أما اذا كان مالك الارض مسلما فيدفع عنها العشر اذا سقيت سقيا طبيعيا ، ونصف العشر اذا سقيت بالالة .

واستمر مفهوم الخراج هذا مطبقا خلال العهد الراشدي ، واصبح المسلم يعفى من الجزية والخراج ، فاذا امتلك ارضا دفع عنها العشر ، وان القطائع التي كان يقطعها الخليفة كان صاحبها يدفع عنها العشر ، واذا اشترى العرب أرض الخراج من اهل الذمة ، كانت تؤدي العشر ايضا .

وعندما حرر العراق من السيطرة الساسانية الفارسية ، لم يقسم الخليفة عمر « ارض السواد » بين المقاتلة ، كما أشرنا الى ذلك ، بل أقرها بأيدي اصحابها يزرعونها مقابل دفع الخراج عنها ، فهي ارض خراجية .

وعندما بعث الخليفة عمر عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح سواد العراق ، ولاحصاء اهله وتقدير الخراج ، أمرهما ان لا يحملوا أحدا فوق طاقته ، وبذلك طبق الخليفة عمر نظام المساحة على اساس الجريب الواحد الذي يساوي ١٥٩٢ مترا مربعا .

وقد وصل الينا ماكان يؤخذ على بعض الغلات الزراعية مقدرة بالدرهم وعلى أساس الجريب الواحد في خلافة عمر بن الخطاب وكما يلي :

١ ــ جريب الحنطة : اربعة دراهم
٢ ــ جريب الشعير : درهمان
٣ ــ جريب النخيل : ثمانية دراهم
٤ ــ جريب الكروم : عشرة دراهم
٥ ــ جريب قصب السكر : ستة دراهم
٦ ــ جريب القطن والسمسم : خمسة دراهم
٧ ــ جريب الزيتون : اثنا عشر درهم
٨ ــ جريب الخضر (غلة الصيف) : ثلاثة دراهم

وقد بلغ خراج العراق في خلافة عمر بن الخطاب مائة مليون درهم سنويا ، أما خراج الصوافي في خلافته فقد بلغ سبعة ملايين درهم سنويا .

وقد ظل الخراج يؤخذ على المساحة حتى خلافة المهدي بن ابي جعفر المنصور العباسي ، بأستثناء بعض الحالات التي طبق فيها نظام المقاسمة خلال العهد الاموي ، كما سنشير الى ذلك . ونظام المقاسمة هو أخذ نسبة معينة من الغلات الزراعية على اساس المناصفة او المثالثة دون مراعاة الوحدة المساحية .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق ، أنخفضت واردات الخراج الى أربعة وعشرين مليون درهم في السنة عما كانت عليه في خلافة عمر بن الخطاب ، ويعود سبب ذلك الى عوامل اجتماعية واقتصادية .

فقد صار العرب يتنافسون في اقتناء الارض ، وشراء الارض الخراجية ويعني ذلك دفعهم العشر بدل الخراج ، كما أن انتشار الاسلام بين الزراع

من أهل الذمة ادى ايضا الى اعفائهم من الخراج ودفع العشر بدلا منه ، كل هذا ادى بطبيعة الحال الى تقلص في مساحة الارض الخراجية ، والى نقص في موارد بيت المال •

ان هذا الوضع الجديد دفع الحجاج بن يوسف الثقفي الى تطبيق سياسة توفيقية متوازنة تجاه العرب والمسلمين الجدد ، مراعيا بذلك بالدرجة الاساس مصلحة بيت مال الدولة ، وبذلك فرض الخراج على كل العرب الذين اقتنوا ارضا خراجية ، كما فرض الجزية على المسلمين الجدد •

وقد استمر هذا الوضع حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز حيث أبدى هذا الخليفة مرونة وبعد نظر ، وذلك بأن وضع حلا يحفظ حقوق بيت المال ، ويراعي المبادىء الاسلامية ، فقد ميز بين الجزية والخراج ، واعتبر الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم تسقط عنه باسلامه ، أما الخراج فعده ايجارا للارض • فأرض الخراج كانت اولا ملكا مشتركا بين المسلمين ، وان كل من يملكها سواء كان مسلما أو ذميا عليه ان يدفع خراجها كأيجار للارض •

استمر نظام المساحة في أخذالخراج مطبقا على الارض الخراجية خلال العهد الاموي ، غير ان الخليفة عمر بن عبد العزيز حاول تطبيق نظام المقاسمة على ارض الصوافي ، فمن ذلك جاء قوله : « انظروا ماقبلكم من أرض الصافية فاعطوها بالمزارعة بالنصف ، ولما لم تزرع فأعطوها بالثلث فأن لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر ، فأن لم يزرعها احد فأمنحها ، فان لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين » •• كما لدينا ما يشير الى ان مسلمة بن عبدالملك بن مروان طبق نظام المقاسمة في أخذ الخراج على بعض مدن الجزيرة الفراتية في بولس ، وعابدين ، وصفين ، بعد موافقة أهلها أنفسهم ، فقد سألوه جميعا أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقي اراضيهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ففعل •

كان نظام المساحة هو الغالب في التطبيق خلال العهد الاموى حتى استبدله الخليفة المهدي العباسي بنظام المقاسمة الذي يعني اخذ نسبة معينة من الحاصل : النصف على ماسقي سيحا ، والثلث على مايسقى بالدوالي والربع على ما يسقى بالدواليب (النواعير) ، مراعيا في ذلك تكاليف السقي والارواء ، ورغم ان المهدي رفع النسبة الى ستين بالمائة الا ان هذا قد حصل في اواخر خلافته ولكثرة نفقاته .

ولما جاء هارون الرشيد الى الخلافة ١٧٠ هـ ـ ١٩٣ هـ / ٧٨٦م ـ ٨٠٨ م اهتم بقضية الخراج ، وطلب من الفقيه ابي يوسف ان يضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات ، وانما اراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لهم ، فكتب ابو يوسف كتابه المعروف (الخراج) نذكر بعض ماجاء فيه بخصوص الخراج :

١ ـ ان يقاسم عمل الحنطة والشعير من اهل السواد جميعا على خُمُسَيْن للسيح منه وأما الدوالي فعلى خمس ونصف ، وأما غلال الصيف فعلى الربع ، مراعيا في ذلك مشكلات السقي وتكاليفه ، وطاقة أهل الخراج .

٢ ـ ان يقاسم أهل الخراج ما أثمر النخل والشجر والكرم ، أي تطبيق نظام المقاسمة على الاشجار المثمرة .

٣ ـ واقترح الغاء الرسوم الاضافية ، ومساعدة الحكومة الزراع في كري القنوات الرئيسية .

ويبدو ان الخليفة الرشيد فد طبق هذا على سكان سواد العراق لما عرف عنه من ميل الى العدل والانصاف .

واستمرت جباية سواد العراق على النصف حتى سنة ٢٠٤ هـ ـ ٨٢١ م، حين جعل المأمون مقاسمة أهل السواد بالخُمُسَيْن بدل النصف .

وقد برزت ظاهرة جباية الخراج قبل نضوج الحاصل ، غير ان الخليفة المتوكل ٢٣٢ هـ-٢٤٧ هـ / ٨٤٧ م-٨٦١ م قد عالج هذه الظاهرة بتأخير موعده الى وقت نضوج الحاصل .

ونود ان نشير هنا الى بعض ماورد من نصوص تأريخية في بعض مصادرنا الاولية ، وقد اعتمدها بعض المؤرخين المحدثين بخصوص استعمال بعض وسائل الشدة والقسوة في جباية الخراج من قبل عمال الخراج أو جباته ، نقول رغم وقوع مثل هذه الوسائل لكنها كانت محدودة وضيقة ، وانها كانت تصدر عن سوء تصرف بعض العمال والجباة أنفسهم في الغالب الاعم دون علم المسؤولين الكبار في الدولة ، وخاصة الخلفاء الذين كانوا يمنعون استعمال مثل هذه الوسائل بعد اشعارهم بها كما سنشير الى ذلك في موضوع الفلاح العراقي . وقد يكون مرد ذلك ايضا الى مغالاة بعض المؤرخين القدامى بهدف الطعن بسياسة هذا الخليفة أو ذاك الوالي بدافع ميل هذا المؤرخ أو ذاك ، وذلك وفقا للظرف أو الفترة التي كان يكتب فيها .

الفلاح العراقي

حرر العرب المسلمون الفلاح العراقي من ربقة الاقطاع الساساني الفارسي الذي كان يعتبر الفلاح عبدا يباع ويشرى مع الارض . وان الاسلام دعا الى تحرير العبد وعتقه وفك رقبته « فلا عبودية في الاسلام » ، وان أسلم العبد فله من الحقوق والواجبات مثل ما للمسلم . وبذلك خفف العرب الكثير من الاعباء التي كان يعاني منها الفلاح العراقي في ظل الاقطاع الفارسي ، فألقوا عنه ضرائب النوروز والمهرجان ، وضمنوا له حرية العمل في الحقل الزراعي والبقاء في ارضه وامتلاكها ، وقد تجلى ذلك بصورة خاصة عندما امتنع الخليفة عمر بن الخطاب عن تقسيم ارض سواد العراق - كما اشرنا -

كما وفروا له الآلات والادوات الزراعية ، وأقاموا له مختلف مشاريع الري من حفر نهر أو كريه أو شق قناة أو اقامة سد أو قنطرة .

وقد عامل الخليفة عمر الفلاح العراقي معاملة حسنة طيبة اتسمت بالعدل والانصاف ، وكان يأمر بعدم الحاق الاذى بالفلاح وعدم قتله ، ويروى عنه قوله : « أتقوا الله بالفلاحين ولا تقتلوهم .. » .

ولم تقتصر رعاية الخليفة عمر على الفلاحين العراقيين الاصليين وانما شملت رعايته ايضا اهل نجران اليمن عندما اسكنهم ارض العراق . فقد كتب الى امرائه في العراق أن يقدموا لهم كل عون ومساعدة في امتلاك الارض وحرثها وزرعها ، وان كل ما يحصلون عليه من غلة وثمر فهي لهم صدقة لوجه الله ، وذلك تعويضا لهم مكان أرضهم في اليمن .

لاشك ان أهم ماكان يشغل بال الفلاح العراقي ويهمه هي مسألة جباية الخراج عن أرضه ، ومقدار ما يؤخذ منه ، فكان الخليفة عمر « يجبى السواد مع عدله في أهل الخراج وانصافه لهم ، ورفع الظلم عنهم » ، وعندما بعث عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح سواد العراق : « أمرهما ان لا يحملا أحداً فوق طاقته » وكان يقول : « اني لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهته » . وطبق الخليفة عمر نظام المساحة في أخذ الخراج ، فحدد بموجبه مقدار مايؤخذ من كل غلة وعلى الجريب الواحد ، ولاشك ان هذا النظام جاء مشجعا للفلاحين على تحسين انتاجهم وزيادته ، اذ مادام مقدار ما يؤخذ منهم ثابتا ، فأن زيادة الحاصل والفائدة من تحسينه تذهب الى الفلاح وبالعكس فأن نقص الحاصل ورداءته يقع عبؤه عليه .

وقد سار الخليفة الراشدي علي بن ابي طالب على نهج الخليفة عمر وسياسته في رعاية الفلاح العراقي والاهتمام به دون تمييز ، فكان يشجع كل من يأتيه على احياء الارض وزرعها ، ويمنحه حق التملك . وقد أمر مرة عامله

بحفر نهر لاهل الذمة في العــراق عندما طلبوا منه ذلك ، وكان يأمر عاملــه قرضة بن كعب الانصاري في العراق بأن يقوم بجولات تفقدية في كل منطقة من مناطق العراق فيما بين دجلة والفرات ، فيسألهم عن عمالهم وينظرون في سيرتهم ، وان يتولى معونتها ، ويعمل بطاقة الله فيما ولاه .

وعندما انتقلت الخلافة الى الامويين ، نشطت الحركة الزراعية في عهدهم نشاطا كبيرا ، وأخذ العرب في عهدهم يتنافسون في اقتناء الارض وشرائها فلا غرو ان تزداد العناية بالفلاح العراقي ورعايته ، فأخذوا يوفرون له كل مستلزمات الري ووسائله ، ويشــجعونه على العمل في الحقــل الزراعي ، ويقطعونه الارض ، ويسلفونه المال .

فكان معاوية بن ابي سفيان يقطــع الارض لعامة الناس ودون تمييز ويشجعهم على احياء الارض وزرعها ، وكان زياد بن ابيه والي البصرة ، يمنح الارض لكل من يأتيه شرط احيائها وزرعها .

ورغم ماوجه الى الحجاج بن يوسف الثقفي من نقد تجاه سياسته وتعامله مع الفلاحين عندما تركوا ارضــهم وهاجروا الى المــدن مما أدى الى نقص في موارد بيت المال ، ونقص في مساحات الارض الخراجية وتحول الكثير منها الى أراضي « بور » ، الا ان الحجاج أخذ يحسن اليهم ويعاملهم معاملة طيبة وقد تجلى ذلك في مواقف عديدة تجاههم ، فقدم لهم قرضا بمبلغ مليوني درهم مساعدة لهم في اعمالهم الزراعية ، وأخــذ يقوم بجولات تفقديــة في الحقول الزراعية ، ويستفسر من الفلاحين ويســألهم عن أحوالهم ، واحوال غلاتهم الزراعية وظروفها ، وكان يقيم احتفالات رسمية في مدينة واســط في اوقات نضوج الغلات الزراعية . كما اولى عناية بتربية البقر ، وكان يوصي بعدم ذبحها بهدف زيادتها والاستفادة منها في الحرث والري .

وقد وجه الخليفة عمر بن عبدالعزيز عنايته الفائقة للفلاح العراقي وقد تجلى ذلك في كتبه ومواقفه في محاسبة كل من كان يحاول الاساءة اليه •

فقد كتب عدى بن أرطاة ـ والي البصرة ـ الى الخليفة عمر بن عبد العزيز : أما بعد فأن قبلنا لايؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب • فكتب اليه عمر : « أما بعد •• فالعجب كل العجب من استئذانك أياي في عذاب البشـر ، فوالله لان يلقـوا الله بجناياتهم أحب الي من أن ألقاه بعذابهم » • ولم تقتصر رعاية الخليفة عمر للفلاح على أرضه وزرعه ، وأنما تعدى ذلك لتشمل بيته ومسكنه ، فمن كتبه لاحد عماله : « انظر من كان منهم له بها ارض أو سكن ، فأجر على جدول منها ماكان يجري قبل ذلك » ، ومن كتبه ايضـا الى عامل آخر : « ان أجر لهم (الفلاحـون) ما احيوا ببنيان أو حرث » • وينسب اليه قوله : لا تقتلوا راهبا ولا أكارا •

وفي عهد الخلافة العباسية ، زادت أهمية الفلاح العراقـي وبرز دوره الكبير في الزراعه وتطويرها ، ورأى الخلفاء العباسيون وولاتهم ان تقديم العون والمساعدة له تعتبر سياسـة مالية مستنيرة • فعندما شكى فلاحـو البصرة قلة المياه في نهر الدير ، أنشأ سليمان بن علي لهم المغيثة لزيادة المياه في هذا النهر وأنفق عليها مليون درهم •

وقد أتبع الخلفاء العباسيون سياسـة التفاهم والترغيب والاقناع مـع الفلاحين قبل ان يصدروا قرارا قد يكـون مجحفا بحقهم ، فعنـدما حفر الخليفة المهدي نهر الصلة في مدينة واسط استدعى الفلاحين ، واجرى حوارا معهم فأقنعهم بأن تكـون نسـبة المقاسـمة على غلاتهم خمْسَين على أن تلغى هذه النسبة بعد ذلك •

والواقع ان الخليفة المهدى اتبع سياسة الترضية ورفع الحيف والضرر عن الفلاحين ، فقد شكى صاحب زرع المهدي ــ وكان نائبا عن أبيه المنصور في بغداد ــ ان زرعه أصابه خراب اوحيف ، وانه لن يستطيع دفع ماعليه من خراج لهذا العام ــ ومقداره مائتا ألف درهم ــ فأجله المهدى بخراجه هذا الى العام المقبل وعندما بلغ الخليفة المهدى ان بعض عمال الخراج وجباته يستعملون القسوة والشدة مع المزارعين ، أمر وزيــره « بالكتاب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج » .. ومن المعروف ان الخليفة المهدي عندما تولى الخلافة انشأ ديوانا خاصا للنظر في المظالم أطلق عليه « ديوان النظر في المظالم » .

وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة طبق سياسة العدل والانصاف على الفلاحين ، وما كتاب الخراج الذي الفه ابو يوسف لهارون الرشيد الا دليل صدق وحسن نية الرشيد « في رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم » . وفي عام ١٧٢ هـ ــ ٧٨٨ م خفف هارون الرشيد نسبة المقاسمة على الفلاحين وانقصها . « فحذف العشــر الذي كان يؤخــذ بعد النصف » ، كمــا الغى الرسوم الاضافية التي كان يأخذها الجباة من المزارعين « كرزق عامل أو أجور الكيالين أو أجرة نزولة أو حمولة الطعام » وكان ذلك بناء على ما أقترحه ابو يوسف في كتابه « الخراج » .

وكان الفلاحون يفضلون العمل في مزارع الدولــة ، فقد عمل أهل الشعيبية من الفرات بالبصرة مزارعين لضيعة تابعة لعلي بن الخليفة الرشيد على ان يخفف من مقاسمتهم فيها وذلك بجعلها عشرية من الصدقة ، وان يقاسموا على ما رضوا بــه .

ومن مواقف الخلفاء العباسيين في حماية الفلاح العراقي من سوء تصرفات

الجباة وخاصة في مسألة جباية الخراج قبل نضوج الحاصل ، فأنهم (أي الخلفاء) كانوا يمنعون ذلك ، فعندما أخبر الخليفة المتوكل بهذه الحالة « وان هذا قد أضـر بالفلاحين ، فهم يقترضون ويتسلفون .. » .. أتخـذ قرارا بتأخير موعـد جباية الخراج الى وقت نضوج الحاصـل . كما أن الخليفة المعتضد أحدث عام ٢٨٢ هـ ــ ٨٩٥ م تقويما جديدا بخصوص موعد جباية الخراج فقد أخر وقت جبايته من ١١ نيسان ــ وهو النوروز الفارسي ــ الى السابع عشـر من حزيران ، واصـبح التاريخ الجديـد يدعى بـ « النوروز المعتضدي » ، فأراد الخليفة المعتضد بأصلاحـه هذا ان يجعل وقت الجباية يتناسب وموسـم نضج المزروعات ، وكان الخليفة المعتضد يسـاعد المزارع بتسليفهم النقود لشراء البذور والبقر .

وكان علي بن عيسى أكثر وزراء الخليفة المقتدر عناية بالفلاحين . فقد كتب كتابا دوريا الى عماله يوصيهم فيه « بأنصاف الرعية والعدل عليها » . كما كان يسلف فقراء الزراع البذور ، ثم يسترجع ذلك منهم في موسـم الحصـاد .

غير ان حالة الفلاح العراقي أخذت بالتدهور والانحطاط خلال فترة التسلطين البويهي والسلجوقي ، نتيجة سيادة الاقطاع العسكري وهيمنته على جميع المرافق الزراعية ، فزالت العناية بالزراعة في جميع انحاء السواد ، وترك الزراع تحت طمع المقطعين العسكريين ، وفرضوا السخرة على الفلاحين .

غير ان نجاح الخليفة الناصر لدين الله في انهاء النفوذ السلجوقي وهيمنته على العراق ، قد أعاد للفلاح العراقي مركزه واعتباره ، فأخذ يسهم في البناء الزراعي من جديد ويعمر ماخربه السلاجقة من مشاريع الري ، ويعمل على دره المزارع من خطر الفيضانات . فعندما زار ابن جبير بغـداد عام ٥٨٠ هـ ــ

١١٨٤ م ، وصف الجانب الشرقي من بغداد بأن كله بساتين نخيل وشجر وثمر ممتدة امتداد البصر ، وتحدث عن العراق وازدهار مدنه وقراه حين شاهد بين الحلة وبغداد ارضا خضراء كأنها بساط أخضر ، وفي طريقه الى الموصل أشاد بالمدن التي مربها مثل سامراء وتكريت ، وكان الانتاج جيدا ومستوى الاسعار رخيصا ، والفلاحون يمارسون اعمالهم الزراعية دونما استغلال أو هيمنة .

الثروة الزراعية

تشكل الثروة الزراعية المحصلة النهائية لجهود العراقيين وطاقاتهم الخلاقة من مسؤولين وفلاحين ، والتي تجلت في احياء الارض واستصلاحها في اقامة العديد من مشاريع الري ، واستعمال مختلف وسائل السقي والارواء ، وتطبيق انواع الطرق الزراعية واساليبها ، فلا غرو ان يصبح العراق من شماله الى جنوبه ومن شرقه الى غربة اكبر بلد منتج لمختلف انواع المحاصيل الزراعية من الفواكه والاثمار ، وأنواع الحبوب ، والخضر والبقول واشكال الازهار والرياحين وسنعرض هنا لمختلف أنواع المحاصيل هذه بشيء من الدقة والتركيز .

١ ـ الفواكه والاثمار

تأتي زراعة النخيل على رأس المحاصيل الزراعية في العراق ، وتعتبر مدينة البصرة اهم مركز لزراعته ، وهي تنتج أنواعا مختلفة من التمور لا مثيل لها في أي مكان . وقول الجاحظ : « ان مدينة البصرة تنتج ثلاثمائة نوع من التمور » . ولم تقتصر زراعة النخيل على منطقة البصرة ، بل امتدت لتشمل الانبار وهيت والكوفة وبقية المناطق (اظر : ابن الفقيه) وكانت توجد بساتين

النخيل بجوار سنجار ، كما اشتهرت منطقة بغداد وخانقين وجلولاء ، وبعقوبة وشهربان بزراعته •

وانشرت زراعة الفواكه والاثمار في مختلف انحاء العراق ، نذكر منها العنب ، وكانت تزرع أنواع متعددة من العنب ، ومنها الرازقي الذي أدخله العرب الى العراق من الطائف أثناء الفتح العربي الاسلامي •

وزرع النارنج والاترج في العراق ، ولم تكن زراعتهما معروفة ، ويذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب ، انه « تم جلبها من الهند بعد سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، فتم زرعها بعمان ، ثم نقل منها الى البصرة والعراق والشام » •

وكانت البصرة مشهورة بجودة برتقالها وليمونها كما ذكر زراعة الخوخ فيها وكان ليمون بعقوبة غاية في الجودة •

والرمان من الفواكه الاخرى التي اشتهر العراق بزراعته خاصة في بغداد وسنجار ، كما اشتهرت سنجار بالزيتون ، والسفرجل والتين •

أما الرقي والبطيخ فكانا من الفواكه المحبوبة ، وكانت بغداد تسمى « دار البطيخ » •

وكان الاجاص ، والمشمش ، واللوز ، والجوز ، والبلوط يزرع في العراق •

٢ — الحبوب

تعتبر الحنطة والشعير والرز من أهم الحاصلات الزراعية في العراق وكانت الحنطة والشعير تزرع في كل منطقة من مناطق السواد ، وكانت

منطقة واسط مركزا مهما لزراعة الشعير • وتزرع الحنطة والشعير بكثرة في منطقة الجزيرة ، وخاصة حول الموصل •

وبذلك كانت الجزيرة المخزن الذي يمون العراق لاسيما بغداد بالحبوب في اوقات الشدة •

أما زراعة الرز فكانت منتشرة في الاراضي المنخفضة والاهوار قرب الكوفة وعلى قنوات الفرات الاسفل ، ونهر الصراة ، ونهر النيل ، وفي منطقة البطيحـة •

ومن الحبوب الاخرى التي زرعت في العراق : السمسم وكانت تكريت مركز زراعته ، كما زرع في السواد ايضا ، وكذلك ورد زراعة الذرة ، والماش والعدس في العراق •

واشتهر العراق بزراعة القطن ، وانتشرت زراعته في منطقة الخابور ، وكذلك وردت زراعته في البصرة •

وزرع قصب السكر حوالي البصرة وفي سنجار وكان يزرع بكثرة في العراق وكان الاقليم المحيط بالبصـرة اشهر مكان بصناعة السـكر في العراق •

اما القنب ، فكان يزرع بصورة خاصة في القادسية •

٣ ـ الخضراوات والبقول

تميز الفلاح العراقي بزراعة أنواع الخضراوات والبقول ، مثل الباقلاء واللوبيا ، والحمص ، والباذنجان ، والسلق ، والفاصوليا ، والفجل ، والبصل والثوم ، وقد انتشرت زراعتها في بغـداد ونواحيها ، وفي مختلف انحـاء العـراق •

٤ ـ الازهار والرياحين

يعتبر فصل الربيع فصل الازهار والرياحين في العراق ، تزهو فيه أنواع الورود والرياحين ، وتغطى به كـل ربع من ربوع العراق فكـان الورد والبنفسج والنرجس افضل الرياحين . وقد ورد ذكر لزهر البنفسج والنرجس في بغداد وسامراء وبلد في منطقة الدجيل ، وذكر القلقشندي أنواع الازهار والرياحين مثل النرجس ، والياسمين ، والورد الجوري ، والقرنفل .



المصادر والمراجع

المصادر الاوليـة :

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ .

ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥

ابن منظور الخزرجي ، لســان العرب ، بيروت ، ١٩٥٦ .

ابو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ .

البلاذري ، فتوح البلدان ، مصـر ، ١٩٥٩ .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهـرة ، ١٩٤٧ .

الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ .

الازدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

الاصفهاني ، الاغاني ، بيروت ، ١٩٥٦ .

الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، الطبعة الحسينية .

القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٢ .

الماوردي ، الاحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ، ١٩٥٨ .

المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ .

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ليبزج ، ١٩٦٩ .

يحيى بن ادم ، كتاب الخراج ، مصر ١٣٨٤ هـ .

اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، النجف ، ١٩٣٩ ، وطبعة ليدن ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ .

المراجع الثانوية :

احمد سوسة : فيضانات بغداد ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٦٣ .

احمدسوسه ومصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد المفصل ، بغداد ــ ١٩٥٨ .

ادم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، ١٩٦٧ .

صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، بغداد ، ١٩٥٣ .

عبد العزيز الدوري ، النظم الاسلامية ، بغداد ، ١٩٥٠ .

عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ، ١٩٤٨ .

عبد المجيد الكبيسي ، عصر هشام عبد الملك ، رسالة ماجستير على الالة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

عواد مجيد الاعظمي ، الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام والخلافة الاموية ، بغداد ، ١٩٧٨ .

عواد مجيد الاعظمي : تاريخ الري في سهول الرافدين ، بحث قدم للندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ، في الكويت ١٩٨٣ .

لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، بغداد ، ١٩٣٦ .

محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل ، بغداد ، ١٩٧٧ .

ناجية عبد الله ابراهيم ، ريف بغداد ، رسالة دكتوراه على الالة الكاتبة ، بغداد ١٩٨١ . ومن رسالتها اعتمدت الخارطة المرفقة طي هذه الدراسة .

ف . هينز ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، الاردن ، ١٩٧٠ .

المصادر الاجنبيــة :

E.I, 2ed. ṢALIḤ al-'Ali, Art., al-BAṬIḤA.

G., Le Strange, The Lands of the Eastren Caliphate, Cambridge, 1930.

F. Lokkegard, Islamic Taxation in the Classic period, Copenhagen, 1958.

الفصل السادس

الصناعة

د . حمدان عبد المجيد الكبيسي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

المراكز الصناعية .

تميزت مدن العراق الرئيسية ، قبل عمليات التحرير ، بوجود صناعات متنوعة كانت قائمة فيها .

ومنذ ان اصبح العراق جزءاً من الدولة العربية الاسلامية ، اهتم الخلفاء وولاته بالعمل على تنشيط الصناعات التي كانت قائمة فيه ، كما عملوا بنفس الوقت ، على اقامة صناعات جديدة ، على اعتبار انها تشكل موردا هاما من موارد الثروة ، فاقيم في مدنه الرئيسة عدد كبير من المصانع لصنع الزجاج والخزف ، ونسيج القطن والحرير والقز ، وحياكة الصوف ، وادوات الترف ، والاواني الزجاجية ، والدهون والمعاجين والزيت والعطور ، وماء الزعفران ، وماء الورس ، وشراب العنب ، وزيت البنفسج والصناعات الجلدية وغيرها .

وكان ياقوت قد وصف الموصل بانها : « محط الركبان ، ومنها يقصد جميع البلدان . فهي باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنهـا يقصد الى أذربيجان » . ويؤكد ياقوت على ان القاصد الى المشرق والمغرب لابد ان يمر

بالموصل . فلاغرو والحالة هذه ان اشتهرت هذه المدينة بالمصنوعات المتعددة ومنها المصنوعات الخشبية ، لان موقـع الموصل على الاطـراف الشمالية ، ووجود الجبال بقربها ساعد على نمو الغابات التي تشكل المادة الاولية لهذا النوع من الصناعة .

كمااشتهرت الموصل بصناعة انواع كثيرة ومختلفة من المنسوجات ، نذكر منها نسيج الوشي ، وثياب الخز ذات الاطراف ، والطنافس المخملية ، والانماط ذات الالوان الجميلة المصنوعة من الصوف ، وانواعا اخرى من الثياب الرقيقة المصنوعة من الكتان والقطن . هذا بالاضافة الى النسيج الذي كان يعمل منه الستائر الجيدة التي كان يصدر منها الى الخارج لانها كانت تفيض عن حاجة السوق الداخلية . وكان نسيج بعض الستائر يطـرز بخيوط من الفضـة والذهب .

وقبل عمليات تحرير العراق اشتهرت مدينة الحيرة بصنع انواع جيدة من السجاد الذي كان يلاقي رواجا كبيرا في الاسواق ، لجودة صنعه ، وتناسق الوانه . وقد تطورت هذه الصناعة خلال العهدين الاموي والعباسي كثيرا . وصنع في الحيرة ايضا نسيج فاخر من الحرير بالاضافة الى الاقمشة القطنية والصوفية . وانتجت مصانع الحيرة الجرار والاواني الزاهية الالوان .

وامتدت صناعة السجاد الحيري الى النعمانية التي هي الاخرى برزت بهذا النوع من الصناعة . الا ان السجاد الذي كان يصنع في النعمانية كان يسمى (السجاد الحيري) نسبة الى مدينة الحيرة . وهذه النسبة لا تخلو من دلالة ، اذ كانت النقوش والصور التي ترسم على السجاد الذي كان يصنع بالنعمانية ، هي نفس النقوش والزخارف التي توضع على السجاد الذي صنع في مدينة الحيرة . وغالبا ما شملت الرسوم والزخارف ، الخيل والجمال والسباع والطيور . كما صنع في النعمانية الملابس الصوفية الجميلة ، وثياب صفراء باهتة اللون . وكانت النعمانية تنتج ايضا الجرار والاواني الزاهية

الالوان • في حين كانت مدينة تكريت من المراكـز المهمة التي اشتهرت في صناعة نسيج الصوف • واشتهرت مدينة (قصر ابن هبيرة) بكثرة الحاكـة فيهـا •

وكانت مدينة البصرة مشهورة بصناعة المنسوجات ونسيج الخز الرقيق الذي كان يصنع من نوع من القطن الجيد • هذا بالاضافة الى صناعة النسيج الذي تعمل منه الفوط الثمينة التي تلفها المرأة على رأسها • كما برع اهـل البصرة ايضا في صناعة الزجاج ، والخفاف ، والحلي التي كانت قائمة على استخراج اللؤلؤ من الخليج العربي • ونقل بعض المسؤولين صناع الخزف من البصرة الى سامراء لمهارتهم واتقانهم هذه الصناعة •

وفي الابلة وجدت صناعة الانسجة الكتانية الرقيقة بنوعيها المطرز وغير المطرز • كما اشتهرت الابلة بصنع العمائم والستور • وكان يصنع ايضا في البصرة والابلة المراكب الخشبية والسفن •

وللكوفيين مهارة متميزة في صنع نسيج الوشي المطرز الذي كان يصنع من الحرير ، كما صنع في الكوفة الخز الذي صنعت منه العمائم المشهورة التي استعملت غطاء للرأس •

ونشطت في مدينة الكوفة صناعة العطور ، والزيوت العطرية التي لاقت اقبالا كبيرا من المواطنين • ولما بنى الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨ — ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ — ٨٤٢ م) سامراء جلب اليها صناع الخزف من الكوفـة والبصرة مما يـدل على تفوق هاتـين المدينتين في صنع الخـزف وحذق عمالهما فيه •

واشتهرت ميسان بصناعة اجود انواع البسط والستائر والانمـاط والوسائد والحصر الجيدة ، حيث توجد موادها الاولية هناك •

وظهرت في مدينة واسط صناعة الاقمشة المختلفة والستائر التي كانت

تتكون من الوان متعددة ، وقد ظلت هذه الستائر محتفظة بجودتها لفترة طويلة ، وقد زينت قصر الخليفة المقتدر بالله العباسي • وعرفت واسط بصناعة انواع جيدة من السجاد والبسط التي كانت لها شهرة كبيرة •

واعتبرت واسط اشهر محل للصبغ بالقرمز • وان الصباغين بهذه المدينة كانوا قد تفننوا في صناعة الصباغة لايجاد انواع متعددة وجيدة من الالوان، وذلك لاظهار رسوم القماش بالوان زاهية •

وعرفت واسط بصناعة الجرار والاباريق والاواني الخزفية ذات الالوان المتعددة ، لا سيما اللون البني والاخضر • ونقش الصناع على هذه الاواني الخزفية زخارف مائية تحت دهان شفاف اخضر او ازرق • وخلال العصر العباسي ادخلت تحسينات على الالوان حيث اضيفت مادة الرصاص الى الدهان المستخدم في التلوين فاصبحت نقوشه ذات بريق معدني ، وبذلك امتاز خزف واسط برقته ، وتناسق الوانه ، وجمال زخرفته •

وصنع في واسط ايضا الابواب الحديدية والاسلحة والادوات المنزلية ، كالقدور والاواني ، والسكاكين وغيرها • اما الصناعات الخشبية فكانت على نطاق ضيق تكاد تسد حاجة سكان المدينة ، الا انه توجد اشارة الى ان صناعة السفن والقوارب التي كانت تستخدم في النزهة او السفر او التجارة كانت نشطة في واسط ، كما وجدت في واسط صناعة الحصر التي تقوم على البردي والقصب والحلفاء وخوص النخيل وكلها متوفرة في منطقة واسط •

ومنذ تأسيس بغداد ، واتخاذها حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، نشأت فيها عدة صناعات ، اذ تشير المصادر الى ان الحياكة في بغداد ازدهرت منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فكانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية الفاخرة ، والثياب الحريرية بالوان مختلفة ، والاقمشة القطنية ، والعمائم الرقيقة ، والمناديل الشهيرة بانواعها ، ونسيجا حريريا

سميكا وردي اللون ، ونسيجا آخر جيدا سداه من الحرير ولحمته من القطن، والثياب العتابية المشهورة التي كانت تصنع في محلة العتابية بجانب الكرخ ببغداد وتنسب اليها ، وهي ثياب مخططة تحاك من خيوط القطن والحرير . وكانت هذه البضاعة تصدر الى انحاء اخرى من الدولة العباسية . وتصنع في بغداد ايضا الازر .

وكان لصناعة الصابون محلة خاصة ببغداد في جانب الكرخ ، كما انشيء مصنع للورق في بغداد في عهد الخليفة هرون الرشيد . واشتهرت محلة (دار القز) ببغداد بصنع الورق ايضا الذي اكتسب شهرة في كافة ارجاء المشرق ،ويعتقدبعض الباحثين ان القرنين الثالث والرابع الهجريين قد احدثا انقلابا عظيما فيصناعة الورق وصيراه رخيصا .

وكانت الحصر المصنوعة في بغداد مضرب المثل في جمالها واتقان صنعها. واختصت بغداد ايضا بصنع نوعين ممتازين من الجلود صنعت منهما انواع جيدة من الاحذية .

وصنعت في بعض مدن الجزيرة الفراتية المنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية ، حيث صنعت الثياب والمناديل والطيالس التي صنعت من الصوف، كما صنع المرعز من شعر الماعز .

التخصص في الصناعات

ان ظاهرة التخصص في الصناعات تبرز واضحة في اكثر مدن العراق الرئيسية . ولعل ذلك كان متأتيا من كون المهن وراثية في الاعم الاغلب ، واصبح كل صانع يفضل حرفته على جميع الحرف ، ويرغب ان يمتهنها اولاده . كما ان المدن توسعت وازدادت مرافقها العامة ، وتطورت فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وعندئذ بات من الضروري بروز ظاهرة التخصص لكي تفي بمتطلبات الحياة الجديدة .

واحيانا تكون صناعة النسيج ، بانواعها ، صناعة منزلية ، وحينئذ تتضح فيها ظاهرة التخصص ، اذ كانت النساء يغزلن الخيوط ، في حين يتولى الرجال نسيج تلك الخيوط ، سواء اكانت صوفية او قطنية ، او غير ذلك . وهؤلاء جميعا يعملون لمصلحة تجار معينين يدفعون لهم اجرهم المتفق عليه .

وفي بغداد اختصت محلة العتابية بصنع الثياب العتابية التي كانت تحاك من حرير وقطن بالوان مختلفة . واشتهرت محلة اخرى ببغداد الغربية بصنع الثياب التسترية المشهورة ، واختصت محلة (دار القز) التي تقع في الطرف الغربي من مدينة السلام بصنع الورق الذي اكتسب شهرة واسعة .

وبلا ريب ، فان وجود انواع متعددة من نسيج الملابس والثياب ، والسجاجيد ، والبسط ، والستائر ، والانماط ، والمخاد ، والمقاعد ونحوها ، بأحجام مختلفة ، والوان متباينة ، تطلب كل ذلك وجود عمال متخصصين في صنع كل نوع من هذه الانواع . بالاضافة الى وجود صناع بارعين مختصين في فن الصباغة . فخلال العصر العباسي كان اللون الاسود الشعار الرسمي للدولة . فكان كثير من الملابس الرسمية التي كانت تخلع على كبار موظفي الدولة بهذا اللون ، بينما فضل العلويون اللون الاخضر . في حين ان الملابس ذات اللون الاصفر المصبوغة بالزعفران كانت مفضلة لدى المغنين والفنانين . وكان الناس يتبارون في ارتداء الملابس ذات الالوان الزاهية والمتنوعة الالوان في حفلاتهم المسائية .

وبلغ من دقة التخصص في هذا المجال ، ان بعض الصباغين كان يقتصر في عمله على الصبغ بصبغة واحدة .

ونستطيع ان نلمس دقة التخصص في العمل ان هناك عمالا خاصين يتولون غسل الكتان ، او القطن ، او الصوف قبل غزله ، ويتولى الاشراف على هذه الخطوة ناظر خاص ، ومن ثم يقدم الى النساجين ليقوموا بنسجه وفق المواصفات المطلوبة .

وثمّ سماسرة مختصون يحددون الثمن للاقمشة المنسوجة ، في حين يوجد عمال اخرون يختمون اللفاف المحزومة المراد تسليمها للتجار الاجانب حيث تتم عملية التصدير • وعادة كان هؤلاء التجار يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفاف المحزومة من غير ان يفكوا حبالها ووثاقها • واحيانا تكون هذه البضائع المصدرة مختومة بختم رسمي •

واختص صناع الاحذية ببغداد بصنع نوعين ممتازين من الجلـود ، (الدارشي) ، وهو جلد اسود ، و (اللكاع) ، وهو جلد احمر ، وتفننوا بدباغتهما ، اذ استعملوا لهذا الغرض قشور الرمان •

وتمثل التخصص ايضا لدى الخياطين الذين كانوا ذوي اختصاصات متنوعة ، منهم الروافون ، والقصاصون ، وصناع القلانس ، والمطرز ، او الرقام وغيرهم •

وبرزت ظاهرة التخصص حين استخدمت الدولة صناعا في الصناعات التي لها علاقة بالمصلحة العامة ، كصنع الاسلحة ، وسك النقود ، وتركيب الادوية ، وصناعة الورق ، والطراز ، وانشـاء الابنية والمنشـآت الدينية والحكومية ، والقنوات ، والجسور ، ومشاريع الري الاخرى • وكانت الدولة احيانا تسند القيام ببعض هذه الاعمال الى متولين يكونون مسؤولين عن جمع العمال اللازمين وادارتهم والاشراف عليهم • وكان كل منهم متوليـا لعمل واحد • فقد كان عبدالرحمن بن ابي بكرة متوليا على الاعمال في نهر معقل ، والحجاج بن عتيك على انشاء المسجد الجامع في البصرة • اما ذوو المشاريع الخاصة فقد كانوا يقومون بجمع العمال والاشراف عليهم بانفسهم، واذا كانت اعمالهم كبيرة ومتشعبة ، فقد يسندونها الـى بعض الاشخاص المقربين اليهم ، ويدعون وكلاء ، او قيمين ، ولهؤلاء عادة اتصال مباشـر باصحاب العمل •

وتوجد روايات تاريخية كثيرة تؤكد ظاهرة التخصص هذه • ففي

البصرة كان اصحاب كل مهنة يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير ، كما ان خالد بن عبدالله القسري والي العراق كان قد صنف الاسواق في الكوفة حسب المنتوجات التي كانت تعرض فيها « وجعل لكل باعة دارا او طاقا » • وكذلك فعل الحجاج بن يوسف الثقفي عند تخطيط مدينة واسط ، اذ جعل لكل حرفة سوقا فرعية صغيرة داخل سوق المدينة الكبير • وبناء على طلب الخليفة العباسي المنصور اصبح لكل نوع من اصحاب المهن ببغداد محل خاص بهم •

ورای المسؤولون ضرورة وجود بعض الصناعات في اطراف المدن ، وبخاصة التي لها تأثير مضر على صحة المواطنين ، مثل المسالخ ، والمذابح ، ومسابك الزجاج ومصانع الحديد والآجر ، وعمل الصابون ، ودباغة الجلود ، وما اشبه ذلك •

ومن المؤكدان الاشراف الحكومي على الاسواق والمصانع ساعد على بروز ظاهرة التخصص ،اذ كان من واجبات المحتسب ان يجعل « لاهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه » • كما ان مصلحة اصحاب الصنايع والحرف انفسهم حملت اصحاب كل مهنة او معظمهم ، على التجمع في محل واحد • وسجل محتسب بغداد قائمة باسماء الصناع واهل الحرف ، وحوانيتهم ، واماكنها ، واوضاعها للرجوع اليها عند الحاجة • وضمت تعليمات الدولة ان ممارسة بعض الصناعات كانت تتطلب الحصول على اجازة خاصة من الحكومة •

أهم المنتوجات الصناعية

بعد اتمام تحرير العراق عملت الدولة العربية الاسلامية على صيانة جميع انواع الصناعات المحلية وتحسينها وتطويرها • فحينئذ شهدت بلاد الرافدين نهضة صناعية واسعة ، تطلبتها ظروف البلاد المستجدة التي ادت

الى نمو المدن وتقدمها السريع ، الامر الذي ادى الى زيادة حاجتها الى الصناع للقيام باعمال البناء ، وحفر القنوات ، واصلاح الاراضي ، وعمل مشاريع الري ، لاسيما وان ولاة العراق خلال العهدين الراشدي والاموي ، كانوا قد اقدموا على انشاء عدد من المدن والامصار التي تطلبت اعـــدادا كبيرة من الصناع والحرفيين في مختلف الصنايع ٠

كانت الحصر تصنع ، بدقة واناقة في غالبية مدن وقرى العراق الوسطى والجنوبية ، من القصب والحلفاء والبردي ، وخوص النخيل ٠ واحيانا كان صناع المدن الرئيسة ينقشون على ما يصنع في مدينتهم عبارة : عمل في مدينة كذا ، ليكون دليلا على جودة الانتاج ، واقبال الناس على شرائه ٠

وتعتبر الحياكة من اقدم الصناعات اليدوية التي عرفها كثير من مدن العراق وقراه ، الامر الذي جعل الصناعات النسيجية من الصناعات العريقة والمهمة في بلاد الرافدين ، ذلك ان نتاجات هذا النوع من الصناعة ، كانت ولا زالت من المتطلبات الاساسية التي يحتاجها الانسان ، كما ان المواد الاولية التي تعتمد عليها هذه الصناعة متوفرة في العراق ، كالاصواف والقطن والحرير والكتان ونحوها ٠

وبلغت صناعة النسيج من الرقي بحيث امكن صـــنع انواع جيدة من الانسجة الصوفية والقطنية والكتانية والحريرية ، بصناعة محكمة ، وربمـــا بلغ الثوب الجيد منها ، النقي اللون ، مائتي دينار ٠

واشتهر العراقيون بصناعة الخز الذي كان يصنع عادة من الصوف ٠ وعند استقرار بعض اهل نجران اليمن في العراق ــ في خلافة عمر بن الخطاب ــ اخذوا ينتجون الحلل النجرانيــة والطيالسة ٠

واهتم والي العراق زياد بن ابيه بتنشيط الصناعات النسيجية ، اذ يعتبر اول من ادخل صناعة المنسوجات الكتانية في مدينة البصرة ٠ وحتى تنشط

هذه الصناعة ويقبل الناس على استعمال المنتوجات المحلية ، اقدم الوالي زياد على ارتداء ملابس تصنع من الكتان ، وقلده كثير من السكان ، الامر الذي نشط هذا النوع من الصناعة • وعرف عن الخليفة سليمان بن عبدالملك انه كان يفضل لبس الثياب الرقاق وثياب الوشي التي كانت تصنع في مدينة الكوفة وتحمل الى الخليفة بالشام •

ومما ساعد على ازدهار صناعة هذا النوع من الثياب ، كون المسؤولين، وكثير من الناس ، كانوا يفضلون لبس ثياب الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس • وعلى الرغم من ان الدولة الزمت موظفيها الكبار بضرورة ارتداء الثياب المصنوعة من الوشي ، الا ان واقع الحال ، انه كان لكل فئة من فئات المجتمع لباسها ، ولكل صنف زيه ، وكل مناسبة تتطلب نوعا خاصا من الملابس الثمينة ، ويمتلكون كميات كبيرة منها • وهذا الطلب الزائد شجع الصناع على تحسين منتوجاتهم ، وعلى الاكثار من انواعها •

وتشير النصوص الى ان صناعة المنسوجات ازدهرت كثيرا في العراق خلال العصر العباسي • ففي بغداد كانت تصنع المنسوجات الحريرية الفاخرة، وانواع من نسيج الحرير السميك ، وردي اللون وثياب (الملحم) التي سداها من الحرير ولحمتها من القطن • هذا بالاضافة الى المناديل الشهيرة ، والثياب القطنية الرقيقة • وكانت الثياب العتابية المخططة قد لاقت شهرة كبيرة • وانتجت المدن والقصبات القريبة من بغداد انسجة قطنية سميكة بكميات كبيرة ، بحيث كانت تفيض عن حاجة الاستهلاك الداخلي فتصدر الى اسواق اخرى •

ونظرا لميل الناس الى الوان مختلفة من الاقمشة ، بات من الضروري ظهور فن راق في الصباغة فيروى ان مدينة واسط كانت اشهر محل للصبغ بالقرمز ، واستخرج الصباغون من قشر الرمان صبغا اصفر جميلا ورخيصا وثابت اللون • وكان الزعفران يستعمل لتكوين صبغة صفراء ممتازة •

وكان السجاد الثمين يفرش في قصور الخلفاء والوزراء والاغنياء لاظهار روعتها ، واحيانا يكلف النساجون بصنع سجاد ثمين لذوي المسـؤولين في الدولة والموسرين ، وفق مقاسات معينة ، وينقش بصور ونقوش حسب الطلب المقـدم •

وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستور ملونة تعلق على حيطانها اذ اصبح من متطلبات دور الموسرين والمسؤولين في الدولة ، وحتى عامـة الناس ، ان تكون جدران دورهم الداخلية معلقة عليها الستور الجميلة ، وان تكون ارض الدار مفروشة بالبسط والسجاد • ولهذا كانت صناعة المنسوجات والبسط والسجاجيد منتشرة في كثير من مدن العراق الرئيسية •

وخلال العصر العباسي شاع استعمال ثلاثة انواع من السجاجيد ، منها ما كان يعلق على الجدران ، ومنها البسط (والانخاخ) التي تفرش بها ارض الغرف وصحن الدار والممرات • اما الانماط ، فكانت تفرش على الارض في محلات لا تطؤها الاقدام • هذا بالاضافة الى انواع اخرى صغيرة تستعمل للصلاة والاغطية والمخاد والمقاعد ونحوها من انواع الوسائد •

واحيانا كان النساجون يتفنون في اتقان وتنوع حياكة البسط ، اذ استعملوا الحرير مع الصوف في نسجها ، وقد يزينونها بخيوط من الفضة او الذهب ، وعندئذ يكون هذا النوع من البسط مرتفع الثمن عادة •

كما ان ظروف بعض مناطق العراق الرعوية ساعدت على تقدم صناعة البسط من صوف الاغنام ، وقد يستعمل القطن او الكتان في صنعها •

وعرف العراقيون صناعة الخيام التي كانوا ينسجون قسما منها من صوف الاغنام حيث اطلقوا عليها اسم (الخباء) • في حين اطلقوا على الخيام التي كانوا يصنعونها من شعر الماعز اسم (الفسطاط) ، والخيام التي صنعوها من وبر الابل (السجاد) ، والخيم المصنوعة من نسيج القطن (السرادق) •

وهناك نوع من الخيام ، استعمل على نطاق ضيق ، وصنع من نوع خاص من الجلد سمي (الطراف) ، واستعمله الاغنياء .

ومنذ خلافة الامويين اشتهر العراق بصناعة الطراز ، اذ وجد فيه عدد كبير من الصناع الذين امتهنوا هذا النوع من الصناعة واتقنوها ، حيث كانوا يصنعون النسيج من الحرير والديباج والابريسم المحلى بسطور من الكتابة على حافة القماش مطرز عليها اسماء الخلفاء او الولاة وبعض عبارات الدعاء. وفي الاعم الاغلب تكون الكتابة بخيوط من الذهب ، او لون يخالف لون قماش الثوب ، او العلم ، او الفراش المطرز .

ويجدر بنا ان ننوه في هذا الصدد ، ان هذا النوع من الصناعة مظهر من مظاهر السلطان ، فهو والحالة هذه اقرب ما يكون الى مفهوم صناعات القطاع العام في العصر الحاضر . ذلك ان دور الطـراز في الدولـة العربية الاسلامية كانت مملوكة من الدولة ، وان صناعها هم عمال يشتغلون باجر عند الدولة . لذلك لاقت هذه الصناعة عناية فائقة من لـدن الخلفاء وبقية المسؤولين ، وبخاصة في العصر العباسي ، حيث شهدت فيه نهضة ملموسة .

ونستطيع ان نتلمس مدى اهتمام الدولة بهذه الصناعة وتطورها ، انه انشىء ديوان خاص بها سمي « ديوان الطراز » وقد وضع هذا الديوان تحت اشراف موظف خاص دعي «صاحب الطراز» ، وكانت مهمته هو وموظفوه الاشراف الدقيق على المصانع التي تنسج الملابس الرسمية والشارات والاعلام

وتبدو اهمية صناع دار الطراز ، انه اصبح تقليدا جاريا كلما تولى شخص منصب الوزارة ، او ولاية احد الاقاليم ، خلع عليه الخليفة الخلعة او البزة الرسمية الكاملة ، والتي تقوم عادة مصانع الطراز بصنعها . وكان لبعض الولاة كالحمدانيين في الموصل ، دور طراز خاصة بهم .

وقد وجدت في العراق بعض الصناعات التي تعتمد على الاخشاب

وسيقان الاشجار ، مثل الرماح ، والنبال ، والاقواس ، والسهام وبعض ادوات الحصار • وتشير المصادر ، ان الاخشاب كانت متوفرة في منطقة الموصل ، وان قسما منها صدر الى بعض مدن العراق الرئيسية •

واحيانا كان الخشب يستورد من الخارج فيتولى الصناع العراقيون صنع الكراسي ، والمناضد ، والابواب ، والشبابيك ، والكؤوس ، والسقوف الخشبية التي كانوا يتفننون في احداث نقوش جميلة فيها والالات الموسيقية• وكانت قطع الخشب تسمر بالمسامير او تدخل نهايتها ببعضها بصورة فنية ، ثم تصقل حتى يظهر الكل قطعة واحدة •

ودخلت الاخشاب ايضا في صناعة السفن والمراكب والقوارب الخشبية التي صنعت في البصرة والابلة وبغداد وواسط والتي استعملت للنزهة ، او النقل ، او الحرب • وينسب الى الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق، انه اول من عمل السفن التي تخرز بالمسامير ، والسفن المطلية بالقير • وتفنن اهل البصرة في صنع ابواب البيوت وسقوفها من جذع النخيل •

وثمة صناعات اخرى نشطت في العراق ، لا سيما بعد ان اصبح مركز الدولة العربية الاسلامية ، نذكر منها صناعة العطور وماء الورد ، واستخلاص الادهان ، من النباتات والبذور ، التي يستفاد منها في الطب وفي الطيب ، واستخلصوا دهن البنفسج الذي تميزت به مدينة الكوفة • كما اشتهرت البصرة بصنع ماء الورد والسكر المستخرج من قصب السكر • ونشطت صناعة الزيوت ، والشموع ، والصابون المستخرج من زيت بذور السمسم والزيتون • واستخرج زيت المصابيح في العراق من زيت السمسم •

واشتهرت بعض مدن الجزيرة الفراتية بالعديد من الصناعات القائمة على المنتوجات الزراعية التي كانت متوفرة هناك ، ولعل اشهر هذه الصناعات صناعة الصابون التي كانت تعتمد على ما تنتجه المنطقة من الزيتون الذي كان

يزرع بكثرة في تلك المنطقة . وكانت ببغداد ، بجانب الكرخ ، محلة خاصة يصنع فيها الصابون .

وفي اواخر القرن الثاني الهجري احدث العراقيون انقلابا عظيما في صناعة الورق ، فحرروا مادة الكتابة من الاحتكار ، وصيروه رخيصا ، حيث انشىء مصنع في (دار القز) لصنع الورق في بغداد .

وتوجد في العراق صناعات قائمة على المنتوجات الحيوانية ، ذكرنا منها الصناعات النسيجية التي اعتمدت على صوف الاغنام ، وشعر الماعز ، ووبر الابل ، والحرير المستخرج من دود القز . ووجدت بجانب هذه الصناعات ، صناعات اخرى تعتمد على الجلود الحيوانية ، نذكر منها جلد الغزال (رق) الذي كان يستعمل في الكتابة الى حين استعيض عنه بالورق في العصر العباسي . ومن الجلود كانت تصنع الاحذية والنعال التي اشتهرت مدينة البصرة بصنعها . كما اشتهرت مدن الجزيرة الفراتية بصناعة الجلود على اختلاف انواعها . وكان سواد الموصل مشهورا في صناعة الالبان والجبن والعسل حيث كانت تبذل عناية خاصة في تربية النحل هناك .

اما الحديد فقد دخل في صناعات عديدة ، كان اهمها الابواب والسكاكين ، والنشاب ، والسلاسل ، والاسلحة ، كالسيوف ، والدروع ، والرماح والاسنة . وعلى الرغم من ان المادة الاولية لهذه الصناعة كانت تجلب من خارج العراق احيانا ، الا ان صناعة الاسلحة في العراق نشطت منذ العهد الاموي ، حيث نالت اهتماما كبيرا من قبل الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك . وتوسعت اكثر ابان العهد العباسي ، حيث قامت صناعة السيوف في كل من الكوفة والبصرة . ويمكننا ان ندرك مدى تقدم هذا النوع من الصناعات اذا ما القينا نظرة فاحصة على انواع الاسلحة التي استخدمتها الجيوش العربية الاسلامية . اما مدن الجزيرة الفراتية ، حيث يتوفر فيها الحديد نسبيا ، فقد

انشئت فيها صناعة الابواب الحديدية التي استعملت في ابواب الابـراج والقلاع واسوار حماية المدن •

واستعمل النحاس في صناعات كثيرة ، تأتي في مقدمتها العملة النقدية (الفلوس) ، والاواني التي اشتهرت بها مدينة الموصل ، وصنع الصفارون القدور النحاسية بحجوم مختلفة ، وكذلك الاواني ، والابواب والقناديل • وتفنن الصناع في صناعتهم فعملوا على حافات الاواني نقوشا ظاهرة صلبة او جوفاء •

وفي مدن العراق الكبرى وجدت صناعات معدنية قائمة على معـدن الفضة والذهب ، حيث استعمل هذان المعدنان على نطاق واسع في مصانع ضرب النقود ، وبخاصة بعد ان اقدم الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان على تعريب السكة عام ٧٥ هـ /٦٩٤ م • كما دخل هذان المعدنان في صناعة الحلي الذهبية والفضية ، فتقدم فن الصياغة في العراق ، بحيث اصبح لصناع العراق شهرة واسعة في كثير من اقاليم الدولة •

وصنع في بعض مدن الجزيرة الفراتية الات القياس مثل الاصطرلاب وغيرها من الالات الرياضية ، وكذلك الموازين الدقيقة •

وقامت في العراق ايضا الصناعات التي تعتمد على القير والنفط ، حيث تتوفر حقوله قرب مدينة الموصل ، وفي مدينة هيت • واشتهر ديـر القيارة — قرب الموصل — بان تحته عين قير ، وكان يرسل الى سائر مدن العراق ، حيث تقير به السفن والحمامات وسطوح الدور • وكانت الدولة قد اعفت القير والنفط والزئبق من الزكاة تشجيعا للصناع علـى استخراجها • كما وجدت قرب الموصل مناجم الكبريت الذي دخل في عدة صناعات •

وخلال قيام الدولة العربية الاسلامية وصل فن صناعة الفخار اوجه من الكمال في العراق ، حيث صنعت الجرار الكبيرة والصغيرة ، للماء والنبيذ•

وكذلك الاواني والكؤوس والحباب باشكال متعددة . وهذه كلها تعمل من الفخار غير المزجج . وقد تكون مزينة بنفوس جميلة ، او خالية من النقوش .

وتفنن العراقيون في صنع الخزف ، واشادت الروايات بالخزف البغدادي ذي الالوان الزاهية . وخلال القرنين الثالث والرابع الهجريين قطعت صناعة الفخار والخزف في العراق اشواطا كبيرة . فبالاضافة الى تفنن العراقيين في جمال الصنعة في هيئة الخزف ، ارتقى التفنن في التزجيج ، وفي استعمال الالوان ، ارتقاء كبيرا . وقد وصلت صناعة التزجيج غايتها في الفنن وجمال الصنعة في سامراء ، حتى ان بعض الباحثين يرى ان فن التزجيج الملون نشأ في العراق ، وانتشر منه الى بلدان عربية اخرى . وتدل البقايا الخزفية التي وجدت في آثار سامراء على ان هذه الصناعة بلغت شأنا كبيرا في هذا الميدان انذاك . فالادوات الخزفية كانت باشكال واحجام متنوعة ، عليها نقوش وتخطيطات بديعة وزاهية .

وتشير النصوص الى وجود مصانع للزجاج في بغداد والبصرة والقادسية والنجف . وقد انتجت هذه المصانع الاقداح والاواني والكؤوس والقناديل . واستعمل الزجاج المنقوش بصورة فنية للشبابيك ، وقد رسمت على الاقداح صور حيوانات وصور بشرية ومناظر صيد . وامتدت شهرة الزجاج العراقي الى مناطق بعيدة حتى وصلت الى الاندلس . وقد شاهد الرحالة (ابن جبير) في الكعبة قناديل من الزجاج العراقي تزينها نقوش جميلة .

وازدهرت صناعة مواد البناء ، كاللبن ، والآجر ، والكلس ، والجص ، حتى تساير الحركة العسرانية الشاملة التي عمت ارجاء كثيرة من بلاد الرافدين منذ بداية عمليات التحرير ، اذ كان العراق اول الاقاليم في بناء المدن ، حيث تم بناء البصرة والكوفة في العقد الثاني الهجري .

وكان الخليفة معاوية بن ابي سفيان قد استعان ببنائين من العراق في

منشآته بالشام ، كما استعان عبدالله بن الزبير بهم في اعادة بناء الكعبة • وانشأ الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط خلال ولايته للعراق •

وفي مستهل قيام الدولة العباسية شيدت قصور فخمة محلاة بالرسوم والزخارف البديعة • كما اقدم الخليفة العباسي الثاني للمنصور على انشاء مدينة بغداد التي لابد من الاقرار بعظمتها ، وبراعة تخطيطها • ذلك ان صناعها كانوا قد اخذوا بحسابات معمارية وعسكرية دقيقة في تلك الحقبة التاريخية الباكرة • وان خططهم هذه اصبحت ظاهرة معمارية جديدة تدل على الابداع والابتكار ، فكان لها تأثير معماري وحضاري على كثير من المدن التي انشأها العرب المسلمون فيما بعد •

و في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري اقدم الخليفة المعتصم بالله على بناء سامراء •كذلك شيدت المساجد الجامعة والقصور والقناطر والقنوات والجسور والسدود وغيرها من مؤسسات الدولة التي كانت تتطلب مهارة فنية عالية ، وكميات كبيرة من مواد البناء •

وبلا ريب ، فان هذه الاعمال الكثيرة قد ادت الى تطور فن البناء تطورا كبيرا ، ولم تقتصر مواد البناء على اللبن والجص والآجر والكلس ، وانما اصبحت بعض الدور تبنى ، او تزين وتنقش ، بخشب الساج والرخام ذى الفصوص الملونة • وكانت صناعة القاشاني العراقي متقدمة ، وان ما كان ينتج منه يفيض عن حاجة العراق لدرجة ان كمية منه ارسلت من بغداد الى القيروان سنة ٢٢٨ هـ / ٨٦٢ م لتزيين مسجدها •

وسخر العراقيون تيار الماء واستخدموه في الصناعة ، حيث اقاموا الارحاء (المطاحن) العائمة على نهر دجلة خاصة قرب بغداد وتكريت والحديثة

وعكبرا ، والبردان ، والموصل ، وبلد (تقع قرب الموصل على نهر دجلة) . وفي الاغلب كانت هذه الارحاء مصنوعة من الخشب والحديد (تسمى الواحدة منها عربة) تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد ، وكل رحى فيها حجران . وكان اكبر رحى ببغداد يقال لها رحى البطريق ، قيل ان وارداتها بلغت مليون درهم سنويا . واستفاد اهل البصرة من تيار المد والجزر في ادارة الارحاء (المطاحن). وفي المناطق التي لا يوجد فيها تيار ماء لاستخدامه في هذا الغرض يمكن الاستعاضة عنه بتيار الهواء .وكان باستطاعة الصناع المشرفين على تشغيل المطاحن ، تنظيم سرعتها بواسطة منافس خاصة تغلق وتفتح حسب الحاجة .

وصنع العراقيون انواعا متعددة من الاحذية الجلدية في اكثر مدن العراق ، لا سيما بغداد والبصرة والموصل . واستعمل صناع الجلود قشور الرمان للدباغة .

وهناك منتوجات صناعية اخرى اقل شأنا مما ذكر ، منها صناعة ، وتجفيف الفواكه وحفظها ، وتوجد اشارات قليلة الى صنع الادوية والعقاقير الطبية .

ومن هذا نستطيع ان ندرك ان هناك صناعات عديدة كانت قائمة في العراق قبل عمليات التحرير ، وان الدولة العربية الاسلامية عملت بوتائر متعددة على صيانتها وتنشيطها وتحسينها وتطويرها ، واستحداث صناعات جديدة تطلبتها المرحلة التي وصلت اليها الدولة من التقدم والرقي ، والتطور الذي بلغه المجتمع . فلا غرو ان يلاحظ المتتبع قيام صناعات معدنية ، وخشبية، ونسيجية، وجلدية في مختلف مدن العراق وقصباته وقراه . وان هذه الصناعات كانت تلاقي اهتماما ودعما وتشجيعا من قبل الدولة والمسؤولين الذين عملوا على وضع الاسس والقواعد المتينة التي كان من شأنها النهوض بالصناعة ،

وفتح افاق جديدة امامها ، الامر الذي جعلها تبلغ درجة عالية من التقدم والرقي

الاصناف والتنظيم الحرفي

احترف العراقيون كثيرا من المهن والحرف الصناعية . وتميز الحرفيون العراقيون ، بحبهم لحرفهم ، وبالعمل الدؤوب ، واتقان الصنعة والابداع فيها .

ولما اكمل تحرير العراق ، وخيم الامن والاستقرار على ربوعه ، في ظل الدولة العربية الاسلامية ، التي طبقت الحرية في العمل ، وفتحت المجال واسعا امام جميع الفئات الاجتماعية في ممارسة العمل واختيار المهن التي تناسب كلا منهم .

ولم يكن في نهج الدولة ما يغلق دون اهل الذمة اي باب من ابواب الاعمال . وبذا اصبحت اقدامهم راسخة في الحرف التي تدر الارباح الوفيرة ذلك ان الدولة لم تفرق بين المواطنين من حيث الاعتقاد الديني ، اذ مارسوا مختلف الصنايع ، بمحض ارادتهم ، فكان منهم صيارفة ، واطباء ، وصاغة ، وعطارون ، ونجارون ، وحدادون ، وبناؤون ، ودباغون ، وصباغون ، ونساجون ، وزجاجون ، وغير ذلك من المهن . حينئذ اصبح اهل العراق يضرب بهم المثل في « البراعة في كل صنعة » ، وبخاصة اهل الموصل الذين اشتهروا بالدقة في الصناعات . ولم تقل شهرة اهل البصرة عن اهل الموصل في الحذق بالصناعات ، والدقة في اتقانها ، حتى قيل : « الفصاحة بالكوفة ، والصنعة بالبصرة » .

وكان الاسلام قد زكى الحرف . وفي القرآن الكريم وردت آيات قرآنية

عديدة تحث على التدقيق والاخلاص في العمل وزيادة الانتاج • قال تعالى في سورة الكهف : « انا لا نضيع اجر من احسن عملا » • وقال في سورة الشعراء : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » • واشير الى اهمية العمل وسمو منزلته في الحديث النبوي الشريف ، حيث اكد الرسول عليه السلام ان الله يحب الشخص الذي يحترف مهنة تكفيه مساءلة الناس • وقال : « ان الله يحب احدكم اذا عمل عملا اتقنه » • وقوله : « ان الله يحب المؤمن المحترف » •

وليست لدينا ادلة على ان الدولة وضعت قيودا امام المواطنين تمنعهم من انشاء مصانع خاصة ، وان هؤلاء كانوا مستفيدين من الحماية التي تقدمها لهم الدولة • ولم يكن عليهم الا ان يعترفوا بسيادتها ويطبقوا نظمها ، ويدفعوا الضرائب المقررة عليهم • وكانت لهم حرية واسعة في ممارسة حرفهم •

غير ان الصناع واصحاب الحرف كانوا عرضة لرقابة العامل المختص • وبلا ريب ، فان القيود التي فرضتها الدولة لم تكن ثقيلة ، او مقيدة للصناع ، واذا قارناها بالقيود التي فرضتها الحكومات المعاصرة للدولة العربية الاسلامية حينذاك ، تبدو خفيفة جدا ، مرنة لدرجة يتاح فيها للصناع احيانا اختيار ما شاءوا من الحرف او تركها ، او تبديلها بمحض اختيارهم ، وحسب ظروفهم كما ان لهم الحق في فتح مصانعهم حيثما شاءوا في المدينة ، الا اذا كانت صناعتهم تولد ضررا صحيا على السكان •

ونستطيع ان نميز نوعين من الصناع ، الصناع المأجورين الذين يقومون بعملهم لحساب غيرهم لقاء اجر محدد يتقاضونه • والصناع المستقلين الذين يمارسون عملهم في بيوتهم ، او حوانيتهم لحسابهم الخاص ، وهؤلاء ،

في الاغلب ، من ذوي الحرف الذين ورثوها عن آبائهم • وهم على العموم احسن مكانة من الصنف المأجور ، فهم يمتلكون وسائل الانتاج والادوات البسيطة ، ورأس المال المحدود ، ولهم حرية التصرف في عملهم كما يشاءون بعيدا عن السيطرة والتسلط والاستغلال •

ومهما يكن من امر ، فقد كان بمقدور الصناع ان ينعموا بثمار اتعابهم ، ويزيدوا دخلهم بمهارتهم في الصناعة ، وزيادة انتاجهم ، وحماستهم في العمل ، خاصة وان الضرائب عليهم كانت خفيفة ، وان الدولة اسقطت عن اصحاب المهن ضريبة السوق ، ولم يكونوا تحت نير استغلال الرأسماليين ، وبذلك حقق بعضهم ارباحا جيدة •

ومعلوم ان اجور اهل الصنايع والحرف تختلف تبعا لنوع العمل الذي يؤدونه • ومن المؤكد ان اجور الصناع الفنيين الماهرين كانت اعلى من اجور الصناع غير الماهرين • ففي اواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، كانت اجرة العامل الذي يشتغل في خراطة الزجاج في اليوم درهما ونصف الدرهم ، واجرة عامل الحفر ثلاثة دراهم في اليوم ، واجرة الحداد خمسة دراهم ايضا في حين كانت اجرة البناء تتراوح بين قيراط وخمس حبات ، وهي اجرة مجزية حينذاك ، حيث انها كانت تساوي قيمة عشرة أرطال من لحم الغنم ، او خمسة عشر رطلا من لحم البقر •

ويمكننا ان نقدر ضخامة عدد العمال واصحاب الصنايع في العراق اذا ما علمنا ان الخليفة ابا جعفر المنصور استلزمه مائة الف عامل من اصناف المهن والصناعات عندما شرع ببناء مدينة بغداد •

ونستطيع ان ندرك مكانة العمل واهل الصنايع في المجتمع من كثرة

الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر العمل والاجر ، والحديث النبوي الشريف ، وتشريعات الدولة ، ونظرة الفقهاء ، التي كانت كلها تؤكد على شرعية العمل والحث عليه ، والدعوة له ، حتى عد العمل واجبا دينيا ودنيويا ، وضرورة اجتماعية مارسها عدد من الفقهاء .

اما مكانتهم السياسية فتبدو جلية عندما اشرك الخليفة هرون الرشيد اهل الحرف في البيعة لابنه المأمون سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م . واسهم اهل الحرف والصنايع بالاحداث السياسية التي كانت تحدث بين آونة واخرى ، ذلك ان اهل الصنايع قد انحازوا الى جانب الخليفة الشرعي في نزاعه مع اخيه المأمون حيث اشترك الصناع واهل الحرف في جيش الخليفة الذي تصدى لجيش المأمون . ووقف اهل الحرف الى جانب الخليفة المستعين بالله (٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م) ضد المتمردين عليه من جند الاتراك .

وبلا ريب ، فان وقوف اهل الحرف والصنايع الى جانب احد الاطراف المتنازعة كان له اثره الفاعل في مجريات الاحداث . وان اسهامهم في الاحداث الجارية دليل وعي أهل الصنايع الذين ادركوا ان من الصواب الوقوف بجانب السلطة الشرعية القائمة انذاك ، فاندفعوا مخلصين لاداء تلك المهمة التي عهد بها اليهم .

وخلال الربع الاخير من القرن الثالث الهجري ، أصبح بعض اهل الحرف في عداد حاشية الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ — ٩٠١ م) وكانوا يتقاضون أرزاقا من الدولة ، ومنهم الصاغة ، والخياطون ، والأساكفة، والحدادون ، والفراءون ، والمطرزون ، والوراقون ، والنجارون ، والخراطون وغيرهم . والراجح ان عددهم غير قليل ، وأنهم كانوا يتقاضون رواتب شهرية جيدة .

ولعبت الصناعات دورا كبيرا في حياة المدن العراقية ، فالمصانع والدكاكين التي تقوم ببيع المنتوجات الصناعية كانت توجد في المدن على طول الطريق بين الباب الرئيس للمدينة ومركزها الذي فيه المسجد الجامع عادة .

ولا نستطيع الجزم بوجود تنظيمات نقابية مهنية بمفهومها المعاصر بين صفوف الصناع والحرفيين في العراق ، في بداية قيام الدولة العربية . الا اننا نلمس بوضوح شيئا من التكتل بين اصحاب الحرف والصنايع الذين كانوا يشار اليهم بـ « الاصناف » و « اهل المهن » و « اهل الصنايع » .وهي اشارات تدلل على بروز ظاهرة التنظيم ، وتشعر بان هناك حركة لها اصولها وتنظيماتها ، واهلها الذين يتميزون عن غيرهم بطبيعة العمل ، ومقدار الاجر ، واشكال التعاون . ولابد ان يعطي هذا التميز لكل صنعة اسباب اعتزاز اصحابها بها ، والاهتمام بالمنتسبين اليها ، والشعور تجاههم بما يقوى وحدة العمل ، ويوثق اسباب التعاون ، ويخلق الجو المناسب الذي يعود الى الحرفة بما يحقق لها الربح ، او يطور اساليبها .

وهكذا ساد شعور بضرورة تماسك اصحاب الحرف ، ولا سيما في الازمات السياسية والاقتصادية التي قد تحدث بين الفينة والفينة . ولكن في النصف الثاني من العصر العباسي حدثت تطورات داخلية في تنظيم اهل الحرف اكسبتها اطارها العام ، فاصبح لكل حرفة شيخ او (رئيس) من اصحابها ، تعينه الحكومة عادة ، او تعترف به ، وتعده ممثلا للحرفة ، وعن طريقه تجري الاتصالات ، وتتحدد المواقف . ومن الطبيعي ان يؤدي هذا النهج الى ايجاد الوسائل التي تحمي اصحاب الصنف ، وتبعد اي تجاوز عليهم . وفي حركة صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م

حين فرض البويهيون المتغلبون ضريبة العشر على هذه المنسوجات ببغداد ، دليل اكيد على دقة التنظيم الذي وقف بوجه هذا التجاوز •

ولم يكن تكتل اهل الصنايع مقتصرا على الاسواق ومحلات الانتاج التي يعملون فيها فحسب ، بل احيانا نجد هذه الظاهرة في اماكن سكناهم ايضا ، اذ صرنا نلاحظ تجمع اصحاب الحرف في جماعات ، في حي او عدد من الاحياء الخاصة •

ولابد ان تأخذ الحرف اعرافها واصولها وهي تتبلور في اطار الاهتمامات المتزايدة ، وتستقر في توجهات مهنية تتحدد درجاتها في مراحل التدرج المهني البحت ، فيكون العامل (مبتدئا) ، ثم يصبح (صانعا) ، وينتهي الى مرحلة (الاستاذية) • وهو في كل مرحلة من هذه المراحل يمارس شكلا من العمل ، ويلتزم بقواعد معينة ، ويتقاضى اجرا مخصصا •

ومما يظهر قوة التماسك الحرفي ، والشعور بالكيان لدى اهل الصنايع شيوع الانتساب الى المهن بجنب الانتساب الى المدينة او القبيلة ، فصرنا نسمع لقب الزجاج ، والزيات ، والجراح ، والحلاج ، والثعالبي ، والفراء والنجار ، والجصاص •• وغيرهم • وهذا يدل على ان الاشتغال بالمهن اليدوية لم يكن اقل شأنا من الحرف الاخرى ، وان روح التكتل اصبحت قوية بين اصحاب الصناعة الواحدة •

وبلغ من تماسك اصحاب الصنايع وتكتلهم ان القاضي الماوردي اصبح يرى في العرف الجاري بين اهل الصنايع اساسا يستطيع المحتسب الرجوع اليه حين ممارسة مهمته في مراقبة الاسواق ، وفض المنازعات بين اهلها • وهي حالة استوجبتها ضرورة توحد العاملين لاسباب تتعلق بتيسير العمل ،

والحفاظ على وحدة الصنف . وحماية المنتجين • ذلك ان الدولـة العربية الاسلامية اشرفت بدقة على الاسواق ومراكز الانتاج الصناعي ، وعينت لذلك موظفا خاصا يعاونه عدد من الموظفين المنضوين تحت امرته • وبذلك كان الصناع واصحاب الحرف عرضة لرقابة الموظف المختص • ولم تقتصر مهمة هؤلاء على مراقبة عمليات البيع والشراء ، لمنع غش المبيعات ، وتدليس الاثمان ، والبخس والتطفيف ، وانما تعدت ذلك فاصبح من حقهم مراقبة جودة المصنوعات ، والصاغة ، والحاكة ، والصباغين ، حتى لا يهربوا باموال الناس او حاجاتهم •

ومن هنا يتضح ان الصناع كونوا ، فيما بينهم ، تقاليد واعرافا ، اعترفت بها الدولة واقرتها واخذ بها القضاة والمحكمون اثناء النظر في الخلافات التي قد تظهر بين هؤلاء الصناع ، واحيانا يلجأ القضاة الـى استشارة اهـل الخبرة من اصحاب الحرف لغرض الاستعانة برأيهم في البت بالخصومـات التي قد تحدث بين اهل الصنايع •

وبمرور الزمن قويت الرابطة بين اهل الصنايع هؤلاء ، وصار كل واحد منهم يشعر بالارتباط الوثيق باهل صنفه ، وصار من اقوالهم « الصناعـات نسب » • ولعل ذلك كان امتدادا للتقاليد العراقية الموروثة التي عرفتها ارض الرافدين ، واكتسبها العراقيون عبر السنوات الطويلة ، وانسجمت مع الوضع الجديد •

ويلمس المتتبع احيانا تنابذا بين بعض فئات اهل الحرف والصنايع ، قد يصل حد التراشق بالتهم ، وربما تصاعد الى درجة الاقتتال • ولكن مثل

هذه الحوادث كانت تحصل على نطاق ضيق ومحدد . ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة .

وعلى الرغم من شراسة الغزو المغولي وهمجيته ، وعظم الاخطـار والتخريب الذي ألحق بالعراق سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . الا ان التنظيمات الحرفية والمهنية سرعان ما استعادت مسيرتها ، ولو انها ليست بنفس الوتائر السابقة .



المصـــادر

١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .
٢ ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ١٩٦٥ م .
٣ ـ ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ م .
٤ ـ اخوان الصفا : رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، بيروت ١٩٥٧ م .
٥ ـ الاصطخري : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ م .
٦ ـ الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، مصر ١٩٢٤ م
٧ ـ البخاري : الجامع الصحيح ، ليدن ١٨٦٤ م .
٨ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، بيروت ١٩٥٦ م
٩ ـ الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهرة ١٩٠٨ م
١٠ـ الثعالبي : لطائف المعارف ، مصر ١٩٦٠
١١ـ الجنابي : (الدكتور خالد) ـ تنظيمات الجيش في العصر الاموي
١٢ـ الجهشياري : الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨
١٣ـ الخربوطلي (الدكتور علي حسني) تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، القاهرة ١٩٥٩ .
١٤ـ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد او مدينة السلام ، القاهرة ١٩٣١ .
١٥ـ الدوري : (الدكتور عبدالعزيز) ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القـرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨ .
١٦ـ الشيخلي (الدكتورة صباح) ـ الاصناف في العصر العباسي ، بغداد ١٩٧٦ م .
١٧ـ الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ م .

١٨ـ الصابي : الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ م
١٩ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٦ .
٢٠ـ العلي : (الدكتور صالح) ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة بغداد ١٩٥٣ .
٢١ـ الغزالي : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٢٩٦ هـ .
٢٢ـ القيسي : (الدكتور نوري) ـ الحرف والاصناف (بحث غير منشور) .
٢٣ـ الكبيسي : (الدكتور حمدان) ـ اسواق بغداد ، ١٩٧٩ .
٢٤ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ، مصر ١٢٩٨ هـ .
٢٥ـ متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٤٨ .
٢٦ـ المشهداني : (الدكتور محمد) ـ الجزيرة الفراتية والموصل ، بغداد ١٩٧٧ .
٢٧ـ المسعودي :مروج الذهب ، القاهرة ١٣٠٣ هـ .
٢٨ـ المقدسي : احسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ .
٢٩ـ اليعقوبي : البلدان ، بريل ١٨٩٢ .
٣٠ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨ هـ .
٣١ـ الماضيدي : (الدكتور عبدالقادر) ـ واسط في العصر الاموي ، بغداد ١٩٧٦ .

الفصل السابع

التجارة الداخلية والخارجية

د . عبد الرحمن عبد الكريم العاني

عميد كلية التربية ــ جامعة بغداد

د . حمدان عبد المجيد الكبيسي

كلية الآداب ــ جامعة بغداد

المبحث الأول

التجارة الداخلية

عوامل ازدهار التجارة

مارس العراقيون التجارة منذ عهد سحيق ، كما انهم اتقنوا الطرق لاستثمار رؤوس الاموال وتنميتها ، وكانت لهم صلات تجارية نشيطة مع كثير من البلاد ومنها الحجاز ، ذلك ان عرب الانبار والحيرة مارسوا التجارة مع قريش قبيل ظهور الدعوة الاسلامية ، كما انهم اشتركوا في الاسواق الموسمية التي كانت تقام في مناطق معينة من شبه الجزيرة العربية اذ وفد العراقيون الى سوق دومة الجندل للبيع والشراء في هذه السوق . وبجانب ذلك كان للعراقيين نشاط تجاري باسواقهم الخاصة مثل سوق الحيرة في غربي الفرات ، وسوق بغداد في غربي دجلة ، وسوق الثلاثاء شرقي دجلة ،

وغيرهامن الاسواق القليلة الشأن ،ومن المؤكد ان هناك اسواقا اخرى كثيرة كانت قائمة اذ من البديهي ان كل بلدة لها سوق خاص بها .

ومن مظاهر نشاط التعامل التجاري باسوق العراق ، ان الضرائب المنظمة كان تستوفى في الاسواق مما يباع هناك ، والظاهر ان الناس استثقلوها فعبر عن وجهة نظرهم الشاعر جابر بن حني التغلبي بقوله :

أفي كل أسواق العراق اتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

ولما تحررت جميع اراضي العراق وتوطدت اركان الدولة العربية الاسلامية ، وسع العراقيون نشاطهم في التجارة واعمالها لا سيما وان الدولة اتاحت لهم فرصا واسعة للتجارة والربح الحلال .

وتهيأت للعراق عدة عوامل ادت الى ازدهار النشاط التجاري فيه . فقد تمتع هذا القطر بموقع متوسط بين بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد الروم والاقاليم الشرقية من الدولة ، وحفل بانهار كثيرة استخدمت في نقل السلع التجارية ، واتبع المسؤولون في العراق سياسة حرية التجارة ، فلم يضعوا قيودا امام نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة ، ولم تحتكر الحكومة تجارة اية بضاعة ، او تمنع مبادلتها ، وعمل ولاة العراق خلال عهد الراشدين والامويين ، على تنشيط الحركة التجارية ، فشيدو الاسواق والمنشآت التجارية ، وشقوا الانهار ، واقاموا الجسور ، وعبدوا الطرق لانهم ادركوا ان تنشيط الحركة التجارية في العراق من شأنها زيادة ايرادات بيت المال ، ورفده بموارد اضافية ، الامر الذي سيؤدي الى ان يصبحوا موضع رضا الخليفة .

وكان العطاء قد شمل عددا كبيرا من سكان العراق ، مما ساعد على زيادة دخلهم وارتفاع مستوى معيشتهم . كما استقبل العراق آلافا من الجند العرب المسلمين الذين كانوا يمرون به خلال توجههم نحو الجبهة الشرقية

وهكذا استمر النشاط التجاري في اسواق العراق ، لابل زاد عما كان عليه سابقا بتوسع المدن العربية الاسلامية ، واتساع رقعة الدولة ، ودخول اقاليم متعددة تحت لوائها ، وتعدد دور الضرب ومهارة الذميين في التبادل النقدي ، وظهور نظام المصارف . كما ان الارث التجاري ، والعادات المحلية ، قد تكاملت مع شريعة الدولة الجديدة وأعانتها على تنشيط الحركة التجارية في الاسواق .

وحصل تغير اساسي في نمط حياة العراقيين بعد قيام الدولة العربية الاسلامية ، فنشأت عندهم اسواق نشيطة وبخاصة في المدن التي مصرت حديثا ، ذلك ان المسؤولين في الدولة وضعوا في تقديرهم اهمية الموقع التجاري للمدن الجديدة التي يرومون انشاءها . وتتجلى هذه الاهمية في سهولة وصول السلع التجارية الى المدينة الجديدة ، لاسيما عندما يكون موقعها على ملتقى الطرق التجارية ، لان ذلك يسهل الاتصال بينها وبين بقية المدن ، وينشط تجارتها . وبذلك اعتبرت المراكز الاساسية للحياة العامة في المدن العربية الاسلامية الجديدة هي المسجد الجامع ، ودار الامارة ، والسوق ، وهو مركز الحياة الاقتصادية والتجارية . ويظهر هذا التماثل واضحا في كافة المدن الجديدة .

وبلا ريب فان تحاشي اصحاب رؤوس الاموال من العرب المسلمين ، عن توظيف اموالهم في المصارف ، دفعهم الى توظيفها في التجارة . كما ان وقوع اقاليم كثيرة متنوعة المناخ تحت لواء الدولة العربية الاسلامية ، زاد في حجم التبادل التجاري بين الاقاليم . وتوفرت جملة عوامل ادت الى ازدهار التجارة منها :

١ ـ دور المسؤولين في ازدهار التجارة ونمائها :

لم تكد دعائم الدولة تتوطد ، حتى عم الامن والاستقرار في ربوعها ، وخيم السلام والطمأنينة في اكثر اقاليمها . وكان تعيين ولاة اقوياء قديرين على

العراق ابان عهد الراشدين والامويين ، كفيلاً بتهيئة بعض عناصر الازدهار التجـــاري في ربوعـــــه .

وتلمس الخلفاء والولاة ، ما للعراق من اهمية اقتصادية ، ذلك ان هـــذا الاقليم تمتع بموقع جغرافي فذ ، وارض طيبة تمتاز بالخصب . وانهارطويلة غزيرة المياه ومنتظمة الجريان ، فضلا عن ملاءمة مناخه ، واستعداد ســـكانه للعمل والانتاج . كما ان كثيرا من الجند المحررين استقروا بالعراق ، وكانوا مشغوفين بالعمل والمثابرة والانتاج . فلا غرو والحالة هذه ان اصبح العـــراق موضع اهتمام المسؤولين في الدولة العربية ، لان موارده شكلت نســبة عالية مـــن ميزانية الدولة . وحث الخليفة عمر بن الخطاب ولاة العراق على ضرورة العناية بالطرق والجسور والحرث . ولم تكن الضرائب المفروضة على التجار خلال الحكم الأموي باهضة فقد اعفى صغار التجار مـــــن الضرائب تشجيعا لهم وتخفيفا من اعبائها ، ووضع حد ادنى لقيمة التجارة التي فرضت عليهـــا الضرائـــــــب .

وكان العباسيون منذ البداية قد صمموا على ان يكون العـــراق مركز حكمهم . وكانوا مدفوعين بعوامل سياسية واستراتيجية واقتصادية واضحة . اذ تشير النصوص ان الخليفة المنصور قال ابان اختياره موقع بغداد « هـــذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شيء ، تأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك . هـــــذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك » .

وبلا ريب ، فأن الخليفة قد تلمس الاهمية الاقتصادية والتجارية لموقـــع عاصمته الجديدة ، لاسيما بعد ان قيل له « وانت ياأمير المؤمنـــين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من الشام والرقة ، ومن المغرب في طرائف مصـــــر ، وتجيئك الميرة من الصين والهند والبصرة وواسط ، وديار بكـــــر والروم والموصل » فوجد هذا الكلام هوى في نفس الخليفة ، وادرك حينئذ الاهمية

الاقتصادية والتجارية لموقع بغداد خاصة ، والعراق عامة • وسرعان ما زادت اهمية حاضرة الخلافة الجديدة من الناحيتين السياسية والاقتصاديـــة ، لان عناية المسؤولين توجهت اليها ، فأصبحت مدينة عظيمة ، قل ان نجد لها نظيراً سعة وعمارة ، وكثرة غلال ونشاطا تجاريا • حيث توفرت فيها فرص كثـــيرة لاهل التجارة وطلاب الجاه والثراء • فتكاتفت مساعي رجال المال والاعمـال مع الدولة على اقامة المنشـآت التجارية وتوسـيعها ، حيث بلغت اجـــرة اسواق بغداد فقط (١٢) مليون درهم سنويا • وهكذا نلمس ان بغـــداد صارت مركزا تجاريا مهما ، وملتقى كثير من الطرق التجارية ، الامـــر الذي ساعد على تدفق السلع على اسواقها • كما تدفقت اليها الاموال والميرة مـــن الامصار ، مما ادى الى زيادة السيولة النقدية في العاصمة خاصة والعـــراق عامـــة ، وعندئذ نشطت فيها حركة البيع والشراء ، مما ادى الـــى زيادة ارباح اهـــل الســـوق •

وهكذا جنى العراقيون من التجارة ثمارا طيبة بعد انتقال مركز الحكـــم الى بلاد الرافدين ، ابان قيام الدولة العباسية ، حيث وظفوا ارثهم الحضاري وحذقهم التجاري في هذا المجال ، واستفادوا من الظروف المستجدة فأصبحوا بمضي الوقت الموردين الرئيسيين لسلع الشرق الاقصى في اغلب اقاليم الدولة•

وبلا شك ، فان شدة الزحام الذي تؤكـــده النصوص ، والذي كانت تشهده اسواق العراق ، هو ظاهرة اخرى تؤكد بدورها نشاط البيع والشـــراء في الاسواق •

ونستطيع ان ندرك المدى الواسع الذي بلغته اسواق العراق مـــن كثرة السلع الواردة عليها والمعروضة فيها ، وكثرة عدد السفن التجارية الناقلة لهذه البضائع•ونظرا لهذه الكثرة تطلب الامر تنصيب شخص معين ليكون مسؤولا عن هذه السفن•ويجبي الرسوم المفروضة على السلع المنقولة بواسطتها • وكانت المؤسسات التجارية موضع رعاية السلطة فقد اوعز الخليفة المعتصم بالله بتفريق

عشرة ملايين درهم على تجار اسواق الكرخ كتعويض لهم عما أصابهم مـــن اضرار من جراء الحريق الذي التهم دكاكينهم وما فيهـا . وفي سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م قسم الخليفة في اهل بغداد اموالا كثيرة على عامة الناس ، كما فرق اموالا اخرى على قوم من التجار . فلا غرو ان احتفظت الاســواق بنشاطها التجاري حتى بلغت شأوا بعيدا من العظمة والازدهـــــار .

وآلى المسؤولون على انفسهم الا يرهقوا السكان بالضرائب ، فلم يضعوا على الاسواق التجارية غلة ، وبذلك ظلت الاسواق التجارية في العراق معفاة مـن كثير من الضرائب . فقد الغى الخليفة الواثق بالله جباية اعشار ســـفن البحر مما ساعد على تنشيط الحركة التجارية ، واسقط الخليفة المعتضد بالله ضريبة المكس ، واتخذ الخليفة المقتدر بالله اجراءات مـــن شأنها تقديـــم التسهيلات لصغار الباعة من التجار . وبذلك انتعشت الاســـواق التجاريـــة ونشــــطت .

وتذكر الكتب ان الخلفاء وامراء المدن قد شددوا الرقابة على الاسواق وتابعوا ارتفاع الاسعار فيها . وكان الخليفة يختار لهذه المهمة رجالا اتصفوا بالورع والتقوى ، ليراقبوا الاسواق ويمنعوا الغش والتدليس والتطفيف . ولشـــدة اهتمام الخلفاء بالاســواق كان بعضهم يتفقد احـــوالها ، ومـــا يجري فيهـا بنفسه كما كانت السلطة تضع على الاسواق حراسا في الليل منعا للسرقات .

وشعر المسؤولون ان الازدهــار التجاري ، في العــــراق خاصة وبقية اقاليم الدولة عامة ، يتطلب الاهتمام بالطرق التي تربط المدن العراقية وتأمينها وتهيئة وسائل النقل اللازمـــة .

ب ـ ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة القدرة الشرائية

عند اتمام تحرير العراق ، قامت فيه مؤسسات حكومية تولـى ادارتهـا موظفون ، كانوا يتقاضون رواتب معينة من الدولة . وكان الامــير على رأس

هؤلاء الموظفين ، والى جانبه القاضي وصاحب الشرطة ، وكتاب الدواوين ، والمحتسب ومن يتبعه وبقية الموظفين • وان رواتب هؤلاء كانت تتحدد تبعا لنوع الوظيفة وطبيعة العمل ، ومن المؤكد ان الزيادة التي تحدث في رواتب موظفي الدولة بين اونة واخرى ، كانت لها انعكاساتها المؤثرة على النشاط التجاري في الاسواق ، اذ هيأت لدى فئة واسعة من ابناء المجتمع قدرة شرائية عالية امتصت اكثر ما كان يعرض في الاسواق من سلع وحاجيات ، ذلك ان حاجاتها المعاشية ، وزيادة دخلها ومتطلباتها الاجتماعية ، خلقت قوة دافعة للنشاط الاقتصادي في الاسواق • وفي نفس الوقت حملت التجار على ان يضربوا في الامصار لارضاء تلك الاحتياجات المتنوعة المتزايدة •

وتشير النصوص ان والي العراق زياد بن ابيه كان يتقاضى خمسة وعشرين الف درهم سنويا ، بالاضافة الى مخصصات اضافية اخرى ، في حين كانت مخصصات الحجاج بن يوسف الثقفي نصف مليون درهم حين كان واليا على واسط ، وان راتب يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري كان ستمائة الف درهم سنويا • اما موظفو الدواوين في العهد الاموي ، فكانت رواتبهم تتراوح ما بين ثلاثمائة درهم شهريا وثلاثين درهما في الشهر ، في حين كان رزق قاضي البصرة ابان بن معاوية مئة درهم شهريا • بينما كان راتب قاضي الكوفة في زمن الوالي يوسف بن عمر الثقفي مئة وخمسين درهما ، وقيل مئتي درهم في الشهر ويقال ان زياد بن ابيه رفع رواتب الموظفين ، كما حصلت زيادة اخرى في رواتبهم في اواخر العهد الاموي •

ويؤكد (بارتولد) حصول زيادة في رواتب الموظفين في العهد العباسي ، بحيث اصبح راتب القاضي اربعة الاف درهم شهريا • ويشير الثعالبي الى أن وزير الخليفة المأمون وسع على الكتاب في الجرايات•وكان الخليفة المعتضدبالله قد زاد رزق الوالي حامد بن العباس من الفين وخمسمائة في كل شهر الى ثلاثة الاف دينار • وفي اواخر القرن الثالث ، وبداية الرابع الهجريين ، بلغ

راتب الوزير خمسة الاف دينار في كل شهر ، اضافة لما تدره عليه الضياع التي كانت تمنح له ابان تلقده منصبه .

ونستطيع ان ندرك الزيادة في رواتب الموظفين اذا ما علمنا ان كاتبا اشتغل في احدى الدواوين الحكومية بمرتب شهري قدره عشرة دنانير ثم زاده المسؤول عن الديوان الى ثلاثين دينارا ، ولم تمض الا فترة قصيرة حتى بلغ راتبه خمسمائة دينار في الشهر . وهناك مثال آخر ان حاجبا كان يتقاضي مائة وعشرين دينارا في الشهر ، وبعد برهة وجيزة ضوعف هذا الراتب .

وفي الجملة ، فان رواتب الوزراء والعمال وموظفي الدولة قد زادت كثيرا منذ بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عما كانت عليه قبل هذا التاريخ ، وظلت مستمرة في الصعود ، وان لم تكن على وتيرة واحدة، وان هذه الزيادة ساهمت مساهمة كبيرة في تنشيط الحركة التجارية في الاسواق .

ومن جانب آخر نلمس ان زيادة حصلت في رواتب الجند . فعلى الرغم من ان عطاء المقاتلين حدده كثير من الامور منها كثرة او قلة موارد الدولة ، ومكانة المقاتل القيادية ، والفترة الزمنية التي مارس الجندية فيها ، ففي هذا الصدد ذكر الطبري ان الخليفة عمر بن الخطاب وضع للجند الذين كانوا يقاتلون في العراق ويتولون تحريره قبل القادسية ثلاثة الاف درهم في السنة ، كحد اعلى . في حين كان الحد الادنى لاعطيات جند العراق تتراوح ما بين الفين الي الف وتسعمائة ، او اقل قليلا . وفي زمن الحجاج كان راتب الجندي في مدينة واسط مئة درهم في الشهر ، وعند ما تقلد الوليد الثاني الخلافة زاد عطاء الجند جميعهم عشر دنانير ومن ضمنهم جند العراق .

ومن المؤكد انه طرأ تغير ملحوظ على مقدار رواتب الجند ابان قيام الدولة العباسية ١٣٢هـ / ٧٤٩م كما طرأ تغيير آخر على نظام دفع الرواتب

لهؤلاء الجند . ففي اعقاب وفاة الخليفة ومجيء خليفة جديد كانت تــوزع الاموال على الجند ، وان الخليفة الجديد كان يســتهل حكمه بأن يــوزع الاموال والارزاق الاضافية على الجند ، واحيانا كان بعض الخلفاء يستميلون الجند الى جانبهم عن طريق الزيادة في عطائهــم .

وفي اواخر القرن الثالث الهجري (التاسـع الميلادي) ظهر تقليد مفاده انه كلما جاء خليفة جديد وزع على جنده اموالا سميت مال البيعة .. وكلما اخفقت حركة مناوئة اطلق الخليفة لجنده اموالا جديدة . واحيانا كان الجنـد يطالبون بمنح جديدة لقاء ما حققوه من نصر وظفر على بعض الخارجين علـى السلطة . وبلا ريب فان هذه الزيــادات المتتالية التــي حصلت في رواتب وأرزاق الجند ، لابد ان تكون قد حركت النشــاط التجاري في اســواق العراق .

وكان بعض المسؤولين يرى ان مقتضى الحال يستوجب اعطاء منــح مالية ، كلما جاء خليفة جديد ، او اخمدت نار فتنة مناوئة . فأصبحت منـح واعطيات هؤلاء المسؤولين عوامل من شأنهــا زيادة النشــاط التجاري فــي الاســواق .

وشملت منح الخلفاء الاقرباء وعامة الناس وكانت هذه النفقات يعم نفعها لاسيما حين تبلغ ملايين الدراهم . وامتد عطاء المسؤولين ليشمل الفنانــين المبدعين ، اذ منح ابراهيم الموصلي مائتي الف درهم لبراعته في اللحن والغناء . ولنفس الغرض كوفيء ابراهيم بن المهدي بمائتي الف دينار واكرم المغنــي (ابن عائشة) الذي وفد الى بغداد ابان خلافة المقتدر بالله .

وخص الخلفاء والادباء بعطائهم ، اذ منح علي بن حمزة الكسائي خمسين الف دينار ، كما منح الاصمعي مائة الف درهم . واعطي الفراء عشرة الاف درهم ، كمامنح اديب آخر خمسين الف درهم ، ومنح ابو بكر الصولــي

عشرة الاف درهم ، واكرم ابن دريد اللغوي اذ اجرى له مرتب شهري مجزٍ . وامتدت منح المسؤولين لتشمل الشعراء الذين نظموا الشعر فأجادوا . وقدم بعض المسؤولين مساعدات مالية لاهل السوق عندما كانت تلم بهم حوادث طارئة تلحق بهم اضرارا مادية كبيرة .

ويبدو من كثرة الهدايا والمنح وشدة الاهتمام بها ، ان الدولة كانت تضرب نقودا خاصة لهذا الغرض .

وهكذا نجد ان المنح والهبات والعطايا والمساعدات المالية ، بأشكالها المتنوعة ، كانت تقدم الى فئات متعددة من الشعب . وان حصولهم عليها كان يؤدي بدوره الى زيادة السيولة النقدية في الاسواق التجارية ، كما يؤدي الى ازدهار النشاط التجاري فيها .

وفي الربع الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، اصبح باستطاعة بعض المسؤولين وكتاب الدواوين ان يمنحوا مؤيديهم وذوي الفضل اليهم جرايات مستمرة ، ومنح احد الوزراء كاتبه ستين الف دينار .

وشملت منح الوزراء الشعراء ، حيث كان احد الوزراء يطلق لهم عشرين الف درهم سنويا رسما لهم ، واجرى الرزق على خمسة الاف من اهل العلم والدين والبيوت والفقراء اكثرهم مئة دينار في الشهر ، واقلهم خمسةدراهم وما بين ذلك ، وخصص لطلاب الحديث عشرين الف درهم ، وانفق ناصر الدولة الحمداني ببغداد سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م مليوني دينار .

وقد يكون وراء هذا السخاء دوافع سياسية ومصالح شخصية ، الا اننا لو نظرنا اليه من زاوية ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة القدرة الشرائية ، فهو بلا شك ساهم في هذا المجال مساهمة كبيرة .

النشاط التجاري بين مدن العراق

امتهن كثير من العراقيين التجارة وعرفوا انواعها . وحذقوا في ممارستها ومستلزماتها . وكانت حرفة التجارة تدر على محترفيها ارباحا كبيرة ، ممـــا جعلها تجذب عددا كبيرا من ابناء الريف الذين وجـــدوا ان امتهان التجارة يشكل لهم ربحا اكثر من ممارستهم حرفة الزراعة . ولم تكن قلة رأس المـــال عائقا امام بعضهم ، اذ وجد هؤلاء من يبيعهم سلعا تجارية بدفع مؤجل ولـــو بسعر اعلى قليلا من سعر السوق . ومع ذلك فقد حصل هذا النوع مـــن التجار على ارباح جيدة لقوة النشاط التجاري في الاسواق .

وقد اشتهرت كثير من مدن العراق بتجارة المواد الغذائية خاصّة الحبوب والتمر والفاكهة . كما كانت تجارة الجمال والاغنام من ابرز انـــواع التجارة بالعراق . فخلال القرن الاول الهجري كانت مدينة البصرة محور تجارة العراق الداخلية . ويأتي التمر في مقدمة السلع التي كانت البصرة تصدرها الـــى اسواق كثيرة من مدن العراق وقراه . وكان سوق التمارين من اولى الاسواق التي بنيت في البصرة . وكان لتجار البصرة وكلاء في مدن العراق الرئيسية ، يبيعون لهم تجارتهم . كمـــا ان بعض تجارها استوردوا كميات من القمـــح لتغطية النقص الذي كانت تشكو منه الاسواق من هذه المادة.كما استوردت البصرة بعض المواد الغذائية كالفواكه والمخضرات من المناطق المجاورة .

وعن طريق مرسى البصرة والابلة ترد المراكب من الهند والصين المحملة بانواع التجارات ، فتجمعت فيها البضائع المستوردة من المناطـــق القريبـــة والبعيدة ، فقصدها كثير من تجار مدن العراق لجلب انـــواع السلع ليتجروا بهـــا في بلدانهم . ونستطيع ان ندرك كثرة السلع الواردة عن طريـــق البصرة مـــن كثرة ازدحام السفن في مرساها ، حيث كانت ترى مشتبكة بين صاعـــد ومنحدر .

ومما جعل البصرة تلعب دورا نشيطا في تجارة العراق الداخلية ، انهـا كانت تتصل بجميع مدن العراق الرئيسية بالطرق البرية والمائيـة . فأصبحت تشكل السوق الذي تجلب اليه غلال هذه المناطق والمدن ، كما شكلت محطة لنزول القوافل العربية المتجهة في طريقها الى البادية حيث يتزودون بما يحتاجون اليه من سلع مختلفة . وبعد ان اتخذ العباسيون مركزهم في العـراق اصبحت البصرة ثغراً تجاريا هاما تتجر مع الشرق ونشطت قوافل العراق المتجهة الـى اواسط آسيا وشمال الهند بمحاذاة الخليج العربي .

وتميزت مدينة الكوفة بتجارة الزيوت المستخرجة من السمسم او بذور الكتان والقطن . وكان للزياتين سوق كبيرة قرب قصر امارة الكوفة . كمـا أنها كانت تزود اسـواق بغداد بكميات كبـيرة مـن الطعام ، ففـي سنـة ٣٣٠هـ / ٩٤١م صدرت الكوفة الى اسواق العاصمة نحو خمسمائة كر مـن الحبوب . (والكر مكيال بابلي الاصل ، وكان يساوي في العـراق سـتين قفيزا ـ ينظر هنتس في المكاييل والاوزان ، ص ٦٩) .

وكان التمر عنصرا اساسيا في تجارة الكوفة ، وكان للتمارين سوق خاص في هذه المدينة . وصدرت الكوفة الى سـائر مدن العراق الوشـي والخز والفاكهة والادهان . واشتهرت الكوفة بتجارة عمائم الخز واجود انـواع البنفسج ، وعرفت الكوفة بتجارة الورق ، ولكن مدناً عراقية اخرى اخـذت تزاحمها في هـذه التجـارة .

واشتهرت مدينة واسط بصناعة البسط الكبيرة والستائر ، التي كانـت تصدرها الى مدن العراق الاخرى . وعرفت واسط بصناعة الاقمشة الثمينـة التي كانت تصدرها الى اسواق العراق . كما انها كانت تنتج كثيرا من الغلال الزراعية وبخاصة الشعير والرز والسمسم والتمر فتصدرها الى مناطق اخرى . وابان توسع مدينة واسط دمجت احياؤها السكنية مع مدينة كسكر المشهورة

باتتاج القمح ، والذي كان يزود كثيرا من اسواق مدن العراق • ويمكننا ان ندرك مدى النشاط التجاري في مدينـــة واســـط انه كانت تقام بها احتفالات عظيمة عند ظهور بشائر المحاصيل • وخـــلال العصر العباســـي اصبحت اسواق العاصمة تعتمد كثيرا على ماتنتجه واسط من غلال•وان توقف تزويد العاصمة من محاصيل وانتاج واسط كانيثير حفيظة الخليفة، لان ذلككان يؤثر علىكمية البضائع في اسواق بغداد ، وحينئذ تجنح اسعارها نحو الصعود •

واشتهرت الحيرة بتجارة الخمور والفواكه والرياحين • ومن ميســـــان راجت تجارة الانماط والوسائد • ونشطت التجارة في مدينة كربلاء فقصدها التجار من مدن عراقية كثيرة •

واشتهرت مدينة الموصل بتصدير الاخشاب الى كثير من مدن العراق • وابان العصر العباسي اصبحت عاصمة الخلافة ، ومدن عراقية اخـــرى ، تعتمد اعتمادا كبيرا على ماكان يردها من بضائع من ولاية الموصل ، وبخاصة المـــواد الغذائية ، بحيث ان منع تصديرها من الموصل الى العاصمة ، لاي سبب كان ، كان يؤدي الى شحة هذه المواد في الاسواق ، وخلق ازمة اقتصادية • وهـــذا يؤول بدوره الى ارتفاع الاسعار وهياج الســـــكان •

وتشير النصوص الى استمرار انحدار سفن وزوارق تجارية محملة بالقمح والدقيق والشعير وغيرها من البضائع • وكثيرا ما كان المسؤولون ببغـــداد يستنجدون بأمير الموصل عندما تشح المواد الغذائية باسواق العاصمة ، وعلـــى سبيل المثال لا الحصر ، ان امير الموصل كان قد ارسل في سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥ م مائة كردقيقا ليفرق في سامراء وبغداد ، وتكررت ارساليات امير الموصل مرات اخرى ، ففي سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م انفذ ناصر الدولة من الموصل الى بغـــداد زوارق فيها دقيق وشعير • كما ارسل زوارق محملة بالدقيق من الموصل الى بغداد سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠ م • وفي سنة ٣٣٠/٩٤١ م ارسل الامير الحمدانـــي كميات كبيرة من الدقيق الى بغداد بناء على طلب الخليفة الذي شـــــعر بقلـــة

المواد الغذائية بالعاصمة • وفي سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣ م انحدرت من الموصل مائة وخمسون زورقا فيها دقيق وحنطة وشعير وشحم وعسل وثياب •

وتؤكد مصادرنا على ان اسواق بغداد فقط كان يردها من الموصل عشرون الف رطل من العسل • هذا واشتهرت ولاية الموصل بتجارة الستور ، والفحم ، والشحوم ، والمن ، وحب الرمان ، والقير والحديد ، والسكاكين ، والسلاسل ، وثياب الصوف ، وصدرت سنجار وما جاورها ، اللوز والبندق والسماق والفواكه المقددة والموازين والرصاص • وعرفت مدينة الرقة بتجارة الصابون والزيت ، كما صدرت مدينة حران عسل النحل والقطن والموازين • في حين كانت اهم تجارات الجزيرة الفراتية الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد والاعناب والفواكه الرطبة والمقددة والزبيب •

وبنفس الطرق البرية والمائية التي ترد عبرها السلع التجارية الى حاضرة الخلافة العباسية ، خرجت منها قوافل محملة بالبضائع المختلفة الى مدن عراقية اخرى ، وان قسما من تلك البضائع قد صدرت الى اقاليم اخرى من الدولة وربما اجتازت حدود الدولة العباسية الى دول اخرى •

وجل التجارات التي كانت تخرج من بغداد اشتملت على المنسوجات الصناعية التي راجت في العاصمة • ذلك ان بغداد اصبحت مشهورة بصناعاتها منذ بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، كصناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة التي تصنع منها الثياب الحريرية بالوان مختلفة والاقمشة القطنية ، والعمائم الرقيقة والمناديل بانواعها ، والثياب العتابية المشهورة التي كانت تحاك من خيوط القطن والحرير • وكانت هذه البضاعة تصدر من بغداد الى انحاء مختلفة من العالم الاسلامي • وتصنع في بغداد ايضا الازر التي كانت تغمر اسواق كثير من المدن العراقية • كان لصناعة الصابون محلة خاصة ببغداد في جانب الكرخ ومنها تصدر هذه المادة •

وفي عهـد الخليفة هرون الرشـيد انشـيء مصنع للورق في بغـداد ، واشتهرت محلة (دار القز) بصنع الورق الذي اكتسب شهرة في كافـة ارجاء المشـرق .

وكان القاشاني العراقي مشهوراً لدرجة ان كمية منه ارسلت من بغداد الى القيروان لتزيين مسجدها . كما ان الزجاج العراقـي كان معروفا خارج العراق . وقد شاهد الرحالون العرب في الكعبة قناديل من الزجاج العراقـي تزينها نقوش جميلة . وقد برعت بغداد في صنع الاواني والاقداح الزجاجية .

ولم تقتصر صادرات بغداد على منتجاتها فحسب ، بل انها صارت تصدر في بعض الاحيان منتوجات مدن اخرى ، فمنتوجات مدينة كسكر كانت تصدر عبر اسواق بغداد . في حين كان التجار العرب يجلبون المنسوجات والجواهـر والمرايا والطيوب الى بغداد ، وبعد ذلك يتولى تجار بغداد تصدير مـا فاض من هذه السلع الى خارج حدود الدولة . وبذلك اصبحت بغداد مركزا تجاريا عالميـا ، تتحـدد فيـه اسـعار السـلع .

ومهما يكن من امر فان بغداد صدرت الاقمشـة القطنية والمنسوجات الحريرية خاصة المناديل والازر والعمائم،والخزف والادوات الزجاجية والدهون والمعاجين والادوية ، والحنطة والشعير والاقمشة الصوفية والكتانيـة والزيت والعطور ومـاء الزعفران ، وماء السوس ، وشراب العنب وزيت البنفسج .

وكان تجار بغداد يخرجون تجاراتهم من العاصمة الى واسط والبصـرة لغرض عرضها في اسواق تلك المدن . ونتيجة للتطور الاقتصادي الذي شهدته اسواق بغداد تأسست عدة شركات وطنية تعمل في تجارة المحصولات العراقيـة وهذه الشركات كانت تأخذ على عاتقها تصدير المواد الفائضة عن حاجة اسواق العاصمة ، وربما تولت هذه الشركات تصدير مقادير كبيرة من التمور العراقيـة الى دول اخرى .

والظاهر ان هناك سلعا تجارية كثيرة كانت تصدر من اسواق بغداد الى خراسان ، اذ تشير النصوص ان قافلة واحدة خرجت من مدينة السلام الى خراسان وكانت فيها سلع تجارية تجاوزت قيمتها ستة الاف دينار . ويمكننا ان ندرك قيمة البضائع المصدرة من بغداد ، ان تاجرا بغداديا صدر امتعة لزمه لكري احماله نحو الفي دينار ، كما ان تاجرا بغداديا آخر ربح بصفقة تجارية واحدة عشرة الاف دينار .

وصدر تجار بغداد سلعا كثيرة الى شمال افريقية ، كما وصلت تجاراتهم الى بحر قزوين . وفي مصر كان يقيم تجار عراقيون عمل بعضهم وكلاء لتجار بغداد ، وكانت توجد في مدينة سمرقند جالية تجارية عراقية كما وجدت جاليات اخرى في كثير من الدول التي يحكمها غير المسلمين ، كبلاد الخزر والهند والصين والقسطنطينية وكان في بلاد البلغار بعض الصناع العراقيين . وبلا ريب فأن هذه الجاليات كانت تمد يد المساعدة للتجار العراقيين الذين يفدون الى تلك المناطق ، مما يسهل امر اتمام معاملاتهم التجارية في تلك البلاد النائية .

وقام تجار العراق بنشاط تجاري كبير في البحر . فقاموا برحلات بحرية تبدأ من بغداد الى البصرة ، ومنها تبحر السفن في الخليج العربي قاصدة الشرق الاقصى حتى تصل موانىء الهند.وخلال هذه الفترة كانت اكثر سواحل المحيط الهندي الاسيوية تحت سيطرة العباسيين ، مما فتح المجال امام العراقيين بأن يتوسعوا في تجارتهم مع الشرق وكان تجار العراق قد ظفروا من حكام الصين بحق رفع مرافعاتهم الى قاض منهم .

ونقلت البضائع العراقية الى بلاد الانضول والبحر الاسود ووصلت الى القسطنطينية . وخلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت التجارة العراقية عز ازدهارها مع شرق اوربا ، ونفذت الى روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطيء بحر البلطيق .

طرق المواصلات

تخللت بلاد الرافدين شبكة من الطرق التجارية ، البرية منها والمائية • وقد ربطت هذه الطرق مدن العراق بعضها ببعض ، كما ربطتها ببقية انحاء الدولة العربية الاسلامية • وكان التجار يسلكونها في اثناء نقلهم السلع التجارية •

وشعر المسؤولون ان الازدهار التجاري يتطلب تركيز الاهتمام بالطرق العامة وادامتها وتأمينها وتهيئة وسائل النقل اللازمة فيها ، لذا جعلتها الدولة تحت اشراف صاحب ديوان البريد ، الذي يفترض فيه معرفتها بصورة جيدة •

ا ـ الطرق البرية

نظرا لاستواء سطح العراق ، بشكل عام ، اصبحت المواصلات البرية فيه كثيرة ومتشعبة • ولعل من اهمها الطريق الممتد بين الكوفة والبصرة الذي سلكه التجار ايام بني أمية ، لاسيما في ولاية خالد بن عبدالله القسرى ، وطوله خمس وثمانون فرسخا ويمكن قطعه في يوم وليلة • ويمتد هذا الطريق من البصرة الى ثغر الابلة •

وفي الربع الاخير من القرن الاول الهجري اصبحت مدينة واسط مركزا تجاريا عظيما بعد ان مصرها الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي • وحينئذ اصبحت مركز الاقليم ، وكانت تربطها بالكوفة والبصرة والاحواز طرق تجارية نشيطة ، وبعد ان تأسست بغداد واصبحت حاضرة الخلافة التقت عندها خمسة طرق رئيسة تؤدي الى مختلف انحاء البلاد • الاول يتجه شمالا الى الموصل والجزيرة الفراتية • والثاني يتجه جنوبا الى واسط والبصرة • والثالث جنوبي غربي يتجه نحو الكوفة ومنها الى شبه الجزيرة العربية • والرابع غربي يتجه الى الرقة ومنها الى بلاد الشام ومصر • والخامس شرقي يتجه نحو حلوان ، ومنها الى بلاد فارس واواسط آسيا •

واهتمت الدولة بادامة هذه الطرق وصيانتها وحمايتها وكانت الجمال اهم وسائل النقل في مثل هذه الطرق ، وكان التجار يستفيدون من الكتب الى تهتم بوصف الطرق ويستعينون بالادلاء في سفرهم •

ب ـ الطـرق المائيـة

يبدو ان الطرق المائية كانت نشيطة ، وان السفن النهرية لم يقتصر عملها على نقل البضائع التجارية فحسب ، بل ان السكان فضلوا السفر في وسائل النقل المائية احيانا ، حتى ان الخليفة هرون الرشيد كان قد امتطى سفينة نهرية قدم بها من الرقة الى بغداد •

ومن حسن طالع العراق ان وجد فيه نهرا دجلة والفرات ، وهما ممران يصلان العاصمة ، ويربطان الاجزاء العليا من العراق بالخليج العربي عبر الاقسام الجنوبية ، وبذلك طفقت السفن التجارية تسير في الرافدين ونهر عيسى وهي محملة بالسلع المختلفة ومتجهة نحو مدن العراق الرئيسة •

وبلاريب فان التجار العراقيين فضلوا سلوك الطرق المائية عبر الانهار ، وبخاصة في المسافات الطويلة التي تؤدي الى تعب التجار ، وعدم احتمال دوابهم • كما ان النقل المائي قد يكون اسرع في بعض الاحيان ، واقل نفقات واكثر امنا من الطرق البرية التي قد تتعرض لمخاطر الطريق •

وامتازت انهار العراق بانها تتصل بعضها ببعض عن طريق قنوات ، كما انها تؤدي جميعا الى الخليج العربي ، فضلا عن وقوع معظم مدن العراق الرئيسة على ضفاف الانهار • وانشأ المسؤولون كثيرا من المحلات اللازمة لرسو السفن عند المدن ، اذ شيد الحجاج مرسى للسفن عند مدينة واسط ، كما استعمل السفن المقيرة المسمرة واستبعد المخروزة ، كما شيد مسؤولون اخرون الجسور اللازمة على الانهار لمرور القوافل •

وأصبح بالامكان ورود السلع التجارية الى بغداد عن طريق نهري دجلة

والفرات ونهر عيسى • واصبح باستطاعة قادة السفن تحويل سفنهم بقرب بغداد من دجلة الى الفرات وبالعكس وكانت لها عدة فرض وأرصفة على شاطىء دجلة لكي يتسع لمئات السفن الراسية فيه •

ونستطيع ان ندرك جانبا من نشاط النقل التجاري عبر الطرق المائية من كثرة السفن التجارية المنحدرة ما بين مدينة السلام والبصرة ، والصاعدة الى الموصل • وقد تطلب الأمر قيام مرفأ خاص ترسو فيه السفن المحملة بالبضائع الواردة من الموصل او البصرة ، وان نشاط هذا المرفأ تطلب قيام سوق بجواره هي الاخرى نشطة ، ونشاطها هذا يدعونا لان نؤكد من خلاله ضخامة وعظم النقل المائي •

وتتكرر الاشارات الى طريق دجلة اكثر من طريقي الفرات ونهر عيسى اذ قدر عدد السفن والزوارق والمراكب النهرية المتواجدة في نهر دجلة قرب بغداد بما يقرب من ثلاثين الفا بلغ كسب ملاحيها في كل يوم تسعين ألف درهم ، ولعل ذلك راجع الى ان نهر دجلة صالحا للملاحة حتى اقسامه العليا ، وكان السير فيه من بغداد الى الخليج العربي أسهل من بقية اجزائه لان النهر يتسع في هذا الجزء وتقل فيه الموانع ، كما تقل سرعة تياره • وكان نهر دجلة يستخدم للنقل التجاري شمالاً في اتجاه معاكس لتيار الماء حتى مدينة الموصل • وعلى الرغم من ان تياره كان قويا شمال مدينة تكريت ، فان القوارب والسفن التجارية الصغيرة كانت تسير فيه بمعدل فرسخين في اليوم •

اما في نهر الفرات فكان السير باتجاه المجرى انشط ، وان كان يمكن للقوارب ان تصعد فيه شمالا حتى الرقة • وكانت السفن والزوارق الماخرة في نهر الفرات تسير فيه حتى بداية نهر عيسى ، اذ ان قسما من هذه القوارب يدخل في نهر عيسى حتى يصل بغداد، اما الاجزاء الدنيا من الفرات فكانت الملاحة

فيها ضعيفة لكثرة تشعب الفروع وقلة المياه في كل منها ، ولانتهاء الفرات عند البطائح .

وكانت السفن التجارية تبحر في نهر عيسى اذ كانت مياه هذا النهر غزيرة بحيث سهل على السفن التجارية السير فيها ، وكانت سعة بعض السفن تتراوح مابين ستة عشر ذراعا الى عشرين ذراعا . وتؤكد النصوص انه كانت تصل بغداد في نهر عيسى محصولات الغرب والمؤن المجلوبة من اراضي الفرات الاعلى التي تأتي بها القوافل من مصر وبلاد الشام ، فتسير في نهر الفرات ومنه الى نهر عيسى ، ثم تفرغ حمولتها على ارصفة عند الفرضة السفلى في الكرخ . وتوجد محطات على الطرق النهرية الهامة يحرسها حراس من ذوي النجدة والبأس ، تعينهم الدولة لغرض تأمين سلامة السفن التجارية الماخرة في تلك الانهار .

اساليب التعامل في الاسواق

حرص العرب المسلمون على انشاء الاسواق في الامصار التي شيدوها . كما انهم انشأوا اسواقا جديدة في المدن القديمة ، فازدهر العمران ، واتسعت المدن ، واصبحت الاسواق،بجانب اغراضها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مكاناً لمفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ، ومسرحا للفعاليات الادبية واللغوية ، كما كان الحال في مربد البصرة وكناسة الكوفة وغيرها .

وبعد اتمام تحرير العراق ، حرص المسؤولون على انشاء مدن واسواق جديدة فيه . ولعبت هذه الاسواق دورا فاعلا في حياة المدن العراقية ، لاسيما الجانب الاقتصادي منها ، حيث ان السوق مركز البيع والشراء ، وبه تعقد الصفقات التجارية وتتقرر حالة البلاد الاقتصادية . وعند تخطيط اية مدينة كان يحدد اولا دار الامارة ، والمسجد الجامع ، ثم السوق .

وقد اشتهرت البصرة بسوق المربد الذي امتد نحو الطرف الغربي من

المدينة . وفي اول أمره كان سوقاً للجمال والتمور والاسلحة ، ثم توسع في العهد الاموي فصار مركزا ادبيا يلتقي فيه الشعراء بجانب نشاطة التجاري ، وظلت اهميته تزداد بازدياد اهمية مدينة البصرة ، وازدهار نشاطها التجاري .

وعند الشروع في تخطيط مدينة الكوفة خصص موضع للاسواق التي امتدت من قصر الامارة الى دار الوليد بن عقبة.وكانت سقوفهافي بادىءالامر ساحة مكشوفة . وظلت كذلك حتى زمن والي العراق خالد بن عبدالله القسرى ، حيث عقدت بالأحجار . وقد أثنى المقدسي على اسواق الكوفة ، لقوة نشاطها ، ولانها ملتقي القوافل القادمة من شبه الجزيرة العربية .

وكان الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي قد خط السوق في مدينة واسط على مقربة من المسجد الجامع ودار الامارة وكانت اسواق واسط واسعة امتدت من دار الامارة التي تقع في وسط المدينة حتى شاطىء دجلة . وبمرور الزمن تكونت أسواق فرعية داخل السوق الكبير ، كما ظهر تخصص في اسواق مدينة واسط ، حيث كان سوق للبزازين ، وآخر لاصحاب الطعام ، والصيارفة والعطارين ، والجزارين ، وغيرها من الاسواق .

وتشير النصوص الى وجود اسواق واسعة ونشيطة في مدينة الموصل وان هذه الاسواق كانت تمون كثيراً من مدن عراقية بالحبوب عندما تشح فيها وقد اثنى المقدسي على اسواق الموصل التي كان اكثرها مسقوفا .

وان اسواق الموصل ، شأنها شأن بقية اسواق المدن العراقية الاخرى برزت فيها ظاهرة التخصص ، حيث وجد سوق الطعام ، وسوق الاساكفة ، وسوق الغنم . هذا بالاضافة الى وجود اسواق تعقد في يوم معين من ايام الاسبوع . ففي الساحة الفسيحة كان يعقد سوق في يوم الاربعاء من كل اسبوع يسمى (سوق الاربعاء) وكان الناس يأتون اليه لغرضِ البيع والشراء .

اما الاسواق في مدينة بغداد فقد اولتها الدولة اهمية كبيرة عند تخطيط المدينة المدورة ، ذلك ان المنشآت التجارية اعتبرت من المؤسسات الاساسية التي تولت الدولة الانفاق على انشائها . ولم تذكر المصادر ان الدولة اخذت او تقاضت مبلغا من المال من التجار والباعة لقاء اشغالهم لاسواق المدينة المدروة .

وانشئت في المدينة المدورة اربعة اسواق رئيسة ، حيث حدد لها مؤسس بغداد مكانا متميزا في الطاقات الممتدة في الطرق الاربعة الواقعة بين الرحبتين بين السورين الثاني والثالث.ولهذه الطاقات نوافذ تسمح بدخول نور الشمس، وفي نفس الوقت تحمي السلع المعروضة من تساقط المطر .

وقد اشتركت التأثيرات الحضارية والمناخية في ابتكار اسلوب فني تمتاز به المنشآت التجارية في المدينة المدورة ذلك ان الطاقات التي تشغلها اسواق بغداد كانت مقببة بالآجر المفخور والجص ، وان الزخارف التي كانت تزين جدران وسقوف هذه المنشآت كانت معمولة من الآجر . وان الدقة والكثرة التي تمتاز بها هذه الزخارف حملت بعض الباحثين على الاعتقاد بأنها مصنوعة من الجص ومصبوبة في قوالب خاصة . غير ان الابحاث الدقيقة لم تترك مجالا للشك في ان هذه الزخارف كلها من الآجر ، وان تلاصق قطع الآجر كونت اشكالا هندسية بديعة . ذلك ان هذه القطع كانت في بعض جوانبها محنية السطوح ، وتقع نقوشها على سطحها المقعر فتتكون بتلاصقها قبب مزخرفة في غاية الابداع والاتقان .

وبلا ريب ، فان الحياة العامة داخل المدينة المدورة أخذت تتطور بسرعة مدهشة ، وان هذه المدينة صارت تنمو وتتسع بشكل غير متوقع ، وحينئذ باتت أسواق المدينة المدورة وشوارعها تغص بالمارة وتضيق بالمشترين والباعة والمتجولين .

وازاء هذا الوضع بات التفكير في نقل الاسواق الى خارج اسوار المدينة

المدورة ضرورة ملحة فرضها واقع المدينة الناشئة ، فكان ذلك من جملة الدوافع التي حدت بالخليفة المنصور الى اتخاذ هذه الخطوة ٠

مهما يكن من امر فقد انتقلت الاسواق الى الكرخ ، وانشئت مابين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزا للنشاط التجاري ، وغطى الخليفة نفقات انشائها ، واقر لكل حرفة سوقا خاصاً ، ولكل صنف من اصناف التجار سوقا خاصاً بهم ، واكد على ضرورة جعل سوق القصابين في آخر الاسواق ٠

وثمة ظاهرة جديدة برزت في اسواق الكرخ ، هي تجمعها حول مجاري الانهار المنسابة في هذا الجانب من بغداد ٠ وفي نفس الوقت يلمس ان الامور التجارية طغت على كل شيء ، بحيث استطاعت ان تؤثر في اسماء هذه الانهر وتصبغها بصبغتها الخاصة ، فدعيت الانهار باسم نوع البضاعة المباعة عندها فصرنا نسمع نهر البزازين ، ونهر القلائين ونهر الدجاج ، وغيرها٠

اما انشاء الاسواق في جانب الرصافة ، فلم يكن وليد المصادفة ولا حديث العهد ، ذلك انسوق الثلاثاء كان قائما قبل بناء المدينة المدورة بفترة بعيدة ٠ غير ان انشاء احياء سكنية في شرق دجلة بشكله المتسع،وقيام عدة اسواق بقرب هذه الاحياء يرجع في اساسه الىعام ١٥١ هـ/٧٦٨ م حين عسكر بها ولي العهد محمد المهدي هووجيشه ، وبعدئذ بات من المؤكد ان تنشأ اسواق كبيرة ونشيطة في جانب الرصافة لتواكب الوضع الجديد ، ولتفي بحاجات التوسع الهائل الذي شهده هذا الجانب من بغداد ٠

تشير الروايات التاريخية الى وجود تشابه في أسواق جانبي بغداد ٠ ومع ذلك فأن عامل الزمان ، والخبرة المضافة ، لابد ان يكون لهما تأثير في عملية تخطيط اسواق الرصافة ذلك ان المسؤولين عنها حاولوا تجنب كل نقص وقع به من سبقهم ٠

وكان الحي التجاري الرئيس في الجانب الشرقي من بغداد عند رحبة

الجسر الاوسط • ويجتمع فيه اصناف التجارات والصناعات • وتمتد على جانبي الطريق الموصل من طرف الجسر الشرقي،مجتازا مشرعة الجسر،مارا بباب الطاق ، متجها نحو الشرق حتى يصل السور • وكانت تمتد على جانبي هذا السوق آلاف الدكاكين والمخازن التي تباع بها انواع السلع •

ومن رحبة الجسر ايضا تتفرع أسواق اخرى ، منها سوق الاساكفة ، وسوق الطيب حيث تباع العطور والزهور ، ومن ورائه يمتد سوق الطعام • والي يمين باب الطاق احتل سوق الصاغة بناية فخمة ، ثم سوق الوراقين ، وفيه عادة مجالس العلماء والشعراء ، والى الشمال امتد سوق الرصافة ، وسوق خضير الذي تباع فيه طرائف من سلع الصين ، وسوق الثلاثاء الذي يعتبر اقدم سوق في الجانب الشرقي ، والى الجنوب الشرقي يقع سوق الرياحين ، وبقربه سوق العطارين، والى غربه سوق العطش وسوق السلاح • اما سوق الدواب فقد وجد في الطرف الشرقي بعيدا عن مواقع السكن ، وبقربه سوق للعلافين وباعة التبن • وان الذين اشرفوا على بناء سامراء استفادوا كثيرا من تخطيط الاسواق في مدينة بغداد وفنها المعماري •

وثمة ظاهرة اخرى برزت في اسواق المدن العراقية ، هي ظاهرة تخصص الاسواق ، حيث كان لتسمية الاسواق وتخصصها صلة بنوع السلع التي تعرض في هذه الاسواق • ففي البصرة كان اصحاب كل مهنة يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعياً خاصاً بهم • كما ان خالدا القسرى كان قد صف الاسواق في الكوفة حسب عروض التجار التي تعرض فيها • وأولى مؤسس مدينة واسط عناية فائقة في انفراد سوق خاص لكل نوع من انواع السلع المباعة •

ولما توسعت مدينة السلام ، وزادت مرافقها العامة ، وتطورت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطلب الامر انتقال الاسواق الى الكرخ،بات من الضروري

بروز ظاهرة تخصص الاسواق لكي تفي بمتطلبات الحياة الجديدة التي صارت تحياها حاضرة الخلافة العباسية .

ومنذ ان تولى الخليفة المنصور تخطيط اسواق الكرخ ، رتب كل صنف منها في موضعه المحدد ، وجعل لكل تاجر وتجارة محلا محددا ، بحيث لايباع صنف من السلع مع غير صنفه ، فأصبحت كل سوق منفردة حسب نوع البضاعة المباعة فيها .

وهكذا تعددت الاسواق وتخصص كل واحد منها ببيع سـلعة معينـة واصبح لكل حرفة موضع خاص في السوق ، ولاهلها ما يميزهم عن غيرهم سواء كان ذلك في طراز حوانيتهم ، او شكل لباسهم ، او طريقة عرضهم لنوع السلع التي يبيعونها ، وكانت لبعض الاسواق ابواب خاصة بها ، وعادة كانت تغلق هذه الابواب وقت الغروب عندما يتوقف البيع والشراء في مثـل هـذه الاســـواق .

ومن المؤكد ان بروز ظاهرة تخصص الاسواق سهل مهمـة الاشـراف الحكومي على الاسواق . كما ان مصلحة التجار وأصحاب الحرف انفسـهم حملت اصحاب كل مهنة ، او بعضهم ، على التجمع في سوق واحـد . كما ان لتخصص الاسواق ميزة اخرى هي ان التاجر الجشع لايستطيع ان يرفع سعر سلعته لوجود منافسين له في نفس السلعة . وفي هذه الحال يقل احتمال حدوث الاحتكار ، او اي ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع . هذا بالاضافة الـى انه يكون في مقدور المشتري ان ينتقي اجود مايحتاج اليه من السلع في وقت قصير لتقارب الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة .

والحق ان اسواق مدن العراق لم تكن كلها متخصصة في بيع نوع محدد مـن السلع ، وانما وجدت اسواق اخرى جامعة تباع فيها مختلف البضائع .

اساليب التعامل (المقايضة والنقود) :

أتبعت الدولة العربية الاسلامية حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف الاقاليم ، ولم تحتكر اية بضاعة ، او تمنع مبادلتها مادام بيعها لايتعارض مع سياسة الدولة .

واكد نهج الدولة الاقتصادي شروطا عامة لعقود البيع في الاسواق ، واول شروط العقود هي اتفاق البائع والمشتري . وقد يكون اتفاقا مدونا او شفهيا .

وعرف التجار العراقيون عقود الرهون والودائع ، كما عرفوا نظام المقايضة . الا انه من المرجح ان البيع المطلق هو الذي كان سائدا في التعامل بالاسواق ، ونعني به بيع العين بالثمن . وهذا لايعني ان بيع المقايضة والمستدين والسلم (وهو بيع الدين بالعين) ، والصرف (وهو بيع الثمن بالثمن) ، والمرابحة ، والوضيعة (وهي البيع بالنقصان عن القيمة الأصلية) ، والصحيح ، والفاسد ، والمكروه ، كانت غير موجودة في اسواق العراق ، اذ لابد انه جرى التعامل بهذه الانواع من البيوع او بعضها في اسواق العراق ولو على نطاق محدود .

واحيانا لم يكن في مقدور المشتري دفع ثمن البضاعة آنيا ، فيضطر الى شرائها بسعر اعلى من سعر السوق على ان يكون الدفع مؤجلا . والفرق بين سعر السوق وسعر البيع هو في الحقيقة الفائدة من ثمن البضاعة عن المدة التي يؤجل فيها الدفع عن ثمن الشراء .

وقد يكتفي التاجر بثقته في المشتري وبذلك يتم التعامل بينهما دون أخذ مستندات مالية مكتوبة ، او قد يطلب منه رهنا . وقد يكون الرهن دارا او عقارا ، اوحيوانا وغيرها من الملكيات ، وقد يطلب البائع ضامنا او كفيلا من المشتري يصبح مسؤولا عن رد ثمن البضاعة المباعة بالدين اذا امتنع المدين عن

الدفع ، او عجزعنسداد مابذمته في الموعد المحدد ، او قد يلجأ البائع الى الحكومة لتحصل له دينه بطرقها المعهودة •

ومنذ ان توطدت اركان الدولة العربية الاسلامية ، كان الدرهم والدينار ، هما النقدان الاساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل والتقدير في اسواق العراق ، لانهما افضل وسيلة مبادلة ووحدة قياس السلع • واصبح للدولة نقدها المتميز •

ولتسهيل التعامل التجاري بالنقود ضربت قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار والدرهم ، وكانت مقبولة في التبادل التجاري باسواق العراق • كما قبلت بهذه الاسواق النقود التي ضربت باقاليم اخرى ، مادامت محتفظة بالوزن الشرعي •

ومن القراءات المتأنية للنصوص ، نلاحظ ظاهرة اخرى هي انه اذا كانت نقود التعامل غير كاملة الوزن ، سواء كانت دنانير او دراهم ، ولا تتفق مع حسابات الوزن الشرعي ، فانها لاتقبل الا وزنا ، على الرغم ان الدولة كانت شديدة الحرص على الاحتفاظ بسلامة العملة وجودتها وتخليص معدنها من كل شائبة •

واستكمالا لدراسة اساليب التعامل في اسواق العراق لابد من التعرف بعجالة على وحدات الوزن والكيل المستعملة في الاسواق • ومن استقرائنا لاساليب التعامل والتبادل نلمس ان وحدات الوزن والكيل المستعملة في الاسواق قد تنوعت • ولعل ابرزها الصاع والجريب ، والكيلجة ، والكر والقفير والمكوك والمد والرطل والقنطار والقيراط والطن والكارة والاوقية والحبة وغيرها • (وهذه وحدات كيل كانت مستعملة في اسواق العراق ـ ينظر هنتس في المكاييل والاوزان) •

ويبدو ان الذراع كان اهم وحدات قياس الاطوال المستعملة في اسواق العراق • وترد في الروايات سبعة انواع من الاذرع ، اقصرها القاضية التي

وضعها القاضي ابن ابي ليلى ، ثم الذراع التي استعملها قاضي بغداد ابو يوسف . وعرفت ذراع اخرى في الاسواق هي التي استعملها قاضي البصرة بلال بن ابي بردة ودعيت الهاشمية الصغرى او البلالية . كما شاع استعمال الذراع التي مسح بها زياد بن ابيه ارض السواد . ومن ثم استعملها المنصور ، وعندئذ دعيت الهاشمية الكبرى كما ان المأمون اختص بذراع متميزة غير ان اكثر الاذرع شيوعا واستعمالا في الاسواق هي الذراع السوداء التي كان الناس يتعاملون بها في ذرع البز والتجارة . وكان الخليفة هرون الرشيد قد استعملها لاول مرة .

استعمال الصكوك والسفاتج

الصك امر خطي يدفع بواسطته مقدار من المال الى الشخص المسمى فيه . وبذلك استخدم الصك احيانا كوسيلة لدفع الاموال الى مستحقيها بعد ان يوقع عليه الشخص المخول بذلك ايذانا بصرف المبلغ المدون فيه .

وفي بداية قيام الدولة العربية توجد اشارات قليلة الى استعمال الصك كوسيلة من وسائل الدفع ، اذ يروى ان يزيد بن المهلب اشترى مؤنا وكتب صكا للبائع بالثمن . الا انه بمرور الزمن كثرت الاشارات الى استعمال الصكوك كوسائل لدفع المال ، وتعدى استعمالها مؤسسات الدولة ، اذ اخذ يتعامل بها افراد الشعب ايضا . الا ان الصكوك الحكومية كانت عادة تختم بخاتم الخلافة الخاص . واحيانا كان المسؤولون يكتبون بأرزاقهم واعطياتهم صكوكا ، وبامكان هؤلاء صرفها في الاسواق .

كما ان المنح المالية التي كان يهبها المسؤولون الى المقربين منهم كانت في بعض الاحيان تتم بالصكوك ، وباستطاعة هؤلاء صرف صكوكهم عند الصرافين مقابل خصم درهم في كل دينار . ويبدو ان مثل هذه الصكوك عندما تعطى الى شخص ما ، كانت تثبت في سجل خاص في الدواوين باعتبارها من النفقات التي صرفت من بيت المال .

وقد تصرف رواتب بعض العاملين في دار الخلافة بالصكوك ، اذ يكتب لكل طائفة منهم صك ، وبعد ان يصرف الصك في السوق توزع المبالغ على مستحقيها كل حسب استحقاقه. وقد تسترد الدولة ديونها من المدينين عن طريق صكوك خاصة ، اوتوفي ديونها باستعمال الصكوك . وهكذا نرى ان التعامل بالصكوك جرى على نطاق واسع ، وهو مظهر من مظاهر النشاط التجاري،وانه استعمل في نطاق المعاملات الحكومية وغير الحكومية .

وفي التعامل التجاري والمالي ، استعملت بأسواق العراق الحوالات أو السفاتج التي تعني ان يعطي تاجر مسافر مالا لرجل له في بلد ازمع السفر اليه ليأخذ منه خطا لمن عنده المال ـ أي وكيله ـ في ذلك البلد رجاء ان يعطيه نفس المقدار من المال الذي سبق ان دفعه .

والحق ان اسواق العراق شهدت منذ وقت مبكر استعمال الحوالات أو السفاتج ، ذلك (ان ابن الزبير ، كان يأخذ بمكة الورق (الدراهم) من التجار فيكتب لهم الى البصرة والى الكوفة فيأخذون اجورا من ورقهم) . وعن ابن عباس انه كان يأخذ الورق بمكة على ان يكتب لهم الى الكوفة بها .

والهدف من استعمال السفتجة في المعاملات التجارية والمالية ، هو نقل النقود من مكان الى آخر دون تعرضها لمخاطر الطريق . فهي والحالة هذه وسيلة للحيلولة دون اجراء الدفع بالعملات المعدنية في الاماكن البعيدة.اذ في حالة التعامل بالسفاتج يكون وصول الاموال اضمن ، وبعيداً عن عاديات الطرق ومخاطرها .

وقد اباح الفقهاء استعمال السفاتج التي تتعامل بها الناس على انها اقراض بغير شروط . فأصبح من الممكن بالسفتجة تحويل الدين من شخص الى آخر ، كما اصبح من الممكن تصفية الحساب بين مدن ومقاطعات مختلفة دون الحاجة الى نقل النقود . وكان بمقدور التاجر ان يقترض سفاتج من

بيت المال ليشتري بها بضائع من تلك المقاطعة ثم يدفع ما اقترضـــه الى بيت مقاطعة اخرى • وبلا ريب فأن هذا الاسلوب السهل الامين في الدفع قد نشط علاقات التعامل بين اسواق العراق التجارية •

وقام الصرافون والوكلاء بتحويل السفاتج الى نقود مقابل خصم مـــن المبلغ المحول • وفي بعض الاحيان كان التجار يتولون تصـــريف الســـفاتج ، مقابل خصم دانق ونصف في كـــل دينار • وفي بعض الاحيان كان بيت المال يقوم بهذه المهمة •

غير ان السفاتج التي كانت ترد الى بيت المال من المقاطعات ، كان ينبغي ان تبدل وتحول الى نقد ، واذا صادف ان اهملت او تركت في بيت مال العامة أو خزانة الوزير دون ان تصرف ، تسبب ذلك في الحاق اضرار مادية بخزينة الدولة او بالجهة المرسلة اليه • وقد استفاد الوزراء من نظام السفتجة ، حيث كان ولاة الاقاليم والمقاطعات يرسلون الاموال الى العاصمة بالسفاتج ، وعندئذ يستطيع المسؤولون ان يسيروا امور الدولة بما تتوفر لديهم من اموال عـــن هذا الطريق •

النشـــاط المصرفـــي

الصرف : هو بيع الثمن بالثمن بشروط خاصة تحددها حالة الاسواق • وقد تولى الصرافون في اسواق العراق عملية تبديل النقود من فئة الى اخرى ، وحلوا مشاكل الفروق بين نوعيات وأوزان العملة في الاسواق •

ومنذ تحرير العراق وجدت في أسواقه اقلية (من اهل الذمـــة) برعت بالصيرفة ، حيث تشير الاخبار من مدينة الكوفة الى وجود الصيارفة فيها منذ تأسيسها ، وكذلك الحال بالنسبة لمدينة البصرة وواســـط وان هـــؤلاء كانوا ينالون ارباحا طائلة عن عملهم هذا •

ويبدو ان الصيرفة نشطت كثيرا في العراق ابان قيام الدولـــة العباســـية

واتخاذها بغداد عاصمة لها،ذلك ان وجود معدنين في التعامل التجاري في اسواق العراق ، جعل وجود الصراف من الظواهر الضرورية ليكمل هذا النشاط . وبحكم تعامل هؤلاء بالنقود وبديلاتها مثل (الصك والسفتجة) والقروض والتسليف اصبحت لهم خبرة كافية في تقدير قوة السوق او ضعفه .

ومنذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) توسعت اعمال الصرافين في العراق ، لتزايد النشاط التجاري في الاسواق من جهة ، ولتعامل المسؤولين معهم من جهة اخرى . ذلك ان بعض وزراء الدولة استعان بالصرافين حيث كانوا يقترضون منهم اموالا عندما يشعرون بحاجتهم الماسة الى تلك الاموال لتمشية امور الدولة بربح مقداره دانق ونصف فضة في كل دينار .

كما ان تجار العراق كانوا مضطرين الى التعامل مع الصرافين ، نظرا لان اقاليم الدولة في الشرق كانت تتعامل بالدراهم في الاغلب ، في حين كانت الاقاليم الغربية تتعامل بالدنانير الذهبية . وفي هذه الحال اصبح لابد من وجود الصرافين لتبديل العملة التي كانت قيمتها عرضة للصعود والهبوط تبعا لتقلبات قيمة المعدن المكونة منه .

وهكذا بلغت حركة الصيرفة في اسواق العراق غاية ازدهارها في تسليف النقود ، وتبديل العملات وصرف الصكوك والسفاتج . وظهرت فئة من الصيارفة اتخذت بغداد مركزا لنشاطها وكانت لهم منزلة مرموقة في المجتمع بحيث كانوا يخاطبون بالقاب ترفع من شأنهم .

الرقابة على الاسواق

باشر خلفاء الدولة الاوائل بأنفسهم مراقبة الاسواق . وبعد ان تأسست الامصار الجديدة ، ونشطت اسواقها ، وبخاصة في العراق ، كان لزاما ان تنظم تلك الاسواق بانظمة وقوانين ضابطة ، ولم يترك التعامل بها

يسير وفق هوى النفس ومصالح التجار واهل السوق ، لاسيما وان القرآن الكريم قد اكد على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل ، وعلى الامانة في الكيل والوزن حفظا لمصالح الناس . وانبرى العلماء والفقهاء لوضع ادق الشروط التي تفي بتلك المتطلبات .

وقد وردت اشارات تؤكد اهتمام ولاة العراق في العهد الاموى بمراقبة الاسواق والمحافظة على مستوى الاسعار . فقد عني زياد بن ابيه بمراقبة الاسواق وضمان بقاء الاسعار محافظة على مستوها المعتدل ، ولم يتردد في معاقبة التجار الجشعين الذين كانوا يحاولون استغلال الظروف . وقد ادى هذا الاجراء الى ثبات اسعار السلع نسبياً في اسواق البصرة، وربما جنح بعضها نحو الانخفاض ، ومن اجل مراقبة الاسواق وتشديد الرقابة عليها عين (مهدي بن عبدالرحمن) محتسبا على اسواق واسط ، وخلفه في هذه الوظيفة اياس بن معاوية .

وبعد ان اصبح العراق قاعدة الدولة العباسية ، شددت الدولة رقابتها على الاسواق ، وتابعت سير التعامل التجاري . فقد كان للخليفة المنصور موظفون يزودونه باهم ما يجري في الاسواق .

وابان خلافة المهدي تبلورت وظيفة المحتسب بشكل واضح ، اذ انتظمت احوال المدن ، وماترتب على ذلك ، من توسع الاسواق وتخصصها ، وازدهار التجارة فيها ، وظهور النقود الزائفة،عندئذ برز صاحب الحسبة وصار يتقاضى راتبا مجزيا من بيت المال .

ونستطيع ان ندرك الاهتمام الكبير الذي كان يوليه الخلفاء لمراقبة الاسواق ، ان بعضهم لايكتفي بما يعهد به الى المحتسب والموظفين التابعين له ، بل يتفقد الاسواق بنفسه ويستمع الى شكايات المتظلمين ويبت فيها ، وعندئذ يطمئن على ان الامور تسير وفق المصلحة العامة .

ولم تقتصر رقابة الدولة على المكاييل والموازين ، بل امتدت الى مراقبة المعاملات المالية المتداولة في الاسواق . ولدينا نصوص تشير الى ان المسؤولين كانوا قد اخطروا الصرافين وحذروهم من مغبة التمادي في اخذ الربا الفاحش ، وبذلك خففوا من غلوائهم في هذا الاتجاه .

وكان من حق الدولة ان تتدخل في عملية البيع والشراء وبخاصة في المواد الاساسية التي تشكل قوت الشعب . وباستطاعة ممثل الحكومة ان يمنع بيع الحنطة مثلا الى تاجر محتكر ، لان في ذلك ضررا لعامة الناس . وكانت الحكومة قد منعت بائعي الحبوب والدقاقين من احتكار الغلة . واجاز الماوردي للمحتسب ان يسعر على الناس الاقوات .

والحق ان ارتفاع الاسعار وحصول الاحتكار بأسواق العراق ، كان قد حصل خلال فترات قصيرة ومحدودة . وكانت الاحتكارات في الغالب فردية ومحلية وموقعية لاتدعمها امتيازات حكومية ، ولم يكن لها تأثير مستمر وشامل في مدن اخرى .

ومن الانصاف ان تذكر ان فترات طويلة وعديدة من الرخاء الاقتصادي شملت غالبية مدن العراق خلال قيام الدولة العربية الاسلامية ، ذلك ان النهج الاقتصادي الذي سارت عليه الدولة من شأنه ان يؤدي الى استقرار الاسعار وعدم جنوحها للارتفاع الفجائي . اذ كانت الحكومة تجبي ضرائبها من الزراع نقدا وعينا . كما ان ثبات ضرائب الدولة كان يؤدي بدوره الى ثبات الاسعار بعض الشيء . ثم ان الدولة كانت تدفع مقدارا معينا من العطاء كان من شأنه ان يحدد القدرة الشرائية لهذه الفئة من السكان . ومما ضيق مجال التلاعب بالاسعار ان الدولة كانت تدفع ارزاقا عينية من الحنطة والشعير والزيت وغير ذلك الى الجند وبعض موظفيها كرزق شهري . وبالاضافة الى ذلك فأن لدينا شواهد توضح ان الدولة اتخذت اجراءات من شأنها الحد من

ارتفاع اسعار السلع ، متوخية مصلحة الجمهور ، فأجبرت المحتكرين على فتح دكاكينهم حتى يتسنى للناس شراء مايحتاجون منها بسعر المثل .

وهكذا نلمس ان الدولة اعارت اهتماما كبيرا لمؤسسة الحسبة باعتبارها واجهة من واجهات الحكومة التي هي على اتصال مباشر بالناس ، وموظفوها مسؤولون عن اقرار الحق ، ومكافحة الجشع والتطفيف والتدليس . لذا اعدت الحكومة لهذه المؤسسة جهازا ضخما بلغت نفقاته اربعمائة وثلاثين الفا واربعمائة وتسعة وثلاثين دينارا . اذ اجازت الدولة للمحتسب ان يستعين بالناس يساعدونه في اداء مهمته ، فجعل على كل صنعة عريفا من صالح اهلها خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشهم وتدليسهم ، مشهورا بالعفة والامانة، يكون مشرفا على احوالهم وتعاملهم مع زبائنهم ، ويطالع المحتسب باخبارهم . وفي الوقت نفسه كان الخليفة يختار لوظيفة المحتسب ، من اتصف بالورع والتقوى ، والعلم والمعرفة ، على ان يكون رجلا مسلما بالغا قادرا حراً ، مطلعا على المنكرات الظاهرة ، محنكا فطنا ، لايميل ولا يرتشي ، وان يكون من اهل الاجتهاد العرفي دون الشرعي . ومن هنا نلمس ان رقابة الدولة على الاسواق حققت جملة قضايا اقتصادية واجتماعية ومالية ودينية ، ذات صلة حيوية ومباشرة بحياة المجتمع .

المصادر والمراجع

١ ــ ابن الاثير : علـي بن محمد بـن عبدالكريـم الجزري (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ٨ اجزاء ، القاهـرة ١٣٥٣هـ

٢ ــ ابن الاخوة : محمد بـن محمد بـن احمد القريشـي (ت ٧٢٩هـ)
معالم القربة في احكام الحسبة ، كمبرج ١٩٣٧ •

٣ ــ ابـن آدم : يحيـى القريشـي (ت ٢٠٣هـ)
كتاب الخراج ، ليدن ١٨٩٥

٤ ــ ابن بسام : محمد بن احمد
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بغـداد ١٩٦٨

٥ ــ ابن الجوزي : عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧)
مناقب بغداد ، بغداد ١٩٢٣
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ١٠ اجزاء ، حيدر اباد الدكن ١٣٥٧هـ

٦ ــ ابن خرداذبة : عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ)
المسالك والممالك ، طبع بالاوفسيت ، بغداد (بـلا)

٧ ــ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ)
المقدمة ، القاهـرة ١٩٦٥

٨ ــ ابن خلكان : احمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ)
وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان ، القاهرة ١٩٤٨

٩ ــ ابن رستة : احمد بن عمر (ت ٣١٠هـ)
الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ٠

١٠ــ ابن الزبــير : احمد بن علي بن ابراهيم الغساني (ت ٥٦٣هـ)
الذخائــر والتحف ، الكويت ١٩٥٩

١١ــ ابن طيفور : احمد بن طاهر (ت ٢٨٠هـ)
كتاب بغــداد ، مصر ١٩٤٩

١٢ــ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)
لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦

١٣ــ ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ)
كتاب الخراج : مصر ١٣٠٢هـ

١٤ــ الاربلي : عبدالرحمن سنبط بن ابراهيم (ت ٧١٧)
خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك ، بيروت ١٨٨٥

١٥ــ الاصطخري : ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ)
المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١

١٦ــ الاصفهاني : علي بن الحسين بــن محمد (ت ٣٥٦هـ)
الاغاني ، القاهــــرة ١٩٦٣

١٧ــ البخاري : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦ هـ)
الجامع الصحيح ، ليدن ١٩٦٤

١٨ــ البلاذري : احمد بن يحيي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦

١٩ــ البيرونــي : محمد بن احمد (ت ٤٤٠هـ)
الجماهر في معرفة الجواهــر ، حيدر آباد ١٣٥٥هـ

٢٠ـ البيهقي : ابراهيم بن محمد (ت ٤٧٠هـ)
المحاسن والمساوىء ، القاهرة ١٩٠٦

٢١ـ التنوخي : المحسن بن علي بن محمد (ت ٣٨٤هـ)
الفرج بعد الشدة ، مصر ١٩٠٣
نشوار المحاضرة ، بيروت ١٩٧٢

٢٢ـ الثعالبي : عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ)
ثمار القلوب ، القاهرة ١٩٠٨
لطائف المعارف ، مصر ١٩٦٠

٢٣ـ الجاحظ : عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)
التبصر بالتجارة ، دمشق ١٩٣٢

٢٤ـ الجهشياري : محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)
الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨

٢٥ـ الخطيب البغدادي : احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد او مدينة السلام ، ١٤ جزء القاهرة ١٩٣١

٢٦ـ الدمشقي : جعفر بن علي (ت ٥٧٠هـ)
الاشارة الى محاسن التجارة ، دمشق ١٣١٨هـ

٢٧ـ الزبيدي : محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسني (ت ١٢٠٥هـ)
تاج العروس من جواهر القاموس ، ١٠ أجزاء ، مصر ١٣٠٦ هـ

٢٨ـ السرخسي : محمد بن احمد بن ابي سهل (ت ٤٨٣ هـ)
كتاب المبسوط ، القاهرة ١٣٢٤هـ

٢٩ـ الشيزري : عبدالرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ)
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦

٣٠ـ الصابـي : الهلال بن المحسن بن ابراهيم بن زهـرون (ت ٤٤٨هـ)
تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤
رسوم دار الخلافـة ، ١٩٦٤

٣١ـ الصولـي : محمد بن يحيى بن عبدالله (ت ٣٣٥هـ)
الاوراق ، مصـر (١٩٣٥)

٣٢ـ الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)
تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ اجزاء ، القاهـرة ١٩٦٦

٣٣ـ العيني : بدر الدين ابو احمد محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ)
عمدة القارىء لشرح صحيح البخاري ، ١١ جزء ، مصر ١٣٠٨هـ

٣٤ـ القرطبي : عريب بن سعيد (ت ٣٦٦هـ)
صلة تاريخ الطبري القاهـرة ١٩٣٩

٣٥ـ الماوردي : علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ)
الاحكام السلطانية : مصر ١٢٩٨هـ

٣٦ـ المرزوقي : احمد بن محمد بن الحسن (ت٤٢١هـ)
الازمنة والامكنة حيدر آباد الدكن ١٣٣٢ هـ

٣٧ـ مسكويه : احمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ)
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥

٣٨ـ مسلم : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١هـ)
الجامع الصحيح ، ٨ أجزاء ، مصر ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ هـ

٣٩ـ المقدسي : محمد بن احمد (ت٣٨٧هـ)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦

٤٠ـ المقريزي : احمد بن عبدالقادر بن محمد (ت ٨٤٥هـ)
اغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠
شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ١٩٦٧
٤١ـ وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ)
اخبار القضاة ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٠
٤٢ـ ياقوت : شهاب‌الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت (بلا)
٤٣ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ)
البلدان ، بريل ، ١٨٩٢ هـ
تاريخ اليعقوبي، ٣أجزاء النجف ١٣٥٨هـ

المراجع

٤٤ـ الافغاني : سعيد
اسواق العرب في الجاهلية والاسلام دمشق ١٩٣٧ .
٤٥ـ حتى : فيليب وآخرون
تاريخ العرب (مطول) بيروت ١٩٥٠
٤٦ـ الخربوطلي : على حسني
تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي القاهرة ١٩٥٩
٤٧ـ الدوري : عبدالعزيز
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨.
٤٨ـ الريس : محمد ضياءالدين
الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية القاهرة ١٩٦١.

٤٩ـ زيدان : جرجي
تاريخ التمدن الاسلامي ، ٣ أجزاء ، مصر ١٩٢١

٥٠ـ سرور : محمد جمال الدين
تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق القاهرة ١٩٦٥

٥١ـ الصيني : بدرالدين جي
العلاقات بين العرب والصين ، ط١ ، القاهرة ١٩٥٠

٥٢ـ علي : جواد
تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨أجزاء ، بغداد ١٩٥٣م — ١٩٥٩ .

٥٣ـ العلي : صالح احمد
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ١٩٥٣

٥٤ـ الكبيسي : حمدان عبدالمجيد
اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ، بغداد ١٩٧٩

٥٥ـ لسترانج : غي
بغداد في عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٣٦

٥٦ـ متز : آدم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، جزءان القاهرة ١٩٤٨

المبحث الثاني

التجارة الخارجية

علاقات العراق التجارية مع اقاليم الدولة العربية الاسلامية

منذ ان توطدت اركان الدولة العربية الاسلامية اصبحت بعض مدن العراق الرئيسية تشكل نهاية لطريق هام من طرق التجارة • فكانت الموصل نهاية لطريق ارمينية واسيا الصغرى ، والبصرة نهاية لطريق الشرق القادم عبر البحر العربي فالخليج العربي ، والكوفة نهاية للطريق الذي يصل غربي العراق بشبه جزيرة العرب • اما بغداد فكانت نهاية لعدة طرق منها الطريق العام من الشمال عبر نهر دجلة أو بمحاذاته ، والطريق القادم من الغرب عبر نهر الفرات او بمحاذاته ، والطريق القادم من الجنوب عبر الرافدين أو بمحاذاتهما •

واخذت كل مدينة نصيبها من الارباح الناتجة عن اعادة تصدير البضائع المارة بها •

لقد كانت علاقة العراق التجارية ببلاد الشام نشطة ومنظمة وان كثيرا من السلع التجارية كانت تأتي عبر الفرات ثم تسلك نهر عيسى الى ان تصل العاصمة بغداد • ونستطيع ان ندرك جانبا من قوة هذا النشاط اذا ما علمنا ان وارد العبارة عند مدينة هيت لسنة ٣٠٦هـ/٩١٨م بلغ (٨٠٢٥٠ دينارا) •

وتأتي الفواكه والزيت والزيتون والاسلحة في مقدمة ما يستورده العراق من بلاد الشام . هذا بالاضافة الى المنسوجات الحريرية والقطنية . وكانت بعض صادرات العراق تصل الى بلاد الشام ، لاسيما المناديـــل والازر والخزف والادوات الزجاجية والورق والعطور .

وفي نفس الوقت كانت تجارة العراق مع شبه الجزيـرة العربية نشيطة ايضا . حيث تجلب من هناك الى العراق الخيل العراب والنعام والنجـائب والقانة الذي يتخذ منه القسي . بالاضافة الى الجلود المدبوغة . كما وردت الى اسواق العراق منتوجات اليمن ، ومنها االبرود والجلود المدبوغة والزرافات والعقيق والكندر والرماح والورس . وتزودت القوافل القادمة من شبه الجزيرة العربية بانواع السلع من الحيرة والكوفة والبصرة والانبار .

وكان تجار العـراق يجلبون من مصر البغال والحمير والثياب الرقاق والقراطيس والدهون والمنسوجات ودهن البلسان والزبرجد الفائق . وكان للتجار العراقيين وكلاء في مصر يتولون تسيير امورهم التجارية .

وشمل نشاط العراقيين التجاري شمالي افريقية ، حيث جلبوا من هناك الذهب واللبود وورق السلم الذي تدبغ به الجلود ، والبزاة السود . كما استورد العراقيون من الحبشة العاج ، والابنوس والتبر وبعض التوابل ومواد اخرى من شرق افريقية . وتوغل التجار العراقيون في وسط القارة الافريقية ، اذ حملوا الـى هناك الثياب البصرية البراقـة التي لاقت اقبالا كبيراً مـن سكان تلك المناطق والتي استبدلها التجار العراقيون بالذهب .

وكانت التجارة العراقية مع الاقاليم الشرقية للدولة نشطة ، اذ جلب من تلك الاقاليم الثياب التوزية والاكسية ، وماء الورد والزبيب وبعض انواع الفواكه . هذا بالاضافة الى الاصواف التي كانت ترد الى عاصمة الخلافة العباسية ، والصابون والتين والزيت والفوط واللؤلؤ ، وازر الكتان والموازين والبسط الجيدة والستور ، والمنسوجات الكتانية والصوفية ، والعطور ، والبغـال

والطنافس والقز والابريسم والنحاس والعسل والشمع وسائر انواع الحرير والاقمشة والفواكه المقددة .

ويوجد طريق تجاري نشط ربط مدن العراق الشمالية بأرمينية فقد ذكر الجغرافيون العرب مراحل طريق يمتد من نصيبين الى دارا وآمد وميافارقين ثم ارزن .

وتشير النصوص الى ان التجار جلبوا من آمد الثياب الموشية والمناديل والستر الرقاق والطيالس والصوف . واستوردت الى اسواق العراق الفرش القرمزية الغالية الثمن من ارمينية وطبرستان، اضافة الى اطباق الخشب والاكسية والثياب والمناديل . كما جلب من ارمينية واذربيجان اللبود والبراذع والفرش والبسط والتكك الصوفية . وان الفرش الارمينية كانت تزين دار التاجر العراقي الحسين بن عبدالله الجصاص .

وتذكر الاخبار التاريخية قوة التبادل التجاري بين العراق وارمينية ، اذ يرد في ثناياها انه كان يصل الى اسواق العراق البسط المحفورة والسجاجيد والبزات، بالاضافة الى الوسائد والمقاعد والفرش والستائر الصوفية، والثياب الصوفية والبراذع . وحمل من اواسط اسيا وارض الترك الياقوت والمنسوجات والدروع ومواد اخرى .

وبنفس الطريق التي سلكتها القوافل القادمة من الاقاليم الشرقية الى العراق، خرجت منه قوافل محملة بالبضائع المختلفة ، ومتجهة نحو الشرق .

لقد انشيء في بغداد ومدن اخرى عدد كبير من المصانع لصنع الزجاج والخزف وثياب القز ، كما نشطت صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير الفاخر ، والعمائم والمناديل بانواعها ، والازر والصابون والورق وصناعة الاحذية والاواني النحاسية . وكان كثير من انتاج هذه المصنوعات يصدر الى اقاليم الدولة الشرقية .

العلاقات التجارية مع البيزنطيين

لعبت ثغور الجزيرة الفراتية دورا هاما في التبادل التجاري بين العراق وبلاد الروم البيزنطيين . اذ ارتبط العراق مع هذه الجهات بشبكة من الطرق يسرت اتصاله بما حوله ، وهيأت له دورا تجاريا كبيرا .

وعن طريق الجزيرة الفراتية يمكن الوصول الى الثغور الجزرية ومنها الى ارمينية وبلاد بيزنطة . واوضح الجغرافيون العرب المسلمون في كتب المسالك وغيرها هذه الطرق،وفصلوا مراحلها ومسافاتها وسككها،ومنها الطريق الذي يربط مدن الجزيرة الفراتية بآسيا الصغرى ، حيث يصعد شمالاً حتى يصل الى طرابزون التي جعلها البيزنطيون نهاية للتجارة العربية .وهم والحالة هذه حولوا تجارة الحرير والتوابل والعطور وبضائع العراق والشرق التي كانوا يحتاجونها ، الى طريق العراق الذي لا يتهددهم منه خطر بحري وابتعدوا عن سوريا ومصر . كما ان تمركز الامويين في الاندلس ، اثر في اغلاق غربي البحر الابيض المتوسط في وجه التجارة البيزنطية . وعندئذ اقتصر دور التجارة الشرقية على ثغر طرابزون ، وهذه التجارة هي المستوردة من الوسطاء العرب في العراق .

حل العرب محل الروم في التعامل مع بلاد المحيط الهندي ، وادت سيطرتهم على البحر المتوسط الى اتصالهم المباشر ببلاد اوربا .كما ان منتوجات روسيا وبلاد شمال اوربا كانت تأتيهم من طرق تسير حول بحيرة ارال .

ومما عزز دور التجار العراقيين في هذا المجال ،ان رقابة الدولة البيزنطية ادت الى تغيير وسطاء التبادل التجاري بين الشرق والغرب . فمنذ سنة ٩٨ هـ/ ٧١٦م ، حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار السوريين والمصريين الى اسواق الغرب ، وانتهى الامر بان حددت الامبراطورية البيزنطية عددا معينا من المنافذ التجارية ، واشترطت ان لا تسلك التجارة غيرها بل جعلت

توزيع البضائع الثمينة ، كالحرير والتوابل احتكارا لتجار تلك المنافذ التجاريه، ومن سمح لهم بالقدوم اليها لاغراض التجارة . ومن هذه المنافذ طرابزون التي استأثر به التجار العراقيون الذين نشطوا حينئذ فيمياه الشرق الاقصى حتى وصلوا الصين ، وانتقلت عن طريق العراق والتجار العراقيين كميات من بضائع الشرق الى البحر الاسود والثغور البيزنطية التي كانت المدخل البيزنطي لتجارة العراقيين . ومما ساعد في فتح المجال واسعا بهذا الصدد ، هو انضواء ارمينية تحت لواء الدولة العربية الاسلامية .

وهناك عامل اخر فسح المجال امام التجار العراقيين للتوغل في بلاد الروم وهو انهم عرفوا طبيعة السياسة التجارية الواسعة النطاق للتجار البيزنطيين الذين قصروا نشاطهم التجاري على التعامل مع المناطق الغربية وعبر المسالك الامنة والسهلة الاجتياز ، تاركين للتجار الاجانب ومنهم العراقيون ، مصاعب الرحلات التجارية البعيدة ومخاطرها .

وبازدهار الحياة الاقتصادية فيالعراق ، اخذت معظم تجارات المحيط الهندي ترد عن طريق الخليج العربي لانه اقصر ، وادى هذا الى انحطاط اهمية البحر الاحمر في التجارة .

وقد كان لمتابعة الجهاد في منطقة الثغور وشحنها بالمقاتلة دورها الفاعلفي تأمين الطرق ورواج التجارة . وليس ثمة دليل على محاولة الدولة العربية الاسلامية التحكم فيالتجارة الذاهبة الى الامبراطورية البيزنطية او الخارجة منهـا .

ومنذ البداية كان الخليفة ابو جعفر المنصور قـد ادرك اهمية صلات العراق التجارية مع بلاد بيزنطة ، فعمل على استمرارها وتنميتها ومن اجـل ذلك ابرز الخليفة من بين اسباب اختياره موقع عاصمته الجديـدة سهولـة مواصلاتها مع بلاد الروم البيزنطيين .

• وبما ان الدولة العباسية كانت قد استطاعت ان تنفذ الى بعض الاجزاء الجنوبية من قارة اوربا ، فانها والحالة هذه استطاعت ان تستأثر بنسبة عالية من حجم التبادل التجاري مع تلك الجهات ، استيراد وتصديرا •

ولم يحل العداء السياسي والعقائـدي بين الدولـة العربية الاسلامية والبيزنطيين دون ازدهار الاتصال التجاري بين الفريقين • فقد تلمس امبراطور بيزنطية مدى قوة التبادل التجاري بين بلاده والعراق ، فعمل على استمراره وادامته ، لذا كتب الى خليفة بغداد داعيا الى المسالمة والاقلاع عن الحـرب ليفسح المجال واسعا امام التبادل التجاري بين البلدين لكي يبلغ اقصى مداه• وكان الخليفة المأمون قد شارك امبراطور بيزنطة في هذه المشاعر ، فاجابه على كتابه هذا وفي اجابته تبرز اهيمة رواج المتاجرة بين العراق وبلاد الروم •

وبذا وردت الى اسواق العراق من بيزنطة سلع كثيرة منها الديباج الرومي المشهور والثياب والازر والزيتون والبسط • كما نقل كثير من سلع بلاد الرافدين الى بلاد الانضول ومنها النباتات ذات العطر الطيب والصمغ• ولعب التجار اليهود دوراً في هذا المجال اذا كانوا يجلبون من الغرب انواع السلع ، يأتي في مقدمتها الديباج والجلود والفراء والسمور والسيوف ولـم تنجح تماما محاولاتهم في تحويل طرق التجارة الخارجية مع الشرق والغرب بعيدا عن العراق ، ولا الاستغناء عن المنسوجات العراقية الفاخرة ، ولا ارغام المستوردين العراقيين على قبول الاسعار التي حددوها لشراء السلع التي كانوا يجلبونها •• وبذلك استمر اعتماد الهند والصين والشرق الاقصى ، وكذلك الغرب الى درجة كبيرة على التجار العراقيين كوسطاء تجاريين ، فضلا عن ارسال هدايا تقديرية ثمينة للمسؤولين في العراق من اجل تمتين الروابط التجارية بين العراق وتلك البلدان • والحق ان الصناعات الناجحة في العراق خلال العهـد العباسي ، اوجد نوعا من التعادل في ميزان التجارة مع الغرب •

وقد سلك التجار اثناء تنقلهم بين العراق وبلاد الروم البيزنطيين وشرق

اوربا ، عدة طرق ، كان اهمها الطريق الذي ربط مدن العراق الكائنة في شمالي الجزيرة الفراتية والموصل ، حيث يصعد الطريق شمالا حتى ينتهي به المطاف عند مدينة القسطنطينية او طرابزون •

وذهب بعض التجار العراقيين الى حوض نهر الفولغا ، وكانوا يلقون معاملة طيبة ، ويدفعون ضريبة قدرها عشر قيمة البضاعة التي يحملونها وكانوا يجلبون من هناك انواع الفرو ، كالسمور والسنجاب ، وفرو الثعالب والنشاب والسيوف والدروع والعسل والشمع •

وعمل الخزر كوسطاء مهمين في التجارة بين مركز الخلافة العباسية وبين شرق اوربا •

ووصل بعض التجار الروس الى بغداد ، يحملون بضائعهم على الجمال • واهم ما كانوا يتاجرون به فرو الخزر وفرو الثعالب السود الذي يعتبر من اجود انواع الفرو ، والسيوف • وعندما كانوا يمرون ببلاد الروم كان صاحب الروم يعشرهم • وقد يمرون ببحر الخزر فيعشرهم صاحبها • وكثير منهم كان يحمل تجارته على الابل الى بغـداد • وبالمقابـل وصل التجـار العراقيون الى مدينة كييف حاملين معهم بضائع بلادهم ، وفي مقدمتها المنسوجات الرقيقة والمخملة والناعمة المطرزة ، او المصنوعة من الحرير ، التي كانت تصنع في مدينة بغداد والموصل ، ونالت تقدير سكان تلك المناطق ، وجالبين معهم من هنـاك انواع السلع المرعزية • وتشير النصوص الى ان الكهرب الصقلبي المحمول من منطقة البلطيق كان يفضله المسلمون حيث كانوا يأخذونه ويصـدرون بعضه الى الصين •

وتشهد النقود المسكوكة في العراق والتي وجدت طائفة منها في روسيا وحوض بحر البلطيق وخليج فنلندة ، باتساع التجارة التي مارسها العراقيون مع تلك الاصقاع ، وكذلك العملات التي اكتشفت على طول مجرى نهر الفولغا ، كل ذلك يؤكد قوة التبادل التجاري بين هذه المناطق ومركز الخلافة العباسية •

واقدم هذه النقود يعود الى بداية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) لكن اكثرها يعود للفترة التي بين نهاية القرن الثالث واواسط القرن الرابع الهجريين وفيها كمية من النقود البغدادية التي قبلت في اوربا الشرقية وراج تعاملها في الاسواق هناك . وهذا يؤكد لنا ان التجارة العراقية كانت نشطة مع تلك البلاد .

وكان التجار الاجانب يخزنون بضائعهم في مخازن خاصة كما كانوا ينزلون هم ودوابهم في بنايات خاصة ، فيها غرف ينزلها التجار ، تكون في الطابق الثاني وتتصل ببعضها وهذه البنايات لا توجد في المدن الرئيسية فحسب بل في المحطات الممتدة على طول الطرق التجارية .

والملاحظ ، ان الحروب التي كان يشتد اوارها بين الفينة والاخرى بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية ، لم تقف كثيرا امام الرحلات التجارية بين مركز الخلافة وبلاد الروم . وقد رحب المسؤولون العرب المسلمون بالتجار الاجانب الذين كانوا يدفعون العشر ، ويعتبرون مستأمنين لمدة عام .

التبادل التجاري مع الهند

كانت البصرة المركز الرئيس للطرق البحرية ، التي يذهب اولها الى الهند والصين ، بينما يدور الثاني حول سواحل شبه الجزيرة العربية الى البحر الاحمر والى شرق افريقيا .

ولما كان الخليج العربي ضحلا عند مصب دجلة ، فقد انشىء منار في البحر تسترشد به السفن التجارية القادمة الى البصرة .

وكان هذا المنار بهيئة بيوت انشئت فوق جذوع النخل منصوبة في الخليج يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدما فوق سطح الماء ، ورتب في البيوت قوم يوقدون المنار بالليل لكي تبتعد السفن عن الاماكن الضحلة .

وكانت التجارة البحرية مع الهند نشطة نظراً للمنتوجات التي تنتجها والتي يحتاجها العراقيون . واهم مراكز التجارة في الهند هي الديبل وقد وصفها الاصطخري بانها « غربي مهران على البحر ، وهي متجر كبير وفرضة لهذه البلاد وغيرها .. وهو بلد قشف وانما مقامهم التجارة » . ووصفها ابن سعيد بانها اكبر فرض السند ، ويجلب منها المتاع الديبلي .

وفي الديبل كان العرب ومنهم العراقيون ، يتبادلون البضائع مع التجار الهنود الذين يجلبون بضائعهم من داخل الهند او من المدن المجاورة .

ومن المراكز التجارية الاخرى المنصورة ، وهي مدينة كبيرة تقع على نهر مهران واهلها مسلمون . والملتان ، وهي مركز مهم للتجارة مع الاقسام الداخلية من الهند ، حيث فيها معبد تقصده جماهير الحجاج الهنود من داخل البلاد.

وقد عني العراقيون بتوسيع صلاتهم التجارية مع البلاد التي يتاجرون معها ، وذلك بانشاء مراكز تجارية لهم ، يجعلون فيها الوكلاء ، ويؤسسون المخازن . وفي ضوء ذلك كانت لهم مراكز مهمة في الهند اذ شاهد المسعودي في سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م مستوطنة تجارية عربية في منطقة صيمو (Chaul الحالية) فيها نحو عشرة الاف شخص قدموا من البصرة وبغداد وغيرهما . ومن افراد من نسب عربي ولدوا في البلاد ، وفي المستوطنة ايضا تجار كبار .

اما الطريق البري الى الهند فكان طويلا وشاقا ومحفوفا بالمخاطر وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كان التجار اليهود (الردانية) يذهبون برا من البصرة الى الاهواز ، ثم الى كرمان ، ومنها الى السند ثم الهند ، وهناك طريق اخر كثيرا ما سلكه التجار ، يمتد من العراق الى خراسان ثم الهند . ولكن الظروف السياسية انذاك ، كانت لاتسمح بورود تجارة تستحق الذكر مع داخل الهند عبر هذا الطريق .

اما السلع التي كانت تجلب من الهند،فاهمها النمور والفيلة وجلودالنمور

والياقوت الاحمر وجوز الهند ، كما كان يجلب من الهند الاخشاب الصلبة ومن انواعها الابنوس وخشب الصندل الابيض ،الذي وصفه الصابي بانه « الصندل الفواح » والخيزران الذي يستعمل للرماح ، وهي اسلحة الفرسان والرجالة • وقد اشتهرت الرماح الخطية التي يجلب قناها من الهند • ومن الاخشاب الصلبة الساج ، الذي كان يستخدم بكثرة في بناء البيوت • وقد اشتهرت البصرة باستعمال خشب الساج ، كما استعمل ببغداد بكثرة منذ انشائها ، وفي بعض المدن العراقية الاخرى •

ويجلب من الهند ايضا التوابل ، ومنها الفلفل والكبابة ، والجوز بوا (جوزالطيب) والقرنفل • وكذلك تجلب بعض العطور ، ومن انواعها المسك والعنبر ، والكافور ، والعود الهندي • ومن السلع الاخرى التي تجلب من الهند العقاقير ، والعاج المصنع •

وتأتي التمور في مقدمة صادرات العراق الى الهند ، ومن المحتمل ان المنتوجات العراقية الاخرى ، الزراعية منها والصناعية كان يصدر ما فاض منها عن حاجة السوق الداخلية ، كما تصدر الى الهند الخيول •

التجارة مع الصين

كانت السفن الخارجة من البصرة ، والتي تقصد الصين تمر في طريقها الى مسقط ، ثم الديبل ، ثم كولم ملى (كويلون) • وبعدئذ تسير حول الجزء الجنوبي من جزيرة سرنديب (سيلان) متجهة شرقا الى جزيرة لنجبالوس ثم الى كله بار • وبعد ذلك تعبر مضيق شلاهط (ملقا) نحو جزيرة تبومه (سومطره) ، ثم تقصد مباشرة الى كندرانج (في دلتا ميكونج)ثم الى الصنف (Cambodia) ، ثم الى صنف فولاو ، ثم الى ابواب الصين (شعاب باراكل)، ومنها الى خانقو ، وهي كانتون الحالية ميناء الصين العظيم •

وكانت الملاحة نشطة ، ومباشرة في القرن الثالث الهجري ، وهي تصل

خانقو ــ اي كانتون الحالية ــ وقد وصف المسعودي خانقو بانها « مدينة عظيمة على نهر عظيم .. تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من البصرة ... بالامتعة والجهاز » . ان اشارة المسعودي هذه تدل على ان تلك الملاحة لم تظهر فجأة في زمنه ، بل كانت استمرارا لنشاط تجاري يرجع الى أزمنة قديمة ، حيث يذكر في مكان اخر ان مراكب الصين كانت تأتي الى الابلة والبصرة . وكذلك كانت المراكب تذهب من الابلة والبصرة الى الصين .

ان ظروف الملاحة في المحيطات الجنوبية الواسعة تقضي ان تكون المراكب التي تبحر الى الصين قوية وكبيرة ، لتستطيع مقاومة العوارض والاخطار ، وحمل ما تحتاجه تلك السفرات الطويلة والمحفوفة بالمخاطر من مؤن ورجال وان تكون من السعة ما تكفي لحمل بضائع كثيرة .

والواقع ان ضخامة السفن التي تذهب الى الصين كانت تثير تعجب اهل كانتون . فكان علوها عن سطح الماء يبلغ حدا يضطر المسافرين الى استعمال سلالم يبلغ ارتفاعها عشرات الاقدام ليصعدوا الى سطحها .

ونظرا لضخامة السفن الصينية وكثرة حمولتها ، فالضرائب التي تؤخذ منها ، كانت تبلغ اضعاف ما يؤخذ من غيرها من السفن ،فقد كان يؤخذ منها في كولم ملي (كويلون في الملبار) الف درهم ، فيحين انه تؤخذ من غيرها ما بين عشرة دنانير الى عشرين ديناراً .

وكان ربابنة السفن الصينية مسجلين في دائرة التجارة البحرية الموجودةفي خانقو ، غير انهم لم يكونوا من اهل الصين ، والراجح ان تسميتها (بالسفن الصينية) يعود الى استخدامها فيالتجارة مع الصين وان ملاكيها من العراقيين وغيرهم من العرب .

ونستطيع ان تتلمس قوة النشاط التجاري بين العراق والصين في ان

السلطات هناك عينت احد المسلمين ليرعى شؤون مواطنيه في الصين وكانت تقام صلاة العيد فيها ، ويدعى للخليفة على المنابر .

وكان الحكام الصينيون يولون رجالا من المسلمين للحكم في الخلافات التي قد تحدث بينهم وبين اهل الصين ، وهو امر كان يرتاح له المسلمون . . .

ومن المعلوم ان جالية عراقية قد استوطنت في خانقو ، وتعلم افرادها اللغة الصينية ، واصبحوا وسطاء بين الحكومة الصينية وبين التجار العرب .

وكانت مدينة كانتون المركز الرئيسي للتجارة مع الصين فقد رددت المصادر العربية ذكر كانتون ، وتكلم عدد قليل منها عن تجارة العرب مع كانتون ، مما يدل على مدى سعة هذه التجارة واستمرارها ، فقد وصفها السيرافي بانها : « مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب واهل الصين » ووصفها المروزي بانها : « مرفأ عظيم وبها نهر كبير يخترق البلدة ، وعليه جسر . وعلى احد جانبيه اسواق التجار الغرباء ، وعلى الجانب الاخر اسواق اهل المدينة ، واكثر من يقصدهم التجار العرب .. وفي هذه المدينة صاحب عشر الملك يجمع امتعة التجار ويأخذ منهم العشر .. وملكهم يكرم التجار ولا ظلم على احد ممن يرد ناحيته .. ورسمه ان يأخذوا من التجار الذين يردون هذه المدينة كل عشرة ثلاثة » .

وقد فرضت الحكومة الصينية تنظيمات خاصة على التجار ، وقد ذكر السيرافي الرقابة الصينية على السلع المستوردة فقال : « واذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك الى ستة اشهر الى ان يدخل اخر البحريين ثم يأخذ من كل عشرة ثلاثة ، ويسلم الباقي الى التجار وما احتاج اليه السلطان اخذ باغلى الثمن وعجله ولم يظلم فيه » .

وذكر المروزي بعضا من تلك التنظيمات فقال : « واذا وصل المركب الى باب هذه المدينة خرج اليه الامناء والكتاب من اهل البلد فيكتبون عدد ما في

المركب من الرجال والنساء والصبيان .. ثم يكتب اسم صاحب المركب واسم ابيه ويكتب اسماء الذين معه من التجار وتكتب اسنانهم .. ومن اي بلد هو .. ويثبتون جميع ما في المركب من الامتعة . فاذا اثبتوا جميع ما في المركب أذنوا لهم بالنزول .. ثم يخرج مافي المركب من الامتعة ويوضع في بيوت ويختم عليها الامناء ، ويمنع البيع والشراء ستة أشهر الى اخر وقت الريح فاذا علموا ان المراكب انقطعت وجاء وقت لا يقدم فيه احد سلموا المتاع الى التجار بعدما اخذوا منه المكس ، وهو من كل عشرة ثلاثة فيبيعون كما يريدون » .

ان الغرض من احتجاز السلع كلها حتى نهاية موسم الملاحة ، هو اتاحة فرص متساوية للجميع ، وكذلك تخفيض الاسعار باغراق السوق بالسلع .

وكانت ثمة قيود اخرى قبل رحلة العودة ، فقد كان هناك مفتش للتجارة البحرية صيني ، وكان على التجار تسجيل اسمائهم في مكتبه ؛ وعليه ان يفحص بيانات شحنهم ، ويجمع منهم ضرائب التصدير ورسوم الشحن ، ويمنعهم من تصدير طائفة معينة من السلع النادرة الغالية الثمن .

وقد تعرضت التجارة مع الصين الى هزة عنيفة خلال القرن الثالث الهجري ، بسبب الحرب الاهلية التي قامت في الصين عام ٢٦٤ هـ /٨٧٧ م والتي راح ضحيتها مائتا الف تاجر في خانقو من المسلمين وغيرهم ، وقد ادى ذلك الى شل التجارة الصينية .

وبالرغم من القضاء على الثورة الصينية ، ورجوع الملك ، فقد بقي الوضع الداخلي للصين قلقا ، اضافة الى الاجراءات التعسفية والمعاملة السيئة التي لقيها العرب في الصين في تلك الفترة ، جعلتهم ينقلون مركزهم من كانتون الى كله بار ، التي اصبحت مركز الملاحة والتجارة . وهذا واضح مما قاله المسعودي في زمنه « حوالي ٣٣٢هـ / ٩٤٣م » .

غير ان الثورات الصينية ، والاضطهادات الشديدة ، والقيود الجديدة

التي فرضت على التجار العرب ، وكذلك انتقال مركز التجارة الى كله بار ، لم يؤد الى انقطاع تام للتجارة . فقد ظلت بعض الصلات المباشرة ، وان كانت ضعيفة ، وقد ازدادت تلك الصلات قوة قبل نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، اذ بذلت الحكومة الصينية جهدها لتنشيط التجارة الخارجية، وارسلت وفدا الى الخارج ليقنع التجار بالمجيء الى الصين ، ومنحت التجار الاجانب اجازات خاصة لاستيراد البضائع ، ثم اخذت بعد ذلك التدابير اللازمة لتنظيم التجارة الخارجية . ففي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، اعيد تنظيم دائرة الملاحة في كانتون وجعلت التجارة الخارجية بين ٣٦٦ ــ ٣٧٣هـ / ٩٧٦ ــ ٩٨٣ م) بيد الدولة . و فيسنة ٣٩٠ هـ /٩٩٩ م انشأت الحكومة دوائر للتجارة البحرية في هانج شو (Hang Chou) ، وفي منج شو (Mingchou) ، وفي ننج شو (Ning Chou) الحالية بناء على طلب التجار الاجانب وتسهيلا لمعاملاتهم .

اما التجارة بين العراق والصين عبر الطريق البري ، فقد كانت ضئيلة ان لم تكن معدومة ، اذ ان الرحلة كانت طويلة ، وكثيرا ما اغلقت الحكومة الصينية الطريق المؤدية الى الصين كوسيلة للحد من التغلغل الاجنبي .

اما الطريق البحري فكان اسهل ومفضلا على الطريق البري لدرجة ان بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند الى البصرة ومن هناك يسلكون الطريق البحري الى الصين .

وكان العراق يستورد من الصين الحرير والثياب الحريرية والديباج ومناديل الغمر والمماطر المشمعة ، وكذلك الغضائر واللبود والعقاقير والدارصيني ، واواني الذهب والفضة والسروج والكاغد والمداد .

ومنذ ان استقرت الاوضاع في الدولة ، اخذت السفن العراقية تبحر من البصرة قاصدة الصين ، والشرق الاقصى حاملة معها البضائع التي كانت تنتج

في مركز الخلافة . ومن المرجح ان التمور وسلعا اخرى ، كانت قد صدرت الى تلك البلاد ، وانها لقيت رواجا واقبالا من سكان الصين .

العلاقات التجارية مع ساحل أفريقية الشرقي

كانت السفن الماخرة من البصرة والابلة تصل الى سواحل شرقي افريقية حتى سفالة (موزمبيق) ، وهي حد اسفارهم التجارية ، ويبدو ان السفن التي تبحر الى افريقية كانت تسير بشكل قوافل بلغ بعضها ست عشرة سفينة ، وذلك لاسباب امنية .

ومن السلع التي تجلب من الساحل الافريقي هو الذهب ، واهم مناجمه سقالة الزنج ، وقد اطرى البيروني الذهب بسقالة الزنج ، وذكر انه في غاية الحمرة ، واورد تفاصيل في طريقة استيراده . وقال ابن الوردي « والى جهة الزنج ارض سقالة الذهب .. ومن عجائب ارض سقالة ان بها التبر الكثير ظاهرا ، زنة كل تبرة مثقالان ، وثلاثة واكثر » . وذكر ابن سعيد ان اكثر معاش اهل اسقالة الذهب والحديد .

ومن المناطق الاخرى التي تنتج الذهب بلاد الزنج ، وجزيرة قتنبلو (مدغشقر) .

واهم السلع التي تجلب من شرقي افريقية الفلفل ، والعنبر ، والكافور والعاج . كما كان يجلب من افريقية الاخشاب ومنها الساج والابنوس .

ومن اهم صادرات العراق الى افريقية التمور التي كانت تلاقي اقبالا كبيرا من قبل سكان تلك المناطق وكانوا يقايضونها بسلع ومنتوجات بلادهم . وهكذا ظلت تجارة العراق مع شرق افريقية نشطة حتى اواخر العهد العباسي .

المصادر والمراجع

١ ـ ابن الاثير : علي بن ابى الكرم محمد بن عبدالكريم الجزرى (ت ٦٣٠ هـ).
الكامل في التاريخ ، ٨ اجزاء القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٢ ـ الاصطخري : ابراهيم بن محمد (ت٣٤١هـ)
المسالك والممالك ، بريل ، ليدن (١٨٧٠ ـ ١٩٢٧)
الاقاليم ، نشره Gothae

٣ ـ بزرك : بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي.
عجائب الهند بره وبحره وجزائره ، ليدن ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦ .

٤ ـ البكرى : عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧ هـ) .
معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

٥ ـ البيروني : محمد بن احمد (ت٤٤٠هـ) .
الجماهر في معرفة الجواهر ، ط١ حيدر اباد الدكن ، ١٣٥٥هـ .

٦ ـ ابن البيطار : عبدالله ابن احمد (ت ٦٤٦هـ) .
الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، القاهرة ١٢٩١هـ .

٧ ـ الثعالبي : عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ) .
ثمار القلوب ، القاهرة ١٩٦٥
لطائف المعارف ، القاهرة ١٩٦٠م .

٨ ـ الجاحظ : عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)
التبصر بالتجارة ، دمشق ١٩٣٢م .
رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٦٥ م

٩ ـ الجهشياري : محمد بن عبدوس (٣٣١هـ)
الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨م

١٠ـ ابن حوقل : ابو القاسم بن حوقل (ت٣٦٧هـ)
صورة الارض . ليدن ١٩٣٨ .

١١- ابن خرداذبة : عبدالله بن عبدالله (ت٣٠٠هـ).
المسالك والممالك ليدن ١٨٩٩ .

١٢- الدمشقي : جعفر بن علي (ت ٥٧٠ هـ) .
الاشاره الى محاسن التجارة ، دمشق ١٣١٨هـ .

١٣- ابن رسته : احمد بن عمر (ت٢٩٠هـ) .
الاعلاق النفيسه ، ليدن ١٨٩١ هـ .

١٤- الزبيدي ، ابو اللطف محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت١٠٢٥هـ)
تاج العروس ، بيروت ١٩٦٦ .

١٥- ابن سعيد المغربي : علي بن موسى (ت٦٨٥هـ) .
كتاب الجغرافيه ، بيروت ١٩٧٠ .

١٦- ابن سيده : ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ هـ) .
المخصص ، بيروت (بلا) .

١٧- السيرافي : ابو زيد الحسن بن اليزيد .
رحلة السيرافي ، بغداد ١٩٦١ .

١٨- شيخ الربوه : محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي (ت٧٢٧هـ)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ١٩٢٣ .

١٩- الصابي : الهلال بن المحسن بن ابراهيم بن زهرون (ت٤٤٨هـ).
رسوم دار الخلافة ، بغداد ١٩٦٤ .

٢٠- الطبري : محمد بن جرير (ت٣١٠هـ).
تاريخ الرسل والملوك ١٠ اجزاء ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢١- ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ) .
تقويم البلدان باريس ١٨٤٠

٢٢- ابن الفقيه : احمد بن ابراهيم (ت٣٦٥هـ)
مختصر كتاب البلدان ليدن ١٨٨٥ .

٢٣- القزويني : ابو زكريا بن محمد (ت٦٨٢هـ) .
اثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ .

٢٤- القلقشندي : احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) .
صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٢.

٢٥ـ المروزي : شرف‌الزمان طاهر المروزي (ت القرن السادس الهجري)
ابواب الصين والترك والهند ، لندن ١٩٤٢ .

٢٦ـ المسعودي : علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٩٠٨ .

٢٧ـ المقدسي : ابو عبدالله محمد (ت ٣٧٥هـ) .
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .

٢٨ـ النويري : احمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ) .
نهاية الارب في معرفة فنون الادب ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٩ـ ابن الوردي : سراج الدين ابو جعفر عمر .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٣٠ـ ياقوت : شهاب‌الدين ابو عبدالله الحموي (٦٢٦ هـ) .
معجم البلدان ، لايبزك ١٨٦٨ .

٣١ـ اليعقوبي احمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ) .
البلدان ، بريل ، ١٨٩٢ .

٣٢ـ حوراني : جورج فضلو .
العرب والملاحة في المحيط الهندي . القاهرة ١٩٥٨ .

٣٣ـ الدوري : عبدالعزيز .
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد ١٩٤٨

٣٤ـ العاني : عبدالرحمن عبدالكريم .
البحرين في صدر الاسلام ، بغداد ١٩٧٢ .
عمان في العصور الاسلامية الاولى ، بغداد : ١٩٧٧ .

٣٥ـ عثمان : فتحي .
الحدود الاسلامية البيرنطية ، دار الكتاب ، القاهرة (بلا) .

٣٦ـ العلي : صالح احمد .
محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ١٩٦٤ .
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بيروة ١٩٦٩ .

٣٧ـ فهمي : نعيم زكي .
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٣ .

٣٨ـ الكبيسي : حمدان عبدالمجيد .
اسواق بغداد ، بغداد ١٩٧٩ .

الفصل الثامن

واردات الدولة ونفقاتها

د . فاروق عمر فوزي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

النظام المالي

مقدمـــة

يعتبر الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) واضع القواعد الاساسية للنظم المالية في ولايات الدولة العربية الاسلامية . ومن الطبيعي ان يكـــون عمر بن الخطاب قد استند في تنظيماته هذه على الشريعة الاسلامية وعلـــى سوابق هامة هي تنظيمات الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلـــك تنظيمات البلاد المفتوحة التي كانت واقعة تحت السيطرة الساسانية والبيزنطية.

لهذا فان اعطاء فكرة موجزة عن هذه السوابق التاريخية يعتبر امرا ضروريا لكي تتضح لنا جذور هذه التنظيمات ولنتبين مااستمر منها وماعدّل او تغـــير .

اتبع الرسول (ص) سياسة اقتضتها الظروف الآنية وهي تتصـــف بالمرونة وبمراعاة حالة البلاد التي دخلت ضمن الدولة الجديدة . ويمكن تصنيف تدابيره كما يأتي :

آ ــ الاراضي التي لم يكن سكانها عربا وهي خيبر ووادي القرى ، اما بالنسبة لخيبر فقد فتحت عنوة بعد قتال فغنمها الرسول (ص) وقسمها بين المسلمين وفق الآية (واعلموا ان ما غنتم من شيء فان لله خمسه ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . فكان خمس خيبر لله ولرسوله الذي اعطى منه لنسائه ولذوي قرباه حيث كانت الحاجة في بني عبدالمطلب اكثر ولذا اعطاهم اكثر وكذلك لليتامى والمساكين من المسلمين رجالا ونساء وكذلك رجال تدخلوا بين رسول الله (ص) واهل فدك بالصلح.

اما الاربعة الاخماس الباقية فقسمها بين المسلمين الذين فتحوا خيبر لكل فرس سهمان ولفارسه سهم واحد ولكل راجل سهم اي انه اعطى الفارس ثلاثة اسهم والراجل سهما واحدا .

على ان الضرورة جعلت الرسول (ص) يعدل في هذا التدبير ويعطي الارض لاصحابها بالمقاسمة على النصف لقلة الايدي العاملة وخبرة اهل خيبر بالزراعة .

كما ان وادي القرى فتحت عنوة فاصاب المسلمون منها أثاثا ومتاعا وخمس رسول الله (ص) ذلك وترك النخل والارض في ايدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل اهل خيبر .

ب ــ اراضي العرب : اتبع الرسول (ص) سياسة خاصة مع اراضي العرب ذلك لأنه لم يضع عليها الخراج بل وضع عليها العشر وفي هذا هدف سياسي فضريبة الخراج ربما تحمل معنى الخضوع وهو يريد للعرب المسلمين وحدة سياسية قوية وكريمة ، ففي اليمن مثلا اقر السكان على اراضيهم وفرض عليهم دفع عشر انتاج ماسقي بصورة طبيعية ونصف العشر على ماسقي بآلة وفي البحرين تركت الارض لسكانها العرب على ان يقاسموا الدولة التمر .

اما في المدن الشمالية العربية فقد فرضت الجزية على اهل تيماء مقابل بقائهم في ارضهم وكذلك صالح اهل تبوك على الجزية كما وان اهل اذرح فرض عليهم ضريبة تقدر بمائة دينار وهكذا بالنسبة لعدد آخر من المدن الشمالية . ان تدابير الرسول (ص) في هذا الشأن كانت تختلف باختلاف الظروف والمدن التي انضمت الى الدولة الاسلامية .

اما بالنسبة لاهل الذمة فقد فرض الرسول (ص) الجزية على من كان منهم في الحجاز وقصرها اول الامر على الرجال حيث لم يدخل النساء ولا الصبيان وكان على الرجل ان يدفع دينارا واحدا او نحوه . والمعروف ان الجزية فرضت على اهل الذمة من اليهود والنصارى ثم الحق الرسول (ص) بهم المجوس حيث يروي ابو يوسف في كتاب الخراج « ان رسول الله (ص) قد قبل من مجوس البحرين الجزية واقرهم على مجوسيتهم » كما انه عمل نفس العمل بالنسبة الى مجوس اليمن .

وقرر الرسول الملكية العامة للماء والكلأ والنار وقال « الناس شركاء في الماء والكلأ والنار» ولعل المقصود بالنار هو الحطب الذي يستعمل وقودا .

ولذلك نستطيع ان نستخلص قواعد عامة ظهرت في عهد الرسول (ص) :

اولا — تقسيم خيبر ووادي القرى التي فتحها المسلمون عنوة مقاسمة على النصف مما يخرج من التمر والحب وغيره .

ثانيا — تعتبر بلاد العرب اراضي عشر، ويدفع المسلمون الزكاة بنسبة ٢٫٥٪ عن اموالهم .

ثالثا — الجزية يدفعها اهل الكتاب وألحق بهم المجوس .

رابعا — ادخال مبدأ ضيافة المسلمين في المناطق التي يحلون فيها . وهذه الحالة اقتضتها الواجبات العسكرية الملقاة على المقاتلة في تلك الفترة حيث كان الاسلام ينتشر وحدود الدولة تتوسع .

خامسا ــ الملكية العامة للماء والكلأ والنار بين الناس في حدود الحمى ٠

سادسا ــ وحين فتح الرسول (ص) مكة لم يغنم منها شيئا ولم يقسم اموال اهلها ٠ وفي غزوة حنين انتصر الرسول (ص) على هوازن ولكنه عفا عن السبي وحذا المسلمون حذوه ٠

سابعا ــ وفي معاهدة الصلح مع اهل نجران من العرب النصارى اشترط عليهم ان يدفعوا ضريبة عينية وان يستضيفوا المسلمين ما لا يزيد على عشرين يوما ٠

وكان عهد عمر الفاروق عهد فتوح حيث حررت كل الاقاليم العربية خارج الحجاز كما فتحت اكثر اقاليم بلاد فارس واقتطعت مصر وافريقية من دولة الروم ، وكتب قادة الجيوش الاسلامية الى الخليفة في المدينة يستشيرونه في قسمة الفيء والغنائم بين المسلمين وكذلك بقسمة المدن وسكانها من اهل البلاد وكذلك الارض المزروعة وغير المزروعة ٠

وقد فكر عمر مليا واستشار صحابته وتوصل الى الرأي بوقف توزيع الارض ووضع ضريبة الخراج على الارض وضريبة الجزية على سكان البلاد المفتوحة ٠ ويناقش عمر صحابته « أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام لابد ان تشحن بالجيوش ويدر عليها العطاء٠ فمن اين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون ومن عليها ؟ » ويستند عمر بن الخطاب على كتاب الله الذي يقول « وما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ويؤكد الخليفة الراشدي بان الآية عامة في القرى كلها وليست خاصة ويحذر من خطورة حصر الثروة وتداولها بين فئة معينة صغيرة ٠ ويصل عمر بن الخطاب الى النتيجة المنطقية وهي « لا يمكن تقسيم الفيء بين هؤلاء وندع من يجيء بعدهم ». وكتب بذلك الى سعد بن ابي

وقاص كما كتب الى ابي عبيدة بن الجراح والقادة الآخرين يعلمهم بان الارض التي فتحها المسلمون وقف للامة بجميع اجيالها وهي فيء محبوس (موقوف) لهم لا يملك ولا يورث ٠

لقد استفاد الخليفة عمر بن الخطاب من التنظيمات المحلية من حيث الاساس ولكن العديد من التعديلات اجريت في النظم المالية لتوافق الظروف الجديدة التي نتجت عن الفتح الاسلامي ولتتفق مع مبادىء الاسلام السمحاء وقسم الخليفة عمر بن الخطاب الاراضي المفتوحة الى الاقسام التالية :

أ ــ الصوافي وهي الارض الخاضعة للدولة وتدعى صوافي الامام ويدخل في هذا الصنف كما يقول البلاذري اراضي كسرى التي فتحها العرب واراضي افراد العائلات المالكة الساسانية واوقاف بيوت النار واراضي من قتل في الحرب (من الاعداء) وكذلك المستنقعات والاراضي المجففة (من المستنقعات) ٠

ب ــ ارض الصلح وهي الارض التي صالح اهلها المسلمون على ان يدفعوا ضريبة واحدة وتبقى ملكية اراضيهم لهم ٠ وكانت هذه الضريبة تفرض على اهل المنطقة ثم توزع فيما بينهم على الافراد ٠ وهي ارض الفيء ٠

جـ ــ الاراضي الخراجية التي فتحها المسلمون عنوة عن طريق القتال وابقوا عليها سكانها الاصليين ٠ وقد اوقفها عمر بن الخطاب على مصالح المسلمين كافة بدل توزيعها على المقاتلة الذين فتحوها ٠ ان تنظيمات الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب المالية لم تكن واحدة في كل الاقاليم بل اننا نلاحظ اختلافات بين أسس الضرائب في العراق والشام والجزيرة الفراتية ومصر فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بمسح الاراضي المزروعة في منطقة السواد مثلا ثم وضع الخراج على كل من بيده ارض واختلفت كمية هذا الخراج باختلاف المحاصيل على ان مصادرنا مضطربة في مقداره ٠

اما بالنسبة للجزية فقد فرضت على اهل الذمة بعد ان قسموا الى ثلاث فئات واخذ من كل منها حسب قدرتها المالية فيدفع الغني ثمانية واربعين درهما سنويا والوسط ٢٤ درهما والفقير ١٢ درهما وتذكر بعض الروايات انه ختم وعلى اعنـاق اهل الذمة رصاصا ليكون الختم وثيقة شخصية واعفى النساء والشيوخ والصبيان من الجزية • وكان ينتظر من اهل الذمة ضيافة من يمر بهم من المسلمين ولا تتعدى هذه الضيافة ثلاثة ايام •

ولابد ان نشير الى ان وطأة الضرائب في الدولة العربية الاسلامية خفت عما كانت عليه في العصر الساساني او البيزنطي • وان مقارنة بين الضرائـب التي فرضها الاسلام وبين انواع الضرائب والاعباء التي كانت مفروضة سابقا توضح ان الاسلام ألغى اكثر الضرائب السابقة فلم يبق الا الجزية والخراج وهما ضريبتان موجودتان في العصر الساساني والبيزنطي •

كانت الدولة الساسانية تخوض حروبا طويلة مع البيزنطيين تحتاج الى الاموال فتفرض ضرائب استثنائية يقع عبؤها كما يقول كريستنسن في كتابه (الدولة الساسانية) على الاقاليم الغربية الغنية وخاصة العراق (ص ١١١ ـ ١١٢) • وهناك ضرائب الآيين وهي الهبات المنظمة التي كانت تقدم للشاهنشاه في عيدي النيروز والمهرجان • يضاف اليها الضرائب التي يفرضها رجال الدين على افراد الشـعب •

لقد ألغت الدولة العربية الاسلامية كل هذه الضرائب فلم يبق سوى الجزية والخراج وبمعنى آخر بسطت النظـام المالي المعقـد القديم وخففت الاعباء عن الناس من فلاحين وسكان مدن • كما ساوت بين الجميع وألغت كافـة الامتيازات التي كان يتمتـع بها افـراد الاسرة الحاكمة والطبقـة الارستقراطية ورجال الجيش والاساورة ورجال الدين (الموابذة) والكتّاب المقربين الى البلاط • وكانت هذه الفئات معفوّة من الضـرائب في العصـر الساساني •

لقد كان العراق (السواد) احدى ولايات الدولة ولذلك فان القواعد المالية التي طبقت فيه لم تختلف بصورة عامة ، عن الولايات الاخرى رغم ان مسؤوليات .العراق باعتباره قاعدة للفتوحات في المشرق اقتضت احيانا بعض التعديلات مثل ضم مسؤولية الادارة المالية الى الامير نفسه او تفويضه تعيين عمال الخراج من قبله ليشرف عليهم بنفسه ، كما اقتضت اجراءات استثنائية اثناء الازمات المالية كالاجراءات التي اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفي .

واردات الدولة

كانت واردات الدولة تجبى من المصادر التالية :

١ — الزكـاة :

وهي الضريبة التي تؤخذ من اموال المسلمين اذا بلغت نصابا معيناومضى عليها سنة وتدفع بنسبة ربع العشر ٢٫٥٪ وتؤخذ من الذهب والورق والابل والبقر والغنم والحب والثمار ، والبضائع التجارية حيث يؤخذ منها ربع العشر ايضا .

وتأتي الصدقة احياناً مرادفة للزكاة رغمان للصدقة معناها العام وهو اعطاء جزء من المال لاعمال الخير حسب تقدير الشخص فمقدار الصدقة غير محدد بينما الزكاة محدد ، والزكاة فريضة بينما الصدقة اختيارية .

وتصرف الزكاة حسب الآية القرآنية في سورة التوبة « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ويقصد بالعاملين عليا الجباة ، وبالمؤلفة قلوبهم الذين يظهرو نالاسلام ولم يكن الاسلام عميقا في قلوبهم فحاول الرسول كسبهم وان يأمن شرهم لفترة مؤقتة ، اما الرقاب فهي عتق الرقيق اما الغارمون فهـم الذين لا يستطيعون وفـاء دينهـم في

موعده واما في سبيل الله فهوالجهاد ، وابن السبيل الذي انقطعت به الاسباب اثناء السفر .

ولايدخل مال الصدقة في مال الخراج كما وان جباتها يختلفون عن جباة الخراج . ويأخذ جباة الزكاة رزقهم من مال الزكاة نفسه . وتصرف زكاة كل بلد في أهله ولايجوز نقل صدقات بلد الى غيره الا سهم في سبيل الله (الجهاد) .

وكانت الزكاة تؤخذ من كل مسلم قادر عليها وخاصة المسجلين في ديوان العطاء واستمر اخذ الزكاة من الاعطية في خلافة الراشدين وردحا من العصر الاموي . والزكاة حـق اجتماعي ووسيلة مهمـة مـن وسائل التكافـل الاجتماعي وهي ليست احسانا من الاغنياء والموسرين وقد حذر القرآن من المكابرة فيها « ياايها الذين امنو لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى » .

ويقول ابن حزم في المحلى « فرض الاسلام على أهل كل بلد ان يقوموا بفقرائهم ويكفوهم الضروري من حاجاتهم الغذائية والمعاشية » وليس هناك وسيلة افضل من الزكاة لتحقيق ذلك.

٢ ـ الخمس :

وهو خمس الفيء وخمس الغنيمة . اما الفيء فهو كل ماوصل الـى المسلمين من غير قتال ، ويقسم خمسة اقسام متساوية حسب ماجاء في سورة الحشر : « ماافاء الله على رسوله من اهل القرى فلله خمسه وللرسول ولذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الاغنياء منكم » اما الغنيمة فهي ماوصل الي المسلمين عن طريق القتال وتقسم حسب ماوردفي سورة الانفال : « واعلموا ان ما غنتم من شيء فان لله خمسه ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ».

فكان الخمس من الفيء والغنيمة للدولة والاربعة اخماس الباقية تقسم على المقاتلة الا اذا ارتأى الخليفة والامير ان يطلق الاسرى مثلا . وقد اختلف

الفقهاء فيما تشمله الغنيمة كما وان التطبيق العملي للدولة فيما تشمله الغنيمة تغير حسب الظروف • كما وان المقاتلة أصبح لهم عطاء ثابت ورزق معين يأخذونه من الدولة وتسجل اسماؤهم في ديوان الجند •

لم تقسم الحكومة الاسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب الاراضي التي استولى عليها المسلمون • فقد اجرى عمر ارض العنوة مجرى ارض الصلح فلم يقسمها وانما تركها فيئا مشتركا للمسلمين واتبع الامويون عموما المبدأ نفسه واستمرت الغنائم تقسم بين الغانمين استنادا على قاعدة عمر بن الخطاب « الغنيمة لمن شهد الوقعة » • ولم يتبع الخلفاء طريقة واحدة في تقسيم الغنيمة فبعد وفاة الرسول (ص) اسقط سهمه وسهم ذي القربى وقسمت الغنيمة على ثلاثة اسهم • الا ان خلفاء آخرين جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح • وفي رواية تاريخية ان البعض كانوا يرون ان سبيل الخمس سبيل الفيء يكون حكمه للامام •

٣ ـ العشـــور :

اخذت الدولة الاسلامية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ضرائب على التجارة اشبه ماتكون بالمكوس ومقدارها ربع العشر من التجار المسلمين ونصف العشر من تجار اهل الذمة اما التجار الاجانب الذين يدخلون من من خارج دار الاسلام للتجارة فتأخذ منهم الدولة العشر • وكانت الضريبة تؤخذ مرة في السنة اذا انتقل من بلده الى بلاد اخرى • وكان الموظف الذي يجبي الضريبة يسمى (العاشر)وكان يكتب كتاباً بما يأخذه من التاجر ، ويرى بعض المؤرخين ان عمر بن الخطاب (رض) لم يضع حدا ادنى للاموال التجارية التي تؤخذ منها هذه الضريبة ولكن رواية في كتاب الخراج ليحيى بن آدم تشير الى ان الخليفة كتب الى ابي موسى الاشعري بالعراق ان يأخذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ومازاد على المائتين فمن كل اربعين درهما درهم ومن تجار اهل الحراج نصف العشر ومن اهل الحرب العشر •

ويرى الفقيه ابو يوسف ان كل مايؤخذ من المسلمين من هذه الضريبة فسبيله سبيل الصدقة اما مايؤخذ من عشور اهل الذمة واهل الحرب فسبيله سبيل الخراج .

وقد انشئت في مناطق العراق مراكز خاصة في اماكن مختلفة تسمى دور المكوس . كما وضعت على شواطيء الانهار المآصر لمنع مرور السفن النهرية قبل جبايتها . كما كانت هناك مراكز مهمة في البصرة وموانيء الخليج لجباية العشور .

٤ ـ الجزيـة :

وهي الضريبة التي كانت تؤخذ من اهل الذمة مقابل حماية الدولة لهم وضمان سلامتهم واستقرارهم في مدنهم ومناطقهم . فقد فرضت الجزية على الرأس وشملت اليهود والنصارى والصابئة والسامرة وحتى المجوس . وبالنسبة للمجوس فان الدولة اعتبرتهم من اهل الذمة استنادا الى سابقة اتخذها الرسول (ص) حيث قبل الجزية من مجوس البحرين وقال « سنوا بهم سنة اهل الكتاب » .

وكانت الجزية تسقط بدخول الذمي في الاسلام ولذا سميت بجزية الرؤوس ولم تكن تعنى المذلة او الصغار ذلك ان معناها اللغوي من جزيء يجزي اذا كافأ عما اسدي اليه فكأن اهل الكتاب دفعوها مقابل الخدمات التي نقدم لهم من قبل الدولة الاسلامية من ضمان للأمن وحرية للعمل واعفاء من الجهاد اتماما لمعنى التكافؤ والتقابل .

وكانت الجزية لاتؤخذ الا ممن جرت عليه الموسى ، ومعنى ذلك انها تؤخذ من الرجال الاحرار العقلاء ويعفى منها الصبيان والنساء والشيوخ والمرضى والمعدمون « الذين ليس في ايديهم من الدنياشيء » . وقد اختلفت الجزية من منطقة الى اخرى بقدر يسار اهل المنطقة الاانها في المعدل كانت تقسم

الى ثلاثة اصناف : ٤٨ درهما سنويا على الاغنياء و ٢٤ درهما على متوسطي الحال و ١٢ درهما على من هو دون ذلك .

وكان زعماء المنطقة او دهاقنتها مسؤولين عن جباية الجزية وتسليمها الى عامل الخراج او الامير . وقد استعانت الدولة بالدهاقين لان لديهم الخبرة الكافية في مناطقهم تساعدهم على الجباية . وبمرور الزمن ظهر مايشبه نظام الضمان في جباية الجزية اي ان جزية قرية ذمية تضمن من قبل احد الدهاقين او الزعماء المحليين او الموظفين الاداريين الذي يتعهد بدفع مقدار معين الى الدولة وله بعد ذلك ان يجبي الجزية كما يشاء . وقد حصلت عدة شواهد على تعسف هذا الضامن وجبايته مقادير كبيرة من المال اكثر مما تعهد بدفعه الى الخزينة .

وتشير كتب السياسة الشرعية والاحكام السلطانية الى تعسف عمال الخراج احيانا في الجباية حيث يتركونها بايدي الدهاقين الذين يستعملون وسائل التعذيب لاستخراج الاموال من الناس ويسيئون التصرف . وقد أشار ابو يوسف القاضي على الخليفة الرشيد بضرورة مراقبة عمال الجباية والقضاء على ظاهرة التعسف والابتزاز . على ان هذه الظواهر لم تكن قاعدة عامة متبعة حيث نستطيع القول بان الخلافة عاملت اهل الذمة بروح من العدل والتسامح اذا قارنا ذلك بمعاملة الساسانيين والبيزنطيين ، مستندة في ذلك الى قول رسول الله (ص) : « من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » . وقد انعكس ذلك على موقف الفقهاء العراقيين المرن والمتسامح من اهل الذمة .

ويبدو ان الجزية رفعت في ظروف معينة عن فئات من اهل الذمة وخاصة في مناطق الحدود والثغور من اجل كسب ولائهم للدولة العربية الاسلامية ومقابل ان يكونوا اعوانا وعيونا للمسلمين ضد العدو . كما اعفت الدولة رجال الدين والرهبان احيانا من الجزية شرط الا ينتحلوا صفة التدين ويلبسوا لبوس رجال الدين والرهبان .

كانت الجزية في البداية احد اهم المصادر للواردات ولكن تحول سكان البلاد المفتوحة الى الاسلام ادى بمرور الزمن الى تضاؤل واردات الجزية حتى انها اصبحت تسمى « الجوالي » وربما كانت هذه التسمية مأخوذة من جالية مما يدل على قلة عدد دافعي الجزية . وهنا لابدلنا ان نشير الى أن الدهاقين وامراءالفرس المحليين وخاصة في الاقاليم الشرقية وقفوا حجر عثرةفي سبيل انتشار الاسلام حفاظا على مراكزهم ولاسباب شخصية وعنصرية بحتة ولذلك كانوا يأخذون الجزية من الموالي (أي الفرس الذين دخلوا الاسلام) ويعفون المجوس منها !!

٥ ـ الخـراج :

وهو ضريبة الارض التي كانت تؤخذ عادة على المساحة زرعت ام لـم تزرع حسب الشروط التي وضع اسسها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) .فأذا أخذت هذه الضريبة نقدا وعلى المساحة كانت تسمى (خراج الوظيفة).

وهنا لابـد مـن التنويـه ان اصـطلاح (الخراج) يتداخـل مـع اصـطلاح (الجزيـة) فـي رواياتنـا التاريخيـة ويبـدو ان الاصطلاحين مترادفان في صدر الاسلام فقد شكا بعض الدهاقين الـى الوالي من كثرة دخول الناس الى الاسلام قائلين «ممن تأخذ الخراج وقد اصبح الناس كلهم عربا ؟ » وهنا يأتي اصطلاح الخراج بمعنى الجزية وبنفس الرواية يبدو اصطلاحا العروبة والاسلام مترادفين . وفي رواية اخرى « اخذ ارضا بجزيتها » يأتي اصطلاح الجزية بمعنى الخراج .

الا ان مفهوم الجزية بمعنى ضريبة الرأس ومفهوم الخراج بمعنى وارد الارض بدأ يتبلور بصور تدريجية خاصة في العصر الاموي حيث استقرت الدولة وبدأت بتنظيم البلاد المفتوحة وغدا الخراج وارد الارض يأتي بالدرجة الاولى في الاهمية بل ان مدلوله اصبح يشمل احيانا بمعناه العام الوارد الكلي للخلافة رغم احتفاظ الاصطلاح بمعناه الدقيق وهو ضريبة الارض .

اشرنا سابقا الى أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي قرر القواعد العامة لضريبة الارض (الخراج) ٠ فقد كتب سعد بن ابي وقاص الى الخليفة عمر ابن الخطاب بعد تحرير العراق يخبره « ان الناس سألوه ان يقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم » ٠ الا ان عمر بن الخطاب بثاقب بصيرته وحسن تدبيره قرر بعد ان استشار صحابته ترك الارض لاصحابها مقابل وضع الخراج الخراج عليها وبهذا تكون فيئا للمسلمين « المقاتلة والذرية » وكذلك لمن يأتي بعد هؤلاء من الاجيال القادمة ٠ وكتب بذلك الى سعد بن ابي وقاص في العراق :

« اذا اتاك كتابي هذا فأنظر ماأجلب الناس به الى العسكرمن كراع ومال واقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء »

وكانت الخطوة التالية التي اتخذها عمر بن الخطاب هي مسح السواد (العراق) حيث انتدب لذلك عثمان بن حنيف فمسح السواد فوجده ٣٦الف الف جريب من تخوم الموصل شمالا الى بلاد عبادان جنوبا ومن منقطع الجبل من ارض حلوان شرقا الى اطراف القادسية المتصلة بالعذيب غربا ٠ وبعد ان استشار عمر عثمان بن حنيف قرر وضع الضريبة على الاراضي المزروعة وغير المزروعة من السواد « على كل جريب عامر او غامر درهما وقفيزاً »حيث ان هذا القدر لايشق عليهم ٠ وقد فرضت هذه الضريبة على الارض سواء كان مالكها رجلا ام امرأة ام عبدا واستثنى من الضريبة مساكنهم ودورهم ٠

وقد جعل عمر بن الخطاب عمال الخراج مسؤولين مباشرة امامه حيث طلب من اهل الكوفة والبصرة ان يبعثوا اليه برجل من الكوفة وآخر من البصرة من اصلحهم ففعلوا فولاهما خراج ولايتيهما ٠ اما في العصر الاموي فكان ولاة العراق يشرفون عادة على جباية الخراج ويكون عمال الخراج مسؤولين

مباشرة امام الوالي عدا حالات استثنائية ، وحين غدا العراق اقليما مركزيا في العصر العباسي واتبعت الدولة العباسية المركزية الادارية فان عمال الخراج في العراق كانوا يتبعون مباشرة السلطة ببغداد التي يرأسها الخليفة عدا حالات معينة حيث يعين عمال الخراج من قبل الولاة .

وقد مسحت ارض العراق (السواد) بعد مسح عمر بن الخطاب عدة مرات حيث مسحها زياد بن ابيه في خلافة معاوية ومسحها عمر بن هبيرة في عهد يزيد بن عبدالملك ، واستمر العباسيون يتبعون في فرض الخراج على السواد النظام الاموي مستندين على المسح الثالث الذي قام به عمر بن هبيرة حتى اواخر عهد المنصور حين امر بمسح السواد للمرة الرابعة وقرر تطبيق نظام المقاسمة (الضريبة العينية التي تؤخذ بنسبة معينة من المحصول)ويعزو المؤرخون تطبيق هذا النظام الى المهدي العباسي .

وكان النيروز (عيدالربيع) موسم جباية الخراج وهو كذلك بدء السنة المالية بالعراق . ولكن الدولة لم تكن تأخذ كل المقدار دفعة واحدة بل ربما قسمته الى ثلاثة اقسام يدفعه الفلاح اقساطا كما وان الولاة كانوا «يؤخرون الفلاحين حتى تنضج غلاتهم » وبهذا نكون بامكانهم بيعها ودفع ماعليهم من ضريبة .

وقد حاولت الدولة العربية الاسلامية كسر شوكة الدهاقين والنبلاء المحليين الذين اعتمدت عليهم في جباية الضرائب من المقاطعات الزراعية والقرى والارياف والذين كانوا يتعسفون في الجباية ويأخذون اكثر مما يستحق ويفرضون رسوما اضافية .. كل ذلك من اجل التضييق على ابناء جلدتهم من المزارعين والفلاحين واكرة القرى من اجل ارباك الادارة الاسلامية وخلق روح التذمر والاستياء بين الفلاحين وبالتالي هروبهم من اراضيهم وتدهور الاقتصاد الزراعي للخلافة !! وقد حذر الفقهاء وكتاب السياسة الشرعية في

اكثر من مناسبة الخلفاء من مغبة هذه الاعمال التعسفية التي يتواطأ فيها احياناً الدهاقين مع عمال الخراج الذين تعينهم الدولة .

ونستطيع ان نستنتج من الروايات التاريخية ان هنـــاك ثلاث طرق للجبايـــة هـــي :

آ ــ المحاسبة : وتكون جباية الضريبة نقدية وعينية في آن واحد . فاذا كانت نقدية وعلى المساحة سميت (خراج الوظيفة) .

ب ــ المقاسمة : وهي ضريبة عينية تؤخذ بنسبة معينة من المحصول . وكانت نسبتها تختلف بين النصف والثلث والربع والخمس تبعا لقرب السوق وبعده وقرب الانهار وبعدها وطريقة الري ونوعية المحصول ونوعية الارض من حيث الخصوبة . وقد فرض المنصور المقاسمة على الحبوب ثم جاء المهدي وفرضها على النخيل والفواكه بسبب تعسف بعض عمال الخراج في ابتزاز النقود من الفلاحين .

جـ ــ المقاطعة : وهي ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الدولة والملتزم الذي اقطعته اقطاعات معينة وفق نظام الالتزام .

اما المساوىء المتعلقة بنظام الجباية فكانت كثيرة اشهرها سوء تقدير الجباة لنسبة المقاسمة وتعسفهم في جبايتها مما كان يسبب هلاك المزارعين وخراب البلاد فقد كان الجباة يشددون على جباية الضريبة قبل نضج الزرع مما يؤدي بالمزارع الى الاستدانة ويجعله تحت رحمة المدين ، او انهم يقدرون المحصول باكثر مما هو موجود في البيادر وتذكر الروايات التاريخيه ان عمال الخراج كانوا يعذبون الفلاح بانواع العذاب ويقول الجهشياري بان المهدي امر وزيره بالكتابة الى اهل الخراج بان يرفعوا الظلم والعذاب عن المزارعين وقد دفعت هذه المعاملة السيئة المزارعين اما الى الهجرة او الى القبول (بنظام الضمان) ونقصد به ان يعهد افراد من المزارعين الى بعض الاثرياء او المتنفذين

بضمان الخراج لمنطقتهم مقابل دفع قدر معين من المال او ان الحكومة تعطي خراج منطقة معينة لافراد معينين وتطلق ايديهم في الجباية ، او للالجاء الى احد المتنفذين وكتابة ارضه باسمه ويكون صاحب الارض مزارعاً عنده فتصبح الارض بمرور الزمن ملكا للملجأ اليه وهذا هو نظام الالجاء .

اما الالتزام فيرجع في العراق الى عهد عثمان بن عفان حيث اقطع بعض الصحابة من أمثال عبدالله بن مسعود وسعد بن ابي وقاص والعديد من الامويين مساحات من الاراضي . وكان هدفه من حيث الاساس التشجيع على الزراعة والاكثار من البساتين والاراضي المزروعة واحياء اراضي الموات .

وقد تعقد هذا النظام وتنوع في العصر العباسي فاصبح هناك نوعان من الالتزام او الاقطاع : اقطاع استغلال واقطاع تمليك والنوع الثاني كان اماعلى شكل تمليك اراضي بور غير مزروعة من اجل احيائها زراعيا او تمليك اراضي عامرة وصالحة للزراعة . وقد زادت السلطة من اقطاع الاراضي وتضمينها للافراد بسبب حاجتها الملحة للمال للصرف على القصر والجند والحرب ضد الخارجين على الدولة في تلك الفترة . اما اقطاع الاستغلال فقد شاع في العصور العباسية المتأخرة حيث سيطر الاجانب على الدولة وظهرت الاقطاعات العسكرية التي تعتبر بديلا عن الراتب .

وكان على الوزير ان يحدد خراج الاقطاعات العسكرية ، وقد لعبت الرشاوي والوساطات والهدايا دورا كبيرا في تقدير الخراج كما يقول مسكويه في « تجارب الامم » ثم ان بعض القادة الكبار كانوا بسبب نفوذهم القوي لا يدفعون المفروض عليهم قانونا من الضرائب .

على ان قلة الخبرة الادارية واستفحال امر الجيش في السياسة في العهد البويهي ومابعده ادى الى زيادة الاقطاعات العسكرية فاقطع معز الدولة اقطاعات عديدة بدل المرتبات ولكن هذه الاقطاعات لم تكن تعتبر ملكا لهم

وكان يحق للامير البويهي أن يستعيدها في أي وقت شاء وفي نفس الوقت كان الملتزمون من رجال الجيش يتصرفون باقطاعاتهم حسب مايشاؤون بشرط ان يؤدوا الضرائب المقررة عليها •

ولم يكن الاقطاع مقصورا على جزء من الارض الزراعية في اقليم معين بل شملت ولايات مختلفة وكان الاقطاع يشمل احيانا ولاية كاملة لفرد واحد فحين استأثر الاتراك بالسلطة بعد المعتصم في القرن الثالث الهجري اصبحوا يقطعون الولايات او المناصب الى أفراد يتعهدون باداء مبلغ من المال الى الخزينة المركزية وهذا مايسمى (بنظام التضمينات) •

وقد استغل نظام الالتزام ابشع استغلال في العصور العباسية المتأخرة حين سيطر الاجانب من ترك وبويهيين فرساً وسلاجقة على مقدرات الخلافة العباسية فأصبح الملتزم يسوم الناس سوء العذاب ليستخرج منهم وليؤدي ماعليه الى بيت المال وليتمتع بما زاد من فائض الاموال •

علما أن الاقطاعات العسكرية التي تمنح للقائد العسكري كبديل للراتب لم تكن تمليكا وانما كانت استغلالا كما أشرنا سابقا بمعنى ان المقطع له حق الاستثمار والارتفاق • وحتى اذا ورث الجندي اباه فانه لا يرث الا حق الاستغلال •

وقد تضمن هذا الاقطاع الحربي معنى الحكم والولاية فبعد ان تسلم معز الدولة البويهي وجنوده الديلم اعمال العراق ولاية واقطاعا اقطع جنده وخاصته جميع مالمتدت اليه يده ولكن المقطعين اهملوا عمارة ما اقطعوا وخربوا الاراضي فكانوا يردوها بعد خرابها ويعتاضوا عنها اراضي جديدة وهكذا • ثم ان الكثير من هؤلاء المقطعين لم يبرحوا اماكن اقامتهم بل عينوا وكلاء عنهم لادارة اقطاعاتهم فكان ان استغل هؤلاء الوكلاء مراكزهم فظلموا الناس وابتزوا المحاصيل وصادروا الاموال •

ويصور البنداري في كتابه (دولة آل سلجوق) الحالة المالية حين سيطر السلاجقة على بغداد قائلا : « الاموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ولايصح منها ارتفاع [ايراد] لاعتلالها ففرقها نظام الملك على الاجناد اقطاعات وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا فتوفرت دواعيهم على عمارتها » كما وان نظام الملك فرق اقطاع الجندي الواحد في بلاد مختلفة ولم يجعله في منطقة واحدة ليكسر من خطره على السلطة المركزية . وكان المقطع يلتزم بمصاريف عسكره ومؤونتهم وتلبية طلب السلطان بالحرب في اية جبهة وفي اي وقت . ومن امثلة الاقطاعات العسكرية في العصر السلجوقي اقطاع السلطان ملكشاه الى محمد بن مسلم القريشي للموصل وحران والرحبة واعمالها وسروج والرقة والخابور . كما اقتسم امراء العائلة السلجوقية العديد من الولايات بينهم على شكل اقطاعات .

لقد انتقل النظام الاقطاعي العسكري الى الدول التي اعقبت السلاجقة العظام كالزنكية والايوبية ودولة المماليك وهي اكبر دولة اقطاعية في تلك الفترة . وهكذا لم يؤخذ برأي ابن المقفع الذي اورده في رسالته للمنصور في صدر الدولة العباسية حين قال « الخراج مفسدة للمقاتلة » .

لقد ظهر نوع آخر من الاراضي في البلاد المفتوحة منذ عهد عمر بن الخطاب الاوهو الصوافي . وقد اشرنا الى ذلك من قبل ولاحظنا بانها كانت تابعة بصورة رئيسية للملوك والنبلاء ورجال الدين الذين قاوموا الجيش العربي الاسلامي ثم هربوا الى جهات اخرى وتركوا اراضيهم . وقد قرر عمر بن الخطاب ضمها الى بيت مال المسلمين فاستصفاها وجعلها لكل المسلمين، ولهذا سميت بهذا الاسم (الصوافي) .

ولكن هذه الاراضي التي لامالك لها والتي اخذتها الدولة لم تبق على حالها وانما اقطعت فيما بعد لاشخاص تعهدوا بزراعتها واستصلاحها ولذلك سميت (القطائع) . وبقدر ما يتعلق الامر بالعراق فان القطائع شملت :

« كل ماكان لكسرى ومرازبنه واهل بيته ممالم يكن في يد أحد ، وكل من فر من ارضه وقتل في المعركة او كل مغيض ماء أو أجمة » .

وقد اعتبرت بمنزلة المال الذي لم يكن لاحد ولذلك فمن حق الامام ان يقطع منها لمن أقطع . اما ضريبتها فمتروكة كذلك الى تقدير الدوله فقد تأخذ منها العشر او الخراج . وقد أخذ الخراج من قطائع كانت تسقى من انهار الخراج واخذ العشر من قطائع تحمل اصحابها مصاريف كثيرة في سبيل استصلاحها وعمارتها وسقيها بحفر الانهار والجداول اليها مثلا من مناطق بعيدة .

وحين اصبح معاوية بن ابي سفيان خليفة استصفى للملوك والنبلاء من الضياع وصيرها خالصة لنفسه واقطعها اهل بيته وخاصته المقربين . فقد كتب معاوية الى عامله على خراج الكوفة وعامله على خراج البصرة ان يستصفيا كل ماكان لكسرى وال كسرى له فكان مقدار مايحمل اليه من صوافية في العراق وتوابعه مبلغ مائة الف الف درهم استخدمها صلات وجوائز اكسب الناس اليه .

وقد اختلف الخلفاء بعد معاوية بن ابي سفيان من موقفهم من الصوافي فالبعض جعلها « موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت مال المسلمين » . أي ان الدولة طبقت على بعض هذه الاراضي نظام التقبل او القبالة بمعنى اعطائها بضمانة شخص مايقوم بتحصيل ضريبتها ودفعها للدولة فتكون الدولة قد انتفعت بالحصول على حقها ويكون المتقبل قد استفاد من الفرق بين مادفعه للدولة وماجباه من الارض الا ان نظام القبالة وماشابهه من انظمة كالضمان والالتزام كانت لها مساوىء عانى منها المزارعون والفلاحون في السواد (العراق) لان المتقبل كما قال ابو يوسف القاضي : « لايبالي بهلاك اهل الخراج بصلاح امره في قبالته ولعله يستفضل بعد مايتقبل فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك الا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وان هذا مما نهى الله عنه ، فقد أمر الله عزوجل ان يؤخذ منهم العفو وليس يحل ان يكلفوا فوق طاقتهم » .

بينما سار خلفاء آخرون سيرة معاوية بن ابي سفيان في اقطاع الاراضي لاقربائهم وخاصتهم فقد تعهد مسلمة بن عبدالملك ان يصرف ثلاثة ملايين درهم لسد البثوق واعمار اراضي في منطقة البطائح بالعراق شرط ان يقطعه الخليفة الوليد بن عبدالملك الاراضي المنخفضة التي يبقى فيها الماء فقبل ذلك الخليفة وحصل مسلمة على اراضي عديدة وعمرها • ويبدو ان اهتمامه بالبطيحة وصرفه المال على اعمارها اعطاه شهرة كبيرة لدى اهالي المنطقة ولهذا الجأ بعض اصحاب الاراضي والضياع ممتلكاتهم اليه احتماء به وتقرباً اليه عندئذ لايجرأ احد على التحرش بأراضيهم •

يبدو مما اوضحناه عن الخراج ان المبدأ الذي سار عليه الخلفاء في العصر الراشدي هو منع المسلمين من شراء الارض الخراجية مهما كان نوعها وقرروا بقاءها وقفا على اجيال الامة جيلا بعد اخر •

وحين جاء الامويون الى الخلافة كانت الاحوال تتغير وتتطور بسرعة ، فدخول سكان البلاد المفتوحة في الاسلام يعني اعفاءهم من الجزية ثم ان استقرار العرب في الامصار والبلاد المفتوحة يعني اقتناءهم الارض وتبديل ضريبتها من خراج الى العشر • وعدا هذا وذاك فالدولة كانت بحاجة الى الاموال لكثرة القلاقل والاضطرابات ولازدياد الانفاق على الخدمات والدواوين والبلاط في مجتمع حضري كمجتمع الشام •

ولعلنا نستطيع ان نضيف عاملا آخرا وهو ان البعض رغم سياسة الدولة الواضحة التي وضعت منذ عهد عمر بن الخطاب ، كان لا يزال ينظر الى البلاد التي فتحت وكأنه فيء او ملك يتصرفون به كما يشاؤون !! ولازالت هناك آراء تتردد بأن « السواد بستان قريش ماشئنا اخذنا منه وماشئنا تركناه » وان «هذه البلاد جميعا فيء أفاءه الله علينا » •

لقد تصرف الامويون اول الامر بارض الصوافي واقطعوها كما ذكرنا قطائع او جعلوها قبالة يجبى ريعها لبيت مال المسلمين . وحين جاء عبدالملك بن مروان الى الخلافة كانت الصوافي قد نفدت او كادت تنفد ، فعمد الى بعض الاراضي الخراجية التي باد اهلها ولم يتركوا عقباً ورفض اهل القرية تحمل ضريبتها فتصرف فيها وحولها الى عشرية . وحين نفدت هذه الاراضي سمح عبدالملك وابناؤه الذين جاءوا من بعده للمسلمين بشراء الارض من اصحابها الذميين . فتحولت هذه الاراضي كذلك من خراجية الى عشرية . فاشترى كثير من المسلمين الاراضي في البلاد المفتوحة . وقد قلل ذلك وارد الدولة بدلا من زيادته . وهكذا تقلصت مساحة ارض الخراج وخاصة في العراق (السواد) وكانت هذه الاراضي ومايجبى منها من ضريبة (خراج) عماد الخزينة الاموية فجوبه الامويون بمشكلة مالية كبيرة وهي العجز المالي .

لقد حاول الحجاج بن يوسف الثقفي معالجة العجز المالي حيث كتب له عمال الخراج بان الخراج قد انكسروان اهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار فاتخذ اجراءين : الاول اعادة فرض الخراج على الاراضي الخراجية مهما كان صاحبها مسلماً ام غير مسلم . والثاني اعادة من هاجر من الموالي او اهل الذمة من قراهم الى اماكنهم حيث امر « من كان له أصل في قرية فليخرج اليها » . ومن الواضح ان اعادة هؤلاء المزارعين والفلاحين الى قراهم كان بهدف اعمار الارض وزراعتها وبالتالي تحصيل خراجها وسد العجز المالي في الدولة .

ولكن يبدو ان الذي حدث ان استمر الدهاقين وعمال الخراج يجبون الجزية ممن اسلم من اهل الذمة (الموالي) في القرى والضياع ووشمهم بوشم خاص في رقابهم او ايديهم يدل على موطنهم لمنعهم من مغادرة ضياعهم . ويظهر من هذا ان الدهاقين وارباب القرى من الفرس كانوا وراء هذه العملية فهم الذين طلبوا من الوالي ان يعيد الفلاحين الى قراهم والافلا خراج ، وهم الذين استحصلوا الجزية من اهل الذمة حتى بعد اسلامهم . وهنا ضجت

الموالي والعرب معه من اهل العراق وتعالت صيحات الفقهاء والعلماء منددة باجراءات الحجاج الثقفي واستغلت المعارضة السياسية بمختلف اشكالها ذلك في سبيل الدعاية ضد الامويين وسياستهم • كما تحزب العديد من الرواة ذوي الميول العباسية وغير العباسية خاصة الشعوبية على بني امية واغفلوا اعمال الاصلاح والبناء والفتوحات والتعريب والثقافة وركزوا على الحالات الشاذة والاوضاع الاستثنائية فاعطوا صورة مشوهة للعصر الاموي • بينما تثبت الادلة التاريخية ان العباسيين الذين استفادوا من الدعاية ضد الامويين وشجعوها في فترة الثورة ، اعتمدوا على النظام المالي الاموي بصورة عامة وامتدح العديد من خلفاء العباسيين اجراءات الامويين المالية وسجلاتهم•

ويختلف المؤرخون في الاسباب التي دعت الدهاقين ونبلاء الفرس الى اتخاذ هذا الموقف فمنهم من عزاه الى محاولتهم مقاومة انتشار الاسلام والعروبة في مقاطعاتهم ومنهم من اشار الى محاولتهم الاحتفاظ بمركزهم السياسي والاجتماعي في قراهم واقاليمهم وان انتشار الاسلام والعروبة واتساع نفوذ الدولة العربية الاسلامية يؤدي الى نهاية نفوذهم • وعزاه آخرون لاسباب مالية ذلك لان انتشار الاسلام سيؤدي حتما الى قلة واردهم من الضرائب (جزية وخراج) وربما الى عجزهم حتى عن اداء مااتفقوا عليه مع الدولة من مبالغ مقررة سنوية ناهيك عما يجمعونه لانفسهم من مبالغ فائضة لاتعرف بها الدولة • ولعلنا نشير هنا الى سبب آخر وهو العنصرية الفارسية المجوسية التي كانت تحاول تخريب الدولة وهدمها باثارة القلاقل والاضطرابات وحث الموالي والعرب على الثورة ضد الحكم القائم • والا فلماذا كل هذا التهريج عن « مشكلة الموالي » في العراق والمشرق ؟ الم يكن هناك موالي في بلادالشام ومصر مثلا ؟!! ولماذا لم تشر هذه الروايات الى انجازات الحجاج الثقفي في عمليات استصلاح الاراضي في البطيحة وحفر الجداول والقنوات واقرار الأمن الذي هو اساس الازدهار الاقتصادي وتعريب السكة (النقود) وتنقيط

الحروف العربية ، وتركز على « مشكلة الموالي » .. انه ديدن الشعوبية منذ ان بدأت في العصر الاموي وحين بدأتاريخ الامة يكتب في العصر العباسي كان لها دورها في التشويه والتركيز على الحالات الشاذة .

ان التاريخ كان للدهاقين والنبلاء والفرس المحليين بالمرصاد فكشف الاعيبهم ، ففي رواية في الطبري ان الدهاقين تعمدوا اخذ الجزية ممن اسلم حيث تقول :

« واخذوا ضريبة الرأس ممن اسلم من الضعفاء » . لقد كان الدهاقين يعفون الارستقراطية والمتنفذين من ابناء مقاطعاتهم من الجزية ويأخذونها من (الضعفاء) أي الفقراء الذين لاحول لهم ولاقوة ولانفوذ من ابناء جلدتهم من الموالي الفرس الذين دخلوا الاسلام حديثاً !! كما ان اصلاحات نصر بن سيار المتأخرة في خراسان كشفت الاعيب الدهاقنة الفرس التخريبية حيث اظهر منصور بن عمر بن ابي الخرقاء المشرف على الجزية والخراج ان ٣٠ الفا من المسلمين لايزالون يدفعون ضريبة الراس (الجزية) وان ٨٠ الفا من المشركين المجوس معفوون منها !! . فهل هنالك زيادة لمستزيد ؟؟

حين جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز كانت الازمة المالية لاتزال على اشدها فأبدى جهدا متميزا وبعد نظر ومرونة سياسية ووفق الى حل يحفظ حقوق بيت المال ويراعي مبادىء الاسلام السمحاء ويرضي فئات المجتمع . اعتبر عمر بن عبدالعزيز الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم وترفع عنه بعد اسلامه . وبالنسبة للخراج فقد اصدر عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ امرا عاما لكل الناس كبيرهم وصغيرهم بان من يشتري ارضاً خراجية في هذه السنة وبعدها فان بيعه مردود . وبهذا منع شراء الارض الخراجية ، وعد الخراج ايجارا للارض سواءا كانت بيد مسلم ام ذمي . و في حالة اسلام الذمي يعفى من الجزية الا ان ارضه تبقى خراجية يدفع عنها الخراج وعليه ان يستمر بزراعتها او يتركها لغيره يزرعها ويؤدي عنها ضريبتها . ولم يتعرض عمر بن عبدالعزيز للصوافي والقطائع

التي اقطعها الخلفاء من قبله وتركها تؤدي العشر ولم يتعرض كذلك لعمليات شراء الارض الخراجية التي صرفت قبل سنة ١٠٠هـ ٠ اما موقفه من الصوافي الجديدة فيدل على اهتمامه بأمر الخزينة فهولم يقطعها اويهبها بل اعطاها بالمزارعة بنسبة النصف ٠ على ان اجراءات عمر بن عبدالعزيز القائمة على اجراءات عمر بن الخطاب والمنسجمة مع تعاليم الاسلام والهادفة الى عدم اثارة القلاقل لم تستمر طويلا بعد وفاته رغم انها نجحت الى درجة كبيرة في القضاء على التذمر من جهة وفي سدحاجة الدولة من جهة اخرى وكانت منسجمة مع الشريعة الاسلامية من جهة ثالثة ٠ وفي رواية تاريخية ان خراج العراق وحده في عهد عمر بن عبدالعزيز بلغ ١٢٠ الف الف درهم وهو اكثر مما جبى في اي وقت مضى!!

على ان بعض الخلفاء الامويين الاكفاء كان الاصلاح رائدهم في الفترة الاموية الاخيرة ومن هؤلاء الخليفة هشام بن عبدالملك الذي اجهد نفسه بضبط سجلات الدولة المالية والادارية وعين مشرفين ماليين لمراقبة الدهاقين والحكام المحليين في امر الجباية ٠ ولذلك ظلت القاعدة الاساسية هو ان الارض وليس المالك تدفع الخراج ولهذا بقيت الارض الخراجية خراجية سواء اسلم اصحابها ام لم يسلموا وسواء كانت بايدي العرب المسلمين أم اهل الذمة ٠

وحين عاد الدهاقنة والامراء المحليون الى جباية الجزية من الموالي امر هشام بن عبدالملك باعفائهم فتذمر الدهاقنة وقالوا « ممن نأخذ الخراج وقد اصبح الناس كلهم عرباً » أي مسلمون !! وهكذا عاد الدهاقنة الى محاولاتهم التخريبية ٠ وكانت اجراءات نصر بن سيار التي اشرنا اليها سابقا تحديدا لحرية الدهاقنة الذين فقدوا نفوذهم وهذا دليل على ضعف فرضية بعض المستشرقين القائلة بان الثورة العباسية كانت ثورة الفرس المظلومين على الحكام العرب ذلك لان اصلاحات نصر بن سيار كانت بجانب الموالي المستضعفين ولم يتذمر منها الا الدهاقنة الفرس والنبلاء المحليون ٠

وحين جاء العباسيون الى الحكم ضربوا على وتر حساس الا وهو سوء

معاملة الادارة الاموية للناس ورفعوا شعارات الاصلاح والقضاء على المظالم المالية ونعتوا الامويين « بأهل الجور » الا ان الخلفاء العباسيين بعد تسلمهم الحكم اعتمدوا على اجراءات الامويين المالية والادارية !! واستندوا في تقديرهم للضرائب على سجلات الامويين ولاسيما سجلات هشام بن عبدالملك،ويروى ان المنصور كان يستشيرها على الدوام .

وبقدر مايتعلق الامر بموضوعنا فان العباسيين وهم يتقدمون الى العراق امروا خالدا بن برمك ان يعمل على تقسيط الخراج على الناس رغبة منهم في كسبهم الى الدولة الجديدة !! وفي العصر العباسي الاول لدينا وثيقتان معاصرتان تعتبران من اهم الوثائق التاريخية فيما يتعلق بالخراج وطرق الجباية وهما رسالة ابن المقفع للمنصور وكتاب الخراج لابي يوسف القاضي الذي الفه بناء على طلب هارون الرشيد . وقد اشار كلا الرجلين الى المشاكل المالية وسلبيات طرق الجباية واقترحا بعض المقترحات والحلول المهمة والمناسبة .

وعني المنصور بتنظيم ديوان الخراج حتى اصبح اهم دواوين الدولةوكان رئيسه في معظم الاحوال الوزير وهو مسؤول مباشرة امام الخليفة . ودونت المعلومات عن الخراج وقيمته في سجلات يرجع اليها عند الحاجة . وكان عمال الخراج لايقبلون الا الجيد المضبوط من العيار كما استحدث كيل جديد للجباية عرف بالقفيز الهاشمي . وقد استمرت ضريبة الارض(الخراج)تؤخذ نقدا وعلى المساحة اي مايسمى (خراج الوظيفة) وقد فكر المنصور باستبداله (بالمقاسمة) الا ان المهدي هو الذي طبق فعليا المقاسمة وتعني مقاسمة الدولة للمزارعين على حاصلاتهم وفق نسب معينة . فالنصف على ماسقي سيحاً والثلث على ماسقي بالدلاء والربع على ماسقي بالآلات الاخرى ،او الخمس في بعض الحالات الخاصة مثل البعد والقرب من الاسواق . ولم يطبق المهدي هذه النسب في كل الظروف فحين حفر نهر الصلة اغرى الفلاحين بالاستيطان

بان اشترط لهم المقاسمة على الخمسين لمدة خمسين سنة • كما رفع نفس الخليفة في اواخر ايامه نسبة المقاسمة الى ٦٠٪ في بعض الحالات لكثرة مصروفات الدولة وعجز بيت المال • ويبدو ان المقاسمة طبقت على بعض الغلات دون غيرها ولهذا كانت الدولة تتبع في جباية الخراج نظامين : خراج الوظيفة على المساحة ونظام المقاسمة •

وقد اتبعت الدولة اجراءات اصلاحية عديدة فكان المنصور يامر بتأجيل الخراج شرط ان يكون قد اصاب المحصول تلف او خراب ، أو تقسيط الخراج على الفلاحين ، او الامر بالكف عن الحاق الاذى بالفلاحين من قبل عمال الخراج او الدهاقين اثناء الجباية او النهي عن تحصيل المتأخرات واعفاء المزارعين احيانا منها •

واهتم الرشيد باصلاح نظام الجباية وخفف من وطأة الخراج فألغى العشر الذي كان يجبى من ارض العراق اضافة الى نسبة النصف المقررة بالمقاسمة• ثم عدلت بنسبة المقاسمة الى الخمسين على الارض السيحية وثلاثة اعشار على الارض التي تروى بالدلاء والثلث على النخيل والكروم • اما غلة الصيف فكان الرشيد يأخذ الربع منها لانها تسقى بالدواليب • ويقول ابو يوسف « وانما اراد الرشيد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم » •

واصبحت الدولة تتكفل بنفقات كري الانهار وحفرها باستثناء ارض السواد فان المزراعين كانوا يشاركون الدولة في النفقات لكري انهارهم نظرا لخصوبة المنطقة وثرائها •

وبسبب اثار الحرب الاهلية بين الامين والمأمون نقص دخل الدولة نحو ١٠٠ مليون درهم ولكن ماكاد الامر يستقيم للمأمون حتى بادر الى تطبيق مقترحات ابي يوسف القاضي وولى على جباية خراج السواد (العراق) القاسم ابن ابراهيم (أخا ابي يوسف القاضي) وامر بتخفيض ريع الخراج

(المقاسمة) في السواد كما فعل ذلك في اقاليم اخرى • وكان يحاسب عمال الخراج محاسبة دقيقة •

لقد سار العديد من خلفاء بني العباس على هذه السياسة المرنة في تحصيل الخراج ولسنا هنا بصدد احصاء او حصر هذه السياسا تولكننا نضرب بعض الامثلة • ففي رواية تاريخية ان المهدي قسط الخراج في عهده والغى ضريبة الشجر • وأمر المتوكل العباسي بتأخير استحصال الخراج عن موعده المعتاد وهو موسم النيروز الى حزيران بسبب مايلحق من ضرر بالفلاحين لعدم حصاد الغلة او نضجها • وفعل الخليفة المعتضد الشيء نفسه حين أمر بتأخير استحصال الخراج من النيروز الاعجمي الى حزيران وسماه النيروز المعتضدي•وامر المكتفي بضرب احد عمال خراجه ألف سوط على باب المسجد حين سمع عن تعسفه مع احدهم وحرقه باب داره لتأخره عن دفع الضريبة • وفي عهد المقتدر كتب الوزير علي بن عيسى الى عماله بعدم التعسف مع الفلاحين وانصافهم وتقدير ظروفهم واستيفاء الخراج منغير محاباة للاقوياء ولاحيف على الضعفاء !!

٦ ـ ضرائب اخرى :

لما تضخمت حاجات الدولة ومصروفاتها وكثرت مطالبها ونفقاتها وضعفت ايراداتها باتتشار الاسلام وظهور نظام القطائع والالتزام ظهرت ضرائب جديدة فرضت على منتوجات عديدة وخدمات متنوعة •

فقد اعاد الامويون هدايا النيروز والمهرجان وهي ضرائب ساسانية قديمة ألغاها عمر بن الخطاب • فقد طلب معاوية بن ابي سفيان من اهل السواد (العراق) ان يهدوا له في هذه الاعياد فبلغت هداياهم عشرة ملايين درهم سنوياً •

وقد فرض بعض الولاةالامويين ضريبةواحدة على الارض القابلة للزراعة

زرعت أم لم تزرع كما فرضت رسوم تقليدية موروثة من العصر الساساني مضافة الى الخراج على الفلاحين • وفرضت ضرائب على الصناعات والحرف ولم تكن هذه الضرائب محددة بل تعتمد على تقدير الوالي • وفي رواية تاريخية تشير الى الغاء عمر بن عبدالعزيز للضرائب الاضافية حيث ترد انواعها بصورة واضحة • يقول عمربن عبدالعزيز لعامله :

« وامرتك ان لاتحمل خراباً على عامر ولاعامراً على خراب ، ولاتأخذ من من الخراب الاما يطيق ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لاهل الارض وامرتك ان لا تأخذ في الخراج الا وزن سبعة ليس لها اس ولا اجور الضرابين ولا اذابة الفضة ولاهدية النيروز والمهرجان ولاثمن الصحف ولااجور البيوت ولا دراهم النكاح » •

ويظهر من هذا النص ان الامويين قبل عمر بن عبدالعزيز فرضوا ضرائب اضافية على الوجه التالي :

١ ــ ضريبة موحدة على الارض المزروعة وغير المزروعة ، والزيادة في نسبة الخراج والجزية عن المقرر •

٢ ــ الزام الناس بدفع الضريبة بعملات ذات وزن معين وليس بالعملات المتوفرة لديهم •

٣ ــ فرض رسوم على الناس تعطى للعمال العاملين بدور الضرب (السكة)

٤ ــ هدايا النيروز والمهرجان •

٥ ــ تحصيل ثمن الورق المستخدم في الطلبات الرسمية من الناس •

٦ ــ فرض ضريبة على الزواج •

وقد ظهرت في العصر العباسي ضرائب جديدة منها ضريبة الاسواق التي وضعت على الحوانيت في عهد المهدي باشارة من وزيره ابي عبيدألله سنة ١٦٧هـ

وكان واردها يدر سنوياً ١٢مليون درهم في بغداد . وضريبة الاحداث وهي الغرامات التي تفرض على اصحاب الجنايات . وقد امر المهدي عامله على خراج البصرة ان يضم اليه جباية ضريبة الاحداث .

وانشئت المراصد في الموانىء لجباية ضريبة التجار او ماتسمى ضريبة السفن الراسية في الميناء . وهناك ضرائب مرور على التجارة الداخلية في مراكز خاصة نهرية او برية . وهناك خمس سيب البحر من لؤلؤ وعنبر وغيرهما وما يستخرج من باطن الارض ، وضريبة المواريث حيث تجبي الدولة نسبة معينة من الورثة على مايرثونه .

وفرضت ضرائب على المراعي وعلى المنسوجات وعلى الطواحين وعلى الماشية ، وعلى الموتى . وضرائب على الصادرات التي تعبر حدود دار الاسلام الى دار الحرب .

ولعل اهم مايلاحظ على الضرائب في العصور العباسية المتأخرة حيث سيطرت العناصر الاجنبية من تركية وبويهية على مقدرات الخلافة العباسية بالعراق هو الزيادة في الضرائب التقليدية وسعي هؤلاء الامراء الاجانب المتغلبين لاحداث ضرائب جديدة . فضريبة الخراج بلغت النصف وشاع نظام الضمان والالتزام او الاقطاع وتدهورت الزراعة . وكثرت الضرائب الاقليمية بسبب التجزئة السياسية بعد ظهور الامارات في المشرق والمغرب حيث ادى ذلك الى عرقلة حرية انتقال الافراد والبضائع بين اقليم وآخر.

بل ان من نتائج فترة التسلط الاجنبي على الخلافة العباسية استعمال ظاهرة (المصادرات) واتخاذنا سياسة عامة للدولة حيث تصادر الدولة اموال الوزراء ورؤساء الدواوين بعد اقالتهم ، وقد زادت المصادرات الى درجة اعتبرت روتيناً تقليديا متعارفا عليه وغدا بشكل مصدرا مالياً مهما للخزينة المركزية . واذا كان لسياسة المصادرات مايبررها احيانا في حالات معينة فقد

اسيء استعمالها من قبل الامراء وبعض الخلفاء فاصبحت دوافعها لسـد العجز المالي او للانتقام الشخصي •

وقد ظهرت في هذه الفترة المتأخرة ضرائب اخرى لم تكن معروفة مثل ضريبة الاعشار على القبائل العربية الساكنة في غربي العراق • وضريبة اخرى على الصاغة سميت ضريبة الذهب • وضريبة على الاشجار العامرة في البساتين والحقول • وكانت الضريبة التي استحصلت من الباعة في سوق الماشـية والسمك والمدبغة والحوانيت قد بلغت في عهد الناصر لدين الله سنة٦٠٤هـ مامقداره ٢٠٠الف دينار •

نفقات الدولة ومصروفاتها

ان الطريقة التي سارت عليها الدولة العربية الاسلامية كانت تسمح لكل وال بتقدير نفقاته والصرف عليها من ايرادات الولاية ثم يرسل الفائض الى بيت مال المسلمين في العاصمة •وبما ان العراق كان ولاية تابعة للمدينـة في العصر الراشدي ولدمشق في العصر الاموي ولبغداد في العصر العباسي ، فان سياسة الخلافة المركزية فيما يتعلق بالنفقات ووجوه صرفها كانت على العموم تطبق في العراق كما تطبق في اقاليم الخلافة الاخرى •

ولعل اهم المجالات التي تنفق عليها الدولة هي :

١ ـ العطاء وهو اعطاء الدولة للمقاتلةنسبة معينة من المال نقدا وعينالقاء خدمتهم في الجيش واستعدادهم الدائم لاسناد الدولة وعقيدتها الاسلام •وكان المال يرد في صدر الدولة العربية الاسلامية من الغنيمة ومن جبايات الاقاليم •

لقد درت حركات التحرير والفتح الاسلامية بالمال الوفير على بيت المال في المدينة • وحين فكر الخليفة عمر بن الخطاب بتحديد العطاء للناس دون الديوان الذي كان ديواناً للمقاتلة •وامر عمر رجالا من اعلم الناس بالانساب

«ان يكتبوا الناس على منازلهم» ليكون التفاضل في العطاء قائماً على اساس القرابة من الرسول (ص) اولا وعلى اساس السابقة في الاسلام ثانياً .

وكان الخليفة ابوبكر الصديق (رض) قد ساوى بين الناس في العطاء الا ان عمر كان له رأي اخر عبر عنه بقوله : « لااجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه » وخطب في الناس وقال :

« ... ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله فالرجل وتلاده في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناه في الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام »

وبدأ ببني هاشم ثم بقريش ثم بالانصار ثم بأهل السابقة في الاسلام من غير هؤلاء . ولم يفرق عمر بين العرب ومواليهم وكتب الى قادته في جبهات الفتوحات :

«من أعتقتم من الحمراء (الموالي) فأسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم وان احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوة في العطاء »

وقد انتظم العرب المسلمون في الامصار على اساس العشائر او القبائل وكانت العشائر المتقاربة في النسب تجمع ضمن وحدات كبرى . وبذلك جعلت البصرة اخماسا اي خمس قبائل كبيرة والكوفة ارباعا اي اربع قبائل رئيسية وهكذا . وكان على كل عشيرة عريف مسؤول عن الامن ومعه سجل باسماء افراد العشيرة ومواليها ومقدار عطاء كل فرد وهو الذي يوزع العطاء نقديا ام عينيا ذلك لان عمر بن الخطاب كان قد فرض لكل شخص رجلا كان ام امراة جريبين من الطعام شهريا وهذا هو العطاء العيني او (الرزق).

وكان العطاء يدفع سنويا وقد جعله عمر بن الخطاب في الحجاز على اساس السابقة في الاسلام فأعطى بني هاشم حفاظا على منزلتها وقرابتها من

رسول الله ثم كافأ بقية المسلمين على قدر دورهم وجهادهم في الدولة . فمن اسلم قبل بدر من المهاجرين والانصار ومواليهم كان عطاؤهم اكثر ممن اسلم بعد بدر وهذا يأخذ عطاء اكثر ممن اسلم بعد الحديبية .

الا ان القاعدة المتبعة في الحجاز لم يكن من الممكن تطبيقها في الامصار فاتخذ عمر بن الخطاب اسسا جديدة :

« ففرض لمن شهد الفتح وقاتل عن ابي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية ثلاثة الاف ثم فرض لأهل القادسية واهل الشام الفين الفين وفرض لاهل البلاء منهم الفين وخمسمائة وفرض لمن بعد القادسية واليرموك الفا . ثم فرض للروادف الثنى خمسمائة خمسمائة وللروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة . وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم . وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين وفرض لمن بعدهم على مائتين » .

وكانت هذه هي الاسس التي اتبعت في تنظيم العطاء في العراق . وقد جعل عمربن الخطاب للنساء مائتين وللاطفال اولولادتهم مائة درهم وحين دخل الاساورة (الفرسانالعجم) الاسلام امر عمر واليه علىالبصرة (أبا موسى الاشعري) ان يلحقهم على قدر البلاء في افضل العطاء واكثر شيء اخذه احد من العرب ففرض لمائة فارس منهم في الفين ولستة فرسان في الفين وخمسمائة!!

ولما كانت الامة كلها مقاتلة فلم يكن في صدر الاسلام كبير فرق بين المقاتلة والمسلمين لان المسلمين كلهم كانوا جنداً للدولة يلبون نداءها للنفير. ولكن بدأ الافتراق بين المقاتلة وجماعة المسلمين ينمو تدريجيا حتى بدا واضحا في العصر الاموي حين زاد عدد من اسلم من غير العرب وتباطأت حركة الفتوحات واستقر العرب في الامصار والاقاليم واشتغلوا بالزراعة والتجارة والحرف وفضلوها على مهنة الجندية . كما انه لم يكن من الممكن عمليا فتح

باب العطاء واطلاقه لكل عربي ومسلم في المجتمع الاسلامي ويبدو ان اصل العطاء قد تحدد وتوقف في العصر الاموي ثم العباسي على المقاتلة المستعدين للقتال بالدرجة الاولى وان كان يضاف اليه بين اونة واخرى عدداً جديدا ممن لم يكونوا يأخذونه .وربما كان يصار الى تدوين قوائم جديدة بأهل العطاء الجدد من الوافدين الى الامصار او الاقاليم ، على ان ذلك لم يكن يشمل كل القبائل مماسبب تذمراً احياناً .

ويبدو ان الحد الاعلى للعطاء في العصر الاموي هو ألفان وخمسمائة ويسمى (شرف العطاء) وكان يعطى لذوى الخبرة والتجربة من المتقدمين في السن ولمن يبدي شجاعة في القتال . وكان عدد من في شرف العطاء يبلغ حوالي عشر المقاتلة في كل مصر . اما الحد الادنى للعطاء فهو مائتا درهم ، وبين هذين الحدين اصناف اخرى عديدة الا ان شرف العطاء لم يثبت على مقدار محدد بل كانت نسبته تنخفض او ترتفع حسب الظروف .

وقد استخدم العطاء في العصرين الاموي والعباسي وسيلة سياسية لصالح الدولة فقد زيدت معطيات اهل الكوفة في عهد معاوية بن ابي سفيان في محاولة لكسبهم للدولة.ومنع اهل العطاء اعطياتهم تهديدا او تحذيراً لهم وزاد مصعب ابن الزبير اهل العراق اعطياتهم مائة مائة . ووعد عبدالملك بن مروان اهل العراق بزيادة عطائهم خلال ثورة عبدالرحمن بن الاشعث . وزاد ابو العباس السفاح العطاء في اول عهده بالخلافة ولكن المنصور عاد فانقصه خلال عهده .

ومن الطبيعي أن العطاء كان يصرفه المقاتل في تجهيز نفسه بالسلاح والعدة للقتال . كما يصرف منه على عياله ومؤونتهم ومرافقهم ، وفي رواية تاريخية كان لا يقبل من رجل له مائة دينار الافرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل كعدة للقتال . الاانه كان يجوز ان يرسل الرجل مكانه بديلا الى الثغر او البعوث ، وغالباً مايكون هذا البديل من مواليه كما وانه لابد ان يعطيه اجرا معينا مقابل اشتراكه بدله في القتال .

٢ ـ رواتب الموظفين : كانت الدولة العربية ـ الاسلامية وخاصة في العصرين الإموي والعباسي تضم كادرا ضخما من موظفي الادارة والدواوين والكتاب والقضاة وشيوخ المدارس وعلمائها وغير ذلك من الموظفين . ورغم انه لم تردنا معلومات مفصلة عن كل اصناف الموظفين الا انه لابد وان رواتبهم كانت تشكل نفقات لاباس بها من خزينة الدولة .

٣ ـ وكانت الزكاة والصدقات تجبى من قبل الدولة ومن ثم تصرف في وجوهها المتفق عليها شرعا رغم ان صرف الزكاة والصدقات غدت امورا شخصية تخص الفرد ولا دخل للحكومة فيها خاصة في العصور العباسية الاخيرة .

٤ ـ وكان من واجبات الدولة نشر الاسلام واللغة العربية لغة القرآن الكريم ولذلك كان الخليفة ينفق في سبيل هذا نسبة من واردات الدولة لبناء المساجد وترميمها وبناء الربط وبناء المدارس والكتاتيب لتعليم القرآن ونشر الاسلام .

٥ ـ وكانت الدولة تخصص مالا وفيرا لمشاريع الري وحفر القنوات والجداول واستصلاح الاراضي .

٦ ـ الخدمات العامة : وقد اهتمت الدولة بالخدمات التي توفر الراحة للناس ومنها بناء الخانات للمسافرين والاهتمام بنظافة المدن . فقد اشترى زياد بن ابيه والي العراق عبيداً ووكل بهم امر تنظيف الطرق من الاوساخ واهتمت الدولة بالمرضى المزمنين وبالايتام ووكلت بهم من يدبر امورهم وقد شمل ذلك اهل الذمة ممن كبرت سنه وغدا عاجزاً عن العمل أو تدبير أمر معاشه . وكانت الدولة تنفق على عملية سك النقود وسحب النقود القديمة او التي استهلكت بسبب التداول واوكلت ذلك الى موظفين وعمال في دور الضرب تمنحهم رواتب معينة .

٧ ـ وكانت الدولة تنفق نسبة كبيرة من وارداتها على اجراءات توطيد الامن والاستقرار الداخلي وهذا يتطلب الكثير من اساليب الاغراء والكسب والوعد والوعيد وبث العيون والارصاد للتحري على تحركات اهل الشغب والمصطادين في الماء العكر .

اما بالنسبة للامن الخارجي فكانت الدولة تنفق باستمرار على عمليات تحصين الثغور والعواصم على حدود الدولة الشرقية والشمالية . وكذلك على بناء اسوار للمدن وترميمها . كما باتت الدولة تجهز جيشا بعدد جديدة متطورة كالدبابة والمنجنيق ورأس الكبش وماتتطلبه الاسلحة الجديدة من البسة وعدة بالنسبة للمقاتل .

كما اهتمت الدولة بالقوة البحرية وبناء الاساطيل في دور صناعة السفن وخاصة على السواحل البحرية في الخليج والبحر المتوسط . وقد تطلب كل ذلك نفقات باهضة .

٨ ـ كما كانت للدولة مصانع وصناعات تتعلق بالخدمات والمصالح العامة مثل المنسوجات والورق (الكاغد) وغيرها تنفق عليها الدولة مباشرة .

ولعل من نافلة القول بان الحرب التي خاضتها الدولة العربية الاسلامية ضد البيزنطيين والاتراك الشرقيين خاصة بعد توقف الفتوحات في العصر العباسي ، وكذلك الحركات الاضطرابات الداخلية كانت مصدرا كبيراً لزيادة النفقات والمصروفات .

بيت المال

وهو الخزينة المركزية في العاصمة حيث كانت واردات الاقاليم تجمع ، في العادة، في دواوين الخراج المحلية وبعد ان ينفق الوالي مايلزم للادارة المحلية والمصالح والخدمات يرسل الباقي الى بيت المال المركزي لان الواردات كما لاحظنا تعتبر ملكا مشتركا للمسلمين تصرف في مصالحهم ولذلك سمي بيت

المال في العاصمة « بيت مال المسلمين » • وبمرور الزمن تميز بيت المال المركزي عن « بيت المال الخاص» وهو بيت مال الخليفة الذي له موارده الخاصة به من املاك الخليفة ومما يرثه الخلفاء من ابائهم واقربائهم ومن الهدايا المقدمة وكانت هدايا ثمينة احياناً وكذلك من اموال المصادرات •

ومن الطبيعي ان تتفرع من بيت المال دواوين اخرى عديدة كل واحد منها يختص بصنف او اكثر من الواردات او النفقات و لذلك اعتبر بيت المال «أصل الدواوين ومرجعها اليه» وكان من اهم واجبات صاحب بيت المال الاشراف « على مايرد بيت المال من الاموال ومايخرج من ذلك من وجوه النفقات والاطلاقات ويجب ان تمر بـه الكتب التي فيها حمل مال قبل انتهائها الـى دواوينها لتثبت فيه وكذلك سائر الكتب النافذة الى صاحب بيت المال وجميع الدواوين المطالبة بالاموال •• » • على ان ليس من اختصاص هذا البحث ان يتكلم عن الدواوين وواجباتها فلهذا موضع اخر في فصل اخر •

ولابد لنا ، ونحن نتكلم عن النظام المالي ، ان نشير الى النظام النقدي او نظام العملة في الدولة العربية الاسلامية • فقد أبقى العرب المسلمون على العملة القديمة في التداول وهي العملة الساسانية الفارسية في العراق والمشرق والعملة البيزنطية في الشام ومصر والمغرب •كما كان هناك فئات قليلة من العملة اليمنية القديمة • على ان هناك روايات تاريخية تشير الى ان الخليفة عمر بن الخطاب نقش على هذه العملة بعض الشارات الاسلامية او كلمات اسلامية او كلمة « جائز » للدلالة على قبولها للتداول في الدولة •

وقد ضرب بعض الخلفاء والامراء بعد عمر بن الخطاب دراهم ودنانير قليلة ولكنها لم تنتشر في التداول بين الناس حيث ظلت المعاملات بالنقود الساسانية والبيزنطية •

ويعتبر عبدالملك بن مروان اول خليفة اوجد النقد العربي رسميا وعلى

نطاق واسع وذلك من خلال ادراكه العميق لقيمة النقود بالنسبة لنشاطات الناس وتعاملهم .كماوان النقد يعتبر دليلا على سيادة الدولة واستقلالها الاقتصادي ولايمكن للدولة العربية الاسلامية ان تظل معتمدة على نقود اجنبيه يمكن ان تنقطع بانقطاع التجارة او بنشوب الحرب . كما وان بعض النقود غدت (ستوقاً) اي مغشوشة او (زيوفاً) اي مخلوطا بالنحاس او غيره فانعدمت او قلت جودته ، وبعض النقود قطعت اي انكسرت او سافت من الاحتكاك والتداول ثم ان الدرهم الفارسي تدنى وقلت قيمته الى درجة ملحوظة مما سبب فوضى في عملية جمع الجزية والخراج والضرائب الاخرى بالعراق والمشرق.واخيرا وليس آخرا فان توحيد العملة في سائر ارجاء الدولة يعتبر بحد ذاته عاملا مهما بالنسبة للمعاملات المالية الداخلية والخارجية .

وبعد ان ضرب عبدالملك بن مروان السكة بدمشق امر الحجاج بن يوسف الثقفي ان يضرب الدراهم بالعراق . وامر الحجاج امراء الاقاليم بضرب الدراهم وسحب النقود القديمة بصورة تدريجية .واستمر الحال كذلك حتى خلافه هشام بن عبدالملك الذي امر واليه على العراق خالد القسري ان يضرب السكة في واسط فقط دون غيرها من الامصار .

كما كان الحجاج بن يوسف الثقفي اول من قرر اوزان النقود بصورة رسمية في العراق فكانت على وزن الف ثم خمسمائة الى وزن ربع قيراط وجعلها حديدا . وقد تشدد ولاة العراق في امر الوزن وكانوا يشرفون عليه بانفسهم . وفي الدور العباسي كان الخليفة بنفسه يشرف على اوزان ومعايير السكة ويتشدد فيها . وقد اعطى هارون الرشيد هذا الامتياز الى البرامكة فترة من الزمن . ومن اجود نقود الامويين الدراهم الهبيرية والخالدية واليوسفية (نسبة الى عمر بن هبيرة وخالد القسري ويوسف بن عمر وهم ولاة العراق في اواخر العصر الاموي على التوالي) وكان العباسيون لايقبلون في الخراج من الدراهم غيرها .

كان النظام النقدي في الدولة العربية الاسلامية ثنائيا يعتمد على الدينار الذهبي والدرهم الفضي وكان التعامل في العراق والمشرق بالدرهم بينما كان التعامل في الشام ومصر والمغرب بالدينار • وكانت غالبية هذه النقود تحمل التاريخ الهجري عليها وهي بهذا تختلف عن النقود السابقة الساسانية والبيزنطية التي تحمل تاريخ تسلم الملك او الشاهنشاه للحكم وليس تاريخ الضرب •

وعدا الدينار والدرهم هناك عملات اصغر هي اجزاء من الدينار او الدرهم مثل القطع والدانق والمثقال والفلس • وهذه الاخيرة قطعة نقدية من نحاس مخلوط بفضة •

ان سك العملة الاسلامية من قبل الدولة وبصورة رسمية وتداولها من قبل الناس في انشطتهم المختلفة ساعد الى درجة كبيرة على انعاش الاقتصاد ، وبصورة خاصة الحركة التجارية وظهور الصيرفة اونظام البنوك ومايرتبط به من عمولات وصكوك وسفاتج وغيرها وقد سهل هذا النظام العمليات التجارية الكبيرة بين الاقاليم وكذلك التجارة الخارجية فكان التاجر يكتب صكا مثلا من بغداد الى تاجر آخر في البصرة او دمشق ويستطيع حامل الصك ان يقبض المبلغ من هناك دون حاجة الى حمل المال بنفسه اثناء السفر حيث قد يتعرض الى المخاطر •

مختارات من المصادر والمراجع الحديثة

المصادر :

الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم،القاهرة
ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ
ابن خلدون ـ تاريخ ، بيروت ١٩٧١م
ابن عبدربه ـ العقد الفريد ، طبعة ١٩٤٩ ـ ١٩٦٨م
ابو عبيد ـ الاموال ، تحقيق محمد خالد الفقي ، القاهرة
ابو يوسف ـ الخراج ، القاهرة ١٣٤٦هـ
البلاذري ـ فتوح البلدان ، طبعة مصر
انساب الاشراف جا القاهرة ، ق١ج٤ القدس ١٩٧١م
انساب الاشراف القدس ١٩٣٦م
قدامة بن جعفر ـ الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ١٣٠٦ هـ
الماوردي ـ الاحكام السلطانية ، مصر ١٩٧٣م
يحيى بن ادم ـ كتاب الخراج ، ليدن ١٨٩٥م
اليعقوبي ـ تاريخ ، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م

المراجع الحديثة :

الدوري ـ النظم الاسلامية ، بغداد ١٩٥٠،
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ١٩٦٩
العلي ، صالح ـ العطاء في الحجاز ، مجلة المجمع العلمي العراقي١٩٧٠م
متز ادم ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (مترجم) ١٩٥٧م

معروف . ناجي ـ اصالة الحضارة العربيه . بغداد ١٩٦٩
دنيت . دانيال ـ الجزية والاسلام ، بيروت ١٩٦٠. (مترجم)
سعدان . محمد عبدالحي ـ التاريخ الاسلامي حزءان . بيروت (مترجم)
ماجد . عبدالمنعم ـ تاريخ الحضارة الاسلاميه القاهره ١٩٦٢
خماس . نجدة ـ الادارة في العصر الاموى دمشق ١٩٨٠.
الريس . محمد ضياءالدين ـ الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية
مصر ١٩٦٩
النقشبندي . ناصر ـ الدرهم الاسلامي . المجمع العلمي العراقي. ١٩٦٩
فلهاوزن ـ تاريخ الدوله العربية وسقوطها (مترجم)
جب.هاملتون ـ دراسات في حضارة الاسلام (مترجم) بيروت
بارتولد ـ تاريخ الحضارة الاسلامية (مترجم) مصر
عمر . فاروق ـ النظم الاسلامية . الشارقة . ١٩٨٣
العباسيون الاوائل . ثلاثه اجزاء بيروت ـ دمشق ـ عمان .

المحتــوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٤٩٣) سنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة ــ بغداد
١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٥ م

